رواية

جودي بيكولت

مُنقذة أختي

ترجمة: أسامة منزلجي

مكتبة ١٢٦٨

حينها تكون مع الشخص المناسب

حينها ستضيء

وكثيرا ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقا

تتهارب فيها معاني البكاء

الرافعي.

الأخوات الثلاثة .. أحلى الحلوات

مُنقذة أختي

مكتبة | 1268

رواية

Author: **Jodi Picoult**	اسم المؤلف: جودي بيكولت
Title: **My Sister's Keeper**	عنوان الكتاب: مُنقذة أختي
Translated by: **Osama Menzlchi**	ترجمة: أسامة منزلجي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2004 by Jodi Picoult

All Rights Reserved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

20 7 23

مكتبة
t.me/soramnqraa

جودي بيكولت

مكتبة | 1268

مُنقذة أختي

ترجمة : أسامة منزلجي

إهداء المؤلِّفة

إلى عائلة كران:

أفضل عائلة ارتبطنا بأفرادها عمليّاً.

شكراً لأنكم شكّلتم جزءاً كبيراً من حياتنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

امتنان

بوصفي أمّاً لطفل أُجريَتْ له عشر عمليّات جراحيّة خلال ثلاث سنوات، أودّ أنْ أوجّه شكري أولاً إلى الأطباء والممرضات الذين يتحمّلون بانتظام أصعب اللحظات التي يمكن لعائلة أنْ تمرّ بها ويُخفّفوا الآلام: إلى الدكتور رولاند إفري وهيئة ممرضيّ قسم الأطفال في ماس. شكراً لكِ يا مستشفى العين والأُذُن على النهاية السعيدة الواقعيّة. وفي سياق تأليفي لرواية «مُنقِذَة أختي» تذكّرتُ، كما يحدث معي دائماً، قِلّة معرفتي، ومدى اتّكالي على خبرة الآخرين وذكائهم، وعلى السماح لي بالاستعارة من حياتهم الشخصيّة والمِهنيّة، أو على مقترحات للكتابة العبقريّة الصِّرف: شكراً لكم، جنيفر ستبرنك، وشيري فيتزشة، وجيانكارلو تشيكيتي، وغريغ كاتشيجيان، والدكتور فينسنت غواريرا، والدكتور ريتشارد ستون، والدكتور فريد بولاد، والدكتور إريك ترمان، والدكتور جيمس أوملاس، وويات فوكس، وأرندريا غرين والدكتور مايكل غولدْمان، ولوري تومسون، وسينثيا فولنزبي، وروبن كول وميري آنْ ماكيني، وهارييت سان لوران، وأبريل موردوك، وأدريان كران، وجين بيكولت، وجو -آنْ مابسون. لجعلي «جامع القمامة» في النوبة الليليّة، وجزءاً من فريق مكافحة الحريق الأصلي: مايكل كلارك، وديف هاوتينيمي، وريتشارد «بوكي» لو، وجيم بيلانجر (الذي نال أيضاً نجمة ذهبيّة لتقصّيه أخطائي). وشكراً للذين قدّموا لي دعماً هائلاً، شكراً لكارولين رايدي، وجوديث كر، وكاميل ماكدافي، ولورا ملن، وسارة برانام، وكارين مندر، وشانون مكينا، وبابلو بيبه، وسيل بيلانجر، وآنْ هاريس، وقِوى مبيعات أتريا التي لا تُقهَر. وعلى الإيمان بي أولاً، وامتناني الصافي للورا غروس. شكراً على الإرشاد الواضح والحريّة على الانطلاق، وامتناني

الصادق لعائلة بستلر. لسكوت وأماندا ماكليلان، وديف كرانمير- الذي زوّدني ببصيرة لمعرفة مزايا ومآسي العيش يومياً مع مرضٍ يُهدِّد الحياة - شكراً لك على كرمك، وأقدّم لك أفضل تمنياتي بمستقبلٍ طويل وصحّيّ.

وشكري، دائماً، لكايل، وجيك، وسامي وخاصّة لتوم، لكونه الأهمّ.

تمهيد

لا أحد يُشعِلُ حرباً -أو بالأحرى، لا أحد عاقل يجب أنْ يفعل ذلك- قبل أنْ يكون جليّاً في عقله ما ينوي أنْ يُنجِز بتلك الحرب وكيف سيديرها.

كارل فون كلاوسفيتز[1]، من «*فن الحرب*»

1- كارل فون كلاوسفيتز (1780-1831): جنرال ومؤرخ حربي بروسيّ، أشهر كتبه «فن الحرب». المترجم.

من ذكرياتي الأولى، أنني كنت في الثالثة من العمر وكنتُ أحاول أنْ أقتل أختي. أحياناً تكون الذكرى شديدة الوضوح إلى درجة أنني أتذكّر درزة كيس الوسادة من تحت يدي، والطرف المُدبَّب لأنفها وهو يضغط على راحة يدي. طبعاً لم يكن بوسعها أنْ تقاومني، ومع ذلك لم تنجح المُحاولة. ومرَّ والدي من أمامنا، في أثناء تفقّده المنزل في الليل، وأنقذها. وأعادني إلى سريري. قال لي، «كأنَّ هذا لم يحدث».

مع تقدّمنا في العمر، شعرتُ كأنني لم أعد موجودة، إلّا عبر صِلتي بها. كنتُ أراقبها وهي نائمة في الطرف المقابل من الغرفة، يفصل بين سريرينا ظلٌّ طويل، وأُحصي أساليب القتل. السُّمّ، برشّهِ على طبق الحبوب. وموجة خبيثة على الشاطئ. برقٌ صاعق.

ولكن في النهاية، لم أقتل أختي. لقد ماتت من تلقاء ذاتها.

أو على الأقلّ هذا ما أقول لنفسي.

الاثنين

أخي، أنا نارٌ
تضطرم تحت سطح المحيط
لن أقابلك، يا أخي -
على مدى سنين، على أي حال؛
وربما لآلافِ من السنين، يا أخي.
ثم سوف أُدفئك،
أضمّكَ إليّ بقوة، وأُدثّرك بدوائر،
وأستخدمك وأُغيِّرك -
وربما لآلاف السنين، يا أخي.

كارل ساندبرغ، من قصيدة «أقرب الأقرباء».

آنّا[1]

وأنا صغيرة، كان أعظم الألغاز بالنسبة إليّ ليس *كيف* يُصنَع الأطفال، بل *لماذا*. كنتُ أفهم تقنيات العمليّة -التي أملاها عليّ أخي الأكبر جسّ- على الرغم من أنني في ذلك الوقت كنتُ متيقّنة من أنّه سمع نصفها بصورة خاطئة. كان الأطفال الآخرون الذين في مثل سني ينهمكون في التفتيش عن معاني كلمتي **قضيب** و**فرج** في قاموس غرفة الدرس بينما المُعلِّمة تدير ظهرها لنا، لكنني كنتُ أولي انتباهي لتفاصيل متعدِّدة. على غرار لماذا لا تنجب بعض الأمهات أكثر من طفل، في حين يبدو أنَّ عائلات أخرى يتضاعف عددها بسرعة كبيرة. أو كيف أخبرت الفتاة الوافدة الجديدة إلى المدرسة، سيدونا، كل مَنْ لديه استعداد للإصغاء أنها سُمّيَتْ على اسم المكان[2] الذي كان والداها يقضيان العطلة فيه عندما كانا يعملان على إنجابها. (كان والدي يقول: «*الحمد لله أنهما لم يكونا يُقيمان في جيرزي سيتي*»).

والآن وأنا في الثالثة عشرة، أصبحت تلك الفروق أشدّ تعقيداً: فقد طُرِدَتْ تلميذة الصف الثامن من المدرسة لأنها *تورّطت في المشاكل*؛ وكانت إحدى الجارات قد **حبلتْ** على أمل أنْ تمنع زوجها من تطليقها. وأؤكّد لك، أنه لو هبطت مخلوقات من الفضاء على الأرض في هذا اليوم وأمعنت التفكير في سبب ولادة الأطفال الصِّغار، لانتهى بها التفكير إلى أنَّ مُعظم الناس ينجبون الأطفال بالمُصادفة، أو لأنهم يُسرفون في شرب الخمر

1- نلفت انتباه القارئ إلى أنَّ كل فصل يحمل اسم الشخصيّة التي سوف يُروى ذلك الفصل بلسانها. المترجم.

2- سيدونا: بلدة في صحراء ولاية أريزونا الأميركيّة. المترجم.

في ليلة معيَّنة، أو لأنَّ مشروع تنظيم الحمل لا يُطبَّق بحذافيره، أو لألف سبب وسبب ليست في صالحهم.

من ناحية أخرى، لقد وُلدتُ لسبب خاصّ جداً. ليس نتيجة شرب زجاجة رخيصة من النبيذ أو قمر بدر أو ذروة حرارة اللحظة، بل ولدتُ لأنَّ أحد العلماء نجحَ في الجمع بين بويضات أمي ونطفة والدي لكي يخلق مزيجاً معيّناً من مادة جينيّة ثمينة. في الحقيقة، عندما أخبرني جِسّ كيف يُصنَع الأطفال وقرّرتُ أنا، التي لا تصدّق أي شيء، أنْ أسأل والديّ عن الحقيقة، حصلتُ على أكثر مما رغبتُ. فقد جلسا وأخبراني كل المعلومات المعتادة، طبعاً – لكنهما شرحا أنهما اختارا الجنين الذي هو أنا، على وجه الخصوص، لأنَّ باستطاعتي أنْ أنقذ أختي، كيت. وحرصتْ أمي على أنْ تقول «لقد أحببناك أكثر لأننا كنا نعلم بالضبط ما الذي سنحصل عليه».

لكنَّ ذلك دفعني إلى التساؤل عمّا كان سيحدث لو أنَّ كيت كانت في صحّة تامّة. كنتُ سأبقى أحوم فوق في السماء أو في مكان ما، في انتظار أنْ أتلبَّس جسداً في وقتٍ ما على الأرض. وطبعاً لن أكون جزءاً من هذه العائلة. في الواقع، خِلافاً لباقي العالم الحرّ، لم آتي إلى هنا بالمُصادفة. وإذا كان والداك قد حصلا عليك لسببٍ ما، فيستحسن أنْ يكون ذلك السبب موجوداً. لأنه حالما يزول، نزول نحن معه.

قد تحتوي محلات الرهونات الكثير من الأشياء التافهة، لكنّها أيضاً أماكن خصبة لإنتاج الحكايات، إذا أردتَ رأيي، وهذا لا يعني أنكَ طلبته. ما الذي حدث حتى جعل شخصاً يُتاجر بخاتم حجر ألماس سوليتير لم يضعه أحد من قبل؟ مَنِ الذي يحتاج إلى المال حاجة ماسّة إلى درجة أنْ يبيع دمية دب فقدت إحدى عينيها؟ وبينما كنتُ أتقدَّم من منضدة المُحاسبة، أتساءل إنْ كان أحدٌ سينظر إلى المدلّاة[1] التي سأتخلّى عنها، ويطرح الأسئلة نفسها.

كان للرجل الجالس خلف صندوق النقد أنف على شكل نبات اللفت،

1- المدلّاة: علبة معدنيّة نفيسة تحتوي على تذكار أو خصلة شعر من شخص عزيز، يضعها المرء حول عنقه كقلادة. المترجم.

وعينان غائرتان عميقاً إلى درجة أنني لم أستطع أنْ أتخيَّل كيف يرى جيداً لكي يتمكن من أداء عمله. سألني «أتحتاجين إلى شيء؟».

كان أفضل ما يمكن أنْ أفعل لكي لا أستدير وأخرج من الباب هو الادّعاء بأنني أخطأتُ في دخول المكان. والشيء الوحيد الذي أبقاني ثابتة في مكاني هو عِلمي أنني لستُ الشخص الأول الذي يقف أمام منضدة المُحاسبة حاملة الغرض الوحيد في العالم الذي لم أفكِّر أبداً في التخلّي عنه.

أخبرته «لديّ غرضٌ أريد أنْ أبيعه».

«هل من المُفتَرَض أنْ أخمِّن ما هو؟».

«أوه»، ابتلعتُ ريقي، وأخرجتُ المُدلاة من جيب بنطلوني الجينز. سقط القلب على سطح المنضدة الزجاجي وسط سلسلته الخاصة. قلت بنبرة معيَّنة: «إنها من الذهب عيار أربعة عشر. يمكن القول إنَّ أحداً لم يضعها». وهذا كذب؛ فحتى صباح ذلك اليوم، لم أكنْ قد خلعتها منذ سبع سنين. كان والدي قد أهداني إياها وأنا في السادسة من العمر بعد عمليّة استئصال نقي العِظام، لأنه قال إنَّ كل مَنْ يُعطي أخته مثل هذه الهديّة النفيسة يستحق أنْ يتلقّى هديّة تُضاهيها. وشعرتُ وأنا أراها هناك، على المنضدة، بأنَّ عنقي بارد وعارٍ.

ثبَّتَ مالك المحل عدسة مُكبِّرة على عينه، مما جعلها بالحجم الطبيعي. «سوف أُعطيك عشرين».

«دولاراً؟».

«كلا، بيزو[1]. ماذا اعتقدتِ؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلتُ مُخمِّنة: «إنها تستحق خمسة أضعاف هذا الثمن!».

هزَّ المالك كتفيه مُستخفّاً. «ليس أنا مَنْ يحتاج إلى النقود».

التقطتُ المدلاة، وقد عزمتُ على إتمام الصفقة، فحدث أغرب شيء، شدَّت يدي قبضتها عليها بقوة. واحمرَّ وجهي بفعل الجهد الذي بذلته لأباعد ما بين أصابعي. واستغرقَ ما بدا أنّه مقدار ساعة قبل أنْ تنتقل المدلاة

1- البيزو: عملة نقد إسبانيّة يتمّ التعامل بها في دول أميركا الجنوبيّة. المترجم.

إلى راحة يد المالك الممدودة. استقرّتْ عينه على وجهي، وقد أضحتْ نظرتها أرقّ الآن. ثم قدَّمَ لي نصيحةً مجّانيّة، «أخبريهم بأنكِ أضعتِها».

***

لو أنَّ السيد ويبستر[1] قرَّر أنْ يُضيف كلمة «*فلتة*» إلى قاموسه، لكان اسم ***آنا فيتزجيرالد*** هو التعريف الأفضل الذي يُعطيه لها. والأمر لا يتعلَّق بمظهري: لاجئة نحيلة ليس لديها صدر يستحق الذِّكر، وشعر بلون القذارة، ونمش يشبه لغز وصل النقاط على وجنتي أؤكّد لك أنه لا يزول باستخدام عصير أو مادة واقية من أشعة الشمس، ولا حتى، للأسف، بورقة سنفرة. كلا، من الجليّ أنَّ الله كان في مزاجٍ خاصّ عند مولدي، لأنه أضافَ إلى هذا المزيج الجسديّ الرائع الصورة الأكبر - المنزل الذي وُلِدتُ فيه.

حاول والداي أنْ يجعلا الأمور طبيعيّة، لكنّ هذه عبارة نسبيّة. والحقيقة هي أنني لم أكنْ أبداً طفلة حقاً. وأقول الصِّدق، ولا حتى كيت ولا جِسّ كانا كذلك. أعتقد أنَّه ربما مرّ أخي بلحظات مُشرِقة خلال السنوات الأربع التي عاشها قبل أنْ تُشخَّص حالة كيت، ولكن لم يمرّ بها منذ ذلك الحين، لقد كنا شديدي الانهماك في النظر خلفنا ولم نهرع لنتّجه مباشرة نحو مرحلة البلوغ. وأنتَ تعلم كيف يعتبر معظم الأطفال أنهم شخصيات من أفلام الكرتون - إذا سقط سندان من الحديد على رؤوسهم يستطيعون أنْ يتفادوه على الرصيف ويتابعوا السير في طريقهم؟ حسن، أنا لم أُصدِّق هذا أبداً. كيف أُصدِّق، ونحن نجلس، عمليّاً، مع الموت جنباً إلى جنب على مائدة العشاء؟

كانت كيت مُصابة بحالة حادّة من سرطان الدم في النخاع الشوكيّ. في الواقع، هذا ليس صحيحاً تماماً -في الوقت الحالي هي ليستْ مُصابة به، بل هو في حالة سُبات تحت الجلد كما يحدث مع الدبّ، إلى أنْ يُقرِّر أنْ يهتاج من جديد. وقد تمّ تشخيص حالتها عندما كانت في عامها الثاني؛ وهي الآن في السادسة عشرة. أصبحت تعبيرات ***Molecular relapse, granulocyte, portacath***- جزءاً من مفرداتي اللغويّة، على الرغم من

1- نوح ويبستر (1758-1843): واضع معاجم أميركي، وصاحب معجم «القاموس الأميركيّ للّغة الإنكليزيّة» (1828). المترجم.

أنني لن أجدها في أي اختبار مدرسيّ. أنا واهبة خلايا جذعية جينيّة – المُطابقة المثالية للأقرباء. وعندما تحتاج كيت إلى كريّات بيضاء أو خلايا جذعيّة أو نقي عظام لكي نخدع بها جسمها ونجعله يعتقد أنّه صحيح، أقوم أنا بتزويدها بها. وكلما نُقِلَتْ كيت إلى المستشفى، أذهب أنا معها أيضاً.

إنَّ هذا كلّه لا يعني أيّ شيء، ما عدا أنكَ لا ينبغي أنْ تصدِّق ما تسمع عني، خاصّة ما أخبرك به.

في أثناء ارتقائي الدَّرَج، تخرج أمي من غرفتها مرتدية ثوباً آخر من أثواب الحفلات الراقصة. تقول، وهي تدير ظهرها لي: «أه، أنتِ بالضبط الفتاة التي أبحث عنها».

أرفع لها السحّاب وأشاهدها وهي تدور. تستطيع أمي أنْ تكون جميلة، إذا هبطتْ إلى حياة شخصٍ آخر. كانت صاحبة عنق طويل وشَعر أسود وترقوة أنيقة جديرة بأميرة، لكنَّ زاويتيّ فمها تنخفضان نحو الأسفل، كأنها تتلقّى نبأً سيئاً. ولا يتوفّر لديها الكثير من وقت الفراغ، بما أنَّ الروزنامة هي شيء يمكن أنْ يتغيَّر بصورة متطرّفة إذا أُصيبتْ أختي برضوض أو بنزيف في الأنف، ولكنها تنفق ما لديها من نقود عبر موقع التسوّق الإلكتروني، وتطلب أثواب سهرة رائعة باذخة من أجل ارتياد أماكن لن تذهب إليها أبداً. وتسأل «ما رأيك؟».

ثوبها تسوده تدرّجات ألوان شمس الغروب، ومصنوع من قماش يُصدر حفيفاً مع كل حركة. وهو بلا حمّالات، جدير بأنْ ترتديه نجمة سينمائيّة تمشي بأناقة على السجادة الحمراء –في العموم هو لا يتطابق مع معايير الأثواب الصالحة للارتداء في منازل الضواحي في داربي العليا، رود آيلند. وأمي تجمع شَعرها على شكل عقدة وتُثبّته في مكانه. وعلى سريرها هناك ثلاثة أثواب أخرى– واحد انسيابيّ لونه أسود، وواحد مُدجَّج بالخرز، وواحد يبدو صغيراً بصورة مستحيلة. «تبدين...»

مُتعبة. تجمعت الكلمة تحت شفتيّ مباشرة.

تلزم أمي السكونَ التامّ، وأتساءل إنْ كنتُ قد قلتُ ذلك من دون قصد. ثم ترفع إحدى يديها، طالبة مني السكوت، وأُذنها منصوبة باتجاه الباب المفتوح. «أسمعتِ ذلك؟».

«أسمعُ ماذا؟».

«كيت».

«أنا لم أسمع شيئاً».

لكنها لم تصدّقني، لأنه عندما يتعلَّق الأمر بكيت لا تصدّق كلام أي شخص. وترتقي الدَّرَج وتفتح غرفة نومنا لتجد أختي في حالة من الهيستريا على سريرها، وفي الحال ينهار العالم برمّته من جديد. لقد حاول أبي، الفلكيّ النظريّ، أنْ يشرح لي ماهيّة الثقوب السوداء، وكيف أنّها ثقيلة جداً إلى درجة أنها تبتلع كل شيء، حتى الضوء، وتختفي داخلها. ولحظات كتلك هي من نوع الفراغ نفسه؛ ومهما تشبّثتَ بقوة، يتم ابتلاعك في النهاية.

تغوص أمي نحو الأرض، وتلك التنورة الحمقاء تتجمَّع كالغيمة من حولها، «كيت! كيت، حبيبتي، ماذا يؤلمك؟».

تضمّ كيت الوسادة إلى بطنها، والدموع تنهمر على وجهها. وشعرها الشاحب ملتصق بوجهها بخصلات رطبة؛ وتتنفّس بصعوبة شديدة. وأقفُ متجمّدة عند ممر باب غرفتي الخاصّة، في انتظار التعليمات: ***اتصلي بالبابا. اتصلي بـ911. اتّصلي بالدكتور تشانس***. وتتمادى أمي إلى درجة انتزاع تفسيرٍ أفضل من فم كيت. تجهشُ قائلة «***إنه بريستون. سوف يترك سيرينا إلى الأبد***».

حينئذٍ انتبهنا إلى التلفزيون. على الشاشة كان هناك رجل أشقر فاتن ينظر بلهفة إلى امرأة تبكي بعنف كما كانت أختي تفعل، ومن ثم يَصفع الباب. تسأل أمي: «ولكنْ ما الذي يؤلمك؟»، متيقّنة من أنَّ في الأمر أكثر مما يبدو.

تقول كيت، وهي تشهق: «أوه ***يا إلهي***، ألا تعلمين كم عانت سيرينا وبريستون؟ ألا تعلمين؟».

تراختْ قبضة اليد المشدودة داخلي، بعد أنْ علِمتُ أنَّ كل شيء على ما يُرام. هذا طبيعي، في منزلنا، يُشبه غطاء سرير شديد القِصَر على السرير – أحياناً يُغطيك بشكلٍ مناسِب، وفي أحيانٍ أخرى يتركك بردانَ حتى الارتجاف؛ والأسوأ من هذا وذاك، أنكَ لا تعلم أيّ الوضعين سيكون. وأجلسُ على حافة سرير كيت. وعلى الرغم من أنني في الثالثة عشرة، فإنني أطول قامة منها

وبين حينٍ وآخر يفترِض الناس خطأً أنني الأخت الأكبر سناً. وفي أوقاتٍ مختلفة خلال فصل الصيف الحالي كانت تبكي كالمجنونة على كالاهان، وويات، وليام، وممثلي أدوار الذكور الرئيسية في المُسلسل التلفزيونيّ. والآن، كما أعتقد، يتعلّق الأمر بشخصيّة بريستون. أتبرَّع بالقول «كان هناك رعب الاختطاف». في الحقيقة، كنتُ قد تابعت سلسلة أحداث تلك القصة؛ ودفعتني كيت إلى تسجيل المسلسل في أثناء خضوعها لجلسات الديلزة[1].

أضافتْ كيت: «وحين أوشكتْ أنْ تتزوج من أخيها التوأم خطأً».

انضمّت الأم إلى المحادثة: «ولا تنسي عندما مات في حادث القارب. على مدى شهرين، على كل حال»، وأتذكَّر أنها كانت هي أيضاً تتابع أحداث ذلك المُسلسل، في أثناء مُجالستها كيت في المُستشفى.

للمرَّة الأولى يبدو أنَّ كيت تلاحظ ثوب أمي. «ما هذا الذي *ترتدين*؟».

«أوه. ثوب سأُعيده». وتنهضُ واقفة أمامي لكي أُنزِلَ لها السحّاب. جدير بهذا الدافع الإلزامي المُرسَل بالبريد، بالنسبة إلى أي أُمٍ أخرى، أنْ يُعادل مكالمة هاتفيّة توقظها من النوم من أجل تلقّي العلاج؛ أمّا بالنسبة إلى أمي، فهو فترة استراحة صحيّة. وأتساءل إنْ كان ما تحبّه كثيراً هو أنْ تستعير جلد شخص آخر لبعض الوقت، أم هو تمكّنها من إعادة إرسال مادّة لا تناسبها. ونظرتْ إلى كيت، بإمعان. «أمتأكّدة من أنَّ لا شيء يؤلمك؟».

بعد أنْ تغادر أمي، تغوص كيت قليلاً. هذا هو الوصف الوحيد المناسِب لها – سرعة شحوب لون وجهها، واختفاؤها داخل الوسائد. ومع تفاقم مرضها، يزداد هزالها أكثر، حتى إنّني أخشى أنْ أستيقظ ذات يوم وأعجز عن رؤيتها. وتأمرني كيت «تحرّكي، أنتِ تحجبين الصورة».

وهكذا أذهب لأجلس على سريري الخاصّ. «إنهم فقط يستعرضون عناصر الجذب القادمة».

«حسن، إذا متُّ هذه الليلة أريد أنْ أعرف ما الذي سيفوتني».

1- الديلزة: في الطب، فصل المواد شبه الغرويّة القابلة للذوبان وذلك باستخدام غشاء فارز. المترجم.

أجمع وسائدي حتى تنتفخ تحت رأسي. وكالمعتاد، كانت كيت قد استبدلَتْها بوسائدها لكي تحصل على الوسائد المريحة التي لا تشعر كأنها كالصخور تحت عنقك. ومن المُفترَض أنها تستحق ذلك، لأنها أكبر مني بثلاث سنوات، أو لأنها مريضة، أو لأنَّ القمر يقع في برج الدلو - هناك ***دائماً*** سبب. أنعمُ النظر إلى التلفزيون بعينين ضيِّقتين، متمنية لو أستطيع أنْ أُقلِّب المحطات، عالِمة أنّه ليس لديّ كتاب صلوات. «يبدو بريستون كأنّه مصنوع من البلاستيك».

«إذن لماذا سمعتك تهمسين باسمه ليلة أمس داخل الوسادة؟».

أقول «اخرسي».

«***أنتِ*** اخرسي»، ثم تبتسمْ كيت لي. «ولكن، لعلّه ***حقاً*** مثليّ. يا للخسارة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الأختين فيتزجيرالد هما -» وتجفل، وتتوقف عند منتصف الجُملة، وأتدحرج نحوها.

«كيت؟».

تدعكُ أسفل منطقة ظهرها. «لا شيء».

إنهما كليتاها. «أتريدين أنْ أستدعي أمي؟».

«ليس الآن». تمدّ يدها بين سريرينا، وهي مسافة كافية لكي تتلامس يدانا إذا أردنا ذلك. وأمدّ يدي، أيضاً. وعندما كنا صغيرتين كنا نُقيم ذلك الجسر لكي نحاول أنْ نعرف على كم دمية باربي يمكن أنْ نحصل لكي نوازنها عليه.

لاحقاً، صارت تنتابني الكوابيس، فيتراءى لي أنني تفتّتُ إلى قِطعٍ صغيرة ولم يتبقَّ مني ما يكفي لتركيبي من جديد.

يقول والدي: إنَّ النار سوف تحرق نفسها بنفسها حتى تفنى، إلّا إذا فتحت النافذة وزوّدتها بالوقود. أعتقد أنَّ هذا هو ما أفعل، عندما تفكّر مليّاً في الأمر؛ لكنَّ والدي يقول هذا أيضاً: عندما يلحق بك اللهب فيجب أنْ تحطِّم جداراً أو اثنين إذا أردتَ أنْ تهرب منه. وهكذا عندما تستغرق كيت في النوم بفعل الأدوية التي تتناولها كنتُ أتناول الشريط الجلديّ الذي أحتفظ به بين الفراش وسرير الرقّاص وأذهب إلى الحمّام لكي أحظى ببعض العزلة.

أنا أعلم أنَّ كيت كانت تتطفّل - لذلك كنتُ أمدُّ خيطاً أحمر بين أسنان السحّاب لكي أعرف مَنِ الذي يتطفّل على أغراضي من دون إذني، ولكن على الرغم من انقطاع الخيط إلّا أنّه لم يكن يُفقَد أيّ شيء منها. فتحت صنبور الماء في حوض الاستحمام لكي يبدو كأنني موجودة في الداخل لسبب معيَّن، وجلستُ على الأرض لكي أقوم بالعدّ.

إذا أضفتِ العشرين دولاراً التي حصلتِ عليها من محل الرهونات، يُصبح لديك 136.87$. المبلغ ليس كافٍ، ولكن يجب أنْ تجدي وسيلة لحلّ الأمر. جِسّ لم يكن في حوزته مبلغ 2.900$ عندما اشترى سيارة الجيب البالية، فمنحه المصرف ما يُشبه القرض. وطبعاً كان على والديّ أنْ يوقّعا على الأوراق، أيضاً، وأشكّ في أنْ يرغبا في فعل ذلك من أجلي، في ظل الظروف الراهنة. وأُحصي النقود مرّة أخرى، يحدوني الأمل في أنْ تحصل معجزة ويتضاعف عدد الأوراق الماليّة، لكنَّ عِلم الرياضيات لا يُخطئ ويبقى المجموع على حاله. ومن ثم أقرأ قُصاصات الصحيفة.

كامبل ألكسندر. اسمٌ سخيف، في رأيي. يُشبه اسم مشروب في حانة باهظ الثمن، أو مكتب سمسرة. ولكن لا يمكن إنكار سجلّه في مضماره.

لكي أصل إلى غرفة أخي، ينبغي في الواقع أنْ أغادر المنزل، وهذا ما يريده بالضبط. فعندما بلغ جِسّ سن السادسة عشرة انتقل إلى العليّة التي فوق المرأب - وهو الإجراء المثاليّ، بما أنّه لم يرغب في أنْ يعرف والداه ماذا يفعل، وفي الحقيقة لم يرغب الوالدان في رؤية ذلك. وكان يسد الدَّرَج المؤدي إلى غرفته بأربعة إطارات خاصّة بالسير على الجليد وبجدار صغير من الكرتون، وبطاولة كتابة من الزان مقلوبة على جنبها. أحياناً أعتقد أنَّ جِسّ وضع تلك العوائق بنفسه، لكي يجعل من عملية الوصول إليه أقرب إلى التحدّي.

زحفتُ فوق تلك الفوضى ومن ثم ارتقيتُ الدَّرَج، الذي كان يهتزّ بسبب هدير جهاز ستيريو جِسّ. واستغرقَ منه حوالي خمس دقائق ليسمع قرعي على الباب. قال بحِدّة، وهو يفتح الباب بمقدار شقّة: «ماذا؟».

«هل تسمح لي بالدخول؟».

فكّرَ قليلاً، ثم تراجعَ بضع خطوات ليسمح لي بالدخول. كانت الغرفة

بحراً من الملابس القذرة والمجلّات وبقايا علب الوجبات الصينيّة السريعة؛ وكانت تفوح برائحة تشبه رائحة مزلجة لعبة الهوكي مُشبّعة بالعرق. والبقعة الأنيقة الوحيدة كانت الرفّ الذي يحتفظ جِسّ عليه بمجموعته الخاصّة -أيقونة سيارة جاغوار على شكل نمر، ورمز سيارة مرسيدس، وحصان سيارة موستانغ- وهي زخرفات أغطية سيارات قال لي إنه عثر عليها تواً مرميّة، على الرغم من أنني لستُ غبيّة إلى درجة تصديقه.

لا تُسئ فهمي - هذا لا يعني أنَّ والديّ لا يأبهان بشأنِ جِسّ أو بالمشاكل التي يتورّط فيها. كل ما في الأمر أنّه لا يتوفّر لديهما الوقت للاهتمام بها، لأنها مشكلة تقع في أدنى جدول اهتماماتهما.

يتجاهلني جِسّ، ويعود إلى ما كان يقوم به على الجانب البعيد من الفوضى العارمة. وتُلفت انتباهي طنجرة -كانت قد اختفَتْ من المطبخ قبل بضعة أشهر- تقبع الآن على قمة جهاز تلفزيون جِسّ، يخرج من غطائها أنبوب رفيع من النحاس، ويهبط داخل إبريق بلاستيكيّ من الحليب مملوء بالثلج، ويصبّ في برطمان ميسون[1] زجاجي. قد يكون جِسّ جانحاً متطرّفاً، لكنّه لامع. وعندما أهمّ بلمس تلك البدعة، يستدير جِسّ. «هيه!» ويطير من فوق الأريكة الطويلة لكي يضرب يدي ويُبعدها. «سوف تُفسدين أنبوب التكثيف».

«هل هذا ما أعتقد أنّه هو؟».

ارتسمت على وجهه تكشيرة واسعة وقبيحة. «الأمر يعتمد على ما تتخيلين»، وينتزع برطمان ميسون، فيقطر السائل على السجادة. «تذوّقي».

كأن السائل المُقطَّر المصنوع من البصاق والغراء، يُنتِج ويسكي أصيلاً بلون أشعة القمر، واندفعَ جحيمٌ بقوّة خلال بطني وساقيّ وسقطتُ إلى الخلف على الأريكة. شهقتُ «مُقرِف».

يضحك جِسّ ويتناول هو أيضاً رشفة، ولكنَّ تأثيره عليه كان أخفّ. «إذن ماذا تريدين مني؟».

«كيف عرِفتَ أنني أريدُ شيئاً؟».

1- برطمان ميسون: وعاء زجاجيّ منزليّ كاظم للهواء. المترجم.

يقول: «لأنَّ لا أحد يصعد إلى هنا ليقوم بزيارة عائليّة»، ويجلس على ذراع الأريكة. «ولو كان الشيء يتعلّق بكيت، لكنتِ أخبرتني تواً».

«إنّه بخصوص كيت. تقريباً». وأضغط قُصاصات الصحيفة على راحة يد أخي؛ سوف يكون الشرح الوارد فيها أفضل من شرحي. يستعرِضْها، ثم ينظر في عيني مباشرة. إنّه صاحب عينين بأشدّ تدرجات اللون الفضيّ شحوباً، والمُدهِش أنّه عندما يُحدّق إليك أحياناً، تنسى تماماً ما كنتَ تنوي أنْ تقول.

يقول بمرارة: «لا تعبثي بالنظام، يا آنّا، كلنا نحصل على نصوص أدوارنا جاهزة. كيت تقوم بدور الشهيدة. وأنا أمثّل القضيّة الخاسرة. وأنتِ، أنتِ صانعة السلام».

إنه يعتقد أنّه يعرفني، لكن هذا شعور مُتبادَل - وعندما يتعلّق الأمر بالاحتكاك، فإنَّ جِسّ مُدمنٌ عليه. وأنظرُ إليه مباشرة. «مَنْ يقول هذا؟».

يوافقُ جِسّ على انتظاري في موقف السيارات. إنها إحدى المرّات القليلة التي أتذكّره فيها ينفذ أيّ شيء أطلبه منه. وأتمشّى حتى مقدمة المبنى التي ينهض عليها اثنان من تماثيل الحيوانات البارزة ليحرسا المدخل.

تقع غرفة مكتب القسّ المُحترم كامبل ألكسندر في الطابق الثالث. الجدران مكسوّة بألواح خشب بلون غطاء مُهرة كستنائيّ، وعندما أطأ السجادة الشرقيّة السميكة الممدودة على الأرض، يغوص حذائيّ عليها بمقدار بوصة. والسكرتيرة تنتعل حذاءً خفيفاً شديد اللمعان حتى إني أستطيع أنْ أرى انعكاس وجهي عليه. أنظر نحو الأسفل إلى بنطلوني الجينز المُمزّق والحذاء الخفيف اللذين كنتُ قد رسمتُ عليهما وشماً في الأسبوع السابق بالألوان السِّحريّة عندما شعرتُ بالضجر.

كان للسكرتيرة بشرة مثاليّة وحاجبان مِثاليان وشفتان تشبهان نحلة العسل، تستخدمهما في شتم أي شخص يُكلّمها على الهاتف. «لا تتوقع مني أنْ أخبر هذا للقاضي. ولمجرد أنكَ *أنتَ* لا تريد أنْ تسمع كليمان يصخب ويهذي لا يعني أنني *أنا* ينبغي أنْ أفعل ذلك... كلا، في الحقيقة، إنَّ تلك العلاوة كانت مقابل العمل الاستثنائيّ الذي أقوم به والقذارة التي أتعامل

معها يومياً، وفي الحقيقة، ما دمنا نتحدث عن-». أبعدتْ سمّاعة الهاتف عن أذنها؛ وأسمع ضجيج قطع الاتصال. وتتمتم «ابن حرام»، ثم يبدو أنها تدرك أنني واقفة بالقرب منها. «هل من خدمة أؤديها؟».

تتأمّلني من رأسي إلى أخمصي، تُقيِّمني حسب المعيار العام للانطباعات الأوّليّة، وتجد أنني أفتقده بصورة حادّة. أرفع ذقني وأتظاهر بأنني أشدّ هدوءاً مما أنا حقاً. «لدي موعد مع السيد ألكسندر. عند الساعة الرابعة».

تقول: «لم يبدُ من صوتك، عبر الهاتف، أنكِ...».

«*صغيرة جداً*؟».

ابتسمتْ بغير ارتياح. «نحن لا نقبل قضايا الأحداث، هذا مبدؤنا. إذا شئتِ أستطيع أنْ أقترح لك أسماء بعض المُحامين العاملين الذين-».

أخذتُ نَفَساً عميقاً. قاطعتُها «في الحقيقة، أنتِ مُخطئة. إنَّ قضيّة سميث ضد ويتلي، وقضيّة آل إدموند ضد مستشفى النساء والأطفال، وقضيّة جيروم ضد أبرشيّة بروفيدانس كلها تتضمَّن خصوماً تحت سن الثامنة عشرة. والقضايا الثلاث كلها انتهت في صالح زبائن السيد ألكسندر. وهذه جرت خلال *العام* المنصرم وحده».

ترفّ عينا السكرتيرة في وجهي. ثم تُشيعُ ابتسامة بطيئة الدفء في وجهها، وكأنّها قرَّرتْ أنها ربما تُحبني بعد ذلك كلّه. فتقترحُ عليّ: «دعينا نتدبَّر الأمر، لِمَ لا تنتظرين في غرفة مكتبه؟»، وتنهضُ واقفة لكي تُريني الطريق.

حتى لو أنني أقضي كل دقيقة وحتى آخر حياتي في القراءة، فلن أُصدِّق أنني سوف أنجح في استهلاك عدد الكلمات المُدوّنة على كل جزء من جدران غرفة مكتب المحترم كامبل ألكسندر. أستطيع أنْ أُجري عمليات رياضيّة -إنْ كان هناك 400 كلمة أو نحوها في كل صفحة، وكل كتاب من تلك الكتب القانونيّة يتألّف من 400 صفحة، وهناك عشرون كتاباً على كل رفّ وستة رفوف في كل خزانة كتب- فأنتَ تقترب من تسعة عشر مليون كلمة، وهذا فقط في جزءٍ من الغرفة.

أبقى وحدي في غرفة المكتب فترة طويلة بما يكفي لألاحظ أنَّ طاولة مكتبه شديدة الترتيب، حتى يمكنك أنْ تلعب كرة القدم الصينيّة على دفتر

السجلات؛ وأنّه لا توجد صورة فوتوغرافيّة واحدة لزوجةٍ أو لطفلٍ أو حتى لنفسه؛ وأنّه على الرغم من شدَّة نظافة الغرفة، فهناك إبريق مملوء بالماء يستقرّ على الأرض.

وجدتُ نفسي أُلفّق تفسيرات: إنها بركة سباحة مُخصّصة لجيش من النمل. إنها ما يُشبه المُرطِّب البدائيّ. إنها سراب.

وعندما أكاد أقتنع بالتبرير الأخير، وأوشك أنْ أميل فوقها لألمسها وأرى إنْ كانت حقيقيّة، إذا بالباب يُفتَح فجأة. وأكاد عملياً أسقط عن كرسيّ وهذا يضعني وجهاً لوجه مع دخول كاهن ألمانيّ، يرميني بنظرة حادّة ومن ثم يمشي حتى إبريق الماء ويبدأ بالشرب.

ويدخل كامبل ألكسندر، أيضاً. إنه ذو شَعر أسود ويبلغ طول قامته طول والدي تقريباً -أي ستة أقدام- وله فك ذو زاوية قائمة وعينان تبدوان متجمّدتين. يخلع سترته ويُعلّقها بأناقة على خلفيّة الباب، ثم ينتزع ملفّاً من خزانة ملفّات قبل أنْ ينتقل إلى طاولة مكتبه. ولا يجعل عيناه تلتقيان بعينيّ، ومع ذلك يباشر الكلام. يقول كامبل ألكسندر: «لا أريد أياً من حلويات فتيات الكشّافة، على الرغم من أنَّ لديك مواصفات فتاة الكشّافة الصغيرة العنيدة. ها» ويبتسم على نكتته.

«أنا لا أبيع أيَّ شيء».

يلقي عليّ نظرة فضول، ثم يضغط زراً على هاتفه. عندما تُجيب السكرتيرة يقول: «كيري، ماذا تفعل هذه في غرفة مكتبي؟».

أقول: «أنا هنا لكي أوكّلكَ؟».

يرفع المحامي يده عن زر الاتصال الداخليّ: «لا أظنّ ذلك».

«أنتَ حتى لا تعرف ما هي قضيّتي».

خطوتُ إلى الأمام خطوة؛ وكذلك فعل الكلب. وأدرِكُ للمرة الأولى أنّ الكلب يرتدي رداءً عليه صليب أحمر، كما يحمل كلب سان برنار مشروب الرَّم ويرتقي جبلاً تكسوه الثلوج. وبحركة عفوية مددتُ يدي لأداعبه. يقول ألكسندر: «لا تفعلي. إنَّ جَدجْ هو كلب خدمة».

تراجعتْ يدي إلى جنبي: «لكنكَ لست أعمى».

«شكراً لك لأنكِ بيَّنت ذلك لي».

«إذن ما مشكلتك؟».

حالما قلتُ هذا وددتُ لو أسحبه. ألم أراقب كيت وهي تعطي إجابة موفّقة على هذا السؤال ألقاه عليها مئات الأشخاص الفطِّين؟

قال كامبل ألكسندر باقتضابٍ فجّ: «لديّ رئة من حديد، والكلب يمنعني من الاقتراب أكثر مما ينبغي من أي مواد مغناطيسيّة. والآن، هلّا تفضّلتِ عليّ بشرف مُغادرتي، يمكن لسكرتيرتي أنْ تزودك باسم شخص يمكن–».

ولكن لم أكنْ مُستعدَّة بعد للمغادرة. «أحقاً أقمتَ دعوى ضد الله؟» وأخرجتُ قُصاصات الصحف، ومسّدتها ووضعتها على طاولة المكتب الجرداء.

تنبض عضلة في وجنته، ومن ثم يرفع المقالة التي في الأعلى. «أنا أقمتُ دعوى ضد أبرشيّة بروفيدانس، بالنيابة عن طفل من ميتم خاصٍ بهم كان في حاجة إلى مُعالجة تجريبيّة تتضمَّن نسيجاً قاتلاً، وجدوا أنّه يخرق البند الثاني من بنود الفاتيكان. سوف يُثير ضجّة صحفيّة أكبر إذا قلنا إنَّ صبيّاً في التاسعة يرفع قضيّة ضد الله لأنه وُضِع في مأزق ضيّق في الحياة». وأكتفي بالتحديق إليه. ويعترف المحامي، «وأراد ديلان جيروم أنْ يُقاضي الله لأنه لا يهتم بالقدر الكافي به».

كان يمكن أيضاً لقوس قُزَح أنْ يكسر طاولة المكتب الكبيرة المصنوعة من قصب الماهوغاني من منتصفها. أقول: «سيد ألكسندر، إنَّ أختي مُصابة بسرطان الدم».

«يؤسفني سماع هذا. ولكن حتى إذا كنتِ راغبة في رفع دعوى ضد الله من جديد، وهذا ما لن أفعله، لا يمكنكِ أنْ ترفعي دعوى بالنيابة عن شخصٍ آخر».

كان هناك الكثير مما يستوجب الشرح – نقلُ دمي إلى شرايين أختي؛ وتثبيت الممرضات لي وغرز إبرة في جسمي من أجل الحصول على كريات بيضاء قد تستعيرها كيت؛ وقول الطبيب إنهم لم يحصلوا على ما يكفي في

المرة الأولى. ومن ثم الرضوض وآلام العِظام العميقة التي عانيتها بعد عمليّة الوهب؛ والحقن التي أفرزتِ المزيد من الخلايا الجذعيّة داخليّ، لكي يتوفر المزيد من أجل أختي. وحقيقة أنني لستُ مريضة، ولكن يمكن أنْ أمرض. وحقيقة أنَّ السبب الوحيد لمولدي هو جمع الحصاد من أجل كيت. وحقيقة أنّه حتى الآن يُتّخذَ قرار كبير بشأني، ولا أحد يزعج نفسه ويسأل الشخص الوحيد عن الشخص الوحيد الأشدّ استحقاقاً للجهر برأيه.

هناك أشياء كثيرة جداً ولا يمكن شرحها، لذلك أبذل قُصارى جهدي. وأقول: «ليس المقصود هو الله بل والداي. أريد أنْ أستغلّهما لصالح جسدي».

كامبل

عندما لا يتوفر لديك إلّا مطرقة، يبدو لك كل شيء أشبه بمسمار.

هذا ما كان يقوله والدي، كامبل ألكسندر الأكبر؛ وهذا أيضاً في رأيي هو حجر الزاوية لنظام العدالة المدنيّة الأميركيّة. وبعبارة أشدّ بساطة، إنَّ الذين حُشِروا في الزاوية سوف يبذلون أقصى جهدهم لكي يشقّوا طريقهم إلى المركز من جديد. بالنسبة إلى البعض، هذا يعني القتال. وبالنسبة إلى آخرين يعني إقامة دعوى قضائيّة. وأنا ممتنّ لهذا بوجه خاصّ.

كانت كيري قد رتّبَتْ رسائلي على محيط طاولة مكتبي كما أُفضِّل، المُستعجلة منها مكتوبة على أوراق صغيرة خضراء، والأقلّ إلحاحاً مكتوبة على وريقات صفراء، مصفوفة على شكل أعمدة أنيقة كما في لعبة ورق يلعبها شخصان. لمحتُ رقم هاتف، فتجهّمتُ، محرّكاً الوريقة الخضراء نحو جانب الوريقات الصفراء بدل ذلك. كانت كيري قد كتبَتْ، ***أمّك اتصلتْ بك أربع مرّات!!!***. وبعد قليل من التفكير، مزّقتُ الوريقة إلى قسمين ورميتها في سلّة المهملات.

الفتاة الجالسة أمامي تنتظر جواباً، جواباً أتعمّد ألّا أُعطيه. تقول إنها تريد أنْ تُقيم دعوى ضد أبويها، كحال كل مُراهِق على الأرض. ولكن هي تريد أنْ تُقيم الدعوى من أجل الحصول على حقوقها الجسديّة. وهذا بالضبط هو نوع القضايا التي أتجنّبها كما أتجنب الطاعون الأسود – النوع الذي يتطلّب جهداً مُضنياً وجليسة أطفال للزبون. أنهضُ، مع تنهيد. «ماذا قلتِ اسمك؟».

قالت وقد اعتدلتْ أكثر في جلستها، «أنا لم أقُلْ. اسمي آنّا فيتزجيرالد».

أفتحُ الباب وأصيح في وجه سكرتيرتي، «كيري! هلّا اتصلت برقم هيئة» التخطيط للأبوّة «للآنسة فيتزجيرالد؟».

«*ماذا؟*». عندما استدرتُ، أجد أنَّ الطفلة واقفة. «التخطيط *للأبوّة؟*».

«اسمعي، يا آنّا، خُذي مني هذه النصيحة الصغيرة. إنَّ إقامة دعوى قضائيّة لأنَّ والديك لا يسمحان لك بالحصول على حبوب لمنع الحمل أو لأنَّ اللجوء إلى عيادة إجراء عمليّة إجهاض يُشبهان استخدام مِطرقة لقتل ناموسة. يمكنك أنْ توفّري مصروفك من أجل اللجوء إلى هيئة التخطيط للأبوّة؛ إنها مؤهّلة أكثر للتعامُل مع مشكلتك».

للمرّة الأولى منذ أنْ ولجتُ غرفة مكتبي، ألقيتُ حقاً، وفعلاً نظرةً على الفتاة. كان الغضب الذي يكتنف تلك الطفلة ذا تأثير كهربائيّ. قالت بحرارة، «إنَّ أختي تحتضر، وأمي تريد مني أنْ أهب إحدى كليتيّ لها. وبصورة ما لا أعتقد أنَّ حفنة من الواقيات الذكريّة سوف تحلّ هذه المشكلة».

أتعلَمْ كيف أنك تمرّ بين حينٍ وآخر بلحظةٍ تمتد خلالها حياتك بأكملها أمامك كطريقٍ مُتشعّبة، وحتى وأنت تختار درباً رمليّة تضع عينيك على الأخرى طوال الوقت، متيقّناً من أنك ارتكبتَ خطأً؟ هذا ما يحدث عندما تقترب كيري، وفي يدها قطعة من الورق مُدوّن عليها رقم الهاتف الذي طلبته منها، لكنني أغلق الباب من دون أنْ آخذها وأعود إلى طاولة مكتبي. أقول «لا أحد يستطيع أنْ يجبركِ على أنْ تهبَي عضواً من جسمك إنْ كنتِ لا تريدين».

«أوه، أحقاً؟». وتميل إلى الأمام، وهي تعدّ على أصابعها. «في أول مرّة وهبتُ شيئاً لأختي، كان دم الحبل السرّي، بعد ولادتي مباشرة. وكانت مُصابة بسرطان الدم –أو حالة حادّة من لوكيميا النخاع الشوكي APL– وكانت خلاياي تُخفِّف آلامها. وفي انتكاستها التالية، كنتُ قد بلغتُ الخامسة وأخذوا مني كريّات ليمفاويّة، ثلاث مرات متتالية، لأنّه بدا أنَّ الأطباء لم يكتفوا منها في المرة الأولى. وعندما لم تعد تلك العمليّة تفيد، بدؤوا يأخذون نقي عِظامي لينقلوه إليها. وعندما كانت كيت تصاب بميكروبات مُعدية، كنتُ أُضطرّ إلى إعطائها بلاعم[1]. وعندما كانت تنتكس من جديد، كنتُ أُضطر إلى إعطائها خلايا دم جذعيّة مُحيطيّة».

إنَّ مفردات هذه الفتاة الطبيّة جديرة بأنْ تدفع خبرائي الذين يتلقون أجراً

1– بلاعم: خلايا تقضي على الجراثيم. المترجم.

إلى الشعور بالخزيّ. وأخرجتُ مجموعة من الأوراق القانونيّة من الدرج. «من الواضح أنكِ وافقتِ على أنْ تكوني واهبة لأختك من قبل».

تردَّدتْ، ثم هزَّتْ رأسها نفياً. «لا أحد سألني».

«هل أخبرتِ أبويك بأنكِ لا تريدين أنْ تهبي كليتك؟».

«إنهما لا يُصغيان إليّ».

«قد يفعلان، إذا ذكرتِ هذه المعلومات».

أطرقَتْ عينيها، بحيث إنَّ شعرها غطّى وجهها. «إنهما في الحقيقة لا يوليانني أيّ انتباه، إلّا عندما يحتاجان إلى دمي أو أيّ شيء. ولولا أختي المريضة لما كان لي أي وجود».

إنها وريثة وقطعة احتياطيّة: هذا العُرفُ يعودُ في أصلِه إلى أسلافي في إنكلترا. يبدو قاسياً -إنجاب طفل ثانٍ تحسّباً إذا ما تصادفَ ومات الأول- لكنّه كان ذات مرة عُرفاً عمّلياً بصورة جليّة. وكونها فكرة متأخّرة فقد لا تنطبق جيداً على هذه الطفلة، لكنَّ الحقيقة هي أنَّه في كل يوم يتمّ الحمل بالأطفال لأسبابٍ أقل إثارة للإعجاب: من أجل تثبيت علاقة زوجيّة سيئة؛ من أجل إبقاء اسم العائلة حيّاً؛ من أجل تكوين صورة الأب الخاصّة. وتشرحُ الفتاة قائلة: «لقد أنجباني لكي أُنقِذ كيت. وتردّدا على أطبّاء مُختصّين وكل شيء، وانتقيا الجنين المناسِب تماماً جينيّاً».

كانا قد انضما إلى دورات في عِلم الأخلاق في مدرسة قانونيّة، لكنهما كانا في العموم يُعتبَران إمّا شُجاعَين أو أبلهَين، وكنتُ في المُعتاد أُسقطهما من حِسابي. ومع ذلك، فإنَّ كل مَنْ يُتابع برامج محطة الـ CNN سوف يعلم بأمر الجدل الدائر حول أبحاث الخليّة الجذعيّة. حول مواليد من قطع غيار، وأطفال مُصمَّمين، وعِلم الغدّ من أجل إنقاذ أطفال اليوم.

أنقرُ بقلمي الحبر على طاولة المكتب، وجَدجْ -كلبي- إلى جواري. «ماذا يحدث إذا لم تهبي أختك كلية؟».

«سوف تموت».

«وهل يُرضيك هذا؟».

استقرَّ فم آنّا على شكل خط رفيع. «أنا هنا، ألستُ كذلك؟».

«نعم، أنتِ هنا. إنني فقط أحاول أنْ أفهم ما الذي جعلك ترغبين في اتخاذ موقف حازم، بعد مرور كل ذلك الوقت».

نظرتْ إلى رف الكتب. قالت ببساطة «لأنَّه لا نهاية لهذا الوضع».

فجأة، يبدو كأنَّ شيئاً يهزّ ذاكرتها. فتمد يدها إلى جيبها وتضع مجموعة من الأوراق الماليّة المُجعّدة والقطع النقديّة الصغيرة على طاولة مكتبي. هذا مبلغ 136.87$. أعلمُ أنه ليس كافياً، لكنني سوف أجد وسيلة من أجل الحصول على المزيد».

«إنني أتقاضى مئتين في الساعة».

«من *الدولارات*؟».

«لا يمكن إسقاط عقدٍ من الأصداف[1] في صندوق إيداع المصرف».

«ربما أستطيع أنْ أخرج مع كلبك في نزهة، أو ما شابه».

«إنَّ كلاب الخدمة يخرجون للنزهة مع مالكيهم»، وهززتُ كتفيّ بلا مبالاة. «سوف نجد وسيلة ما».

أصرَّتْ «لا يمكن أنْ تُصبح مُحاميَّ من دون مقابل».

«عظيم، إذن. تستطيعين أنْ تُلمّعي مقابض أبوابي». هذا لا يعني أنني رجل خيِّر، لكنَّ هذه القضيّة، قانونياً، صعبة: هي لا تريد أنْ تهبَ كليتها؛ ولا يمكن لأيّة محكمة في كامل قِواها العقليّة أنْ تُجبِرها على التخلّي عن كليتها؛ ولستُ مُضطراً إلى إجراء أي بحثٍ قانونيّ؛ سوف ينهار الأبوان قبل أنْ نحضر جلسة المحكمة، وبهذا ينتهي الأمر. زيادة على ذلك، سوف توفّر القضيّة لي الكثير من الشعبيّة، وسوف تدعم مصلحتي على مدى عقدٍ لعينٍ كاملٍ من الزمن. أقول: «سوف أُقيمُ لأجلكِ دعوى التماس في المحكمة العائليّة للتحرُّر القانونيّ لأسبابٍ طبيّة».

«ثم ماذا؟».

1- يقصد الوسيلة البدائية التي تتعامل بها القبائل الهمجيّة كبديل للعملة النقديّة. المترجم.

«ثم تُعقَد جلسة استماع، ويُعيِّن القاضي وصيّاً خاصّاً، أي-».

«-أي شخصاً مُدرَّباً للتعامُل مع الأطفال في محكمة العائلة، وهو الذي يُقرِّر ما يجده الأفضل لمصلحة الطفل»، هذا ما تتلوه آنّا، «أو بعبارة أخرى، مجردَ شخصٍ بالغ آخر يُقرِّر ما يحدث لي».

«في الواقع، هكذا يعمل القانون، ولا يمكنكِ التحايُل عليه. ولكنَّ الوصيّ المُعيَّن لا يعتني نظريّاً إلّا بكِ *أنتِ*، وليس بأختك أو بوالديك».

تراقبني وأنا أُخرِجُ أوراقاً قانونيّة وأخطُّ عليها بضع ملاحظات. «هل تمانع في أنْ يُلفَظ اسمك بالعكس؟».

«ماذا؟»، وتوقفتُ عن الكتابة، وحدَّقتُ إليها.

«أنْ يكون كامبل ألكسندر. أنْ تُصبح الكنية هي الاسم الأول، ويُصبح الاسم الأول هو الكنية». سكتتْ. «أو يُصبح شوربة».

«وما دخل هذا بقضيتك؟».

اعترفَتْ آنّا، «لا دخل له، ما عدا أنّه قرار سيء أخذه والداك بالنيابة عنكَ *أنت*».

مددتُ يدي عبر طاولة المكتب وسلَّمتها بطاقة. «إذا كانت لديك أيّة أسئلة، اتصلي بي».

تأخذها، وتُمرِّر أصابعها على الأحرف البارزة لاسمي. اسمي المكتوب بالعكس. إكراماً لله. ثم تميل عبر الطاولة، وتقبض على مجموعة أوراقي، وتُمزِّق الجزء السُّفليّ من الورقة. وتستعير قلمي الحبر، وتدوِّن شيئاً ثم تُعيدها إليّ. ألقي نظرة على الملاحظة التي أحملها بيدي.

آنّا 555-3211 مع حبي

«هذا إذا أردتَ *أنت* أنْ تطرح أي سؤال».

***

عندما أخرج إلى منطقة الاستقبال، تكون آنّا قد غادرتْ وتكون كيريَ جالسة على طاولة مكتبها، وبيان مُصوَّر مفتوح واسعاً أمامها. «هل كنتَ

تعلم أنَّهم كانوا يستخدمون حقائب قماش القنّب ماركة ل.ل بين، من أجل حمل الثلج؟».

«نعم». ومزيج الفودكا وبلودي ميري، الذي كان يُنقَل من الكوخ إلى الشاطئ في صباح كل يوم سبت. وهذا يُذكّرني بأنَّ أمّي اتصلتْ.

كان لكيري نسيبة تكسب عيشها من عملها كوسيطة روحانيّة، وبين حينٍ وآخر كان يظهر ميلها الموروث هذا. أو ربما هي عملتْ عندي فترة طويلة كافية لتعرف معظم أسراري. وعلى أيّة حال، هي تعرف ما يدور في رأسي. «تقول إنَّ والدك على علاقة بفتاة في السابعة عشرة من العمر وإنَّ الكتمان كلمة لا توجد في قاموسه، وإنها سوف تحجز طاولة في مطعم لا باينز إلّا إذا اتصلتَ بها بحلول الساعة...»، تنظر كيري في ساعة يدها، «أخْ».

«كم مرَّة هدَّدتْ بالبوح في هذا الأسبوع؟».

«ثلاث مرات فقط».

«ما زلنا تحت المُعدَّل بكثير»، وأميل فوق طاولة المكتب وأُغلِقُ البيان المُصوَّر. «حان وقت كسب لقمة العيش، يا آنسة دوناتيللي».

«ما الذي يجري؟».

«إنَّ تلك الفتاة، آنّا فيتزجيرالد-».

«بشأن الأبوّة المُخطَّط لها؟».

أقول «ليس بالضبط. سوف نقبلُها عميلة عندنا. وأحتاج إلى إملاء عريضة من أجل الحصول على التحرّر الطبّي، حتى تتمكّني من إرسالها إلى المحكمة العائليّة بحلول الغد».

«*مستحيل*! أنتَ تقبلها عميلة؟».

أضعُ يدي على قلبي. «أنا متألّم لأنكِ تُقلّلين من شأني».

«في الحقيقة، أنا أفكّر في أتعابك الماليّة. هل يعرف أبواها بالأمر؟».

«سوف يعلمان غداً».

«أأنتَ أبله إلى هذه الدرجة؟».

«عفواً؟».

تهزّ كيري رأسها نفياً. «أين ستُقيم الفتاة؟».

جَعلَه السؤالُ يتوقف. في الحقيقة، أنا لم أُفكِّر في هذا. لكنَّ العيش تحت سقفٍ واحد مع فتاة ترفع دعوى ضد والديها ليس بالأمر المُريح، حالما تُسلَّم الأوراق.

فجأة يُصبح جَدجْ إلى جواري، يحفّ أنفه على فخذي. أهزّ رأسي، بانزعاج. إنَّ التوقيت هو الأهمّ. أخبر كيري: «امنحيني خمس عشرة دقيقة، وسوف أتّصل بك حالما أُصبحُ جاهزاً».

تلحّ كيري عليّ، بلا رحمة، «كامبل، لا يمكنكَ أنْ تتوقَّع من طفلة أنْ تدافع عن نفسها».

أهرع إلى غرفة مكتبي، وجدج في إثري، ولا يتوقف إلّا عند عتبة الباب من الداخل. أقول «إنها ليستْ مشكلتي»؛ ومن ثم أغلقُ الباب، وأوصدُه بالمفتاح طلباً للأمان، وأنتظر.

سارة

1990

الرضّة هي بحجم وشكل ورقة برسيم رباعيّة، وتستقرّ بين عظمتيّ الكتف. جِسّ هو الذي اكتشفها، بينما كانا معاً في حوض الاستحمام. سألها «ماما، هل هذا يعني أنّها محظوظة؟».

حاولتُ أنْ أمسحها، مفترضة أنها قذارة، ولم أنجح. وكيت، أيضاً، موضوع التفحُّص، حدَّقَتْ إليّ بعينيها الزرقاوين بلون السيراميك الصيني. أسألُها «أتؤلمك؟»، فتهزّ رأسها نفياً.

في موقع ما من الرواق خلفي، يُخبرني براين عن مُجريات يومه. تفوح منه رائحة دخان خفيفة. يقول «إذن الرجل اشترى علبة من السيجار باهظ الثمن، وأمّنَ عليها ضد الحريق بمبلغ 15,000$. وقريباً سوف تدَّعي شركة التأمين قائلة إنَّ السيجار كلّه ضاع في خضم سلسلة من الحرائق الصغيرة».

أقول، وأنا أشطف الصابون عن شَعر جِسّ، «هو الذي ***دخّنها***؟».

يتّكئ براين على عتبة الباب. «نعم. لكنَّ القاضي حكمَ بأنَّ الشركة ضمنَت السيجار بوصفِهِ قابلاً للتأمين عليه ضد الحريق، من دون أنْ تُحدِّد الحريق ***المقبول***».

يقول جِسّ: «هيه، كيت، أهي تؤلمك الآن؟»، ويضغط بإبهامه، بقوة، على الرضّة التي على عمود أخته الفقريّ.

تصرخ كيت، وتتمايل، وترشّ ماء الاستحمام على كامل جسمي. فأرفعها وأُخرِجها من الماء، لزجة كسمكة، وأُسلِّمها لبراين. يميل الرأسان

بشعرهما باهت اللون معاً، متماثلان. يبدو جِسّ أقرب شَبَهاً بي – نحيلاً، قاتماً، عقلانيّاً. يقول براين هكذا نعلم أنَّ عائلتنا مكتملة، هناك لكلٍّ منا نسخة عنه. أقول لجِسّ: «اخرج من الحوض فوراً».

ينهضُ واقفاً، صبي في الرابعة من العمر يتدفق بالماء، ويتعثّر وهو يجتاز حافة حوض الاستحمام العريضة. ترتطم رُكبته بقوة، وينفجر بالبكاء.

أُدثّر جِسّ بمنشفة، وأُهدِّئ من اضطرابه وأنا أحاول أنْ أستأنف حديثي مع زوجي. هذه هي لغة الـزواج: تشبه رموز مورس، تُحدِّدها مرات الاستحمام ووجبات الطعام وحكايات ما قبل النوم. وأسأل براين: «إذن مَن الذي استدعاك إلى جلسة المحكمة؟ المُدَّعى عليهما؟».

«بل جهة الادّعاء. لقد دفعتْ شركة التأمين النقود، ومن ثم تسبّبتْ في إلقاء القبض عليه بتهمة افتعال أربعة وعشرين حريقاً، واضطررتُ إلى أنْ أكون الخبير العامل لصالحهم».

كان باستطاعة براين، الخبير في إخماد الحرائق، أنْ يدخل إلى مكان مسودّ بتأثير الحريق ويعثر على البقعة التي اندلع فيها اللهب بعقب سيجارة محترق، أو بسبب شريط كهرباء مكشوط. إنّ كل حريق يبدأ بجمرة. وكل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تعرف عمّا تبحث.

«والقاضي رفضَ الدعوى، أليس كذلك؟».

قال براين: «القاضي حكم عليه بالحبس عام واحد على كل قضية من القضايا الأربع والعشرين». يُنزِل كيتْ إلى الأرض ويبدأ بإدخال بيجامتها من فوق رأسها.

في حياتي السابقة كنتُ محامية مدنيّة. وعند نقطة معيَّنة صدَّقْتُ أنَّ هذا ما أردتُ أنْ أكون – لكنَّ ذلك كان قبل أنْ أتلقّى باقة من أزهار البنفسج المسحوقة من طفل بالكاد يمشي. قبل أنْ أفهم أنَّ ابتسامة طفل هي وشم: فنٌ لا يُمحى.

دفع ذلك أختي سوزان إلى حافة الجنون. إنها بارعة في الشؤون الماليّة، حطَّمتِ السقف الزجاجي في مصرف بوسطن، وحسب قولها، أنا تطور عقليّ مهدور. لكنني أعتقد أنَّ نصف المعركة يُبيِّن ما يصلح لأجلك *أنت*،

وأنا أفضل بكثير كأمّ مني كمُحامية. وأحياناً أتساءل إنْ كان هذا حالي أنا وحدي، أم أنَّ هناك نساءً أُخريات يعرفنَ أين يجب أنْ يكون موقعهنَّ إذا لم يتّجهنَ وِجهة معيَّنة.

رفعتُ نظري عن جِسّ الذي كنتُ أُجفّفه، فوجدتُ أنَّ براين يحدِّقُ إليّ. يسألني بهدوء: «هل تفتقدين المهنة، يا سارة؟».

دثّرتُ ابننا بالمنشفة وقبّلته على قمّة رأسه. وأقول: «كما أفتقد قناة أساسيّة[1]».

عندما أستيقظُ في صباح اليوم التالي، يكون براين قد غادر إلى مركز عمله. إنه يعمل يومَين، ثم ليلتين، ثم يأخذ إجازة أربعة أيام، وبعد ذلك تتكرَّر هذه الدورة من جديد. أنظر إلى ساعة الحائط، وأدركُ أنني نمتُ إلى ما بعد الساعة التاسعة. والمُذهل في الأمر أكثر هو أنَّ أولادي لم يوقظوني. أهرع هابطة الدَّرَج، وأنا بمبذل النوم، فأجد جِسّ يلعب على الأرض بقطع من الخشب. يُبلِغني «أنا تناولتُ طعام الإفطار، وأعددتُ وجبة لك أيضاً».

وهذا صحيح، فهناك حبوب حنطة مبعثرة على امتداد سطح طاولة المطبخ، وثمة كرسيّ في وضعٍ متقلقلٍ خطِر موضوع تحت الخزانة التي تضمّ رقائق الذرة. وهناك خط أثر من الحليب يمتد من البرّاد إلى الطاس. «أين كيت؟».

يقول جِسّ: «نائمة. حاولتُ أنْ أوقظها مراراً».

إنَّ أولادي هم ساعات منبهة بالفِطرة؛ واستمرار كيت في النوم حتى وقتٍ متأخِّر جداً يدفعني إلى تذكُّر أنّها كانت مُصابة بزكام مؤخّراً، وأتساءل إنْ كان ذلك هو سبب كونها مُرهقة في الليلة السابقة. ارتقي إلى الطابق العُلويّ، وأنا أنادي اسمها بصوتٍ مرتفع. في غرفة نومها تتدحرج نحوي، منتقلة من الظلام لكي تُركِّز نظرها على وجهي.

أرفعُ الستائر: «انهضي وانتعشي»، وأتركُ أشعة الشمس تنتشر على

1- المقصود بها قناة السن في الفم التي تمرّ من خلالها الأعصاب والشعيرات الدمويّة إلى تجويف اللب. المترجم.

أغطيتها. أجعلُها تجلس باستقامة وأدعكُ ظهرها. أقول: «دعينا نُلبسك»، وأخلعُ عنها بيجامتها بدءاً بالرأس.

كانت هناك سلسلة من الرضوض على طول خط عمودها الفقريّ، تشبه خطّاً من الحجارة الكريمة الصغيرة الزرقاء.

***

أسألُ طبيب الأطفال «فقر دم، صح؟ إنَّ الأطفال الذين في مثل سنّها لا يُصابون بالمونو[1]، أليس كذلك؟».

يُبعِد الدكتور وين السمّاعة عن صدر كيت الضيِّق ويُعيد قميصها الزهريَّ إلى مكانه. «يمكن أنْ يكون السبب جرثومة. أريد أنْ آخذ عيِّنة من الدم وأُجري بعض الاختبارات».

بينما جِسّ يلعب بصبر مع إحدى دُمى GI Joe فقدتِ الدمية رأسها، يرفع رأسه لسماع هذا النبأ. «أتعرفين كيف يسحبون[2] الدم، يا كيت؟».

«بأقلام التلوين؟».

«بل ***بالإبر***. إبر كبيرة وطويلة يغرزونها كالحقنة في-».

أحذّره «جِسّ».

تزعق كيت «حقنة؟ مؤلِمة؟».

تُحدِّقُ ابنتي، التي تثقُ فيَّ لأُخبرها متى يكون عبور الشارع آمناً، وفي شأنْ تقطيع اللحم الذي ستأكله إلى قِطع صغيرة، ولأحميها من كل الأشياء المُرعِبة كالكلاب الضخمة والظلام والألعاب الناريّة المتفجّرة، تُحدِّقُ في وجهي بترقُّبٍ عظيم. أعِدها «إنّها مجرد حقنة صغيرة».

عندما يحين موعد مجيء ممرضة الأطفال مع صينيّتها، وحقنها، وزجاجاتها، وقطعة المطاط التي توقِف النزف، تبدأ كيت بالصراخ. وآخذُ نَفَساً عميقاً. «كيت، انظري إليّ». يخفتُ صراخها حتى يُصبحُ فواقاً قصيراً. «لن تشعري إلّا بوخزٍ بسيط».

1- المونو جرثومة مُعدية أحاديّة الخليّة، تنتقل عبر اللعاب. المترجم.
2- بالإنكليزيّة كلمة draw تعني يسحب أو يشفط، وتعني أيضاً يرسم. المترجم.

يهمسُ جِسّ بصوت خافت «كاذبة».

تسترخي كيت، قليلاً جداً فقط. وتُمدِّدها على طاولة الفحص وتطلب مني أنْ أُثبِّت كتفيها. وأراقبُ الإبرة وهي تخترق البشرة البيضاء لذراعها؛ وأسمعُ الصرخة المُفاجئة - ولكن لم يتدفّق أي مقدار من الدمّ. تقول الممرضة: «آسفة، يا حبيبتي، يجب أنْ أُكرِّر المُحاولة». وتُخرِج الإبرة، وتحقن كيت من جديد، التي يُصبح عويلها أعلى.

تكافح كيت برصانة خلال الجرعة الأولى والثانية. وفي الجرعة الثالثة تسترخي تماماً. لا أعلم أيّها أسوأ.

***

ننتظر ظهور نتائج فحص الدم. وعلى سجادة غرفة الجلوس ينبطح جِسّ على بطنه، ويلتقط كل أنواع الجراثيم من الأطفال المرضى الذين يترددون على هذا المكتب. إنَّ ما أريد هو أنْ يخرج طبيب الأطفال، ويطلب مني أنْ أرافق كيت إلى المنزل وأجعلها تشرب الكثير من عصير البرتقال، ويُلوِح بوصفة طبيّة بتناول مُضادّ حيويّ أمامنا كأنها عصا سِحريّة.

تمرُّ ساعة قبل أنْ يستدعينا الدكتور وين من جديد إلى غرفة مكتبه. يقول: «كانت التحاليل التي أُجريَتْ على كيت مُبهَمة قليلاً. وبالتحديد، إنَّ عدد الخلايا البيضاء قليلة، بل أقلّ بكثير من العدد المعتاد».

«ما معنى هذا؟». في تلك اللحظة، ألعنُ نفسي لأنني التحقتُ بكليّة الحقوق، وليس بكليّة الطب. وأحاول أنْ أتذكَّر وظيفة الخلايا البيضاء.

«ربما هي مُصابة بما يُشبه نقصاً في المناعة الذاتيّة. أو ربما هناك خطأ مِخبريّ» ويلمس شَعر كيت. «أعتقد، فقط من باب الأمان، أنّني سوف أرسلك إلى طبيب مُختص في فحص الدم في المستشفى، لكي يُعيد إجراء فحص الدم».

وأفكِّر بيني وبين نفسي: ***لابد أنكَ تمزح***. ولكن بدل أنْ أقول هذا، أراقبُ يدي تتحرّك من تلقاء نفسها لتأخذ قطعة من الورق كان الدكتور وين قد أعطاني إياها. إنها ليست وصفة طبيّة، كما كنتُ آمل، بل اسم. ***إليانا فرقد، مستشفى بروفيدانس، قسم تحليل الدم/ علم الأورام.***

«عِلم الأورام» وأهزّ رأسي رفضاً. «ولكن هذا قسم سرطان». وأنتظر الدكتور وين أنْ يُطمئنني بقوله إنّه فقط جزء من لقب الطبيب، لكي يُبيِّن لي أنَّ مُختبَر الدم وقسم السرطان يشتركان ببساطة في الموقع نفسه، لا أكثر.

لكنّه لا يفعل.

***

يُخبرني موزّع المهام في مركز الإطفاء أنَّ براين في مهمّة طبيّة. وقد غادر على متن شاحنة إنقاذ قبل عشرين دقيقة. وأتردَّد، وأنظر إلى كيت، التي كانت قد غفَتْ على أحد المقاعِد البلاستيكيّة في غرفة انتظار المستشفى. مهمّة طبيّة.

أعتقد أنّه في حياتنا مفترَق طُرُق نأخذ عندها قرارات ضخمة، كاسحة من دون حتى أنْ نُدرك ذلك. كأننا نستعرض العناوين الكبرى في الصحف تحت ضوء أحمر، ولذلك لا نرى شاحنة النقل المتعدّية التي تجتاز خط حركة المرور وتتسبّب في وقوع حادث اصطدام. وفي لحظة نزوة تدخلين مقهى وتُقابلين الرجل الذي سوف تتزوجين منه ذات يوم، وهو يبحث عن قطع نقديّة صغيرة على منضدة المُحاسبة. وفي لحظة أخرى؛ تطلبين من زوجك أنْ يُقابلك، في حين أنك كنتِ على مدى ساعات طوال تحاولين إقناع نفسك بأنَّ هذا ليس بالأمر الهامّ.

أقول: «اتّصلْ به لاسلكيّاً. أخبره بأننا في المُستشفى».

إنَّ وجود براين إلى جانبي يُشعرني بالارتياح، وكأننا الآن اثنان من الحرس، كأنّنا خطّا دفاع مزدوج. إننا موجودان في مستشفى بروفيدانس منذ أربع ساعات، ومع مرور كل لحظة مُلحّة يُصبح من الأصعب أنْ نخدع نفسينا ونُصدِّق أنَّ الدكتور وين ارتكبَ خطأً. إنَّ جِسّ نائم على كرسيّ بلاستيكيّ. وكيت خضعَتْ لعملية سحب دم رضّيّة أخرى، ولتصوير صدرها بالأشعة السينيّة، لأنني ذكرتُ أنّها مُصابة بالبرد.

يقول براين بحذر للمُقيم الجالس أمامه حاملاً لوحاً مع أوراقٍ مُثبّتَةً به: «خمسة أشهر»، ثم ينظر إليّ. «أليس ذلك عندما بدأتْ تتدحرج؟».

«أعتقد ذلك؟». كان الطبيب حينئذٍ قد سألنا عن كل شيء بدءاً بما كنا نرتدي في الليلة التي حملتُ بكيت وانتهاءً بالوقت الذي بدأتْ فيه تُحسِن حَمْل الملعقة.

ويسأل: «والكلمة الأولى التي نطقتها؟».

يبتسم براين. «دادا».

«أقصد متى حدث ذلك؟».

يتجهّمَ. «أوه. أعتقد أنها كانت خجلة».

أقول: «عفواً، هلّا أخبرتني عن أهميّة أي من هذا؟».

إنه مجرد تاريخ طبيّ، سيدة فيتزجيرالد. نريد أنْ نعرف قدر الإمكان عن ابنتك، لكي نفهم طبيعة مرضها».

تقترب امرأة شابة، تلبس رداء المِخبر: «أنتما السيد والسيدة فيتزجيرالد؟ أنا اختصاصيّة شقّ الوريد. تريد الدكتور فرقد مني أنْ أضع جدولاً بحالات تخثّر الدم عند كيت».

عند سماعها رنين اسمها، تطرف كيت عينيها من مجلسها على حِجري. وتلقي نظرة واحدة على المعطف الأبيض وتدسّ ذراعيها داخل كُمّيّ قميصها.

«ألا تستطيعين أنْ تحصلي عليه من طرف الإصبع؟».

«كلا، هذه الطريقة أسهل كثيراً».

فجأة تذكّرتُ كيف كانت كيت تُصاب بالفواق وأنا حبلى بها. كانت بطني ترتعش على مدى ساعات. كانت كل حركة تصدر عنها، مهما كانت صغيرة، تُجبرني على فعل شيء لا سيطرة لي عليه.

أقول بهدوء: «أتعتقدين أنَّ هذا ما أريد أنْ أسمعه؟ إذا ذهبتِ إلى الكافيتيريا وطلبتِ قهوة، فهل سيعجبك إذا أعطاك أحدهم كوكاكولا، لأنَّ من الأسهل الوصول إليها؟ وإذا ذهبت لكي تُسدّدي ثمن شيء بالبطاقة الائتمانية، فهل سيعجبك إذا قيل لك إنَّ هذا أمر صعب وإنَّ الأفضل أنْ تدفع نقداً؟».

«سارة». بدا صوت براين أشبه برياح نائية.

«أتعتقدين أنّه سهل عليّ أنْ أجلس هنا مع طفلتي ولا أعرف ما الذي

يحدث أو لماذا تُجرى كل تلك الفحوصات؟ أتعتقدين أنّه أمر سهل عليها *هي*؟ منذ متى لأي إنسان الخَيار ليقوم بالعمل *الأسهل*؟».

«*سارة*». لم أدرك كم كنتُ أرتعش إلّا بعد أنْ وضع براين يده على كتفي.

تمرّ برهة أخرى ثم تبتعد المرأة مُسرعة، وقبقابها يضرب أرضيّة القرميد. وحالما تغيب عن الأنظار أهدأ.

يقول براين: «سارة، ما خطبك؟».

«ما خطبي *أنا*؟ لا أعلم، يا براين، لأنَّ لا أحد يأتي ليُخبرنا ما خطب الـــ».

يضمّني بين ذراعيه، وكيت محجوزة بيننا كلهاث. يقول «هسسس». ويخبرني بأنَّ كل شيء سيكون على ما يُرام، وللمرة الأولى في حياتي لا أصدّقه.

فجأة تدخل الدكتورة فرقد الغرفة، ولم نكن قد رأيناها منذ ساعات طوال. «أسمعُ أنَّ هناك مشكلة صغيرة في جدول التخثّر». وتجرّ كرسيّاً لتجلس عليه أمامنا. «ثمة نتائج غير عاديّة في تعداد الدم[1]. إنَّ عدد الكريات البيضاء في الدم منخفض جداً – يبلغ 1.3، والهيموغلوبين يبلغ 7.5، والهيماتوكريت 0.6. وأعدادٌ كهذه تشير أحياناً إلى مرض في المناعة الذاتيّة. لكنَّ كيت تُنتج 12% من البروميلوسايت، وخمسة في المئة آفات، وهذا يُشير إلى أعراض اللوكيميا».

أردِّد «لوكيميا». تتسرب الكلمة، تنزلق كبياض بيضة.

تومئ الدكتورة فرقد برأسها إيجاباً. «لوكيميا يعني سرطان الدم».

اكتفى براين بالتحديق إليها، بعينين ثابتتين. «ما معنى هذا؟».

«تخيَّل نقي العِظام كأنه مركز للعناية بالطفل من أجل تطوير الخلايا. إنَّ الأجسام الصحيحة تُنتِج خلايا الدم التي تستقرّ في النقي إلى أنْ تصل إلى مرحلة النضج الكافي لكي تخرج وتكافح المرض أو التخثّر أو تحمِل الأكسجين أو كائناً ما كان ما يجدر بها أنْ تفعل. وعند الشخص المُصاب باللوكيميا تُفتَح أبواب مركز العناية بالطفل قبل الأوان بكثير. وينتهي الأمر بخلايا الدم غير الناضجة إلى الدوران عاجزة عن أداء عملها. وليس أمراً

1- أي عدد الكريات الحمراء والبيضاء في الدم. المترجم.

غريباً دائماً رؤية بروميلوسايت في العدد الكامل لخلايا الدم، ولكن عندما تفحّصنا دم كيت تحت المجهر، رأينا أشياء شاذّة». ونظرتْ إلى كلينا على التوالي. «أنا في حاجة إلى سحب الغاز من نقي العِظام لكي نتيقّن، ولكن يبدو أنَّ كيت مُصابة بحالة حادّة من لوكيميا البروميلوسايت».

تجمّدَ لساني من ثِقِل السؤال الذي أخرجه براين، بعد ذلك بلحظة، قسراً من حنجرته: «هل... هل ستموت؟».

أردتُ أنْ أهزّ الدكتور فرقد. أردتُ أنْ أخبرها أنني سأسحب الدم بنفسي من ذراعيّ كيت من أجل جدول التخثّر إنْ كان ذلك سيجعلها تتراجع عمّا قالته: «إنَّ حالة اللوكيميا البروميلوسايت الحادّة هي حالة فرعيّة نادرة جداً من لوكيميا النخاع الشوكي. لا يُصاب بها كل عام إلّا 1200 شخص. ونسبة نجاة المرضى بلوكيميا البروميلوسايت تتراوح بين العشرين إلى ثلاثين بالمئة، إذا بدأتِ المُعالجة في الحال».

أبعدتُ الأرقام عن ذهني وبدل ذلك تشبّثتُ ببقيّة جُملتها. كررتُ القول: «وهناك علاج».

«نعم. ومع العلاج الصارم، فإنَّ النجاة من لوكيميا النخاع الشوكي مُحتَمَل خلال تسعة أشهر إلى ثلاث سنوات».

في الأسبوع الفائت، وقفتُ على عتبة باب غرفة نوم كيت، أراقبها وهي تتشبّث بغطاء الأمان الساتان في أثناء نومها، وهو قطعة من القماش تكاد لا تفارقها. وهمستُ لبراين، ***تذكّر كلامي، لن تتخلّى عن هذه القطعة أبداً. سوف أضطر إلى تثبيتها بخياطتها في بطانة ثوب عرسها***.

«سوف نُضطر إلى إجراء عملية تنقية نقي العِظام من الغاز. سوف نُخدِّرها بمُخدِّر عام خفيف. ونستطيع أنْ نضع جدول التخثّر في أثناء نومها». مالت الطبيبة إلى الأمام، متعاطفة. «يجب أنْ تعلمي أنَّ الأطفال يهزمون المصاعب. في كل يوم».

يقول براين: «حسن». ويُصفِّق بيديه، وكأنّه يستعد لخوض مباراة في كرة القدم، «حسن».

تُبعِد كيت رأسها عن قميصي، وقد تورّدتْ وجنتاها، وانتبه تعبير وجهها.

هذا خطأ. إنَّ زجاجة الدم المشؤوم التي حلّلتها الطبيبة تخصّ شخصاً آخر. انظر إلى طفلتي، إلى خصلات شَعرها الهفهاف اللامع، وإلى ابتسامتها التي تشبه طيران فراشة – هذا ليس وجه شخص يحتضر بالتدريج.

لم أعرفها إلّا منذ عامين. ولكن إذا أخذتَ كل ذكرى، وكل لحظة، إذا وضعتها جنباً إلى جنب – فسوف تمتد إلى ما لانهاية.

جمعوا غطاء السرير ووضعوه تحت بطن كيت. وربطوها إلى طاولة الفحص، بشريطَين طويلَين. داعبتْ إحدى الممرضات يد كيت، حتى بعد أنْ بدأ مفعول المُخدِّر واستغرقَتْ في النوم. عُرِّيَ الجزء السفليّ من ظهرها استعداداً لتلقّي الإبرة الطويلة التي سوف تخترق عرف الحرقفة[1] من أجل استخلاص النقيّ.

عندما أداروا وجه كيت بلطف إلى الجهة الأخرى، كان منديل الورق تحت وجنتها رطباً. لقد علَّمتني ابنتي أنَّه ليس من الضروري أنْ يكون المرء يقظاً حتى يبكي.

في طريق عودتنا بالسيارة إلى المنزل، يخطر في بالي فجأة أنَّ الأرض قابلة للانتفاخ – الأشجار والعشب والمنازل قد تنهار مع أقلّ وخز من رأس دبوس. ينتابني إحساسٌ بأنني إذا انعطفتُ بالسيارة إلى اليسار، واصطدمتُ بالأسلاك الشائكة وبملعب ليتل تايكس، فسوف نرتدّ إلى الخلف كمِصدّ مطاطيّ للصدمات.

تجاوزنا شاحنة تحمل على جنبها عبارة ***شركة باتشيلد كاسكيت. قُدْ بأمان***. أليس هذا تضارُباً في المصالح؟

تجلس كيت في مقعدها بالسيارة، تأكل سكاكر على شكل حيوانات. تأمر «العبْ».

في المرآة الخلفيّة، تنعكس صورة وجهها الوضّاء. ***إنَّ الأشياء هي***

1- عرف الحرقفة: الحرقفة هي عظمة عريضة تشكل الجزء العلوي لمفصل الفخذ وهي أحد أجزاء عظم الورك، ولها أربع زوايا ويصل بين الزاويتين العلويتين الأمامية والخلفية قوس يسمى عرف الحرقفة. المترجم.

أقرب مما تبدو. أراقبها تُمسك بقطعة السكاكر الأولى. أنجح في قول «ماذا يقول النمر؟».

«يُزمجر رررررور»، وتقضم رأسه، ثم تُلوِّح بقطعة سكاكر أخرى.

«وماذا يقول الفيل؟».

تقهقه كيت، ثم تُصدر صوتاً هادراً من أنفها.

أتساءل هل ستموت في أثناء نومها. وهل ستبكي. هل ستكون معها ممرضة رقيقة تُعطيها مُسكّناً لآلامها. تخيّلتُ طفلتي وهي تحتضر، في حين أنّها سعيدة وتضحك على مسافة قَدَمَين خلفي.

تسأل كيت: «ألنْ تسألي ماذا تقول الزرافة؟ الزرافة؟».

إنَّ صوتها مُفعمٌ بالمُستقبل. أُجيب «الزرافات لا تقول أي شيء».

«لماذا؟».

أخبرها «لأنها وُلِدَتْ هكذا»، ثم أشعر بحنجرتي تنتفخ وتخنقني.

يرنّ جرس الهاتف وأنا أدخل من الباب عائدة من منزل الجارة، بعد أنْ اتّفقتُ معها على أنْ تعتني بجِسّ بينما أنا أعتني بكيت. لم يكن بيننا اتّفاقٌ رسميّ بهذا الشأن. كانت جليسة أطفالنا الوحيدة ما تزال في المدرسة الثانويّة؛ والأجداد الأربعة كلهم متوفون؛ ولم نتعامل قط مع مُربيات نهاريات أبداً – كان الاعتناء بالأطفال هو عملي.

مع وصولي إلى المطبخ، كان براين منهمكاً في حديث مع المُتّصِل، وشريط الهاتف يلتفّ حول رُكبتيه، كالحبل السرّي. يقول: «نعم، شيء لا يُصدَّق. لم أتمكن في هذا الموسم من حضور مباراة واحدة... لا نقاط، الآن بعد أنْ تاجروا به». تقابل عيناه عينيّ بينما أضع إبريق الشاي على النار. «أوه، سارة عظيمة. والأطفال، آه – هاه، إنهم في أحسن حال. نعم. انقل أفضل أمنياتي للوسي. شكراً على اتصالك، يا دون»، ويُنهي المكالمة؟. يشرح لي: «إنّه دون ثرمن، من أكاديميّة الإطفاء، أتتذكرينه؟ شاب ظريف».

بينما هو يُحدِّقُ إليّ، تنسحب الابتسامة الرقيقة عن وجهه. ويبدأ إبريق

الشاي بالصفير، ولكن لا يأتي أيٌّ منا بأيّة حركة لرفعه عن الموقد، وأنظر إلى براين، وأعقد ذراعيّ على صدري.

يقول بهدوء: «لم أستطع، يا سارة، لم أستطع».

في السرير في تلك الليلة، يبدو براين أشبه بمسلّة فرعونيّة، بشكل يشقّ جوف الظلام. وعلى الرغم من أننا لم نتبادل الحديث على مدى ساعات طوال، إلّا أنني أعلم أنّه يقِظ مثلي تماماً.

إنَّ هذا يحدث لنا لأنني صرختُ في وجه جِسّ في الأسبوع السابق، وبالأمس، وقبل لحظات. هذا يحدث لأنني لم أشتر لكيت حلوى M&Ms التي رغبت فيها في متجر البقاليّة. هذا يحدث لأنني تساءلتُ، لجزء من اللحظة، كيف كانت حياتي ستُصبح لو لم أُنجب أطفالاً. يحدثُ هذا لأنني لم أُدرك كم كان ذلك جيداً.

يسألني براين: «أتعتقدين أننا نحن الذين تسبّبنا بهذا لها؟».

ألتفتُ نحوه: «تسبّبنا به لها؟ كيف؟».

«عبر جيناتنا، تعلمين كيف».

لم أُجِب.

يقول بشراسة: «إنَّ مستشفى بروفيدانس لا تعرف أيّ شيء. أتذكرين عندما كسر ابن الرئيس ذراعه اليُسرى، ووضعوا له جبيرة في ذراعه اليُمنى؟».

أحدِّقُ من جديد إلى السقف. أقول بصوت مرتفع أكثر مما كنتُ أنوي: «ومع ذلك، لن أدع كيت تموت».

إلى جواري ضجيج مُريع - كأنين حيوانٍ جريح، كشهيق شخص يغرق. ثم يضغط براين وجهه على كتفي، يجهشُ داخل جلدي. ويُحيطني بذراعيه ويتمسّك بي كأنّه يفقد توازنه. أُكرر: «لن أدعها»، لكنَّ ذلك يبدو، حتى لنفسي، كأنني أبذل أقصى جهدٍ.

براين

كلما ازدادتْ حرارة نار تشتعل مقدار تسع عشرة درجة، يتضاعف حجمها. هذا ما أفكّر فيه وأنا أراقب شرراً ينبعث من مدخنة مِرمد[1]، كألف نجم جديد. يلوي عميد كليّة الطب في جامعة براون يديه وهو بجواري. إنني أتصبَّبُ عرقاً، وأنا داخل معطفي.

اشترينا مُحرِّكاً، وسُلَّماً، وشاحنة إنقاذ. وقدَّرنا حجم جدران المبنى الأربعة كله، وتيقّنا من أنَّ لا أحد في الداخل. حسن، ما عدا الجثّة العالقة داخل المِرمد، وتسبّبتْ في هذا.

يقول العميد: «كان رجلاً ضخم الجثّة. هذا ما نفعل دائماً بالمواضيع بعد انتهاء دروس التشريح».

يصرخ بولي: «هيه، كاب». في هذا اليوم، هو مُشغِّل مضخّتي الرئيسيّة. «لقد أعدَّ ريد الخرطوم. أتريد مني أنْ أشحن خطّاً؟».

لستُ متأكّداً بعد من أنني سأرفع صنبوراً. إنَّ هذا الفرن صُمِّمَ لكي يستهلك نفايات على درجة 1,600 فهرنهايت. والنار تكتنف الجثّة من فوق ومن تحت.

يقول العميد: «حسنٌ، ألنْ تفعل شيئاً؟».

إنه أكبر خطأ يرتكبه روكي؛ أي افتراضُ أنَّ مكافحة الحريق تعني الاندفاع إلى الداخل مع سيل من الماء. أحياناً، هذا يُزيد الأمر سوءاً. وفي هذه الحالة سوف ينشر نفايات خطرة في أرجاء المكان كلّه. أعتقد أننا بحاجة إلى أنْ

1- المرمد: موقد إحراق القمامة. المترجم.

نُبقي الفرن مُغلقاً، ونتيقّن من أنَّ النار لا تخرج من المدخنة. إنَّ النار لا تبقى مشتعلة إلى الأبد. إنّها في نهاية المطاف تستنفد نفسها.

أخبره: «نعم، سوف أنتظر وأرى».

عندما أعمل خلال نوبة الليل، أتناول وجبة العشاء مرّتين. الوجبة الأولى في وقتٍ مُبكِّر، وجبة مُرفهة أعدَّتها العائلة نجلس خلالها كلنا معاً حول المائدة. وفي هذه الليلة، تعدُّ سارة لحماً مشوياً، يتبوّأ المائدة كطفلٍ نائم وهي تنادي علينا لنتناول العشاء.

كيت هي أول مَنْ يتسلل إلى مقعدها. أقول: «مرحباً حبيبتي» وأضغط على يدها. وعندما تبتسم لي، تمتد الابتسامة حتى عينيها. «ماذا كنتِ تفعلين؟».

إنها تُبعد حبّات البقول إلى أطراف طبقها. «كنتُ أُنقذ بلدان العالم الثالث، وأُفتّتُ بضع ذرات، وأُنهي قراءتي للرواية الأميركيّة العظمى. وفيما بين هذا وذاك أخضعُ للديلزة، طبعاً».

«طبعاً».

تستدير سارة ملوّحة بسكين. فأنكمش على نفسي مبتعداً وأقول: «مهما كان ما فعلت، أنا آسف عليه».

تتجاهلني. «هلّا قطَّعْتَ اللحم المشوي؟».

أتناول أداة التقطيع وأغرزها في اللحم المشوي بينما يتسلَّل جِسّ إلى المطبخ. إننا نسمح له بالإقامة فوق المرأب، ولكنْ يُطلَبُ منه أنْ يتناول الطعام معنا؛ هذا جزء من الاتّفاق. عيناه حمراوان كعينيّ الشيطان؛ وملابسه ملوّثة بدخان اللحم. تتنهّد سارة «انظروا إلى هذا»، ولكن عندما أستدير، أرى أنّها تُحدِّقُ إلى اللحم المشويّ. «إنه شيء نادر حقاً»، وترفع المقلاة عالياً بيديها المُجرّدتين، وكأنَّ بشرتها مكسوّة بطبقة من الحرير الصخري الذي لا يحترق، وتُعيد قطعة اللحم إلى الفرن.

يمدّ جِسّ يده نحو طاس هريس البطاطا ويبدأ بملْء طبقه منه. يكدّسه، ويُعيد تكديسه.

تقول كيت، وهي تلوّح بيدها أمام وجهها: «رائحتكَ كريهة».

يتجاهلها جِسّ، وهو يلتهم لقمة من البطاطا. أتساءل ماذا يُقال عني

لأنني أتعرَّف على الحشيش الذي يسري في جسمه، في مقابل بعض الأنواع الأخرى –حبوب النشوة، والهيروين، ويعلم الله ماذا أيضاً– التي تكاد لا تترك أثراً يُذكَر.

تتمتم كيت: «ليس كلنا نستمتع بالمُخدِّر».

يجيب جِسّ: «ليس كلنا نستطيع أنْ نحصل على المُخدّرات من خلال الأنبوب المجهري[1]».

ترفع سارة يديها: «من فضلك، هلّا توقفنا عن... الـ؟».

تسأل كيت «أين آنّا؟».

«ألم تكن في غرفتك؟».

«لم تكن هناك منذ الصباح».

تُبرِزُ سارة رأسها من خلال باب المطبخ. «آنّا! العشاء!».

تقول كيت، وهي تشدّ قميصها الرياضيّ: «انظروا ماذا اشتريتُ اليوم». كان ذا ألوان مُبهرجة، وثمة رسم لسرطان بحر في المقدّمة، وكلمة سرطان، «هل فهمتم؟».

«أنت من برج الأسد». بدا كأنَّ سارة على شفا البكاء.

سألتُ، لكي أُلهيها، «كيف وجدتِ اللحم المشوي؟».

حينئذٍ بالضبط، دخلتْ آنّا المطبخ. ارتمتْ على كرسيها وغاص رأسها. تقول كيت أين كنتِ؟».

«في الجوار». نظرتْ آنّا إلى الطبق، ولكن من دون أنْ تبذل أي جهد لتتناول الطعام.

هذه ليستْ آنّا. إنني متعودة على التشاجر مع جِسّ، لتخفيف العبء عن كاهل كيت؛ لكنَّ آنّا وفيّة لعائلتنا. وآنّا تدخل مبتسمة، وتخبرنا عن عُصفور الدوري الذي عثرت عليه مكسور الجناح ووجنته محمرَّة؛ أو عن الأم التي رأتها في سوق وول–مارت وفي صحبتها ليس فقط توأم بل توأمين. وتُضفي علينا آنّا الكآبة، ورؤيتها جالسة هناك غير متجاوبة يدفعني إلى إدراك أنَّ للصمت ضجيجاً.

1- يُشير إلى الأنبوب الموصول بكيت لأسباب علاجيّة. المترجم.

أسأل: «هل حدث أمر اليوم؟».

ترفع بصرها إلى كيت، مُفترِضَة أنَّ السؤال موجَّه إلى أختها، ومن ثم تجفل عندما تُدرك أنني أوجّه كلامي إليها. «كلا».

«هل تشعرين بأنك بخير؟».

من جديد، أبدتْ آنّا ردّة فعل متأخّرة؛ هذا السؤال في المعتاد نُخصّصه لكيت. «أنا بخير».

«أسألكِ هذا لأنكِ، في الحقيقة، لا تأكلين».

تنظر آنّا نحو الأسفل إلى طبقها، فتلاحظ أنّه فارغ، وتملؤه بكميّة كبيرة من الطعام. وتملأ فمها بملء ملعقتين من الفاصولياء الخضراء.

أتذكّر فجأة عندما كان الأطفال وهم صِغارٌ جداً يُحشرون في المقعد الخلفي للسيارة كالسيجار المصفوف داخل العلبة، وأغني لهم، آنّا آنّا بو بانّا، بانانا فانو فو فانّا، مي ماي مو مانّا... آنّا. (ويصرخ جِسّ بصوتٍ مرتفع، «تشكْ، دو تشك!»).

تُشير كيت إلى عنق آنّا. «هيه، قلادتك مفقودة».

إنها تلك التي أعطيتُها لها، قبل سنين عديدة. ترتفع يد آنّا إلى ترقوتها. أسألها: «هل أضعتِها؟».

تهزّ كتفيها استخفافاً. «ربما لا رغبة لديّ في وضعها».

إنها لا تخلعها أبداً، حسب عِلمي. تُخرِجُ سارة قطعة اللحم المشوي من الفرن وتضعها على المائدة. وبينما ترفع السكين لتقطّعها، تنظر إلى كيت. وتقول: «بمناسبة الحديث عن الأشياء التي لا نرغب في ارتدائها، اذهبي وارتدي قميصك».

«لِمَ؟».

«لأنني أريد هذا».

«هذا ليس سبباً».

تغرز سارة السكين في اللحم المشوي. «لأنني أرى أنّه شيء مُهين على مائدة العشاء».

«إنّه ليس مُهيناً أكثر من قمصان جِسّ التي تحمل شخصيات ميتلْهيد[1]. ماذا كنتَ ترتدي بالأمس؟ ألاباما ثندر بوسي[2]؟».

أدار جِسّ عينيه نحوها. هذا التعبير بالوجه سبقَ أنْ رأيناه: إنه لحصان من فيلم ويسترن إيطاليّ، أصبحَ يعرج، قُبل برهة من إطلاق رصاصة الرحمة عليه.

تعمل على قطع اللحم الذي كانَ ورديّ اللون من قبل، وأضحى الآن قطعة مطبوخة أكثر مما ينبغي. تقول «اسمعي، أصبح اللحم فاسداً».

«إنه جيد». تناولتُ القطعة التي نجحتْ في شقّها عن الباقي وقضمتُ منها أصغر قطعة. كان يمكن أنْ يكون ما أمضغ هو قطعة من الجلد. «لذيذة. سوف أهرع إلى المحطة وأُحضِر موقد لِحام لكي نقدِّم قطعة لكل شخص».

تطرف سارة بعينيها، ومن ثم تُطلِق ضحكة تشبه الفقاقيع. وتقهقه كيت. حتى جِسّ يرسم ابتسامة.

هنا أدركُ أنَّ آنّا غادرت المائدة، والأهمَّ من هذا هو أنَّ لا أحد لاحظَ ذلك.

في المحطة، نجلس نحن الأربعة في المطبخ في الطابق العلويّ. كان ريد يعدّ ما يشبه الصلصة على الموقد؛ وكان بولي يقرأ مجلّة **بروجو**، وسيزار يكتب رسالة عن المرأة مادة الشهوة هذا الأسبوع. راقبه ريد وهزَّ رأسه. «يجب أنْ تُسجلها على قرص وتطبع منها عدداً من النسخ دفعة واحدة».

سيزار هو مجرد لقب. ابتكره بولي قبل سنين، لأنه دائماً يطوف. يقول سيزار: «حسن، هذه المرأة مختلفة».

«نعم، لقد دامت يومين *كاملَين*». ويصبّ ريد معكرونة الباستا في مِصفاة داخل المغسلة، ويرتفع البخار حول وجهه. «فيتز، هلّا أعطيتَ الفتى بعض المؤشرات؟».

«ولِمَ أنا؟».

رفع بولي نظره من فوق حافة الورقة. يقول: «إهمال»، وهذا صحيح. كانت زوجته قد تركته لتذهب مع عازف تشيللو كان يتنقّل في بلدة

1- ميتلْهيدْ: مسلسل تلفزيوني. المترجم.

2- ألاباما ثندر بوسي: اسم فرقة موسيقية لموسيقى الهيفي ميتال. المترجم.

بروفيدنس للقيام بجولة سيمفونيّة؛ وريد رجل عازب راسخ ولا يعرف ماذا تقصد السيدة إذا اقتربت وعضّته. ومن ناحية أخرى، كنتُ وسارة متزوجين منذ عشرين عاماً.

يضع ريد طبقاً أمامي حالما أبدأ الكلام. أقول: «إنَّ المرأة لا تختلف كثيراً عن نار في العراء».

يرمي بولي الورقة ويصيحُ مُستهجناً «ها نحن نبدأ: فلسفة الطاو للكابتن فيتزجرالد».

أتجاهله. «إنَّ النار شيء جميل، أليس كذلك؟ لا تستطيع أنْ تُبعِد عينيك عنها، عندما تتلظّى. إنْ استطعتَ أنْ تتحكّم في انتشارها، تمنحك الضوء والحرارة. وفقط عندما تخرج عن زمام السيطرة تُضطر إلى أنْ تشنّ الهجوم عليها».

يقول بولي: «إنَّ ما يحاول كاب أنْ يقول لك هو أنَّ عليك أنْ تُبعِد حبيبتك عن مهبّ الرياح. هيه، ريد، هل لديك بعض جبن البارميزان؟».

نجلس على مائدة العشاء الثاني، الذي يعني في المعتاد أنَّ الأجراس سوف تقرع بعد دقائق. إنَّ إطفاء الحرائق هو عالم من الأمور غير المتوقَّعة؛ أي عندما لا تكون مستعداً لتحمّل الأزمة التي تنتج عنها.

يسأل بولي «هيه، فيتز، أتذكُر آخر رجل ميّتٍ علِق؟ عندما كنا لاعبي كرة طائرة؟».

يا الله، نعم. إنَّ الشخص الذي يُصبح وزنه خمسمائة رطل إذا كان يزن أونصة، الذي مات من قصور في القلب وهو في سريره. وقد استدعت جمعية دفن الموتى المطافئ في تلك المناسبة، لأنها لم تتمكن من إنزال الجثّة إلى الطابق السُّفلي. وهتفتُ بصوتٍ مرتفع «أحضِروا حِبالاً وبكرات».

«كان من المُفتَرَض أنْ يُحرَق، لكنه كان ضخم الجثّة...» ويرسم بولي ابتسامة عريضة. «أُقسِم بالله، وحقّ أمي التي في السماء، أنهم اضطروا إلى أخذه إلى طبيب بيطري بدل ذلك».

طرفَ سيزار بعينيه وهو ينظر إليه. «لماذا؟».

«كيف تعتقد أنهم يمكن أنْ يتخلّصوا من جثّة حصان، يا عبقري؟».

بعد أنْ يفكِّر سيزار في الأمر، تتّسع عيناه. ويقول: «بلا مزاح»، وبعد برهة تفكير أخرى، يدفع بطبق الباستا بولونيز الذي أعدَّه ريد جانباً.

يقول ريد: «ممَنْ في اعتقادك سوف يطلبون تنظيف مدخنة كليّة الطب؟».

يُجيب بولي «أولاد الحرام أعضاء إدارة الصحة والسلامة للمعالجة بالعمل المساكين».

«أراهن بعشرة دولارات على أنهم اتصلوا بنا هنا وقالوا إنَّ ذلك هو عملنا نحن».

أقول: «لن يتّصل أحد، لأنه لن يتبقّى أي شيء يستوجب التنظيف. تلك النار كان مُستعرة بصورة هائلة».

تمتم بولي: «حسن، على الأقل نحن نعلم أنَّ هذا لم يكن حريقاً متعمَّداً».

خلال الشهر المنصرم، أُضرِمَتْ سلسلة من الحرائق عن عمد. يمكن دائماً اكتشافها –من بقعٍ متفرقة لسائل قابل للاحتراق، أو من نقاط مصادر متعددة، أو من دخان أسود، أو من تمركزٍ غير عاديّ للنار في نقطة واحدة. وكائناً مَن تسبَّب في إحداث هذا هو، أيضاً، ذكيّ– وفي عديد من المنشآت وُضِعَتِ المواد القابلة للاشتعال تحت الدَّرَج، لكي تقطع طريق وصولنا إلى اللهب. إنَّ الحرائق المتعمَّدة خطِرة لأنها لا تلجأ إلى الأسلوب العِلميّ الذي نستعين به لمكافحتها. الحرائق المتعمَّدة هي المُنشآت المُحتمل أنْ تنهار أكثر من غيرها من حولك وأنت في قلبها تكافحها».

أضاف بولي: «ربما كان شديد التوق إلى تخفيف وزنه»، وانفجر الآخرون بالضحك.

أقول: «كفى».

«أوه، فيتز، يجب أنْ تعترف بأنه شيء مُضحك جداً–».

«ليس بالنسبة إلى والديّ ذلك الرجل. وليس لعائلته».

ساد ذلك الصمت المزعج بينما الرجال الآخرون يفتشون عن الكلمات. وأخير يتكلَّم بولي، الذي يعرفني أكثر من غيره: «هل من تطورات في حالة كيت، يا فيتز؟».

هناك دائماً تطورات تحدث مع ابنتي الأكبر سناً، والمشكلة هي أنه لا يبدو أنها تنتهي أبداً. «سوف أصعد إلى السطح».

كلنا لدينا هوايات – سيزار لديه فتياته، وبولي لديه آلات نفخ القُرَب، وريد لديه الطبخ، وأنا، أنا لدي منظاري المُقرِّب الذي نصبته قبل سنين على سطح محطة الإطفاء، ومن هناك أحصل على أفضل مشهد لسماء الليل.

لو لم أكنْ رجل إطفاء، لوددتُ أنْ أكون عالِم فلك. أعلمُ أنَّ ذلك سوف يتطلب من عقلي إجراء الكثير من الحسابات الرياضيّة، ولكن لطالما كان يروق لي رسم خرائط للنجوم. وفي الليلة الصافية حقاً، يمكن أنْ تشاهد ما بين 1,000 إلى 1,500 نجماً، وهناك ملايين أخرى لم تُكتَشَف. ومن السهل جداً أنْ تعتقد أنَّ العالم يدور من حولك، ولكنْ يكفي أنْ تُحدِّق إلى السماء لتُدرك أنَّ هذا ليس صحيحاً البتّة.

اسم آنّا الحقيقيّ هو أندروميدا. هكذا مكتوب في شهادة مولدها، بشرفي. وكوكبة النجوم التي تحمل اسمها تحكي قصة أميرة قُيِّدَتْ إلى صخرة كأُضحية لوحشٍ بحريّ – وعقوبة لأمها كاسيوبيا، التي تباهت بجمالها أمام بوزيدون. وبينما كان برسيوس طائراً بجوار أندروميدا وقع في حبّها وأنقذها. وفي السماء، تبدو ممدودة الذراعين ويديها مُقيّدتين.

في نظري، الحكاية تنتهي نهاية سعيدة. مَنْ لا يتمنى هذا لطفلة؟.

عندما وُلِدَتْ كيت، كنتُ أتخيَّل كم ستكون جميلة في يوم عرسها. ثم ظهرت عليها بوادر لوكيميا النخاع الشوكي، وتخيّلتُها بدل ذلك تعبر خشبة مسرح المدرسة الثانوية لتتسلّم شهادتها. وعندما انتكستْ، ذهبتْ تلك الأحلام كلّها أدراج الرياح. وتخيّلتها تنجح في بلوغ حفلة عيد مولدها الخامس. واليوم، لم تعُد لديّ توقّعات، لقد انتصرتْ عليها كلّها.

سوف تموت كيت. استغرقَ مني الاعتراف بهذا زمناً طويلاً. كلنا سوف نموت، إذا فكّرنا في الأمر، ولكن ليس هكذا. مُقدَّر لكيت أنْ تودّعني *أنا*.

يكاد يبدو خِداعاً أنّه بعد كل تلك السنين من تحدّي الظروف، لن تكون اللوكيميا هي التي ستقتلها. ولكن أعود فأقول، لقد أخبرنا الدكتور تشانس قبل وقت طويل أنَّ الأمر عادة يجري على هذا المنوال – يذوي

جسم المريض شيئاً فشيئاً، جرّاء كل ذلك الصراع، وتبدأ قِطع من المرضى بالاستسلام. وفي حالة كيت، بدأ الأمر بالكليتين.

أُدير منظاري المُكبِّر نحو الغبار الكوني في كوكبة نجوم أوريون ونحو الغبار الكوني M42، المتوهج في كوكبة أوريون. النجوم حرائق تشتعل طوال آلاف السنين. بعضها يحترق ببطء وعلى مدى طويل، كأقزام حمراء. وأخرى –عمالقة زرقاء– تحرقُ وقودها بسرعة كبيرة إلى درجة أنها ترسل إشراقها إلى مسافات شاسعة، ومن السهل رؤيتها. ومع بدء نفاد وقودها، تحرق غاز الهليوم، وتزداد حرارة، وتنفجر الانفجار المستعر الأعظم. والانفجارات العُظمى أشدّ بريقاً من أشدّ المجرّات بريقاً. وتموت، لكنَّ الجميع يُشاهدونها وهي تزول.

في وقت سابق، بعد أنْ تناولنا الطعام، ساعدتُ سارة في أعمال التنظيف في المطبخ. سألتها، وأنا أُعيد صلصة البندورة إلى البرّاد: «أتعتقدين أنَّ ثمّة أمراً يجري مع آنّا؟».

«تقصد لأنها خلعَتْ قلادتها؟».

أهزُّ كتفيّ «كلا، فقط في العموم».

«بالمقارنة مع ما يحدث لكليتيّ كيت واضطراب جِسّ العقليّ، أقول إنها على ما يُرام».

«أرادتْ أنْ تنتهي وجبة العشاء قبل أنْ تبدأ».

استدارتْ سارة وهي واقفة عند المغسلة. «ما خطبها في اعتقادك؟».

«آه... أثمة رجل في حياتها؟».

رمتني سارة بنظرة. «إنها لا تخرج مع أحد».

شكراً لله. «ربما أحد أصدقائها قال شيئاً أزعجها». لماذا تسألني سارة؟ ماذا أعرفُ أنا عن تقلّبات أمزجة فتيات الثالثة عشرة؟

جفَّفتْ سارة يديها بالمنشفة واستدارت نحو غسّالة الأطباق. «ربما هي فقط في سن المُراهقة».

حاولتُ أنْ أعود بذاكرتي إلى ما كانت عليه كيت وهي في الثالثة عشرة، ولكنْ كل ما استطعتُ تذكّره كان انتكاس صحّتها وعملية زرع الخلايا الجذعيّة التي أُجريَتْ لها. لقد كان لحياة كيت العاديّة أسلوبٌ خاصٌّ في التلاشي داخل الغياب، وفي إلقاء أوقات مرضها ظلّها عليها.

قالت سارة: «يجب أنْ أرافق كيت إلى جلسة الديلزة غداً. متى ستعود إلى المنزل؟».

«بحلول الساعة الثامنة. ولكنني تحت الطلب، ولن أُفاجأ إذا قام مُشعِل الحرائق بالعمل من جديد».

سألتْ: «براين؟ كيف بدتْ كيت لك؟».

قال في نفسه، ***بدتْ أفضل حالاً من آنا***، ولكن لم يكن هذا ما سألتْ عنه. أرادتْ مني أنْ أقيس مقدار شحوب لون بشرة كيت بالمقارنة مع ما كانت عليه بالأمس؛ أرادتْ مني أنْ أفهم عمق اتّكاء مِرفقيها على الطاولة، المُرهقَين بحيث يعجزان عن إبقاء جسمها مُعتدلاً.

كذبتُ قائلاً: «كيتُ تبدو بخير»، لأنَّ هذا ما يفعله كلٌّ منا مع الآخر.

قالتْ سارة: «لا تنسَ أنْ تلقي تحيّة المساء قبل أنْ تغادر»، واستدارتْ لكي تجمع الأقراص التي تتناولها كيت قبل النوم.

الجو هادئ، هذا المساء. للأسابيع إيقاعٌ خاصٌ بها، وجنون نوبة عمل ليل يوم الجمعة أو السبت تقف على نقيض مباشَر مع ملل يوم الأحد أو الاثنين. إنني أعلمُ منذ الآن أنها سوف تكون إحدى الليالي التي أستلقي خلالها على سرير غير مريح وأنام.

«بابا؟» يُفتَح باب يؤدي إلى السطح، وتزحفُ آنّا خارجة منه. «أخبرَني ريد أنكَ هنا».

في الحال، أتجمّد في مكاني. إنها العاشرة ليلاً. «ما المشكلة؟».

«لا شيء. أردتُ فقط... أنْ أزورك».

عندما كان الأولاد صِغاراً، كانت سارة تلازمهم طوال الوقت. كانوا يلعبون في العليّة بجوار المُحرّكات العملاقة، ويستغرقون في النوم على

سريري الضيّق. وأحياناً، في الجزء الأشد حرارة من فصل الصيف، كانت سارة تُحضِر معها غطاءً فنمدَّه هنا على السطح، ونتمدَّد والأطفال بيننا، ونراقب الليل ينتشر.

«هل تعلم الماما أين أنتِ؟».

«هي التي أوصلتني». تمشي آنّا على أطراف أصابع قدميها على السطح. إنها ليست معتادة على الأماكن المرتفعة، وليست هناك أكثر من حافة تعلو ثلاث بوصات حول الإسمنت. ضيَّقتْ عينيها ومالتْ لتنظر من خلال المنظار المُكبِّر. «ماذا تستطيع أنْ ترى؟».

أخبرها: «النسر الواقع». وأُلقي نظرة على آنّا، وهو شيء لم أفعله منذ مدّة. لم تعُد مستقيمة القامة كما كانت؛ أصبحتْ لديها بدايات انحناء. حتى حركاتها -لملمة شَعرها خلف أُذنها، وتحديقها في عين المنظار المُكبِّر- تتسِم بما يُشبه الأناقة التي أُقرنُها بالنساء كاملات النضج. «ألديكِ موضوع تريدين مناقشته؟».

عضَّتْ أسنانها على شفتها السفلى، ونظرتْ نحو الأسفل إلى حذائها الرياضيّ. تقترح آنّا، «ربما تفضّل أنْ تبادر *أنتَ* بالحديث معي *أنا*؟».

وهكذا أجعلها تجلس على سترتي وأُشيرُ إلى النجوم. أخبرها بأنَّ «النسر الواقع» هو جزء من كوكبة ليرا، قيثارة أورفيوس. إنني لستُ بارعاً في سرد القصص، لكنني أتذكَّر تلك التي تتماشى مع المجرّات. وأحكي لها عن ابن إله الشمس، الذي كانت موسيقاه تفتن الحيوانات وتُليِّن الصخر، وعن رجلٍ أحبَّ زوجته، يوريديتشه، إلى درجة أنّه لم يسمح للموت بأنْ يأخذها منه.

مع انتهائي، كنا قد استلقينا على ظهرينا. تسألني آنّا «هل أستطيع أنْ أمكث هنا معك؟».

قبّلتُ أعلى رأسها. «من دون أدنى شك».

تهمس آنّا، بعد أنْ ظننتُ أنّها استغرقَتْ في النوم، «بابا، هل نجحَتْ؟».

تمرّ برهة قبل أنْ أفهم أنها تعني بسؤالها علاقة أورفيوس ويورديتشه.

أعترفُ «كلا».

تُطلقُ تنهيدةً. تقول «تخيَّل».

الثلاثاء

شمعتي تحترق من طرفيها:
لن تدوم حتى آخر الليل؛
ولكن آه، يا خصومي، وأوه، يا أصدقائي –
إنها تنشر ضوءاً جميلاً!

إدنا سينت ميلاي، من مجموعة «ثمرة تين»
بضع ثمار تين من شجر الصبّار.

آنّا

تعوّدتُ أنْ أتظاهر بأنني فقط أمرّ مُصادفة بتلك العائلة وأنا في طريقي إلى عائلتي الحقيقيّة. المسافة ليست طويلة، في الواقع – كانت هناك كيت، صورة طِبق الأصل عن والدي؛ وجِسّ، صورة طِبق الأصل عن أمّي؛ ومن ثم أنا، أمثّل تشكيلة من الجينات الكامنة التي خرجت من بقعة متبقّية. وفي كافيتريا المستشفى، وأنا أتناول مقليات فرنسيّة تشبه المطّاط والهلام الأحمر، أنقِّل نظري من طاولةٍ إلى أخرى، مُعتقدة أنَّ والديّ الأصليّين قد يكونان على مسافة قصيرة مني. سوف يجهشان بالبكاء من فرط الفرح لعثورهما عليّ، ثم يأخذانني على وجه السرعة إلى قلعةٍ في موناكو أو في رومانيا ويُخصّصان لي خادمة تفوح منها رائحة أغطية نظيفة، ويُصبح لديّ كلبي الخاصّ من جبال برنيز، وخط هاتف خاصّ. والأهمّ من ذلك هو أنَّ أول شخص سوف أتّصل به ليحسدني على ثروتي الجديدة سوف يكون كيت.

جلسات الديلزة تخضع لها كيت ثلاث مرات في الأسبوع، وكل مرَّة على امتداد ساعتين. يضعون لها أنبوب قسطرة من نوع ماهوكار، يُشبه أنبوبها المركزيّ ويبرز من البقعة نفسها على صدرها. وهو موصول بآلة تقوم بعمل الكليتين المُعطّلتين. يُغادر دم كيت (في الواقع، هو دمي أنا إذا أردتَ أنْ تلتزم بالتفاصيل التقنيّة) من خلال إبرة، ويتمّ تنظيفه، ومن ثم يُعاد إلى جسمها من جديد من خلال إبرة أخرى. وتقول إنها لا تؤلِم. في الغالب، هي مُملّة. في المعتاد تجلب كيت معها كتاباً أو مُشغِّل أقراص مُدمَجة وسمّاعات رأس. وأحياناً نمارس ألعاباً. توجّه كيت تعليماتها «اخرجي إلى الرواق وأخبريني عن أول رجل فائق الوسامة تقابلينه. اقتربي خلسة من البوّاب الذي يستعرض ما يوجد على شبكة الإنترنت وانظري إلى

الصور العارية التي يُنزّلها». وعندما تكون مُقيَّدة إلى السرير، أكون بمثابة عينيها وأُذنيها.

اليوم، هي تقرأ مجلّة ***Allure***[1]. وأتساءل إنْ كانت تعلم حتى أنَّ كل موديل له ياقة على شكل **V** تُصادفه، تلمسه عند عظمة الترقوة، في الموقع نفسه حيث تتلقّى هي القسطرة وهنَّ لا يتلقّينها. وتُعلنُ أمي من دون مُقدمة، «حسنٌ، هذا شيء مُثير للاهتمام»، وتلوِّح بكُتيِّب أخذته من لوحة الأخبار خارج غرفة كيت، عنوانه: ***أنتَ وكليتك الجديدة***. «هل تعلمين أنّهم لا يُخرِجون الكلية القديمة؟ إنهم فقط يضعون الكلية الجديدة ويُثبّتونها».

تقول كيت: «هذا يُخيفني. تخيّلي الطبيب الشرعي الذي يفتح أحشاءك ليرى إنْ كانت لديك ثلاث كِلى وليس اثنتان».

تُجيب أمي: «أعتقد أنَّ عمليّة زرع الكلية تُجرى لكي لا يُضطر الطبيب الشرعي إلى إحداث شقّ فيك في وقتٍ قريب». وتلك الكلية الوهميّة التي تتناقشان بشأنها تستقر الآن في جسدي أنا.

أنا أيضاً قرأتُ ما وردَ في ذلك الكُتيِّب.

يُعتبَر وهب الكلية عمليّة جراحيّة سهلة نسبيّة، ولكنْ في رأيي، على الكاتب أنْ يُقارنها بشيءٍ كزرع القلب أو الرئة، أو إزالة ورم دماغيّ. وفي رأيي، إنَّ العمليّة الجراحيّة الآمنة هي التي تتم عندما تذهب إلى عيادة الطبيب وتبقى يقظاً طوال الوقت وتنتهي الإجـراءات في خلال خمس دقائق -كأنْ تزيل ثؤلولاً أو تحفر فجوة. ومن ناحية أخرى، عندما تهِب كلْية، تقضي ليلة كاملة قبل إجراء العمليّة صائماً ولا تتناول إلّا المُسهّلات. ويعطونك مُخدِّراً، الذي من أخطاره الإصابة بسكتة دماغيّة، أو بنوبة قلبيّة، أو بمشاكل في الرئة. إنَّ العمليّة الجراحيّة التي تستغرق أربعاً وعشرين ساعة ليست سهلة، أيضاً- هناك احتمال 1 إلى 3,000 أنْ تموت وأنتَ على طاولة العمليات. وإذا لم تمُتْ، تبقى في المستشفى على مدى أربعة أيام إلى سبعة، على الرغم من أنَّ الشِّفاء التامّ يستغرق ستة أسابيع. وهذا لا يتضمّن حتى الآثار طويلة الأمد: كزيادة فرصة الإصابة بضغط الدم العالي، وخطر حدوث

1- مجلة أللور: مجلة نسائيّة تُعنى بأزياء المرأة وجمالها. المترجم.

مُضاعفات في الحمل، ويوصى بالتوقف عن القيام بالنشاطات التي قد تؤدي إلى تضرّر كليتك الوحيدة الباقية.

وأيضاً، عندما تُزيل ثؤلولاً أو تحفر فجوة، فإنَّ المستفيد الوحيد على المدى الطويل هو أنت.

يُسمَع قرع على الباب، ويطلّ منه وجه مألوف. إنّه فيرن ستاكْهاوس الشريف، وهو بالتالي عضو في هيئة الخدمة العامة نفسها التي ينتمي إليها والدي. كان يأتي في المعتاد إلى منزلنا بين حينٍ وآخر لكي يسلِّم علينا أو يُعطينا هدايا عيد الميلاد؛ ومؤخّراً، أنقذَ جِسّ من ورطة وأعاده إلى المنزل، بدل أنْ يترك القضاء يتعامل معه. وعندما تكون فرداً من عائلة تحتضر فيها ابنة، يتخلّى الناس عنك.

وجه فيرن يُشبه طبقاً من السوفليه المنفوخة، وفيه حُفرٌ في مواقع غير متوقّعة. ويبدو أنّه لا يعرف إنْ كان دخوله الغرفة تصرّفاً صائباً. يقول «آه، مرحباً، سارة».

«فيرن!» وتنهضُ أمي واقفة. «ماذا تفعل في المستشفى؟ أأنتَ بخير؟».

«أوه نعم، بخير. إنني هنا فقط في عمل».

«لتقديم أوراق، أعتقد».

«نعممممم». يجرّ فيرن قدميه ويحشر يده في جيبه، ومن ثم يمدّ يده بوثيقة.

يهرب الدم من جسمي كله، كما يحدث لكيت. وأعجز عن الحركة إذا أردتُ ذلك.

«ما الــ... يا فيرن، هل هناك دعوى ضدي؟». صوت أمي هادئ أكثر مما ينبغي.

«اسمعي، أنا لا أقرأ الأوراق، أنا فقط أوصِلها. وكان اسمك مُدوّناً على لائحتي. إنْ كان هناك، آه، أيّ شيء فأنا...» ولم يُكمل جملته. وخرج من الباب من جديد، وقبعته في يده.

تسأل كيت «ماما؟ ماذا يجري؟».

«لا أعلم». وفتحت الورقة. وأنا قريبة بقدر كافٍ لأقرأ ما ورد فيها من

خلف ظهرها. **ولاية رود آيلند ومزارع بروفيدنس.** هذا ما كُتِبَ في الأعلى، بشكلٍ رسمي جداً. **محكمة العائلة لمقاطعة بروفيدنس. بخصوص: آنا فيتزجيرالد، المعروفة باسم جين دو.**

عريضة من أجل الحصول على التحرّر الطبيّ.

أوه اللعنة! أعتقد. إنَّ وجنتيّ تشتعلان؛ وقلبي يضرب بقوة. أشعر كما كنت قد شعرتُ عندما أرسل مدير المدرسة رسالة تأديبيّة إلى المنزل لأنني رسمتُ رسماً هزلياً للسيدة توهي ومؤخرتها الضخمة على هامش دفتري الخاص بمادة الرياضيات. كلا، في الحقيقة، دعك من ذاك - إنَّ هذا أسوأ مليون مرَّة.

هذه العريضة هي من أجل اتّخاذ القرارات الطبيّة المُستقبليّة كلّها.

ولكي لا تُجبَر على الاستسلام لمعالجة طبيّة لا تُثير اهتمامها وليست لفائدتها.

ولكي لا يُطلَب منها أنْ تخضع للمزيد من المعالجة لفائدة أختها، كيت.

ترفع أمي وجهها لتنظر إليّ. تهمس «آنا، ما هذا بحقّ الله؟».

أشعر كأنَّ لكمة وُجِّهَتْ إلى أحشائي، الآن بعد أنْ وصل الأمر إلى هنا ووقع المحظور. أهزّ رأسي نفياً. ماذا يمكنني أنْ أخبرها؟

تخطو خطوة نحوي. «آنا!».

تهتفُ كيت من خلفها. «ماما، آخ، ماما... إنني أتألَّم، أحضري الممرضة!».

تستدير أمي نصف استدارة. وكيت تتلوّى إلى جوارها، وشعرها ينسدل على وجهها. أعتقد أنّها في أثناء ذلك كانت تنظر إليّ، لكنني لستُ متأكّدة. وتئنّ «ماما، أرجوك».

تحتار أمي بيننا، كفقاعة من الصابون. تنقّل نظرها بين كيت وبيني وتعيد الكرَّة.

أختي تتألَّم، وأنا مرتاحة. ماذا يقول *هذا* عني؟

آخر ما أرى وأنا أخرج من الغرفة هو أمي وهي تضغط على زر استدعاء الممرضة مرّة بعد أخرى، وكأنّه زر تفجير قنبلة.

لا أستطيع أنْ أختبئ في الكافيتيريا، أو في البهو، أو في أي مكان آخر

يتوقعون مني اللجوء إليه. لذلك أرتقي الدَّرَج إلى الطابق السادس، إلى جناح التوليد. في الردهة لا يوجد إلّا جهاز هاتف واحد، وكان ثمة مَنْ يتكلّم. قال الرجل: «ستة أرطال وإحدى عشرة أونصة»، راسماً ابتسامة واسعة إلى درجة أنني اعتقدتُ أنَّ وجهه يمكن أنْ يتهشَّم. «إنها مثاليّة».

هل هذا ما فعله والداي عندما وُلِدتُ؟ هل أرسل والدي إشارات بالدخان؛ هل أخذ يُحصي أصابع يديّ وأصابع قدَميّ، لكي يتيقّن من أنّه حصل على الرقم الأفضل في الكون؟ هل قبّلتْ أمي قمّة رأسي ورفضَتْ أنْ تدع الممرضة تأخذني منها، بما أنَّ الجائزة الحقيقيّة كانت عالقة بين بطني والمشيمة؟

أخيراً أنهى الوالد الجديد المكالمة، وهو يضحك من دون أي سبب على الإطلاق. أقول «تهانينا»، في حين أنَّ ما أردتُ أنْ أقول حقاً هو أنْ يضم طفلته تلك إليه بقوة، وأنْ يجعل القمر يسطع على حافة مهدها وأنْ يرفع اسمها عالياً إلى النجوم لكي لا يخطر في بالها أبداً أنْ تفعل ما فعلتُه أنا بوالديّ.

اتصلتُ بجِسّ اتصالاً مدفوع الأجر. وبعد مرور عشرين دقيقة كان يقف بسيارته أمام المدخل. وكان مندوب الأمن ستاكْهاوس قد استلمَ إشعاراً بأنني مفقودة؛ وعند خروجي كان ينتظر عند الباب. «آنّا، إنَّ أمّك في غاية القلق عليك. واستدعتْ والدك. وقلبَ المستشفى رأساً على عقِب».

آخذُ نَفَساً عميقاً. وأقول: «إذن يُستحسَن أنْ تذهب وتُخبرها بأنني بخير»، وأقفزُ نحو باب المسافرين الذي فتحه جِسّ لأجلي.

انطلقَ بالسيارة مبتعداً عن حافة الرصيف وأشعل سيجارة، على الرغم من أنني أعلم عِلم اليقين أنّه أخبر أمي بأنّه امتنع عن التدخين. ورفع ضجيج الموسيقى التي تروق له، وأخذ يضرب راحة كفّه على حافة المقود. ولم يُغلق المذياع ويبطئ السرعة إلّا بعد أنْ خرج عن الطريق السريعة نحو داربي العليا. «إذن. هل أثارتْ عاصفة؟».

«لقد استدعت البابا من عمله».

في عائلتنا، كان استدعاء والدي من عمله إثماً كبيراً. ولما كان عمله هو سلسلة من الحالات الطارئة، فأيّة أزمة نقع فيها يمكن أنْ تُقارَن بتلك

الحالات؟ وأبلغني جِسّ «في آخر مرَّة استدعت والدي من عمله كانت كيت تخضع للتشخيص».

عقدتُ ذراعيّ على صدري «عظيم. هذا يجعلني أشعر بارتياح أقصى».

يكتفي جِسّ بالابتسام. وينفثُ حَلَقةَ من الدخان. ويقول: «أهلاً بكِ يا أختي إلى الجانب المُظلِم».

دخلوا كالإعصار. وحالما يقع نظر كيت عليّ يسارع والدي إلى إرسالها إلى غرفتنا في الطابق العُلوي. وترمي أمي كيس نقودها بقوة، ثم ترمي مفاتيح السيارة، ومن ثم تتقدَّم مني. وتقول، بصوت مشدود حتى يكاد ينكسر: «حسنٌ، ما الذي يجري؟».

أتنحنح «عيَّنتُ مُحامياً».

«هذا واضح». قبضَتْ أمي على الهاتف المحمول وأعطته لي. «والآن تخلَّصي منه».

نجحتُ في هزّ رأسي رفضاً، بعد بذل جهدٍ جبّار وتركتُ الهاتف على وسائد الأريكة.

«آنّا، قسماً بالله-».

وصل صوت أبي حادّاً كالفأس «سارة». سقط الفأس بيننا، وجعلنا معاً ندور. «أعتقد أننا في حاجة إلى منح آنّا فرصة لتشرح. ***نحن نتّفق*** على منحها فرصة لتشرح، أليس كذلك؟».

أطرق برأسي. «لن أُكرِّر هذا بعد الآن».

هذا ما حفَّزَ أمي إلى قول: «حسن، أتعلمين يا آنّا؛ ولا أنا سأكّرره. في الحقيقة، ولا حتى كيت. ولكنْ لا خيار لنا في هذا».

الحقيقة هي أنَّ لديّ خياراً ***حقاً***. وهذا بالضبط هو سبب كوني الشخص المناسب للقيام به.

وقفتْ أمي فوقي. «لقد ذهبتِ إلى محامٍ ودفعته إلى الاعتقاد أنَّ الأمر كلّه يتعلّق بكِ - وهذا غير صحيح. إنه يتعلَّق بنا. ***كلّنا***-».

أمسكتْ يدا أبي كتفيّها وضغط عليهما. وعندما جلس القرفصاء أمامي،

شممتُ رائحة الدخان. لقد خرج من إطفاء حريق أحدهم إلى هذا الحريق مباشرة، ولهذا السبب ولا شيء آخر، شعرتُ بالحرَج. «آنّا، حبيبتي، نحن نعلم أنكِ تعتقدين أنكِ فعلتِ شيئاً احتجتِ إلى فعلهِ-».

تقاطعه أمي: «*أنا* لا أعتقد ذلك».

يُغمِضُ أبي عينيه. «سارة، اللعنة، اسكتي». ثم ينظر إليّ من جديد. «هلّا تحدّثنا، نحن الثلاثة فقط، من دون إقحام المحامي فيما بيننا؟».

إنَّ ما يقوله يجعل عينيّ تدمعان. لكنني كنتُ أعلم أنَّ هذا سيحدث. لذلك رفعتُ ذقني وتركت دموعي تجري في الوقت نفسه. «أبي، لا أستطيع».

تقول أمي: «إكراماً لله، آنّا، ألا تُدركين العواقب التي ستنتج؟».

اختنق بلعومي كغطاء عدسة آلة تصوير، بحيث لم يعُد أمام أي مقدار من الهواء أو الأعذار إلّا نفق ضيِّق جداً كالدبوس للمرور. أعتقد أنني ***حقاً غير مرئيّة***، وأدركُ بعد فوات الأوان أنني تكلّمتُ بنبرة صوت مرتفعة.

تتحرك أمي بسرعة كبيرة إلى درجة أنني لم أرها تقترب. لكنّها تصفع وجهي بقوة كافية لجعل رأسي يتحرّك بسرعة إلى الخلف. وتترك أصابعها علامة يستغرقُ زوالها وقتاً طويلاً. وهكذا يعلم المرء أنَّ للخزي أصابع خمسة.

ذات مرة، عندما كانت كيت في الثامنة من العمر وكنتُ في الخامسة، تشاجرنا وقرّرنا أننا لم نعد نرغب في التشارك في غرفة واحدة. ونظراً إلى حجم منزلنا، وكون جِسّ يُقيم في غرفة نوم أخرى إضافيّة، لم يكن لدينا مكان آخر نلجأ إليه. لذلك، لمّا كانت كيت هي الأكبر سنّاً والأكثر حِكمة، قرّرتْ أنْ نقسِّم الغرفة إلى نصفَين. سألتني بدبلوماسيّة: «أي الجانبين تريدين؟ سوف أدع الخيار لك».

حسن، أردتُ الجزء الذي يضمّ سريري. ثم، إذا قسّمتَ الغرفة إلى اثنتين، سوف يضم الجزء الذي فيه سريري أيضاً، مُصادفة، الصندوق الذي يحتوي كل دُمى باربي التي تخصّنا معاً والرفوف التي عليها أدوات الفنون والحِرف. وذهبتْ كيت لكي تتناول قطعة علامة موجودة هناك، لكنني منعتها. لفتُّ انتباهها «هذا جانبي *أنا*».

طلبَتْ «إذن أعطني واحدة»، فناولتها الحمراء. ارتقتْ طاولة المكتب، ومدَّتْ يدها قدر استطاعتها نحو السقف. قالتْ «حالما نفعل ذلك، تلزمين جانبك، وأنا ألزم جانبي، اتّفقنا؟». أومأتُ برأسي موافقة، والتزمتُ بالمُحافَظة على الاتّفاق بقدر التزامها هي. على أيّة حال، كانت لديّ كل الدُّمى الجيدة. وسوف تتوسل كيت إليّ لكي تقوم بزيارة قبل أنْ أبادر أنا بالتوسّل إليها.

سألتني «أتُقسمين؟»، ومهرنا القسم بخنصرينا.

رسمتْ خطّاً غير مُنتَظَم ممتداً من السقف فوق طاولة المكتب، عبر السجّادة السمراء الضاربة إلى الصّفرة، وإلى الخلف من فوق الطاولة المجاورة للسرير قِبالة الجدار. ثم سلَّمتني العلامة. قالت: «لا تنسي، وحدهم الغشاشون ينكثون الوعد».

جلستُ على الأرض في جانبي من الغرفة، أزيل كل دمية باربي لدينا، أُلبِسها أو أخلع عنها ملابسها، مُثيرة الكثير من الضجيج لكي أُبيِّن أنها لي وليست لكيت. وجثمتْ على سريرها وهي ترفع رُكبتيها، وتراقبني. لم تُبدِ أيّة ردّة فعل. أي، إلى أنْ استدعتنا أمي لكي نتناول طعام الغداء.

ثم ابتسمت كيت لي، وخرجت من باب غرفة النوم – الذي كان موجوداً على جانبها هي.

اقتربتُ من الخط الذي رسمته على السجادة، ورحتُ أرفسه بأصابع قدمي. لم أرغب في خداعها. ولكني لم أرغب أيضاً في قضاء ما تبقّى من حياتي حبيسة غرفتي.

لا أعلم كم استغرق أمي من الوقت لتتساءل حول سبب عدم حضوري إلى المطبخ من أجل تناول طعام الغداء، ولكن عندما تكون في الخامسة، يمكن لثانية واحدة أنْ تدوم إلى الأبد. وقفت في ممر الباب، تُحدِّقُ إلى خط العلامة على الجدران وعلى السجادة، وأغمضتْ عينيها طلباً للصبر. ثم ولجت غرفتنا وحملتني، وهنا بدأتُ أتشاجر معها. صرختُ: «لا تفعلي هذا، لن أستطيع أنْ أعود إليها أبداً!».

بعد قليل غادرتْ، وعادتْ مع حامل قدر، ومنشفة تجفيف الأطباق، ووضعت وسائد. وزّعتْ هذه الأشياء على مسافات غير منتظمة، على طول جانب كيت من الغرفة. حثّتني «هيا»، لكنني لم أتحرَّك. فاقتربتْ وجلستْ إلى

جواري على السرير. قالت: «قد تكون هذه بركة كيت، لكنَّ أزهار السوسن هذه لي». وقفزت وهي واقفة على منشفة الأطباق، ومن هناك، قفزت إلى إحدى الوسائد. ثم نظرت خلفها، إلى أنْ قفزتُ إلى منشفة الأطباق. ومن منشفة الأطباق إلى الوسادة، ومنها إلى حامل القِدر الذي كان جِسّ قد صنعه في الصف الأول، ومنه إلى جانب كيت من الغرفة. كان اتّباع خُطى أمي هو الطريق الأكثر ضماناً للخروج.

عندما تخلع كيت القفل وتلج غرفة الحمّام، أكون أنا آخذ دشّاً. تقول: «أريد أنْ أتحدث معك».

أُبرِزُ رأسي من جانب الستارة البلاستيك. أقول، مُحاولةً أنْ أُحدِّد وقتاً لإجراء حديثٍ لا أرغب حقاً في إجرائه، «بعد أنْ أنتهي».

«كلا، بل الآن». وتجلس على غطاء المرحاض وتتنهّد. «آنا... إنَّ ما تفعلينه–».

أقول: «لقد فعلته وانتهيت».

«يمكنكِ أنْ تُبطليه، في الحقيقة، إذا شئتِ».

أشعر بالامتنان لكلّ البخار المتصاعِد بيننا، لأنني لا أتحمّل كونها قادرة على رؤية وجهي الآن. أهمسُ «أعلم».

يرين الصمت على كيت، فترة طويلة. عقلها يدور ضمن دوائر، كدوران جرذ داخل دولاب، وكما يدور عقلي. في الحقيقة أيّة درجة من الاحتمال، ومع ذلك لن تصل إلى أيّة غاية.

بعد قليل، أُبرِزُ رأسي من جديد، فأرى كيت تمسح عينيها وتنظر إليّ. تقول «هل تعلمين أنكِ الصديقة الوحيدة لديّ؟».

أُجيبُ في الحال «هذا غير صحيح»، لكننا نحن الاثنتين نعلم أنني أكذب. لقد أمضتْ كيت وقتاً طويلاً خارج المدرسة المُنتَظَمة بحيث لم تعد قادرة على العثور على مجموعة تنتمي إليها. معظم الأصدقاء الذين جمعتهم خلال الفترة الطويلة التي أمضتها في استعادة عافيتها اختفوا – إنّه شيء مُشترَك بيننا. لقد اتّضحَ أنَّ من الصعب جداً على طفل عاديّ أنْ يعرف كيفَ يتصرَّف مع شخصٍ على شفا الموت؛ وكان صعباً بالقدر نفسه على كيت أنْ

تفرح بأشياء كالعودة إلى المنزل أو إجراء الاختبارات المدرسيّة التقديريّة، بما أنّه لا شيء يضمن أنْ تكون على قيد الحياة لتفعل ذلك. إنَّ لديها بعض المعارف، طبعاً، ولكن في الغالب عندما كانوا يزورونها يبدو عليهم كأنهم يقضون فترة في السجن، ويجلسون على حافّة سرير كيت يعدّون الدقائق حتى تنصرم ويغادرون شاكرين الله لأنَّهم لم يُصابوا بما أُصيبت به.

الصديق الحقيقي غير قادر على الشعور بالرثاء لأجلك.

أقول، وأنا أشدُّ الستارة وأعيدها إلى مكانها، «أنا لستُ صديقتك. أنا أختك». ***وأؤدي عملاً لعيناً لأنني كذلك***، في اعتقادي. أضعُ وجهي تحت وابل ماء الدشّ، لكي لا تستطيع أنْ تتبيَّن أنني أنا أيضاً أبكي.

فجأة، تنزاح الستارة، كاشفة عن عريّي التام. تقول كيت: «هذا ما أريد التحدّث بشأنه. إذا لم تعودي ترغبين في أنْ تكوني أختي، هذا أمر منفصل. ولكنني لا أعتقد أنَّ باستطاعتي أنْ أخسركِ كصديقة».

تسحب الستارة وتعيدها إلى وضعها، ويتصاعد البخار من حولي. وبعد برهة أسمعُ الباب يُفتَح ومن ثم يُغلَق، ويدخل الهواء البارد الشبيه بحدّ السكين في إثر ذلك.

أنا أيضاً لا أتحمّل فكرة فقداني إيّاها.

في تلك الليلة، حالما استغرقتْ كيت في النوم، تسلّلتُ من سريري ووقفتُ إلى جوارها. عندما وضعتُ راحة يدي تحت أنفها لأرى إنْ كانت تتنفّس، هبّتْ نفحة من الهواء من فمها على يدي. كان بوسعي أنْ أضغط، الآن، على ذلك الأنف والفم، وأمنعها من الكفاح. كيف يمكن لهذا أنْ يختلف عمّا أفعله أصلاً؟

دفعني وقع أقدام في الرواق إلى الغوص تحت أغطية سريري. ولبثتُ على جنبي، بعيداً عن مواجهة الباب، فقط تحسّباً إذا كانت رموش عينيّ ما تزال تتحرّك عندما يدخل والديّ الغرفة. تهمسُ أمي «لا أصدّقُ هذا. لا أصدقُ أنّها فعلت ذلك».

كان والدي شديد الهدوء إلى درجة أنني تساءلتُ إنْ كنتُ ربما قد ارتكبتُ خطأً، إنْ كان موجوداً هنا أصلاً.

أضافتْ أمي: «هذا جِسّ، من جديد. لقد فعلَتْ ذلك لتجذب الانتباه». أستطيع أنْ أشعر بها تنظر نحو الأسفل إليّ، وكأنني مخلوقٌ لم ترَ مثيلاً له في حياتها. «ربما نحن بحاجة إلى أنْ نأخذها إلى مكانٍ ما، وحدها. فلتذهب لمشاهدة فيلمٍ سينمائيّ، أو لتتسوّق، لكي لا تشعر بأنها منبوذة. فلنجعلها تدرك أنّها ليست مُضطرة إلى القيام بعملٍ جنونيّ لكي نلاحظ وجودها. ما رأيك؟».

أتعلَمْ كيف يمكنْ للصمت أنْ يضغط على طبلة أذنك وأنتَ في الظلام، ويجعلك أصمّ؟ هذا ما يحدث لي، حتى أكاد لا أسمع جواب أمي. «إكراماً لله، يا براين... إلى جانب مَنْ تنحاز؟».

ويقول والدي: «مَنْ قال إنني أنحاز؟».

ولكن حتى أنا كان باستطاعتي أنْ أُعطي جواباً عن هذا بالنيابة عنه. هناك دائماً انحياز. هناك دائماً فائز، وخاسر. ومقابل كل شخص يأخذ، هناك آخر يجب أنْ يُعطي.

بعد ذلك ببضع لحظات، أُغلِقَ الباب، واختفى ضوء الرواق الذي كان يتراقص على السقف. أنقلبُ على ظهري، وأرمش بعينيّ - فأجد أنَّ أمي ما تزال تقف بجوار سريري. أهمسُ «حسِبتُ أنكِ غادرت».

تجلس على آخر سريري فأبتعد قليلاً. لكنّها تضعُ يدها على ربلة ساقي قبل أنْ أبتعد كثيراً. «وماذا تحسبين أيضاً، يا آنّا؟».

تنقبض معدتي بشدّة. «أحسبُ... أحسبُ أنكِ لا بدّ تكرهينني».

حتى في الظلام، أستطيع أنْ أرى بريق عينيها. تتنهّد أمي: «أوه، آنّا، كيف لا تدركين كم أحبّك؟».

تمدّ ذراعيها وأزحف إلى داخلهما، وكأنني عدتُ صغيرة من جديد وتحتويانني. وأضغطُ وجهي بقوة على كتفها. إنَّ ما أريده، أكثر من أي شيء، هو أنْ أُعيد عقارب الزمن قليلاً. أنْ أصبح الطفلة التي كنتُها، التي كانت تصدِّق أنَّ كل ما تقوله أمي صحيح مئة بالمئة وصائب من دون أنْ تُدقِّق النظر لترى أنَّ خط شَعر الرأس يتصدَّع.

تضمّني أمي بقوة. تقول: «سوف نتحدث مع القاضي ونشرح له الوضع. يمكننا أنْ نصحِّح الوضع. يمكننا أنْ نُصلح كل شيء». ولأنَّ تلك الكلمات كانت في الحقيقة كل ما أردتُ سماعه، أومئ برأسي موافقة.

سارة
1990

مكتبة
t.me/soramnqraa

شعرتُ بارتياحٍ غير متوقَّع في التواجد في جناح الأورام في المستشفى، بإحساس بأنني أنتمي إلى المكان. بدءاً بحارس موقف السيارات طيب القلب الذي يسألنا إنْ كانت تلك المرة الأولى التي نأتي فيها، وانتهاءً بفريق من الأطفال يتأبّطون أوعية ورديّة للتقيّؤ كدُمى الدببة – هؤلاء الأشخاص كلهم جاؤوا إلى هنا قبلنا، وفي الأعداد يكمن الأمان.

استقللنا المصعد إلى الطابق الثالث، قاصدين عيادة الدكتور هاريسون تشانس. اسمه وحده صدَّني. لِمَ لا يحمل اسم الدكتور فيكتور؟ أقول لبراين، وأنا أنظر في ساعة يدي للمرة العشرين، «لقد تأخّر». نبات العنكبوت يذبُل، بنيّ اللون، على حافة النافذة. آمل أنْ تكون معاملته للناس أفضل من معاملته للنبات.

لكي أُسلّي كيت، التي كانت قد بدأتْ تفقد روح الدعابة، أنفخ قفّازاً من المطاط وأربطه على شكل بالون مُضحك. على موزِّع القفّازات بجوار المغسلة توجد لافتة دائمة تُحذِّر الآباء من القيام بمثل ما فعلتُ. وأخذنا نضربه جيئة وذهاباً، نلعب كرة الطائرة، إلى أنْ جاء الدكتور تشانس بنفسه من دون أنْ يُقدِّم كلمة اعتذار على تأخّره.

«السيد والسيدة فيتزجيرالد». إنه طويل القامة ونحيل، ذو عينين زرقاوين حيويتين مُضخّمتين بنظّارة سميكة، وفم مُطبق. قبضَ على بالون كيت البديل المؤقّتِ بإحدى يديه وتجهَّم في وجهه. «حسن، أرى منذ الآن أنَّ هناك مشكلة».

تبادلنا أنا وبراين النظرات. هل هذا الرجل بارد القلب هو الذي سيقودنا خلال هذه الحرب، سيكون قائدنا، وفارسنا المنقِذ؟ وقبل أنْ نتمكّن حتى من التراجُع مع تفسيرات، يتناول الدكتور تشانس قلم تعليم ويرسم وجهاً على اللاتكس، ويُكمّله بوضع نظارات بإطار من الأسلاك لكي تتماشى مع نظارته. يقول «انتهتْ»، ومع ابتسامةٍ تُغيِّرُ معالم وجهه، يُعيد الرسمَ إلى كيت.

لم أكن أقابل أختي سوزان أكثر من مرّة أو مرّتين في العام. إنها تُقيم على مسافة يستغرقُ قطعها ساعة من الزمن وعِدَّة آلاف من المذاهب الفلسفيّة.

حسب عِلمي، تتلقّى سوزان مبلغاً كبيراً من المال مقابل توجيه الناس. بمعنى، نظريّاً، أنّها تتدرّب على ممارسة مهنتها معي. وقد توفي والدنا بينما كان يجزّ العشب وهو في عمر التاسعة والأربعين؛ وإثر ذلك لم تتمكن أمي من استعادة توازنها. وأمسكت سوزان، التي تكبرني بعشر سنين، زمام الأمور. حرصَتْ على أنْ أؤدي وظائفي المدرسيّة وعلى ملء استمارات كليّة الحقوق وكانت أحلامها كبيرة. كانت ذكيّة وجميلة ودائماً تعرف مقال كل مقام. كانت تتعامل مع كل كارثة وتجد الترياق المنطقيّ لحلّها، وهذا ما جعلها تنجح في عملها. كانت تعمل بكل ارتياح في غرفة الاجتماع بقدر ارتياحها وهي تمارس الركض على طول شارع تشارلز. كانت تجعل كل شيء يبدو سهلاً. فمَنْ يمكن *أنْ يرفض* مِثالاً يُحتذى مثلها؟

الضربة الأولى التي تلقّيتُها كانت زواجي من شخص لا يحمل شهادة جامعيّة. وتلقّيتُ ضربتي الثانية والثالثة عندما حملتُ. وأعتقد أنني عندما تخلّيتُ عن طموحي في أنْ أُصبح نسخة ثانية من غلوريا ألريد[1]، كانت مُحقَّة في اعتباري فاشلة. وما زلتُ أعتقد هذا حتى الآن، وكنتُ مُحقّة في اعتقادي أنني لستُ مثلها.

لا تُسئ فهمي، إنها تحبّ ابنة وابن أختها، وتُرسِل إليهما منحوتات من إفريقيا، وأصدافاً من بالي، وشوكولاتة من سويسرا. وأراد جِسّ أنْ تكون

---

1 – غلوريا ألريد (ولدتْ عام 1941): محامية أميركيّة يهوديّة تختصّ في الدفاع عن حقوق المرأة. المترجم.

لديه غرفة مكتب من الزجاج كغرفتها عندما أصبحَ شاباً. وأُخبره «لا يمكننا أنْ نكون كلّنا الخالة زان» - في حين أنَّ ما أعني هو أنني *أنا* التي لا أستطيع أنْ أكون مثلها.

لا أتذكّر مَنْ منّا توقفتْ عنِ الردّ على مكالمات الآخر الهاتفيّة، لكنَّ الوضع كان أفضل هكذا. لا شيء أسوأ من الصمت، يشدّ كحبّات خرز ثقيلة على حديث شديد الرقّة. لذلك استغرقَ مني أسبوعاً كاملاً رفع سمّاعة الهاتف. واتصلتُ مباشرة. قال صوت رجل «هذا خط هاتف سوزان كروفتون».

تردّدتُ في قول: «نعم. هل هي هنا؟».

«لديها اجتماع».

«أرجوك...» وأخذتُ نَفَساً عميقاً. «أرجوك أخبرها أنَ أختها تتصل بها».

بعد برهة، انسابَ ذلك الصوت الناعم، السلس، إلى أذني. «سارة، بعد زمان». إنها الشخص الذي هرعتُ إليه عندما مررتُ بدورتي الشهريّة؛ والتي ساعدتني على رأب الصدع الذي أصاب قلبي أول مرة؛ واليد التي أُمسك بها في قلب الليل عندما لا أعود أتذكَّر على أي جانب كان والدي يفرق شَعره، أو كيف كانت أمّنا تضحك. ومهما أصبحتْ الآن، قبل هذا كلّه، فقد كانت أفضل صديقاتي المُقرّبات. أقول «زان؟ كيف حالك؟».

بعد مرور ستٍ وثلاثين ساعة على تشخيص حالة كيت رسميّاً بأنها لوكيميا النخاع الشوكيّ، أُتيحتْ لنا أنا وبراين الفرصة لطرح الأسئلة. كيت تعبثُ بغراء متلألئ مع طبيب اختصاصي بحياة الطفل في أثناء اجتماعنا مع فريقٍ من الأطباء، والممرضات، والأطباء النفسيين. وكنتُ قد علِمتُ تواً أنَّ الممرضات هنّ اللواتي لديهن الأجوبة التي نحتاج إليها حاجة ماسّة. وخلافاً للأطباء، الذين يتململون لأنهم يحتاجون إلى أنْ يكونوا في مكان آخر، تعطينا الممرضات جواباً بكل صبر كأننا أول مجموعة من الآباء نحضر مثل هذا النوع من الاجتماعات معهن، وليس الألف. تشرح إحدى الممرضات قائلة: «المشكلة مع اللوكيميا هي أننا قبل أنْ نحقن إبرة للمعالجة الأولى حتى نفكر في ثلاثة أنواع أخرى من العلاج تنتظر التطبيق. إنَّ التكهّن في هذا

النوع بالذات من الأمراض ضعيف جداً، لذلك نحن في حاجة إلى أنْ نفكِّر مُسبقاً فيما سيحدث تالياً. إنَّ ما يجعل لوكيميا النخاع الشوكي أصعب قليلاً هو أنّه مرض مُقاوِم للمعالجة الكيميائيّة».

يسأل براين: «ما معنى هذا؟».

«في المعتاد، في أنواع لوكيميا نقيّ العِظام، ما دامت الأعضاء صامدة، يمكن ضمناً تخفيف آلام المريض كلما حدث انتكاس. إنكم تُرهقون جسمه، لكنكم تعلمون أنّه سوف يستجيب للعلاج مراراً وتكراراً. ولكن، مع لوكيميا النخاع الشوكي، حالما تُطبّق معالجة ما، لا تستطيع في المعتاد الاتّكال عليها من جديد. وحتى هذا الوقت، لدينا الكثير يمكننا أنْ نقوم به».

يبتلع براين لعابه: «أتقصدين أنها سوف تموت؟».

«أنا أقول إنه لا توجد ضمانات».

«إذن ماذا تفعلون؟».

تُجيب ممرضة أخرى: «سوف تخضع كيت على مدى أسبوع للمعالجة الكيميائيّة، آملين أنْ نقتل الخلايا المريضة ونُخفِّف آلامها. من المُحتمَل أنْ تُصاب بالغثيان وأنْ تتقيّأ، وسوف نحاول أنْ نُبقي المُقيّئات في أدنى مستوياتها. وسوف تفقد شَعرها».

هنا، تخرج مني صرخة خفيفة. إنها شيء ضئيل جداً، لكنّها ستكون بمثابة إشارة تجعل الآخرين يعرفون خطب كيت. قبل ستة أشهر مضتْ، كانت قد قصّتْ شعرها للمرّة الأولى؛ استقرّت خصلات الشَّعر الذهبيّة اللولبيّة كالقطع النقديّة على أرض محل سوبر كتس.

«قد تُصاب بإسهال. وثمة احتمال كبير، بسبب ضعف جهازها المناعي، أنْ تُصاب بعدوى مرض مما سيُضطر نقلها إلى المستشفى. وقد تتسبّب المعالجة الكيميائيّة أيضاً في التأخّر في النمو. وبعد ذلك سوف تخضع لدورة من المعالجة الكيميائيّة المقوّية على مدى أسبوعين تقريباً، وبعد ذلك ستخضع لبضع دورات من المعالجة للصيانة. والعدد الدقيق سوف يعتمد على النتائج التي نحصل عليها من عمليات سحب نقي العِظام الدوريّة...

يسأل براين: «ثم ماذا؟».

يُجيب الدكتور تشانس: «ثم نراقبها. مع لوكيميا النخاع الشوكيّ، سوف ترغبون في أخذ جانب الحذر من ظهور علامات الانتكاس. سوف تُضطر هي إلى دخول حالات الطوارئ إذا ما حصل عندها نزيف، أو حمّى، أو سُعال، أو عدوى جرثوميّة. وفيما يتعلَّق بمزيدٍ من المعالجة، سوف تتوفر لها بعض الخيارات. والهدف هو دفع جسمها إلى إنتاج نقي عِظام صحيح. وإذا أنجزنا ارتياحاً جزيئياً بالمعالجة الكيميائيّة، وهذا مُستبعَد، يمكننا أنْ نستردّ خلايا كيت الخاصّة ونعيد زرعها - ويكون حصاداً ذاتياً. وإذا انتكستْ، يمكننا أنْ نحاول أنْ ننقل إليها نقي عِظام شخص آخر من أجل إنتاج خلايا دم. هل لدى كيت إخوة؟».

أقول: «لديها أخ». وخطرتْ في بالي فكرة، فكرة مريعة. «أيمكن أنْ يكون مُصاباً بهذا، أيضاً؟».

«بل مُستبعَد جداً. ولكن قد ينتهي به الأمر إلى أنْ يُصبح صالحاً لإجراء عملية نقل خلايا جذعيّة. وإذا لم يحصل، فسوف نضع اسم كيت على لائحة السجل الوطنيّ من أجل الـMUD -أي الواهب المتطابِق من غير الأقرباء. ولكنَّ الحصول على ازدراع من شخصٍ غريب متطابق أشدّ خطراً من الحصول على ازدراع من أحد الأقرباء- وفرصة خطر الموت تزداد بمقدار هائل».

المعلومات لا نهاية لها، هي سلسلة من السِّهام التي تُرمى بسرعة إلى درجة أنني لم أعد أشعر بوخزها. قيل لنا: ***لا تفكروا: فقط سلّموا طفلتكم لنا، وإلّا فسوف تموت***. ولكل جواب يعطونه لنا، لدينا له سؤال آخر.

هل سينمو شَعرها من جديد؟

هل ستعود إلى المدرسة؟

هل ستتمكن من اللعب مع الأصدقاء؟

هل هذا حدث بسبب المكان الذي نُقيم فيه؟

هل هذا حدث بسبب ما نحن عليه؟

أسمعُ نفسي أقول: «كيف سيكون الحال إذا ماتت؟».

نظر الدكتور تشانس إليّ. وشرح قائلاً: «الأمر يتوقف على ما سوف تستسلم له. إذا كان عدوى جرثوميّة، فسوف تكون في حالة تنفّس مُزرية

وموصولة بوسيلة تهوية، وإذا كان نزيفاً، فسوف تستمر بالنزف بعد أنْ تفقد الوعي. وإذا كان فشلاً عضويّاً، فسوف تختلف المواصفات اعتماداً على الجهاز المُصاب. في الغالب هناك مزيج من ذلك كلّه».

وأسأل: «هل ستعي ما يحدث؟»، في حين أنَّ ما قصدته في الحقيقة هو، *كيف سأنجو من هذا؟*

يقول، وكأنّه سمِعَ سؤالي غير المنطوق: «سيدة فيتزجيرالد، من بين الأطفال العشرين الموجودين هنا اليوم، سوف يموت عشرة في غضون بضع سنوات. ولا أعلم إلى أيّة فئة سوف تنتمي كيت».

من أجل إنقاذ حياة كيت، ينبغي أنْ يموتَ جزءٌ منها. هذا هو الهدف من المعالجة الكيميائيّة - من أجل إزالة كل الخلايا السرطانيّة. لهذا الهدف، وُضِعَ أنبوب مركزيّ تحت ترقوة كيت، عبارة عن مدخل ثُلاثيّ الشِّعاب سوف تجري من خلاله العديد من العلاجات، سوائل IV[1]، عمليات سحب الدم. ونظرتُ إلى الأنابيب التي تبرز من صدرها النحيل وفكّرتُ في أفلام الخيال العِلمي.

كانت قد أجرت التخطيط القاعدي EKG، للتيقّن من أنَّ قلبها يستطيع أنْ يتحمّل المعالجة الكيميائيّة. وتناولت قطرات ديكساميثاسون أوفثالميك[2]، لأنَّ أحد العقاقير يُسبِّب التهاب المُلتحِمة. وسُحِبَ منها الدم من خلال الأنبوب المركزيّ، من أجل فحص عمل الكبد والكليتين.

علَّقت الممرضة أكياس التوزيع على عمود IV وعلى مملِّس شعر كيت. سألتها: «هل ستشعر بالعمليّة؟».

«كلا. هيه، كيت، انظري هنا»، وأشارتْ إلى كيس الداونوروبيسين[3]، المُغطّى بكيسٍ قاتم من أجل حمايته من الضوء. كانت تظهر عليه مُلصَقات

1- سوائل لمعالجة ضمور الأوردة. المترجم.

2- عقار يُخفف من الآثار الجانبيّة، كاحمرار العين والمُلتحمة، والالتهابات وحساسية البشرة، إلى آخره. المترجم.

3- علاج كيميائي لحالات السرطان الحادّة. المترجم.

ملوّنة ساعدتِ الممرّضة كيت على صُنعها في أثناء انتظارنا. ورأيتُ أحد المراهقين مكتوب على كيسه: *يسوع يُخلِّص، والعلاج الكيميائيّ يسجّل*.

هذا ما بدأ يجري في عروقها: داونوروبيسين، 50 ملغ في 25 سنتيمتراً مكعباً من محلول D5W؛ وسايتارابين، 46 ملغ في 25 سنتيمتراً مكعباً في نقيع D5W، وIV على مدى أربع وعشرين ساعة؛ وألوبورينول 92 ملغ IV. أو بعبارة أخرى، سُمّ. وأتخيّل معركة هائلة تجري داخلها. أتصوّر جيوشاً لامعة، وضحايا تتبخّر من خلال مسّامها.

يُخبروننا أنَّ كيت سوف تشعر بالغثيان في الغالب في غضون بضعة أيام، لكنَّ التقيّؤ سوف يبدأ بعد ساعتين فقط. ويضغط براين على زر الاستدعاء، فتأتي إحدى الممرضات إلى الغرفة. تقول: «سوف نُحضِر لها بعض الريغلان[1]» وتختفي.

عندما لا تتقيّأ كيت، فإنها تبكي. أجلسُ على حافة السرير، وأضمّ نصفها في حضني. ليس لدى الممرضة وقت لتمارس التمريض. بما أنَّ كادرهم الإداري ناقص، فإنهم يُعطون مُضادَ التقيّؤ في الـ IV، ويمكثون بضع لحظات ليروا استجابة كيت – ولكن حتماً سوف يتمّ استدعاؤهم إلى موقع آخر في حالة طارئة أخرى وما تبقّى يُصبح أمره بين أيدينا. إنَّ براين، الذي يُضطر إلى مغادرة الغرفة إذا ما أُصيب أحد أولادنا بفيروس في المعدة، هو قُدوة في الفعاليّة؛ يمسح لها جبينها، ويضمّ كتفيها الهزيلين، ويربّت بمنديل من الورق حول فمها. ويُتمتم لها كلما بصقتْ، ولكن ربما هو فقط يُكلِّم نفسه: «تستطيعين أنْ تتجاوزي هذه المحنة».

وأنا أيضاً أُفاجئ نفسي. وبتصميمٍ أُقدِّمُ عَرضاً من شطف وعاء التقيؤ وإعادته إلى مكانه، إذا ركّزتَ اهتمامكَ على تدعيم الرأس الساحليّ بأكياس الرمال، تستطيع بذلك أنْ تتجاهل أمواج التسونامي المتقدّمة.

جرِّب ذلك بأيّة طريقة أخرى، وسوف تُصاب بالجنون.

يحضِر براين جِسّ إلى المستشفى من أجل فحص دمه: بمجرد وخز في الإصبع؛ يضطرون إلى تقييده بمساعدة براين واثنين من المُقيمين في

1- الريغلان: مُضاد للتقيّؤ. المترجم.

المستشفى. ويصرخ ويضجّ المستشفى بصراخه. أتراجع، وأعقد ذراعيّ على صدري، وأفكِّر بلا قصد في كيت، التي توقفت عن البكاء إثر الإجراءات التي تمت قبل ذلك بيومين.

بعضَ الأطباء سوف ينظرون إلى هذه العيِّنة، وسوف يتمكّنون من تحليل ستة بروتينات، تطفو غير مرئيّة. وإذا تطابقتْ هذه البروتينات الستة مع مثيلاتها عند كيت، فسوف يكون جِسّ مُطابِقاً في الـ HLA (نظام البويضة البيضاء الإنسانيّة المُضادة) - أي واهباً مُحتَمَلاً لنقي العِظام لأخته. قلتُ في نفسي، *إلى أي مدى يمكن أنْ يكون الفرق سيئاً، ليتطابق ست مرات متتالية؟ سيئاً بقدر الإصابة بسرطان الدم.*

يذهب اختصاصي فصْد الوريد حاملاً عيّنتها من الدم، ويُطلِق براين والأطباء سراح جِسّ، فينطلق مبتعداً عن الطاولة ليستقرّ بين ذراعيّ. «ماما، لقد وخزوني». ويرفع إصبعه عالياً، يُحيط به شريط طبي لاصق. وأشعر بوجهه المُشرِق، الرطب، حارّاً على بشرتي.

أضمّه إليّ بقوة. وأقول كل الكلمات المناسِبة. ولكن من الصعب جداً دفع نفسي إلى الرثاء لأجله.

***

يقول الدكتور تشانس: «لسوء الحظ، إنَّ دم ابنك لا يتطابق مع دمها».

تتركَّز عيناي على النبات المنزليّ، الذي ما زال يقبع ذابلاً، بُنيّ اللون على حافة النافذة. ينبغي التخلُّص من ذلك الشيء. يجب استبداله بنبات الأركيدة، بعصفور الجنّة، وبأزهار أخرى غريبة.

«قد يظهر واهبٌ آخر من غير الأقارب على السجل الوطني لنقي العِظام».

يميل براين إلى الأمام، متجمداً ومتوتّراً. «لكنّكَ قلتَ إنَّ نقل النقي من واهب غريب أمرٌ خطير».

يقول الدكتور تشانس: «نعم، قلت هذا، ولكنْ أحياناً لا يكون لدينا بديل».

أرفعُ بصري: «ماذا لو لم تجد شخصاً يتطابق معها على لائحة السجل؟».

يدعك طبيب السرطان جبينه: «حسن، عندئذٍ نستمر معها إلى أنْ تكتشف الأبحاث شيئاً بشأنها».

إنّه يتكلَّم عن طفلتي الصغيرة وكأنها آلة: سيارة تعطّل فيها الكربوريتور، أو

طائرة علِقَ فيها دولاب الهبوط. وبدل أنْ أواجه هذا، أشيح بوجهي في اللحظة المناسبة لأرى أحد الأوراق الخضراء المشوّهة على النبات وهي تقوم بقفزة الانتحار إلى السجادة. أنهضَ واقفة على قدميّ بلا تقديم أي تفسير وأحمل الأصيص، وأخرج من عيادة الدكتور تشانس، مارّة بموظف الاستقبال وبالآباء المصعوقين الآخرين الذين ينتظرون أطفالهم المرضى. وأرمي النبتة في أول حاوية قمامة أقابلها مع تربتها الجافّة. وأحدِّقُ إلى أصيص الفخّار الذي في يدي، وأكاد أفكر في تهشيمه على حجارة قرميد أرضيّة الشارع فأسمعُ صوتاً خلفي.

يقول الدكتور تشانس: «سارة، أنتِ بخير؟».

أستدير ببطء، والدموع تنبع من عينيّ. «أنا بخير. وصحتي جيدة. سوف أعيش حياةً طويلة، طويلة».

أسلّمه الأصيص، وأعتذر. يومئ برأسه، ويقدِّم لي منديلاً من جيبه الخاصّ.

«اعتقدتُ أنَّ جِسّ هو القادر على إنقاذها. أردتُ أنْ يكون جِسّ هو المُنقِذ».

يُجيب الدكتور تشانس: «كلّنا تمنينا ذلك. اسمعي. قبل عشرين عاماً، كانت نسبة الباقين على قيد الحياة أقل ممّا هي الآن. وعرفت الكثير من العائلات واحدٌ من أفرادها لم يتطابق، لكنَّ فرداً آخر كانت متطابقاً تماماً».

باشرتُ بالقول، ***نحن ليس لدينا إلّا هذين الفردين***، ثم أدركتُ أنَّ الدكتور تشانس يتحدث عن عائلةٍ لم أكوّنها بعد، عن أطفال لم يكن في نيَّتي أنْ أنجبهم. استدرتُ نحوه، وعلى شفتيّ سؤال عالِق.

بدأ يمشي باتجاه عيادته، ممسكاً بالأصيص، «سوف يتساءل براين إلى أين ذهبنا»، ثم يقول وكأنّه يتحدث مع أحد: «ما هي النباتات التي لا يمكن أنْ أفكر في تدميرها؟».

سهلٌ جداً افتراض أنّه عندما يصل عالمك الخاصّ إلى نقطة السكون التامّ، فإنَّ هذا ما يحدث لعالَم كل شخص آخر. لكنَّ جامع القمامة أخذ قِمامتنا وترك الحاويات في الطريق، كما يفعل دائماً. وهناك فاتورة من شاحنة الوقود مُقحَمة في الباب الأمامي. وعلى المنضدة تكدّستْ بأناقة رسائل حصيلة أسبوع كامل. شيء مُذهل، لقد استمرّتِ الحياة.

أُطلِقَ سراح كيت من المستشفى بعد مرور أسبوعٍ كامل على لجوئها إليها من أجل خضوعها للمعالجة الكيميائيّة. ما زال الأنبوب المركزي ممتداً من الأجراس التي تضعها في صدرها خارجاً من بلوزتها. أمدّتني الممرضات بكلامٍ مُشجِّع، مع لائحة طويلة من الإرشادات يجب اتّباعها: متى ينبغي الاتّصال أو عدم الاتّصال بغرفة الطوارئ، متى من المتوقَّع أنْ نعود من أجل تلقّي المزيد من المعالجة الكيميائيّة، وكيف ينبغي الحذر خلال فترة ضعف مناعة كيت.

عند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، يُفتح باب غرفة نومنا. وتتقدَّم كيت على أطراف أصابع قدميها من السرير، على الرغم من أنَّ براين وأنا استيقظنا في الحال. يقول براين: «ما الأمر، حبيبتي؟».

لا تتكلَّم، وتكتفي برفع يدها إلى رأسها وتمرير أصابعها خلال شَعرها. وتخرج مع كتلة سميكة منه تسقط على السجّادة كرذاذٍ من الثلج.

بعد مرور بضع ليال تُعلن كيت على مائدة العشاء «لقد شبعت». طبقها ما زال ممتلئاً؛ لم تلمس البقول أو فطيرة اللحم. وتنطلق بخطى راقصة إلى غرفة الجلوس لكي تلعب.

يبتعد جِسّ عن المائدة. «أنا، أيضاً. هل لي أنْ أستأذن؟».

يتناول براين ملء شوكة من الطعام. «ليس قبل أنْ تأكل كل الخضار».

«أنا أكره البقول».

«وهي أيضاً ليست مولعة بك».

ينظر جِسّ إلى طبق كيت. «هي التي ينبغي أنْ تُنهي طبقها. هذا ليس عدلاً».

يترك براين شوكته على حافة الطبق. يُجيبه، بصوتٍ شديد الهدوء: «أتقول عدلاً؟ أتريد العدل؟ حسن، يا جِسّ. في المرة التالية التي تُجرى فيها عملية سحب نقي العظام لكيت، سوف نُجري لكَ عمليّة مثلها، أيضاً. وعندما نفتح أنبوبها المركزي، سوف نحرص على أنْ تعاني شيئاً يُعادله في الألم. وفي المرة التالية التي تخضع للمعالجة الكيميائيّة، سوف–».

أقاطعه «براين!».

يسكتْ فجأة كما كان قد بدأ، ويُمرِّر يداً ترتعش على عينيه. ثم يستقرّ

تحديقه على جِسّ، الذي يحتمي تحت ذراعي. «أنا... أنا آسف، جِسّ. أنا لا...»، لكنَّ ما كان ينوي أنْ يقول يتلاشى، ويُغادر براين المطبخ.

نجلس وسط لحظة طويلة من الصمت. ثم يلتفتْ جِسّ إليّ. «هل أبي مريض، أيضاً؟».

قبل أنْ أجيبه أفكِّر مليّاً. وأجيب: «سوف نكون كلّنا بخير».

بمناسبة مرور أسبوع على عودتنا إلى المنزل، نستيقظ في منتصف الليل على ضجيج تحطّم شيء. نتسابق أنا وبراين لبلوغ غرفة كيت. إنها مستلقية على السرير، تهزّ رأسها بعنف إلى درجة أنها توقِع المصباح عن طاولة السرير. أخبر براين، عندما أضعُ يدي على جبينها، «إنها تغلي بالحرارة».

تساءلتُ كيف سأقرِّر إنْ كان ينبغي استدعاء الطبيب أم لا، إذا ما ظهرت على كيت أيّة أعراض غريبة. أنظرُ إليها الآن ولا أُصدِّق أنني سأكون غبيّة إلى درجة أنْ أُصدِّق أنني لن أعرف، في الحال، كيف يبدو الشخص *المريض*. أُعلنُ: «سوف نذهب في حالة طوارئ»، على الرغم من أنَّ براين يبدأ تواً يُدثّر كيت بأغطية ويرفعها عن مهدها. ونهرع بها إلى السيارة ونُشغِّل المُحرِّك ومن ثم نتذكّر أننا لا نستطيع أنْ نترك جِسّ وحده في المنزل.

يُجيب براين، وقد عرفَ ما يجول في خاطري، «اذهبي أنتِ معها. أنا سأبقى هنا». لكنّه لم يُبعِد عينيه عن كيت.

بعد بضع دقائق، ننطلق إلى المستشفى، وجِسّ في المقعد الخلفي بجوار أخته، يسأل لِمَ استيقظنا، والشمس لم تستيقظ بعد.

في قسم الطوارئ، ينام جِسّ على فراش من معاطفنا. ونراقب أنا وبراين الأطباء منكبّين فوق جسم كيت المحموم، كنحلٍ في حقلٍ من الأزهار، يمتصّون منها قدر استطاعتهم. وتُجرى لها عمليات ازدراع الميكروبات من أجل عزل سبب العدوى واستبعاد وجود التهاب السحايا. ويجلب اختصاصي التصوير الإشعاعي آلة الأشعة السينيّة المحمولة من أجل تصوير صدرها، ليروا إنْ كانت تلك الجراثيم تعيش في رئتيها.

بعد ذلك، يضع فيلم الصدر على اللوحة المُضيئة خارج الباب. تبدو

عِظام صدر كيت نحيلة كعيدان الكبريت، وهناك بقعة كبيرة رماديّة اللون بعيدة عن المركز. وتتراخى رُكبتاي، وأجدُ نفسي أتمسّكُ بقوة بذراع براين. «إنه ورم. إنَّ السرطان ينتشر».

يضع الطبيب يده على كتفي. يقول: «سيدة فيتزجيرالد، هذا قلب كيت».

إنَّ كلمة بانسيتوبينيا كلمة وهميّة تعني أنّه ليس في جسم كيت شيء يحميها من عدوى أي مرض. وهذا يعني، كما يقول الدكتور تشانس، أنَّ المعالجة الكيميائيّة تنجح - وأنَّ الغالبيّة العُظمى من خلايا الدم البيضاء في جسم كيت قد أُزيلَتْ. ويعني أيضاً أنَّ تعفّن الدم الأسوأ -عدوى ما قبل العلاج الكيميائيّ- ليس احتمالاً قويّاً، بل مُفترَض.

وتُزوَّد بجرعات من التايلينول من أجل التخفيف من الحمّى. وتؤخَذ منها عينات من الدم، والبول وإفراز التنفّس، لكي تُوصَف لها المُضادات الحيويّة المُناسِبة. ويستغرق إطلاق سراحها من حالة التخشُّب -أي جولة من الارتجاف العنيف قوية إلى درجة أنّها تتعرَّضْ لخطر السقوط من السرير- مرور ست ساعات.

إحدى الممرّضات -كانت قد قامت في أحد الأيام قبل بضعة أسابيع بضفر شَعر كيت وجعله ناعماً مُلتصقاً بفروة الرأس، لإدخال السعادة إلى قلبها- أخذت درجة حرارة كيت ثم التفتت إليّ. قالت برفق: «سارة، تستطيعين الآن أنْ تتنفّسي بارتياح».

يبدو وجه كيت منكمشاً وشاحباً كوجه القمر النائي الذي يُحبّ براين أنْ يتأمّله بمنظاره المُكبِّر - ساكناً، نائياً، بارداً. أشبه بجثّة... والأسوأ من ذلك، أنَّ هذا، بالمقارنة، شيء مُريح أكثر من مراقبتها وهي تعاني.

يلمس براين تاج رأسي، «هيه». وبذراعه الأخرى يُلاعب جِسّ. الوقت يُقارب الظهيرة، وكلنا ما زلنا نرتدي البيجامات، ولا نفكّر أبداً في ارتداء ملابسنا. «سوف آخذه إلى الكافيتيريا؛ لأخذِ وجبة غداء. أتريدين شيئاً؟».

أهزّ رأسي نفياً. أُقرّبُ كرسيي من سرير كيت، وأُمسِّد الغطاء فوق ساقيها. وأمسك يدها، وأقيس حجمها بوضعها على يدي.

تنفتح عيناها قليلاً. تكافحُ برهة، غير متيقّنة من مكان وجودها. أهمسُ «كيت. أنا هنا». وعندما تُدير رأسها وتركّز نظرها عليّ، أرفعُ راحة يدها إلى فمي، وأضغطُ قبلة على منتصفها. أخبرها «أنت غاية في الشجاعة»، ثم أبتسم. «عندما أكبُر، أريد أنْ أصبح مثلك».

أُفاجأ عندما تهزّ رأسها نفياً. صوتها واهن، كخيط، وهي تقول: «كلا ماما، سوف تمرضين».

في حلمي الأول، يقطر سائل IV بسرعة كبيرة داخل الأنبوب المركزي عند كيت. ويتدفّق، كبالون يجب نفخه. أحاول أنْ أسحب المحلول المالح من الداخل إلى الخارج، لكنّه ثابت في الأنبوب المركزيّ. وبينما أنا أراقب، تكون قَسَمات وجه كيت ملساء، غير واضحة، مطموسة، إلى أنْ يُصبح وجهها أبيضَ بيضاويّاً يمكن أنْ يكون لأي شخصٍ آخر.

في حلمي الثاني، أجد نفسي في جناح الأمومة من المستشفى، أضعُ مولوداً. جسمي ينشقّ، ونبض قلبي بطيء في بطني. هناك دفقٌ من الضغط، ومن ثم يصل المولود باندفاع وسرعة كالومض. تشرق قسمات الممرضة، «إنها فتاة»، وتسلّمني المولودة الجديدة.

أزيل الغطاء الزهريّ عن وجهها، ثم أتوقف. أقول: «هذه ليست كيت».

توافق الممرضة: «طبعاً ليست كيت؛ ومع ذلك هي ابنتك».

المرأة الملاك التي تصِل ترتدي ثوباً من تصميم أرماني وتصرخ في الهاتف الخليوي في أثناء دخولها مبنى المستشفى. تقول أختي بنبرة آمرة: «بِعهُ. لا يهمّني إنْ أقمتَ كشكاً لبيع شراب الليمونادة في فانوي هول، وتخلّيتُ عن الأسهم، يا بيتر. أقول بِعهُ». تضغطُ زراً وتمدّ ذراعيها نحوي. تهدأ زان عندما أنفجر بالبكاء. «هيه، أحقاً اعتقدتِ أنني سوف أُطيع عندما تطلبين مني ألّا آتي؟».

«ولكن-»

«فاكسات. مكالمات هاتفيّة. أستطيع أنْ أعمل من منزلك. مَنْ غيري سيحرس جِسّ؟».

نتبادل أنا وبراين النظرات، لم يخطر في بالنا أنَّ الأمر سيصل إلى هذا الحدّ. وإجابةً على ذلك، ينهضُ براين واقفاً، ويُعانق زان بارتباك. يهرع جِسّ إليها بأقصى سرعة. «مَنْ هذا الطفل الذي تبنّيتموه، يا سارة... لأنَّ جِسّ لا يمكن أنْ يكون قد أصبح كبيراً هكذا...» وتُبعِد جِسّ عن رُكبتيها وتميل فوق سرير المُستشفى، حيث تنام كيت. تقول زان، وعيناها تشرقان: «أراهن على أنَّك لا تتذكرينني، لكنني أتذكّرك».

يجري الأمر بسهولة شديدة - أي تركها تُمسِك بزمام الوضع. وتورِّطُ زان جِسّ في لعبة تيك-تاك-توك وتتنمَّر على مطعمٍ لا يُرسل الطلبات إلى المنازل وتدفعه إلى إحضار وجبة غداء. أجلس بجوار كيت، أتنعَّم بكفاءة أختي. وأتركُ نفسي أتظاهر بمقدرتها على إصلاح ما لا أستطيع إصلاحه.

بعد أنْ تأخذ زان جِسَّ إلى المنزل لقضاء الليل، ونتعاون أنا وبراين في الظلام في دعم كيت. أهمسُ «براين، كنتُ أفكّر...».

يتململ في جلسته على الكرسي. «فيمَ؟».

أميل إلى الأمام، لكي تتقابل عيوننا. «في أنْ نُنجب طفلاً».

ضيَّقَ برين عينيه. «يا إلهي، يا سارة». ونهضَ واقفاً على قدميه، وأدار ظهره لي. «يا إلهي».

أنا أيضاً أنهضُ واقفة. «ليس الأمر كما تظن».

عندما يواجهني، يرسم الألمُ كلَّ خطٍ في قَسَمات وجهه المتوترة. يقول: «لا يمكننا أنْ نستبدل كيت هكذا ببساطة إذا ماتت».

على سرير المستشفى، تتقلَّب كيت، وتجعل الأغطية تحفّ معاً. وأُجبِر نفسي على تخيّلها وهي في سن الرابعة، ترتدي ملابس تنكّرية في عيد جميع القديسين؛ وفي سن الثانية عشرة، تجرّب وضع أحمر شِفاه لامع؛ وفي سن العشرين، ترقص في أرجاء مهجع النوم. «أعلم. لذلك يجب أنْ نحرص على ألّا تموت».

الأربعاء

سوف أقرأ الرماد، إذا طلبتِ مني.
سوف أنظر في النار وأخبرك ما
أراه على الرموش الرماديّة
وبالألسنة والخطوط الحمراء والسوداء،
سوف أحكي لك كيف تنشأ النار
وكيف تركض النار حتى تبلغ البحر.

كارل ساندبرغ. من «***صفحات من نار***».

كامبل

أعتقد أننا جميعاً نُدين بالفضل لآبائنا –والسؤال المهم هو، إلى أي مدى نُدين؟ هذا ما يدور في خَلَدي بينما أمّي تُبربر حول آخر علاقات والدي الغراميّة. ليست هذه أول مرَّة أرغب في أنْ يكون لي إخوة صِغار– ولو حتى لكي أتلقّى مكالمات هاتفيّة عند الفجر كهذه مرَّة أو مرَّتين في الأسبوع، بدل سبع.

أقاطعها: «أمي، أشكّ في أنَّ عمرها الحقيقيّ هو ستة عشر».

«أنتَ تستهين بوالدك، يا كامبل».

ربما، لكنني أعرفُ أيضاً أنّه قاضٍ فيدراليّ. ربما يُلاحق فتيات المدارس بنظراته، ولكنْ لا يمكن أنْ يتصرَّف أي تصرّف غير قانونيّ. أقول: «أمي، لقد تأخّرتُ على المحكمة. سوف أتصل بك لاحقاً»، وأُنهي المكالمة قبل أنْ تحتجّ.

أنا لستُ ذاهباً إلى قاعة المحكمة، لكنني قلتُ ذلك. وآخذُ نَفَساً عميقاً، أهزّ رأسي نفياً وأجد أنَّ جَدج يُحدِّقُ إليّ، أقول: «السبب رقم 106 لكون الكلاب أشدّ ذكاءً من البشر هو أنكم معشر الكلاب حالما تتركون جراءكم، تنقطع صِلتكم تماماً بأمهاتكم».

ألجُ المطبخَ وأنا أعمل على عقد ربطة عنقي. إنَّ شقّتي عملٌ فنيّ. أنيقة ومعتدلة، لكنَّها تضمّ أفضل ما يمكن للمال أنْ يشتري – أريكة من الجلد الأسود فريدة من نوعها؛ وشاشة تلفزيون مُسطّحة مُعلَّقة على الجدار؛ صندوق زجاجيّ مُقفَل مملوء بنُسخٍ كتب موقَّعة من مؤلفين أمثال هيمنغواي وهوثورن. آلة صنع القهوة مستوردة من إيطاليا؛ وبرّادي يُبرِّد لِما تحت درجة

الصِّفر. أفتحه فأجد بصلة واحدة، وزجاجة من صلصة البندورة، وثلاث بكرات من فيلم بالأبيض والأسود.

هذا، أيضاً، ليس شيئاً مُفاجئاً – إنني نادراً ما أتناول الطعام في المنزل. إنَّ جدج متعوّد على طعام المطاعم إلى درجة أنّه يمكن أنْ يبتلع دلواً دون أنْ ينتبه. وأسأله: «ما رأيك؟ هل مقهى روزي جيّد؟».

ينبح وأنا أُثبّت طقمه الخاصّ بكلبٍ مُدرَب. أنا وجدج نعمل معاً منذ سبعة أعوام. كنتُ قد اشتريته من مُربّي كلاب بوليسيّة، لكنّه تلقّى تدريباً خاصاً وهو يفكّر فيَّ. أما اسمه، في الواقع، أيّ محامٍ لا يرغب في أنْ يتمكّن من وضع قاضٍ[1] داخل صندوق بين حينٍ وآخر؟

إنَّ مقهى روزي هو كما تتمناه شركات ستاربَكس أنْ يكون: انتقائيّاً وغريب الأطوار، مزدحم بزبائن يمكن لهم في أي وقت أنْ يقرؤوا الأدب الروسيّ بلغته الأصليّة، أو أنْ يوازنوا ميزانيّة أيّة شركة على جهاز حاسوب محمول، أو أنْ يكتبوا سيناريو قصة بينما يجرعون الكافيين. وفي المعتاد نتمشّى أنا وجدج إلى هناك ونجلس على طاولتنا المعتادة، في الخلف. ونطلب كوبين من الإسبريسّو وقطعتيّ كعك كرواسان بالشوكولاتة، ونغازل بلا أي حياء أوفيليا، النادلة ذات العشرين عاماً. ولكن اليوم، عندما ندخل المكان، لا نعثر على أي أثر لأوفيليا وهناك امرأةٌ جالسة على الطاولة المُخصّصة *لنا*، تُطعِمُ طفلاً في عربة أطفال قطعة خبز يهودي. وهذا يجعلني أرضخ لجدج ليشدَّني بالأنشوطة إلى المكان الوحيد الخالي، إلى مقعدٍ بلا ظهر عند منضدة المُحاسبة التي تطلّ على الشارع.

الساعة السابعة والنصف صباحاً، وهذا النهار إخفاقٌ تامّ من بدايته.

فتى نحيل على حاجبيه من الحلقات ما يكفي ليُشبه عارضة ستارة دشّ يقترب مع مجموعة من الأوراق. يرى جدج عند قدميّ. «آسف، يا سيد. ممنوع دخول الكلاب».

شرحتُ له: «هذا كلب مُدرَّب. أين أوفيليا؟».

1- أي اسم الكلب جَدجْ، والاسم judge يعني قاضي. المترجم.

«لقد رحلتْ، يا سيد. هربتْ مع أحدهم، ليلة أمس».

هربت مع أحدهم؟ أما زال هناك مَنْ *يفعل* هذا؟ سألته: «مع مَنْ؟»، على الرغم من أنَّ هذا ليس من شأني.

«مع فنان تطبيقيٍّ ينحت براز الكلاب ويصنع منه تماثيل نصفية لقادة العالم. من المُفتَرَض أنَّ يكون هذا مجرد **تصريح**».

أشعر بوخز فوريّ تعاطفاً مع أوفيليا المسكينة. خذها نصيحة مني: إنَّ الحب يشبه قوس القزح بكل دوامه - جميل ما دام موجوداً، ويمكن أنْ يختفي في غمضة عين.

يمدّ النادل يده إلى جيب بنطلونه الخلفيّ ويُناولني بطاقة من البلاستيك. «ها هي قائمة الطعام مكتوبة برموز بريل[1]».

«أريد كوباً مُضاعفاً من قهوة إسبريسّو وقطعتيّ كرواسّان، وأنا لستُ أعمى».

«إذن ما حاجتك إلى فيدو[2]؟».

أقول: «أنا مُصاب بمرض سارس، وهو يدلّ الناس إلى أنني مريض».

لم يبدُ على النادل أنّه فهم أنني أمزح. فابتعد لكي يُحضِر لي القهوة، يبدو عليه الارتياب.

خِلاف طاولتي المعتادة، هذه الطاولة تطلّ على الشارع. أراقب سيدة عجوزاً تتفادى بصعوبة اندفاع سيارة أجرة؛ وثمة فتى يرقص في أثناء مروره ويوازن جهاز راديو بحجم رأسه ثلاث مرّات على كتفه. وتوأم بزي مدرسة أبرشيّة يضحكان من خلف صفحات مجلة للمراهقين. وامرأة بشَعر أسود منسدل تُريقُ القهوة على تنورتها، وترمي الكوب الورقيّ على الرصيف.

في داخلي، كل شيء يسقط. أنتظر منها أنْ ترفع وجهها -لأرى إنْ كانت الشخص الذي أظنّه- لكنّها تشيحُ بوجهها بعيداً عني، وتمسح القماش بمنديل. وثمة حافلة تقطع العالم إلى نصفَين، وهاتفي الخليويّ يبدأ بالرنين.

1- الرموز الخاصّة بالعميان. المترجم.

2- فيدو اسم كلب حقيقيّ ظلَّ وفيّاً لسيده حتى بعد أنْ مات، وظل يحرس قبر سيده إلى أنْ مات الكلب نفسه. وأصبح اسمه مرادفاً لكل كلب وفيّ. المترجم.

أنظر نحو الأسفل إلى الرقم القادم: لا مفاجأة هناك. أغلقُ مفتاح الطاقة من دون أنْ أُزعج نفسي بتلقّي مُكالمة أمي، وألقي نظرة نحو الخلف إلى امرأة خارج الواجهة، لكنَّ الحافلة تكون عندئذٍ قد اختفَتْ وكذلك المرأة.

أفتحُ باب المكتب، وأباشر بإصدار الأوامر بصياحٍ مرتفع لكيري. «اتصلي بأوسترليتز واسأليه إنْ كان مُستعداً للشهادة خلال مُحاكمة فيلاند؛ وأحضري لائحة بمشتكين آخرين واجهوا سلطة نيوإنغلند خلال السنوات الخمس الماضية؛ وأعدّي لي نسخة من شهادة ملبورن؛ واتصلي هاتفيّاً بجيري في المحكمة واسأليه أي قاضٍ سيحضر جلسة استماع طفلة آل فيتزجيرالد».

ترفع بصرها نحوي بينما الهاتف يبدأ بالرنين. «بالمناسبة»، وتهزّ رأسها باتجاه باب مكتبي الخاصّ الداخليّ. آنّا فيتزجيرالد واقفة على العتبة حاملة علبة رذاذ تحتوي مُنظّفاً صناعيّاً وترتدي ثوباً من الشاموا، تقوم بتلميع أكرة الباب.

أسألها «ماذا تفعلين؟».

«ما طلبتَ مني أنْ أفعل». ونظرتْ نحو الأسفل إلى الكلب. «مرحباً، جدج».

تُقاطعها كيري: «على الخط الثاني مكالمة لك». ألقي عليها نظرة محسوبة -لكنني لا أفهم لماذا سمحتْ أصلاً لهذه الطفلة بدخول مكتبي- أحاول أنْ ألج غرفة مكتبي، لكنَّ آنّا وضعَتْ مادة ما على أكرة الباب جعلها شديدة اللزوجة ويصعب الإمساك بها. وأكافحُ برهة، إلى أنْ تقبض هي على الأكرة مُستعينة بقطعة قماش وتفتح الباب من أجلي.

يدور جدج حول أرض الغرفة، ليعثر على البقعة المريحة أكثر من غيرها. أضغط الضوء الوامض على صف المكالمات «كامبل ألكسندر يتكلّم».

«سيد ألكسندر، أنا سارة فيتزجيرالد. والدة آنّا فيتزجيرالد». أترك هذه المعلومات تنتهي. وأحدِّقُ إلى ابنتها، التي تقوم بالتلميع على مسافة لا تزيد عن خمسة أقدام.

أجيب «سيدة فيتزجيرالد»، وكما توقّعتُ، على الأثر تتوقف آنّا عن العمل.

«إنني أتّصل لأنه... في الواقع، إنَّ الأمر كلّه عبارة عن سوء فهم».

«هل أرسلتِ رداً على العريضة؟».

«لن يكون هذا ضرورياً. لقد تحدثتُ مع آنّا ليلة أمس، وهي لن تستمرّ في قضيتها. إنها تريد أنْ تبذل كل ما في وسعها لتساعد كيت».

يخرج صوتي باهتاً. «أحقّاً. لسوء الحظ، إذا كانت زبونتي تنوي أنْ تتخلّى عن قضيّتها، فأنا في حاجة إلى أنْ أسمع هذا منها مباشرة». أرفعُ حاجبي، وألمحُ تحديق آنْ. «هل تعرفين إلى أين ذهبتْ؟».

تقول سارة فيتزجيرالد: «خرجت لتركض، لكننا سوف نذهب إلى دار القضاء بعد ظهيرة هذا اليوم. سوف نتحدث مع القاضي، وننتهي من هذا الأمر».

«أعتقد أنني سوف أراك حينئذٍ». أنهيتُ المكالمة وعقدتُ ذراعيّ على صدري، ونظرتُ إلى آنّا. «هل لديكِ ما تريدين الإفضاء به إليّ؟».

هزّت كتفيها. «لا شيء».

«لا يبدو أنَّ أملكِ تعتقد ذلك. لكنها أيضاً تحت تأثير انطباع بأنك خرجتِ لكي تُحاكي فلو جو[1]».

تنظر آنّا إلى منطقة الاستقبال، حيث تتمسّك كيري، طبعاً، بكلماتنا كما تتمسّك قطة بحبل. وتُغلقُ الباب وتقترب من طاولة المكتب. «لم أستطع أنْ أخبرها بأنني قادمة إلى هنا، ليس بعد ما حدث ليلة أمس».

«وماذا حدث ليلة أمس؟». عندما تسكت آنّا، أفقد صبري. «اسمعي، إذا كنتِ لا ترغبين في المُضيّ في القضيّة... إذا كان هذا مجرّد تبديد هائل لوقتي... فإنني أحبِّذ أنْ تكوني صادقة معي الآن، وليس لاحقاً. لأنني لستُ طبيب العائلة أو صديقك المُقرَّب، أنا مُحاميك. ولكي أكون مُحاميك يجب أنْ تكون هناك قضيّة. لذلك سوف أسألك من جديد: هل غيَّرتِ رأيك بشأن هذه القضيّة؟».

أتوقَّع من هذه الخطبة المُطوَّلة أنْ تضع نهاية لهذه الدعوى، وأنْ تتخبَّط آنّا وتُصبح عاجزة عن اتّخاذ أي قرار. لكنَّ ما أدهشني أنها تنظر إليّ مباشرة، بهدوء وثبات. وتسألني «أما زلتَ راغباً في تولّي قضيتي؟».

وعلى عكس ما في نيّتي مباشرة، أقول نعم.

تقول: «إذن كلا، لم أُغيِّر رأيي».

***

1- فلو جو، أو فلورنس غريفيث جوينر (1959-1998): عدّاءة أميركيّة، الأسرع في زمنها. المترجم.

في أول مرة أبحرتُ في سباق نادي لليخوت مع والدي كنتُ في الرابعة عشرة، وكان مُعارِضاً لذلك تماماً. فلم أكنْ بالغاً بالقدر الكافي؛ ولا ناضجاً بالقدر الكافي؛ وكانت حالة الطقس غير مُستقرّة على الإطلاق. وما قصده حقاً كان أنَّ مرافقتي له خليقُة بأنْ تجعله يخسر الكأس لا أنْ يفوز بها. وباعتقاد والدي، إذا لم تكن مثالياً، فإنكَ بكل بساطة *لن تكسب*.

كان قاربه من فئة USA–1، أعجوبة من الماهوغاني وخشب الساج، كان قد اشتراه من عازف على لوحة المفاتيح ج. غيلز[1] في ماربلْهيد. بعبارة أخرى: كان حُلماً، رمزاً للمنزلة الرفيعة، وفخامة في العبور، وهذا كلّه مُغلّفٌ بشراع أبيض برّاق وبهيكلٍ بلون العسل.

انطلقنا انطلاقة جيدة، مُجتازين الخط بأقصى سرعة حالما سمعنا القذيفة. وبذلتُ أقصى جهدي لكي أتقدَّم على ما توقّع مني والدي – موجّهاً الدفّة حتى قبل أنْ يُصدر أوامره بذلك، مُنعطِفاً ومُثبّتاً الزاوية إلى أن احترقتْ عضلاتي من فرط الجهد المبذول. وربما كان يمكن لهذا أنْ ينتهي نهاية سعيدة، لكنَّ عاصفةً هبّتْ من الشمال، جالبة أمطاراً غزيرة وأمواجاً عالية ترتفع عشرة أقدام، وتنقلنا من الذروة إلى الغور.

راقبتُ حركات والدي بمُشمّعِهِ الأصفر. لم يبدُ عليه أنّه يُلاحظ هطول المطر؛ وهو حتماً لم يرغب في أنْ يزحف إلى زاوية ما مُمسِكاً بطنه المُضطربة ويموت، كما حصل معي. وصرخ: «كامبل، غيِّر الاتّجاه».

لكنَّ الانعطاف نحو الرياح كان يعني الدخول في دوامة أخرى من الارتفاع والانخفاض. وكرّر والدي الأمر: «كامبل، افعلِ *الآن*».

انفتح غورٌ عميق أمامنا؛ وغاص القارب بزاوية حادّة حتى فقدتُ ثباتي. واندفع والدي وتجاوزني، وقبضَ على المقود. وخلال لحظة سعيدة، سكنَتِ الأشرعة. ثم اندفعَ ذراع التطويل، وانحدر القارب في الاتجاه المعاكس.

أمرني والدي: «أحتاج إلى الإحداثيات».

إنَّ الإبحار يعني الهبوط إلى بدن القارب حيث توجد الجداول، وإجراء

1- ج. غيلز: عازف في فرقة تحمل اسمه، وهو عازف غيتار وليس عازف على لوحة مفاتيح كما هو مذكور هنا. المترجم.

الحسابات من أجل معرفة اتجاهنا حتى نصل إلى عوّامة إرشاد السباق التالية. لكنَّ النزول إلى أسفل، والابتعاد عن الهواء المنعش يجعل الوضع أسوأ. وفتحت الخريطة في اللحظة المناسبة لكي أتقيّأ فوقها.

عثر والدي عليّ بسبب تخلّفي، لأنني لم أرجع حاملاً الجواب. أبرز رأسه نحو الأسفل ورآني جالساً وسط بركة من قيئي. تمتمَ: «يا إلهي»، وتركني.

تطلَّبَ مني بذل أقصى جهدي لكي أستجمع قِواي وألحق به. كان يشدّ المقود ويجذبه. وتجاهلني. وعندما انحرفَ، لم يهتف مُعلِناً عن ذلك. وانساب الشراع عبر القارب، ممزّقاً صفحة السماء. واندفع ذراع التطويل، وضربني بعنف على مؤخر رأسي وطرحني أرضاً.

استعدتُ وعيي حالما كان والدي يتقدَّم على قارب آخر، بمسافة لا تزيد عن قدم عن خط النهاية. وكان المطر قد تحوّل إلى ضباب، وبينما كان والدي يضع قاربنا الصغير بين تيار الهواء وأقرب مُنافِسٍ لنا، تراجع القارب الآخر. وفزنا بفارق ثوانٍ.

طُلِبَ مني أنْ أنظِّف الفوضى التي أحدثتها وأنْ أستدعي سيارة أجرة، بينما قادَ والدي القارب الصغير إلى نادي اليخوت من أجل الاحتفال. وأخيراً وصلتُ بعد ذلك بساعة، وحينئذٍ كان في حالة نفسيّة عالية، يشرب الويسكي من كأس الكريستال الذي فاز به. هتف أحد الأصدقاء: «ها قد جاء طاقمك، أيها الربّان». رفع والدي كأس النصر مُحيِّياً، وأسرفَ في الشرب، ومن ثم ضرب الكأس بقوة على البار فتهشَّم مقبضه.

قال بحّار آخر: «أوه، يا للخسارة».

لم يُبعِد والدي عينيه عنّي. قال: «هو كذلك، فعلاً».

عمليّاً، في كل مُصدّ سرعة في كل ثالث سيارة في رود آيلند سوف تجد مُلصقاً باللونين الأحمر والأبيض احتفالاً بضحايا بعض أكبر القضايا الإجراميّة في الولاية، يقول: ***صديقي كاتي ديكابيلليس قُتِلَ على يد سائق سيارة سكران. صديقي جون سيسون قُتِلَ على يد سائق سيارة سكران.*** هذه اللافتات كانت تُعرَض في معارض المدرسة وفي مُناسبات جمع التبرعات

وفي صالونات الحلاقة، ولا يهمّ ألّا تعرف الطفل المغدور؛ إنك تضع أسماءهم على سيارتك بدافع التضامن والفرح السرّي لأنَّ هذه المأساة لم تقع لك.

في العام السابق، كانت هناك مُلصقات حمراء وبيضاء مدّوّن عليها اسم ضحيّة أخرى: دينا ديسالفو. وخِلافاً للضحايا الأخرى، كنتُ أعرف هذه معرفة سطحيّة. كانت ابنة قاضٍ في الثانية عشرة من العمر، وقيل إنَّ القاضي انهار في أثناء جلسة قضية وصاية عُقِدَتْ بعد إقامة الجنازة بوقتٍ قصير وأخذ فترة ثلاثة أشهر إجازة ليتمكن من التغلّب على حزنه. وبالمُصادفة، فإن هذا القاضي هو نفسه الذي عُيِّنَ للحكم في قضية آنّا فيتزجيرالد.

بينما أشقّ طريقي داخل مُجمَّع غاراهي، الذي يضمّ محكمة العائلة، أتساءل إنْ كان رجلٌ يحمل الكثير من الهمّ سوف يتمكّن من التعامل مع قضيّةٍ سوف تُعَجِّل نتيجة فوز الزبونة بها في موت أختها المراهقة.

هناك حاجب محكمة جديد عند المدخل، رجل ذو رقبة ثخينة كجذع الشجرة الحمراء وفي الغالب ذو مقدرة عقليّة تتماشى معها. يقول: «آسف، ممنوع دخول الحيوانات الأليفة».

«هذا كلب مُدرَّب على المساعدة».

يضطرب الحاجب، فيميل إلى الأمام ويُنعِم النظر في عينيّ. وأفعل الشيء نفسه، في عينيه. «أنا حسير البصر. وهو يُساعدني على قراءة إشارات المرور»، وندور أنا وجدج حول الرجل ونتوجّه مباشرة نحو الرواق المؤدي إلى قاعة المحكمة.

في الداخل، كان الكاتب يُدوّن حجّة والدة آنّا فيتزجيرالد. هذا ما أفترِض، على الأقلّ، لأنَّ المرأة في الواقع لا تُشبه في شيء ابنتها، التي تقفُ إلى جوارها. تقول سارة فيتزجيرالد: «أنا واثقة كل الثقة أنَّ في هذه الحالة، سوف يتفهّم القاضي». كان زوجها ينتظر على بُعد مسافة بضع أقدام خلفها، على حِدة.

عندما تلاحظُ آنّا وجودي، تنتشر على قسمات وجهها موجة من الارتياح. ألتفتُ نحو كاتب المحكمة. أقول: «أنا كامبل ألكسندر. هل من مشكلة؟».

«كنتُ أحاول أنْ أشرح للسيدة فيتزجيرالد، هنا، أنّنا لا نسمح بدخول المكان إلّا للمحامين».

أُجيب: «حسن، أنا هنا بالنيابة عن آنّا».

يلتفتُ الكاتب نحو سارة فيتزجيرالد. «مَنْ يمثّل فريقك؟».

تُصدَم والدة آنّا برهة. تلتفتُ نحو زوجها. تقول بهدوء: «كأنني أركبُ دراجة هوائية».

يهزّ زوجها رأسه نفياً. «أواثقة من رغبتكِ في فعل هذا؟».

«أنا لا *أريد* أنْ أفعل هذا، بل **يجب** أنْ أفعله».

خرجت الكلمات مناسِبة تماماً. فأقول: «مهلاً. هل أنتِ *مُحامية*؟».

تلتفت سارة: «حسن، نعم».

أرمي آنّا بنظرة، غير مُصدِّق: «ولم تذكري لي هذا؟».

تهمسُ: «أنتَ لم تسأل أبداً».

منحَ الكاتب كُلاً منا استمارة دخول، واستدعى الشريف.

تبتسم سارة: «تُسعدني رؤيتك من جديد، يا فيرن».

أوه، إنَّ الأمور تتطوّر باستمرار.

«هيه!» ويُقبِل الشريف وجنتها، ويصافح يد زوجها. «براين».

إذن هي ليست فقط مُحامية؛ بل وتُمسك بزمام الموظفين العموميين. أسألُ: «هل انتهينا من الاحتفال بأيام زمان؟»، تُدير سارة فيتزجيرالد مقلتيها داخل محجريهما وهي تنظر إلى الشريف: ***هذا الرجل أبله، ولكن ماذا تنوي أنْ تفعل؟*** أقول لآنّا «سوف أبقى هنا»، وأتبعُ أمّها في طريق العودة إلى غرفة مكتب القاضي.

القاضي ديسالفو قصير القامة بحاجب عين واحد ولديه ولوع بالقهوة مع الحليب. يقول، ملوّحاً بيده لنا نحو مقعدينا: «صباح الخير، ما هذا الكلب؟».

«هذا كلب إرشاد، سيادة القاضي»، وقبل أنْ يتمكّن من قول أي شيء آخر، أعجِّل بفتح الحديث اللطيف الذي يبدأ به كل اجتماع في غرفة القاضي في رود آيلند. نحن ولاية صغيرة، بل وأصغر حجماً داخل مجال القضاء. وليس فقط مفهوماً أنَّ سكرتيرتك هي قريبة أو نسيبة القاضي الذي تجتمع به؛ بل هو أمرٌ

متوقَّع تماماً. ومع بدء حديثنا، ألقي نظرةً إلى سارة، التي تحتاج إلى أنْ تفهم مَنْ منا يشكّل جزءاً من هذه اللعبة، ومَنْ منّا ليس كذلك. ربما هي مُحاميّة، ولكنها لم تكن كذلك خلال السنوات العشر التي مارستُ فيها المُحاماة.

إنها متوترة الأعصاب، تثني أسفل بلوزتها. ويلاحظ القاضي ديسالفو ذلك. «لم أعلم أنكِ عدتِ إلى ممارسة المُحاماة من جديد».

«لم أكن أنوي ذلك، سيادة القاضي، لكنَّ المُدّعية هي ابنتي».

هنا، التفتَ القاضي إليّ: «حسن، ما الذي يجري هنا، أيّها المُستشار؟».

«إنَّ ابنة السيدة فيتزجيرالد الصُّغرى تسعى إلى نيل التحرُّر الطبيّ من والديها».

سارة تهزّ رأسها نفياً: «هذا غير صحيح، أيها القاضي». لدى سماع اسمه، ينظر كلبي إلى أعلى. «لقد تحدّثتُ مع آنّا، وقد طمأنتني بأنها لا تريد حقاً أنْ تقوم بهذا». ورفعت سارة إحدى كتفيها. «أنتَ تعلم كيف يتصرّف الأولاد في سن الثالثة عشرة».

رانَ الصمت على الغرفة، حتى بات باستطاعتي أنْ أسمع نبض قلبي أنا. إنَّ القاضي ديسالفو لا يعرف كيف يتصرّف أبناء الثالثة عشرة. لقد ماتت ابنته عندما كانت في الثانية عشرة.

يلتهبَ وجه سارة ويحمرّ. إنها تعلم كما يعلم كل شخص في الولاية وضعَ ديسالفو. وحسب عِلمي، كانت تضع مُلصقاً على مصدّ سيارة النقل الصغيرة خاصتها. «أوه، يا إلهي، أنا آسفة. لم أقصد–».

يُشيح القاضي ببصره: «سيد ألكسندر، متى كانت آخر مرَّة تحدثتَ فيها مع موكلتك؟».

«في صباح يوم أمس، سيادة القاضي. كانت في غرفة مكتبي عندما اتصلتْ أمّها لكي تُخبرني بأنَّ الأمر مجرّد سوء فهم».

يرتخي فكّا سارة، متنبئة بذلك. «هذا مستحيل. لقد كانت تمارس الهرولة».

أنظر إليها: «أمتأكّدة أنتِ من هذا؟».

«كان من *المُفترَض* أنها تمارس الهرولة...».

أقول: «سيادة القاضي، هذا بالضبط ما أقصد، والسبب الذي قدَّمته آنّا

فيتزجيرالد له مُبرّره. إنَّ أمّها لا تعرف أين هي في صباح أي يوم؛ والقرارات الطبيّة فيما يخصّ آنّا تُتّخذ بالعشوائيّة نفسها-».

يلتفت القاضي إلى سارة: «أيتها المُستشارة، أيمكن أنْ تكون ابنتكِ قد أخبرتكِ بأنها تريد أنْ تتخلّى عن الدعوى؟».

«نعم».

ونظر إليّ: «وهي أخبرتكَ بأنها تريد أنْ تستمر فيها؟».

«هذا صحيح».

«إذن يُستحسَن أنْ أتكلَّم مباشرة مع آنّا».

عندما ينهض القاضي واقفاً ويخرج من غرفة المكتب، نلحق به. كانت آنّا جالسة على مقعد في الرواق مع والدها. وكان رباط إحدى فردتيّ حذائها الرياضي محلولاً. أسمعها تقول: «لقد لمحتُ شيئاً أخضر اللون»، ثم رفعتْ بصرها.

أقول في اللحظة نفسها التي تقول سارة فيتزجيرالد، «آنّا».

من مسؤوليتي أنْ أشرح لآنّا أنَّ القاضي ديسالفو يريد أنْ ينفرد بها بضع دقائق. أنا في حاجة إلى أنْ أوجّهها، لكي تقول الكلام المناسِب، ولكي لا يرفض القاضي الدعوى قبل أنْ تحصل على ما تريد. إنها موكّلتي؛ رسميّاً، ومن المُفتَرَض أنْ تتبع نصيحتي.

ولكن عندما أنطق اسمها، تلتفت نحو أمها.

آنّا

لا أعتقد أنَّ أحداً سوف يحضر جنازتي. أعتقد أنَّ والديّ سوف يحضران والعمّة زان وربما السيد أولينْكوتْ، مُدرِّس مادة الدراسات الاجتماعيّة. أتخيّل المقبرة نفسها التي ذهبنا إليها في جنازة جدَّتي، على الرغم من أنَّ ذلك حدث في شيكاغو ولذلك لا معنى له. سوف تكون هناك تلال ممتدّة تُشبه المخمل الأخضر، وتماثيل لآلهة ولملائكة أدنى مرتبة، وتلك الحفرة البنيّة الواسعة في الأرض كدرزة مشقوقة، تنتظر أنْ تبتلع الجثّة التي كانت أنا.

أتخيّل أمي تعتمر قبعة مع خِمار أسود على طريقة جاكي[1]، وتجهشُ بالبكاء. وأبي يُلازمها، وكيت وجِسّ يُحدّقان إلى لمعان التابوت ويُحاولان أنْ يعقدا صفقة مع الله لكي يُسامحهما على كل إساءة تسبّبا بها لي طوال كل ذلك الوقت. وقد يحضر بعضٌ من أولاد فريق لعبة الهوكي، حاملين باقات السوسن ويُحافظون على هدوئهم. ويقولون: «رحم الله آنّا»، ولن يبكوا لكنهم سوف يرغبون في البكاء.

وسوف يظهر النعي على الصفحة الرابعة والعشرين من الصحيفة، وقد يراه كايل ماكفي ويأتي إلى الجنازة، بوجه جميل ملتوٍ مع تعبير عدم تصديق الذي يظهر على وجه الصديقة التي لم يحصل عليها. أعتقد أنّه سوف تكون هناك أزهار، كالجلبان العطِر وأنف العجل وكرات نبات الكوبيّة الزرقاء. وآمل أنْ ينشد أحدهم «*النعمة المُذهلة*»، ليس فقط الجملة الافتتاحيّة الشهيرة

1- جاكي: المقصود عنا جاكلين كينيدي، أرملة الرئيس الأميركي المغدور ج.ف كينيدي، وزوجة الملياردير اليوناني أوناسيس. المترجم.

بل الترتيل كلّه. وبعد ذلك، عندما تصفرّ أوراق النبات ويهطل الثلج، تنهض ذكراي في أذهان الجميع بين حينٍ وآخر كالمدّ البحري.

في جنازة كيت، سوف يحضر الجميع. سوف تكون هناك ممرضات المستشفى اللواتي أصبحن صديقاتنا، ومرضى آخرون بالسرطان ما زالوا يعدّون نجومهم السعيدة، وسكان البلدة الذين ساعدوا في جمع المال لسداد تكاليف علاجها. سوف يُضطرون إلى إبعاد المُعزّين عن بوابة المقبرة. وسوف يكون هناك الكثير من سِلال الجنازة الوافرة التي سرعان ما ستوهَب للجمعيات الخيريّة. وسوف تسرد الصحيفة قصّة حياتها المأساويّة القصيرة. سوف تظهر على الصفحة الأولى، تذكَّر كلامي.

القاضي ديسالفو يرتدي الملابس الفضفاضة التي يرتديها لاعبو كرة القدم عندما يخلعون حافظة النعل. لا أعلم لماذا يجعلني هذا أشعر ببعض التحسّن. أعني، يكفيني سوءاً أنني موجودة هنا في هذه المحكمة، يدفعونني إلى دخول غرفة مكتبه الخاصّة التي في الخلف؛ هناك شيء جميل في معرفة أنني لستُ الوحيدة التي لا يناسبها الدور الذي تؤديه.

يتناول عبوة مشروب من برّاد صغير ويسألني عن مشروبي المُفضَّل. أقول: «الكوكا كولا جيدة».

يفتح القاضي العبوة. «هل تعلمين أنكِ إذا تركتِ سن طفل في كأس من الكولا، فسوف يختفي تماماً في غضون بضعة أسابيع؟ بسبب أكسيد الكربون» ويبتسم لي. «إنَّ أخي طبيب أسنان في وارويك. ويقوم بهذه الخدعة في كل عام من أجل روضة الأطفال».

تناولتُ رشفة من الكوكا، وتخيّلتُ أحشائي تذوب. القاضي ديسالفو لا يجلس خلف طاولة مكتبه، بل يحتل كرسياً إلى جواري. يقول «إليكِ المشكلة، يا آنّا: إنَّ أمك تقول لي إنكِ تريدين القيام بعمل، ومُحاميك يُخبرني بأنك تريدين القيام بعملٍ آخر. والآن، في ظل الظروف العاديّة، أتوقَّع من أمك أنْ تعرفكِ أكثر من معرفة شخصٍ تعرَّفتِ عليه قبل يومين. ولكن ما كان يمكن لكِ أنْ تقابلي هذا الشخص لو لم تسعين إلى طلب خدماته. وهذا ما يدفعني إلى الاعتقاد أنني في حاجة إلى سماع رأيك في هذا كلّه».

«هل لي أنْ أسألك سؤالاً؟».

يقول: «طبعاً».

«هل يتطلّب الأمر إجراء مُحاكمة؟».

يقول القاضي: «في الحقيقة... يكفي أنْ يُوافق أبواك على تحرّرك طبيّاً، وينتهي الأمر».

إنَّ مثل *هذا* الأمر لن يحدث أبداً.

«من ناحية أخرى، ما إنْ يملأ شخصٌ عريضة -كما فعلتِ- فعلى المُدَّعى عليهما -والديكِ- أنْ يذهبا إلى المحكمة. وإذا كان والداك يؤمنان حقاً بأنكِ مستعدّة لاتخاذ مثل تلك القرارات بنفسك، فعليهما أنْ يُقدما أسبابهما إليّ، وإلّا فإنهما يُخاطران بجعلي أتّخذ قراراً لصالحك غيابيّاً».

أومئ برأسي إيجاباً. وكنتُ قد قلتُ لنفسي بأنني سوف أحافظ على هدوئي مهما يحصل. فإذا انهرتُ، فسوف يجد هذا القاضي أنني عاجزة عن اتّخاذ *أي قرار*. كانت لدي كل تلك النوايا اللامعة، لكنَّ مرأى القاضي، وهو يرفع عبوته من عصير التفّاح، شتّت انتباهي.

قبل عهد قريب، عندما كانت كيت في المستشفى من أجل تفحّص كليتيها، أعطتها ممرضة جديدة كوباً وطلبتْ منها عيّنة من بولها. قالت: «يجب أنْ تكون جاهزة عندما أعود لأخذها». وقرّرتْ كيت -التي لا تحبّ تلبية الطلبات المتكبِّرة- أنّه يجب إذلال الممرضة قليلاً. فأرسلتني إلى آلات البيع، لكي أُحضِر العصير نفسه الذي كان القاضي يشربه تواً. وصبّت منه قليلاً في كوب عيّنة البول، وعندما عادت الممرّضة، رفعته ووجّهته نحو الضوء. قالت كيت: «هه، يبدو عكِراً قليلاً. يُستحسَن تصفيته من جديد»، ثم رفعته إلى شفتيها وشربته كلّه.

شحبَ لون الممرضة وهرعتْ تغادر الغرفة. ضحكنا أنا وكيت حتى شعرنا بمغصٍ في معدتينا. وطوال ما تبقّى من ذلك النهار كل ما كنا نفعل هو النظر كلٌّ منا في عينيّ الأخرى والانهيار في نوبة من الضحك.

وكما حدث للسن، بعد ذلك لم يتبقّ أي شيء.

يحثّني القاضي ديسالفو قائلاً: «آنّا؟»، ثم يضع عبوة العصير السخيفة على الطاولة بيننا وأنفجرُ بالبكاء.

«لا أستطيع أنْ أعطي كلية لأختي، لا أستطيع».

يناولني القاضي ديسالفو علبة المناديل الورقيّة من دون أنْ ينطق بأيّة كلمة. فأجعل بعضها على شكل كرة، وأمسح بها عينيّ وأنفي. يرين عليه الهدوء برهة، ليدعني أستعيدُ أنفاسي. وعندما أرفعُ بصري أجده ينتظر. «آنّا، ليس هناك في هذا البلد أي مستشفى يأخذ عضواً من واهبٍ غير راغب في إعطائه».

أسأله: «مَنْ باعتقادك وقَّعَ على الهِبة؟ ليست الطفلة الصغيرة التي يدفعونها على كرسيّ متحرّك إلى غرفة الفحص - بل هما ***والداها***».

يقول: «أنتِ لستِ طفلة صغيرة؛ باستطاعتك حتماً أنْ تُبدي اعتراضاتك».

أقول: «أوه، صحيح»، وأنخرطُ من جديد في البكاء. «عندما تشتكي لأنَّ أحدهم حقنكَ بإبرة للمرة العاشرة، يُعتبَر ذلك إجراءً عاديّاً. إنَّ البالغين كلهم ينظرون حولهم مع ابتسامات زائفة ويُخبر أحدهم الآخر بأنَّ لا أحد ***يطلب*** طوعاً المزيد من الحقن». وأتمخّط بأحد المناديل. «اليوم أخذوا الكلية. وغداً سوف سيأخذون شيئاً آخر. هناك دائماً شيء آخر يأخذونه».

يقول: «لقد أخبرتني أمك بأنكِ تريدين إسقاط الدعوى، فهل كذبتْ عليّ؟».

ابتعلتُ لعابي بصعوبة: «كلا».

«إذن... لماذا كذبتِ عليها هي؟».

كانت هناك ألف إجابة على هذا السؤال؛ وأنتقي الإجابة الأسهلّ. أقول: «لأنني أحبّها»، وتنهمر دموعي من جديد. «أنا آسفة. آسفة حقاً».

يُدقّق النظر فيّ. «أتعلمين، يا آنّا؟ سوف أُعيِّن شخصاً لكي يُساعد مُحاميك على أنْ يُخبرك بما هو أفضل لأجلك. فما رأيك؟».

يتساقط شَعري في أرجاء المكان كلّه؛ فأقحمه خلف أُذنيّ. ويُصبحَ وجهي شديد الاحمرار وأشعرُ بأنّه مُنتفِخ. أجيب «حسن».

«حسنٌ»، ويضغط زر الهاتف الداخليّ، ويطلب إرسال كل شخص آخر.

تدخل أمي أولاً إلى الغرفة وتبدأ بالتوجّه مباشرة نحوي، إلى أنْ يعترض كامبل والكلب طريقها. يرفع حاجبيه ويُعطيني إشارة الموافقة، لكنّها كانت سؤالاً. يقول القاضي ديسالفو: «لستُ متأكّداً مما يجري هنا، ولذلك سوف أُعيِّن حارساً للدعوى لكي يقضي مدة أسبوعَين معها. ولا داعي إلى القول إنني أتوقَّع تعاوناً كاملاً من كلا الطرفَين. أريد من حارس الدعوى أنْ يُقدّم لي تقريراً، ومن ثم سوف نعقد جلسة استماع. وإذا ظهر هناك المزيد ينبغي أنْ أعرفه خلال تلك الفترة، أخبروني به».

تقول أمي: «أسبوعان...». أعرفُ ما تفكِّر فيه. «سيادة القاضي، مع كل احترامي، إنَّ مدة أسبوعَين فترة طويلة جداً، إذا أخذنا بعين الاعتبار شدّة مرض ابنتي الأخرى».

تبدو كشخصٍ لا أعرفه. لقد سبقَ أنْ رأيتها من قبل شرسة، تحارب النظام الطبّي الذي لا يتقدَّم بسرعة كافية بالنسبة إليها، سبقَ أنْ رأيتها أشبه بصخرة لنتمسَّكَ بها. رأيتها كملاكم، تتقدَّمُ متمايلة قبل أنْ يوجّه القَدَر لكمته التالية. لكنني لم أرها من قبل تقوم بدور المُحامي.

يومئ القاضي ديسالفو برأسه. «حسن. إذن سوف نعقد جلسة استماع في يوم الاثنين القادم. وحتى ذلك الحين أريد أنْ تُجلَب تقارير كيت الطبيّة إلى–».

يُقاطعه كامبل ألكسندر: «سيادة القاضي، كما تعلم جيداً، نظراً للظروف الغريبة لهذه القضيّة، فإنَّ موكلتي تعيش مع مُستشارة قانونية مُعارِضة. وهذا خرق فاضح للعدالة».

تحبسُ أمي أنفاسها: «لا أظنكَ تقترح أنْ تُبعِد ابنتي عني».

أُبعَد؟ إلى أين سأذهب؟

«لا أستطيع أنْ أتيقَّن من أنَّ المُستشارة القانونية المُعارِضة لن تحاول أنْ تستغلّ ترتيبات حياتها أفضل استغلال لصالحها، يا سيادة القاضي، وربما تمارس ضغطاً على موكّلتي». حدَّقَ كامبل إلى القاضي مباشرةً، من دون أنْ يرف له جفن.

يقول القاضي ديسالفو: «سيد ألكسندر، لا سبيل إلى نزع هذه الطفلة

من منزلها»، لكنّه يلتفت بعد ذلك نحو أمي. «ولكن، سيدة فيتزجيرالد، لا يمكنكِ أنْ تتحدثي حول هذه القضيّة مع ابنتكِ إلّا بحضور المُحامي. إذا لم توافقي على هذا، أو إذا سمعتُ عن حدوث أي خرق في ذلك الجدار العائلي المتين، فقد أُضطرّ إلى اتّخاذ إجراء أشدّ صرامة».

تقول أمي: «مفهوم، سيادة القاضي».

ينهض القاضي واقفاً: «حسن، أراكم جميعاً في الأسبوع القادم». ويخرج من الغرفة، ورداؤه الفضفاض يُحدِثَ ضجيجاً يُشبه الصفعات القصيرة التي تلعق الأرضيّة القرميديّة.

حالما يخرج، التفتُ نحو أمي. أردتُ أنْ أقول، ***أستطيع أنْ أشرح الأمر***، لكنَّ الجملة لم تجد طريقها إلى الخارجِ وتُصبح مسموعة. وفجأة، لمسَ أنفٌ رطب راحة يدي. إنه جَدج. إنه يُخفِّف من سرعة وجيب قلبي السريع كقطارٍ مُنطلق.

يقول كامبل: «يجب أنْ أتحدّث مع موكّلتي».

تقول أمي: «الآن هي ابنتي»، وتمسك بيدي وتنتزعني عن كرسيّي. وعند عتبة الباب، أنجح في النظر خلفي. أرى كامبل يُدخّن. كان يمكن أنْ أخبره بأنَّ الأمر سينتهي على هذه الصورة. إنَّ ***الابنة*** تربح كل شيء، مهما كانت اللعبة.

تبدأ الحرب العالمية الثالثة في الحال، ليس باغتيال أرشيدوقٍ أو ديكتاتورٍ مجنون بل بمنعطف طريق نحو اليسار يتمّ تجاوزه. تقول أمي، وهي تمدّ عنقها، «براين، كان ذاك شارع نورث بارك».

يطرفُ والدي بعينيه وسط الضباب. «كان ينبغي أنْ تخبريني بهذا ***قبل*** أنْ أتجاوزه».

«لقد فعلتُ».

قبل أنْ أتمكّن حتى من تقدير تكاليف وفوائد الخوض في معركة شخصٍ آخر من جديد، أقول، «***أنا*** لم أسمع».

التفتَ رأس أمي بسرعة البرق. «آنّا، في الوقت الحالي، أنتِ ***آخر*** شخص أحتاج إلى سماع تعليقه أو أرغبُ فيه».

«أنا فقط–».

رفعَتْ يدها كما يرتفع حاجز الخصوصيّة في سيارة أجرة، وتهزّ رأسها رفضاً.

على المقعد الخلفيّ، أنزلقُ جانباً وأرفعُ قَدَميّ إلى أعلى، أواجه الخلفيّة، بحيث لا أرى إلّا السواد.

تقول أمي: «براين، لقد تجاوزتَ المنعطف من **جديد**».

عندما ندخل، تنفثُ أمي من الغضب وهي تتجاوز كيت، التي فتحت الباب لنا، وتمرّ بجِسّ، الذي يُشاهد ما يشبه قناة تلفزيونيّة مُشفَّرة للبالغين. وفي المطبخ، تفتح الخزائن ثم تُغلقها بحركة عنيفة. وتُخرجُ طعاماً من البرّاد وترمي به إلى الطاولة.

يقول والدي لكيت: «هيه، كيف تشعرين؟».

تتجاهله، مندفعة إلى المطبخ. «ماذا حدث؟».

«تسألين ما **حدث**. حسن. لِمَ لا تسألين أختك عمّا حدث؟».

تلتفتُ كيت نحوي، بعينين متسائلتين.

تقول أمي: «شيء مُذهل كم أنتِ هادئة الآن، بعيداً عن إصغاء القاضي».

يُطفئ جِسّ التلفزيون. «أجبرتكِ على التحدث مع قاضٍ؟ اللعنة، يا آنّا».

تُغمضُ أمي عينيها: «أنت تعلم يا جِسّ أنّ الوقت أصبح مناسِباً لتغادر المكان».

يقول، بصوت لاذع: «لستِ مُضطرة إلى تكرار الطلب». ونسمع الباب الأمامي يُفتَح ثم يُغلق، وينتهي الأمر.

يدخل والدي المكان. «سارة، نحن جميعاً في حاجة إلى أنْ نهدأ قليلاً».

«لديّ طفلة وقّعَتْ تواً على حُكمٍ بإعدام أختها، ويُفترَضُ بي أنْ أكون هادئة؟».

يرين الصمت المُطبق على المطبخ حتى إننا نسمع همس البرّاد. وتعْلَق كلماتُ أمّي كثمرةٍ شديدة النُّضج وعندما تسقط على الأرض وتنفجر، تسري في أمي الحركة. تقول، وهي تهرع نحو أختي، وذراعاها ممدودتان: «كيت، كيت، ما كان ينبغي أنْ أقول هذا، ليس هذا ما قصدت».

يبدو أنَّ لنا، في عائلتنا، تاريخاً مُعذِّباً من عدم البوح بما علينا البوح به وألّا نعني ما نقول. تغطي كيت فمها بيدها. وتخرج من باب المطبخ الخلفيّ، مرتطمة بوالدي، الذي يُحاول أنْ يُمسك بها لكنّه لا يستطيع وترتقي بخطى متعثّرة إلى الطابق العُلويّ. وأسمع باب غرفتنا يُصفَع. وطبعاً تلحق أمي بها. إذن أنا أقوم بما أُحسِنُ القيام به. أتحرَّك بالاتّجاه المعاكِس.

هل هناك أي مكان على الأرض رائحته أذكى من رائحة الغسّالة الكهربائيّة؟ إنها أشبه بيوم أحد مُمطِر عندما لا تُضطر إلى الخروج من السرير، أو تحبّ أنْ تستلقي بظهرك على العشب الذي جزّه والدك تواً – إنها غذاء مُريح لأنفك. وعندما كنتُ صغيرة كانت أمي تُخرِجُ الملابس الحارّة من آلة التجفيف وترميها فوقي حيث أجلس على الأريكة. كنتُ أتظاهر بأنها بشرتي الوحيدة، وبأنني متكومة بقوة تحتها كقلب واحد كبير.

الشيء الآخر الذي أحبّه هو أنَّ غرفة الغسالات الكهربائيّة تجذب إليها الأشخاص الذين يُعانون من الوحدة كما ينجذب المعدن إلى المغناطيس. فهناك شخص مات فوق مجموعة من الكراسي في الخلفيّة، منتعلاً حذاء عسكريّاً ويرتدي قميصاً رياضيّاً مكتوب عليه ***نوستراداموس كان متفائلاً***. وامرأة جالسة على طاولة قابلة للطيّ تفتش بين كومة من قمصان رجاليّة لها أزرار بدءاً بالياقة وحتى أسفل القميص، وتجهشُ بالبكاء. ضَعْ عشرة أشخاص داخل غرفة غسّالات كهربائيّة وسوف تجد أنك لستَ الأسوأ حالاً.

أجلسُ على الطرف المقابل لمجموعة من منتظري الغسيل وأحاول أنْ أُطابق الملابس مع الأشخاص المُنتظرين. السراويل الداخليّة النسائيّة الورديّة وقمصان النوم الزهرية تخصّ الفتاة التي تقرأ رواية رومانسيّة. والجورب الصوفيّ الأحمر والقميص ذو المربّعات يخصّان الطالب القذر والمُشوَّش النائم. والقمصان الرياضيّة وملابس العمل الخاصّة بالأطفال تخصّ الطفلة التي لا تني تعطي أمّها مناديل التجفيف البيضاء الرقيقة الناعمة، الظاهرة على الهاتف الخليويّ. أي امرأة هذه القادرة على شراء هاتف خليويّ ولا تستطيع شراء غسّالة ومناديل تجفيف؟

أحياناً ألعب لعبة مع نفسي، وأحاول أنْ أتخيَّل شكل الشخص الذي تدور ملابسه أمامي. لو أنني الذي يغسل ملابس الجينز الخاصّة بالعمّال، ربما أكون مُرمِّم أسقف في مدينة فينكس، قويّ الذراعَين تلفح الشمس ظهره. ولو أنّي صاحبة تلك الأغطية المطبوعة بالأزهار، فقد أكون في فترة إجازة من جامعة هارفرد، أدرس السلوك الإجراميّ. ولو أنني صاحبة رداء الساتان، فقد تكون في حوزتي بطاقات موسميّة لحضور عروض باليه. ومن ثم أحاول أنْ أتخيَّل نفسي أقومُ بأيّ من تلك الأعمال التي أعجز عن أدائها. إنّ كل ما أرى هو نفسي، واهبة كيت، وكل مرّة تؤدي إلى التي تليها.

أنا وكيت توأم سياميّ؛ لا يمكن معرفة النقطة التي يتّصلان عندها. وهذا يجعل مسألة فصلهما أمراً أصعب.

عندما أرفع بصري أرى الفتاة التي تُشغّل الغسّالة واقفة فوقي، تضعُ حَلَقَة في شفتها ولها خصلات شعر متشابكة ومنسدلة. تسأل «أتحتاجين إلى قطع نقديّة صغيرة؟».

أقول الحق، أخاف أنْ أسمع جوابي.

جِسّ

أنا الولد الذي يلعب بعيدان الثقاب. كنتُ أسرقها من الرف الواقع فوق البرّاد، وآخذها إلى حمّام والديّ. مُستحضَر[1] جان ناته باث سبلاش يشتعل، أكنتَ تعلم هذا؟ أرِقه، اقدحه، ويمكنكَ أنْ تُضرم ناراً في الأرضيّة. وتحترق بلهبٍ أزرق، وبعد أنْ يُستنزف الكحول، ينطفئ.

ذات مرّة، دخلتْ آنّا عليّ وأنا في الحمّام. فقلتُ: «هيه، انظري إلى هذا»، وأرقتُ بعضاً من مُستحضَر جان ناته على الأرض، راسماً الأحرف الأولى من اسمها به. ثم أشعلتها. حسِبتُ أنّها سوف تركض صارخةً لتشي بي، ولكن بدل ذلك جلستْ على حافة المغطس. ومدّتْ يدها إلى زجاجة جان ناته، ورسمت بسائله شكلاً دائريّاً على حجر القرميد، وطلبتْ مني أنْ أُعيد الكرَّة.

إنَّ آنّا هي البرهان الوحيد الذي في حوزتي على أنني وُلِدتُ في هذه العائلة، ولم يرمني اثنان من قطّاع الطرق على عتبة الباب ويهربان إلى قلب الليل. ظاهرياً نحن على طَرَفيّ نقيض. ولكن في العمق، نحن متماثلان: يعتقد الناس أنهم يعرفوننا – لكنهم دائماً يُخطئون.

... **فيهم جميعاً**. كان ينبغي أنْ أرسم هذه العبارة وشِماً على جبيني، لأنني أفكِّر فيها طوال الوقت. في المعتاد أنا في حالة انتقال، انطلقُ بسرعة بسيارتي الجيب حتى ينقطع النفس من رئتيّ. واليوم أقود السيارة بسرعة خمسة وتسعين على طريق 95. أشقّ طريقي ملتوياً بين حركة المرور، كأنني

1- مُستحضر عطري كحوليّ للنساء يستعملنه بعد الاستحمام. المترجم.

أُخيطُ نُدباً. والناس يصرخون في وجهي من خلف نوافذهم المُغلقَة. وأُبرزُ لهم إصبعي الأوسط.

باستطاعتي أنْ أحلّ ألف مُعضلة وأنا أسير بالجيب على الجسر. وهذا لا يعني أنني لم أفكر في هذا، في الواقع. على رخصتي مكتوب أنني واهب أعضاء، لكنَّ الحقيقة هي أنني أعتبر نفسي **شهيدَ** الأعضاء. أنا واثق من أنني مفيد وأنا ميِّت أكثر من فائدتي وأنا حيّ - وكميّة الأجزاء تعادل أكثر من الكلّ. وأتساءل مَنِ الذي سيستمر في العيش حاملاً كبدي، ورئتيّ، وحتى مُقلتيّ عينيّ. وأتساءل أي أبله مسكين سيتورّط في الشيء الذي اسمه قلبي.

ولكن أُصاب بالرعب عندما أصل إلى المخرج، سليماً. وأنحرف عن الطريق المنحدرة وأقود السيارة على طول جادة ألينز. وهناك طريق سفليّة حيث أعلمُ أنني سوف أعثر على دوراسيل دان، المتشرِّد، الذي كان طبيباً بيطريّاً في فيتنام، يقضي مُعظم وقته في جمع البطاريات التي يرميها الناس مع القمامة. ماذا يفعل بها بحقّ الله، لا أعلم. إنه يشقّها، هذا كل ما أعرف. يقول إنَّ الـ CIA تُخفي رسائل موجّهة إلى عملائها السرّيين في شركة بطاريات إنرجايزر كعملاء مزدوجين، بثّتها الـ FBI في بطاريات إفرريدي.

بين دان وبيني اتّفاق: أنا أُحضِر له ما مقداره وجبة من شطائر ماكدونالد عدّة مرات في الأسبوع، وفي المقابل، يحرس هو حاجتي. وجدْتُه مُنكبّاً على قراءة كتاب في التنجيم يعتبره بيانه الرسميّ. أقول «دان» وأنا أخرج من السيارة وأسلّمه نصيبه من شطيرة ماكدونالد الكبيرة، «ما الأخبار؟».

ضيَّقَ عينيه وهو ينظر إليّ. «القمر يقع في برج الدلو المخيف»، ويحشو فمه بالمقليات. «ما كان ينبغي أبداً أنْ أغادر السرير».

إنْ كان لدى دان سرير، فهذا خبر جديد بالنسبة إليّ. أقول: «آسف على هذا. هل أحضرتَ حاجتي؟».

يومئ برأسه باتجاه البراميل التي خلف برج الإرشاد الإسمنتيّ حيث يحتفظ بحاجياتي. حامض البركلوريك المُختَلَس من المختبر الكيميائيّ في المدرسة الثانوية ما زال سليماً؛ وفي برميل آخر توجد نشارة الخشب. أتأبّطُ

كيس الوسادة المحشيّ تحت ذراعي وأحمله إلى السيارة. فأجده ينتظرني عند الباب. «شكراً لك».

يتّكئ على السيارة، ويمنعني من دخولها. «لقد سلّموني رسالة من أجلك».

على الرغم من أنَّ كل ما يخرج من فم دان هراء محض، إلّا أنَّ أحشائي اضطربت. «مَنْ أعطاك إياها؟».

ينظر على طول الشارع، ثم يعود فينظر إليّ. همس، مُقترباً مني، «فكِّر مليّاً».

«أهذه هي الرسالة؟».

أومأ دان برأسه إيجاباً. «نعم. تلك هي، أو *اشرب* مليّاً. لستُ متأكّداً».

«*تلك* النصيحة يمكنني أنْ آخذ بها في الواقع». دفعته قليلاً، لكي أتمكن من ولوج السيارة. إنه أخفّ وزناً مما قد يُظنّ. وكأنَّ ما في داخله قد استُنزِفَ منذ زمن بعيد. وبسبب هذا التفكير، من العجب أنني لم أطفُ وأُحلِّق في السماء. أقول له «لاحقاً»، ثم أنطلق بالسيارة إلى المستودع الذي كنتُ أراقبه.

إنني أبحثُ عن أماكن تُشبهني: كبيرة، خاوية، نسيها الجميع. وهذا موجود في منطقة أولنيفيل. وكان في وقتٍ من الأوقات يُستخدَم مخزناً لأعمال التصدير. أما الآن فأصبح مجرد مأوى لمجموعة كبيرة من الجرذان. أوقِفُ السيارة على مسافة كافية بحيث لا أحد يشك في أمرها. وأحشرُ كيس الوسادة المملوء بنشارة الخشب تحت سترتي ومن ثم أنطلق.

يتبيَّن لي أنني تعلَّمتُ شيئاً من أبي العجوز العزيز في نهاية المطاف: إنَّ رجال الإطفاء خبراء في بلوغ أماكن لا ينبغي أنْ يكونوا فيها. ولا يستغرق مني فتح القفل وقتاً طويلاً، ثم إنَّ الأمر يتعلّق بمعرفة موقع البداية. أحفرُ حفرة في قعر كيس الوسادة وأترك نشارة الخشب ترسم الأحرف الأولى الكبيرة لاسمي JBF. ثم أتناول الحامض وأجعله يقطر على الأحرف.

هذه أول مرة أفعل ذلك في منتصف النهار.

أتناول علبة من سجائر ميريت من جيبي وأضرب طرفها، ثم أضع منها واحدة في فمي. عبوة سائل الولاعة فارغة، يجب أنْ أتذكّر أنْ أُحضِر عبوة

أخرى. عندما أنتهي، أنهضُ واقفاً، وأسحب سحبة أخيرة من السيجارة، ثم أرميها إلى نشارة الخشب. أعلم أنَّ هذه سوف تنتشر بسرعة، لذلك أنطلقُ راكضاً عندما يرتفع جدار اللهب خلفي. وكما في الحالات الأخرى، سوف يبحثون عن الأسباب. لكنَّ هذه السيجارة والأحرف الأولى لاسمي ستكون قد زالت قبل وقت طويل، سوف تكون الأرض بأكملها قد ذابتْ، وسوف تتداعى الجدران وتتهاوى.

أول سيارة إطفاء تصل إلى مسرح الحدث حالما أعود إلى سيارتي وأُخرِجُ النظارة المُكبِّرة من الصندوق. عندئذٍ تكون النار قد أنجزت ما تريد إنجازه – الهرب. وانفجر زجاج النوافذ، وتصاعد الدخان أسود، وساد ما يُشبه الخسوف.

أول مرَّة رأيتُ أمّي تبكي كنتُ في الخامسة من العمر. كانت واقفة عند نافذة المطبخ، متظاهرة بأنها لا تبكي. كانت الشمس قد بزغتْ تواً، كعقدة منتفخة. سألتها: «ماذا تفعلين؟». ولم أُدركْ إلّا بعد مرور سنين بعد ذلك أنني سمعتُ جوابها بشكلٍ خاطئ. إنّها عندما قالت «*حِداد*» [1] لم تكن تتحدث أبداً عن أول النهار.

الآن، أضحتِ السماء كثيفة وسوداء بفعل الدخان. الشرر ينهمر مع سقوط السقف. ويصل فوجُ إطفاء ثانٍ، الذي استُدعيَ أفراده عن مائدة الإفطار والدش وغرف الجلوس. وبمساعدة المنظار المُكبِّر أستطيع أنْ أتبيَّن اسمه، يومض على ظهر معطفه المقلوب وكأنّه مكتوب بالأحجار الكريمة. فيتزجيرالد. والدي يضع يديه على خرطوم مشحون بالماء، وأركب سيارتي وأنطلقُ مبتعداً.

***

في المنزل، تُصاب أمي بانهيارٍ عصبيّ. حالما أوقِفُ سيارتي في مكانها المعتاد، تندفع خارجة من الباب. وتقول «شكراً لله، أحتاج إلى مساعدتك».

إنها حتى لم تنظر خلفها لترى إنْ كنتُ ألحقُ بها إلى الداخل، وهكذا

1- كلمتا Morning (صباح) وMourning (حِداد)، تتشابهان في اللفظ وليس في المعنى. المترجم.

عِلِمتُ أنَّ الأمر يتعلّق بكيت. كان أحدهم قد رفس باب غرفة أختيّ واقتحمه، والإطار الخشبيّ الذي يُحيط به قد تناثرت منه شظايا. كانت أختي ما تزال تستلقي على سريرها. ثم فجأة بُثَّتْ فيها الحياة. أخذت تنتفض كرافعة سيارة وتتقيّأ الدم. كانت هناك بقعة تنتشر على قميصها وحتى لفاعها الصوفيّ برسوم أزهاره. وظهرت أزهار الخشخاش الأحمر الذي لم يكن هناك أي شيء منها من قبل.

جلستْ أمي إلى جوارها، ترفع شعر كيت إلى الخلف وتضغط بمنشفة على فمها كلما تقيّأتْ، مع دفقٍ آخر من الدم. وتقول بلهجة اعتياديّة: «جِسّ، لقد خرج والدك في مهمّة، ولا أستطيع أنْ أتّصل به. أحتاج منكَ أنْ تنقلنا بالسيارة إلى المستشفى، حتى أستطيع أنْ أجلس مع كيت في المقعد الخلفي».

شفتا كيت لامعتان كثمرتيّ كرز. أرفعها بين ذراعيّ. لم يعُد فيها إلّا العِظام، تبرز بحِدّة من تحت قميصها الرياضيّ.

تقول أمي، وهي تهرع مارّة بي: «عندما هربتْ آنّا، لم تسمح كيت لي بدخول غرفتها. ومنحتها فترة قصيرة حتى تهدأ. ومن ثم سمعتها تسعل. واضطررتُ إلى اقتحام غرفتها».

قلتُ في نفسي، *وهكذا رفستِ الباب*، وهذا لا يُدهشني. ووصلنا إلى السيارة، وفتحت الباب لكي أضع كيت في الداخل. وأتراجع على الممر وأنطلق أسرع من المعتاد في أرجاء المدينة، إلى الطريق العامة، في اتجاه المستشفى.

واليوم، عندما كان والداي في قاعة المحكمة مع آنّا، كنتُ أشاهد التلفزيون مع كيت. هي أرادتْ أنْ تشاهد مُسلسلها المُفضّل فقلتُ لها اغربي عن وجهي وشاهدي القناة المُشفّرة بدل ذلك. والآن، وأنا أُسرِعُ متجاوزاً الأضواء الحمراء كلها، أتمنّى لو أنني تركتها تشاهد مُسلسلها المتخلّف. إنني أحاول ألّا أنظر إلى وجهها الشاحب الصغير الشبيه بقطعة النقد ينعكس على المرآة الخلفيّة. قد تعتقد، وأنا أحاول أنْ أتعوّد على الأمر كله، أنَّ لحظات كهذه لا تكون صاعقة. والسؤال الذي لا نستطيع أنْ نطرحه يندفع

خلال شراييني مع كل نبض: ***هل هذه هي النهاية؟ هل هذه هي النهاية؟ هل هذه هي النهاية؟***

حالما نصل إلى قسم الطوارئ، تخرج أمي من السيارة، وتحثّني على الإسراع لإحضار كيت. نظهر بمظهر ملفت للأنظار ونحن نجتاز الأبواب التي تُفتَح آليّاً، أنا مع كيت التي تنزف وهي بين ذراعيّ، وأمي وهي تتشبث بأول ممرضة تمرّ بها. تأمرها أمي «إنها في حاجة إلى نقل دم».

يأخذونها مني، وعلى مدى بضع لحظات، حتى بعد اختفاء فريق قسم الطوارئ وأمي مع كيت خلف الستائر المنسدلة، أقفُ وذراعاي ممدودتان، أحاول أنْ أتعوَّد على أنّهما لم تعودا تحملان أيّ شيء.

يُخبرنا الدكتور تشانس، اختصاصي الأورام الذي أعرفه، والدكتور نغوين، الاختصاصي في مجالٍ ما والذي لا أعرفه، بما كنا قد عرفناه تواً: هذا مخاض الموت الدالّ على المرحلة النهائيّة من مرض الكلية. تقفُ أمي بجوار السرير، ويدها تقبض بشدّة على قطب ضمور وريد كيت، تسأل: «أما زال في مقدورك أنْ تنقل إليها الدم؟»، كما لو أنَّ آنا لم تباشر إقامة دعواها بعد، كما لو أنها لا تعني أيّ شيء.

يُخبرها الدكتور تشانس: «إنَّ كيت في حالة سريريّة غاية في الخطورة. لقد سبقَ أنْ أخبرتك بأنني لا أعلم إنْ كانت قوية بالقدر الكافي لتنجو من هذا المستوى من العمليّات الجراحيّة: لقد أصبح الأمل أضأل الآن».

تقول: «ولكن إذا توفّر الواهب، هل تُجريها؟».

قلتُ: «انتظر»، وكأنَّ حنجرتي كانت مفروشة بالقشّ، «هل تنفع كليتي؟».

هزَّ الدكتور تشانس رأسه نفياً. «في الحالة العاديّة، ليس من الضروري أنْ يكون الواهب مثاليّاً في مواصفاته. ولكن أختك لا تمثّل حالة عاديّة».

بعد أنْ غادر الطبيبان، شعرتُ بأمّي تُحدِّق إليّ. تقول «جِسّ».

«لم أكن أعرض نفسي كمُتبرِّع. أنا فقط أردتُ، في الحقيقة، ***أنْ أعرف***». ولكن في داخلي، كنتُ أغلي بشدّة كما حدث عندما اندلعتِ النار في ذلك المستودع. ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بأنني أساوي أيّ شيء، حتى الآن؟

ما الذي دفعني إلى الاعتقاد أنَّ باستطاعتي أنْ أُنقذ أختي، في حين أنني عاجز عن إنقاذ نفسي؟

تفتح كيت عينيها، بحيث تُحدِّق إليّ مباشرة. وتلعقُ شفتيها – ما زالتا مُلطّختين بالدم– حتى بدتْ كأنّها مصّاص للدماء. لا يموت. ليتها تكون كذلك.

أميل أكثر، لأنه لم يعد لديها من الطاقة لجعل الكلمات تزحفُ عبر الهواء الذي بيننا، قالتْ، *أخبِرْ*، لكي لا ترفع أمي نظرها.

أجيب، كما لو أنني صامت. *أُخبِرْ*؟ أريد أنْ أتيقّن من أنني سمعتُ جيداً.

أخبر آنا.

لكنَّ باب الغرفة فُتِحَ كالعاصفة وملأ والدي الغرفة بالدخان. كان شَعره وملابسه وبشرته تفوح برائحته، حتى إنني رفعتُ بصري، متوقّعاً أنْ ينبعث منه الشرر. يسأل، وهو ينعطف إلى يمين السرير، «ماذا حدث؟».

أتسلّل خارجاً من الغرفة، لأنَّه لم يعد أحد يحتاج إليّ هناك. وفي المصعد، أمام عبارة «ممنوع التدخين»، أُشعلُ سيجارة.

أُخبرُ آنّا ماذا؟

سارة

1991–1990

مكتبة
t.me/soramnqraa

بمحض المُصادفة الصِّرف، أو ربما أحوال القَدَر، كانت زبونات صالون الشَّعر الثلاث كلهن حبالى. جلسنا تحت مُجفِّف الشَّعر، وأيدينا معقودة على بطوننا كصفٍ من تماثيل بوذا. قالت الفتاة الجالسة إلى جواري، التي تسعى إلى صبغ شَعرها باللون القرنفلي: «إنَّ خياراتي الأولى هي فريدوم[1]، ولو، وجاك».

تسأل المرأة الجالسة إلى جواري الآخر، «ماذا لو لم يكن صبيّاً؟».

«أوه، هذه الأسماء تصلح *للجنسَين*».

أُخفي ابتسامتي. «أنا أُصوِّت لاسم جاك».

تُضيِّق الفتاة عينيها، وهي تنظر عبر النافذة إلى حالة الطقس السيئة. تقول بشرود، «اسم **سليتْ**[2] ظريف»، ثم تبدأ بتجربة استخدامه، «سليت، اجمع دُماك. سليت، حبيبي، هيا، وإلّا تأخّرنا على حفل العم تيولو الموسيقي» وتُخرِج قطعة من الورق وجزءاً صغيراً تبقّى من قلم رصاص من رداء الأمومة وتخطّ الاسم.

ترسم المرأة الجالسة إلى يساري ابتسامة عريضة. «أهذه المرة الأولى في الحمل بالنسبة إليك؟».

«بل الثالثة».

«وأنا، أيضاً. لدي صبيّان. أخشى عليهما من الحَسَدِ».

1- ويعني: حريّة. المترجم.

2- كلمة سليت تعني مطراً متجمداً. المترجم.

أخبرها: «لدي صبي وبنت. في الخامسة والثالثة».

«هل تعلمين ماذا ستنجبين هذه المرَّة؟».

أنا أعرف كل شيء عن هذه الطفلة، بدءاً بجنسها وانتهاءً بوضع صبغياتها، بما فيها تلك الصبغيات المُناسِبة بصورة مثاليّة لكيت. أنا أعلم بالضبط ماذا سأنجب: معجزة. أجيب: «سأنجبُ فتاة».

«أووه، كم أشعر بالغيرة! أنا وزوجي لم نعرف بعد جنس الطفل عن طريق الموجات ما فوق السمعيّة. لقد حسبتُ أنني إذا علِمتُ أنني سأنجب صبيّاً آخر فلن أستطيع إكمال الشهر الخامس». أسكتتْ جهاز تجفيف الشَّعر ثم عادت فشغّلته. «هل انتقيتِ لها اسماً؟».

فوجئتُ بأنني لم أفعل. فعلى الرغم من أنني حامل بالشهر التاسع، وعلى الرغم من أنّه توفَّر لدي الكثير من الوقت لأفكِّر في الأمر، فإنني لم آخذ بعين الاعتبار مواصفات هذه الطفلة. لقد فكّرتُ في هذه الابنة فقط من ناحية ما سوف تتمكّن من إنجازه من أجل الابنة التي أنجبتها قبلها. ولم أعترف بهذا حتى لبراين، الذي يضع رأسه ليلاً على بطني الضخمة، في انتظار الارتعاشات التي تُعلِن -في اعتقاده- عن وصول أول لاعب كرة قدم لفريق باتريوتس، ثم إنَّ أحلامي بشأنها ليستْ أقلّ حماساً؛ ووضعتُ خطّة لها لكي تُنقِذ حياة أختها.

أقول للمرأة: «نحن ننتظر».

أحياناً أعتقد أنَّ هذا هو كل ما نفعل.

مرّتْ عليّ لحظة، بعد أنْ خضعَتْ كيت لفترة ثلاثة أشهر من المعالجة الكيميائيّة في العام السابق، اعتقدتُ خلالها بكل غباء أننا قهرنا الظروف. وقال الدكتور تشانس إنها تبدو أكثر ارتياحاً، وإننا يجب أنْ نراقب ما سيجري بعد ذلك. وخلال فترة وجيزة عادت حياتي إلى مسارها الطبيعي: أوصِلُ جِسّ بالسيارة إلى التمرين على كرة القدم وأُساعدُ كيت في الدرس قبل الانتساب إلى المدرسة وحتى في أخذ حمّام حارّ من أجل الاسترخاء.

ومع ذلك، هناك جزءٌ مني يعلم أنَّ فردة الحذاء الأخرى سوف تسقط.

وهذا الجزء هو الذي يُعدِّل من شأنِ وسادة كيت في صباح كل يوم، حتى بعد أنْ بدأ شَعرها ينمو من جديد بأطرافه المحترقة، المُجعّدة، تحسّباً إذا ما سقطَتْ من جديد. وهذا الجزء ذهب إلى اختصاصيّ عِلم الوراثة الذي أوصى به الدكتور تشانس. وعملَ على إعداد جنين حصل على موافقة العلماء بأنّه المُطابِق المثالي لحالة كيت. فقد أخذ الهورمونات من أجل إجراء التخصيب الخارجي والحمل بذلك الجنين، فقط تحسّباً.

خلال عملية سحب نقي العِظام الروتينيّة علِمنا أنَّ كيت تمرّ بحالة انحدار جُزيئيّ. ظاهريّاً، كانت تبدو كأي طفلة في الثالثة من العمر. وداخليّاً، كان السرطان قد عاد إلى اجتياح جسمها، مُسرِّعاً عمليّة المعالجة الكيميائيّة.

والآن، هي على المقعد الخلفيّ الذي يجلس عليه جِسّ، ترفس قدمها وتلعب بجهاز هاتف دمية. وجِسّ إلى جوارها، يُحدِّق من النافذة. «ماما؟ هل تسقط الحافلات على الناس؟».

«تقصد كما تسقط عن الأشجار؟».

«كلا. كما... فقط تنقلب»، وأدّى حركة الانقلاب بيده.

«فقط إذا كانت أحوال الطقس رديئة، أو إذا كان السائق ينطلق بسرعة هوجاء».

أومأ برأسه إيجاباً، متقبّلاً شرحي من أجل سلامته في هذا الكون. ثم قال: «ماما. هل لديك رقمٌ مُفضّل؟».

أُخبره «رقم واحد وثلاثون». وهو موعد إنجابي. «وأنتَ؟».

«تسعة. لأنه يمكن أنْ يكون رقماً، أو رقم سنّك، أو رقم ستة مقلوباً رأساً على عقب». يسكتُ فترة كافية ليأخذ نَفساً. «ماما؟ هل لدينا مقصّ لتقطيع اللحم؟».

«لدينا». وانعطفتُ يميناً وتقدّمت بالسيارة مارّة بالمقبرة، حيث شواهد القبور مائلة إلى الأمام وإلى الخلف كتلّة من الأشخاص بأسنان صفراء.

يسأل جِسّ «ماما؟ هل ستذهب كيت إلى هناك؟».

السؤال البريء كأي سؤال يمكن لجِسّ أنْ يطرحه، يجعل ساقيَّ واهنتين.

وأوقفتُ السيّارة وأضأتُ أنوار الخطر. ثم حللتُ حِزام المقعد واستدرتُ. أقول له «كلا، يا جِسّ، سوف تبقى معنا».

يقول المُنتِج «السيد والسيدة فيتزجيرالد؟ سوف نضعكما هنا».

نجلس في موقع التصوير في استوديو التلفزيون. كنا قد دُعينا إلى هنا بسبب الحمل غير التقليديّ بطفلتنا. وبصورة ما، وبعد بذل مجهود للحِفاظ على صحّة كيت، أصبحنا بلا قصد صورة الإعلان عن مناظرة عِلميّة.

مع اقتراب ناديا كارتر مُقدِّمة نشرة الأخبار منا، يُمسك براين بيديّ. «نحن جاهزون تقريباً. وقد سجّلتُ تواً مُقدِّمة عن كيت. وكل ما سأفعل هو أنْ أطرح عليكما بضعة أسئلة، وسوف ننتهي في وقت قصير».

قبل أنْ تبدأ آلات التصوير بالعمل، يمسح براين وجنتيه بكُمّي قميصه. ويتذمّر اختصاصيّ المساحيق الواقف خلف الأضواء، يهمس براين لي: «إكراماً لله، لن أظهر على شاشة التلفزيون وكأنني أحمرّ خجلاً».

تدبُّ الحياة في آلات التصوير بمراسِم أقلّ بكثير مما توقّعتُ، ترافقها فقط همهمة سَرَتْ في ذراعيّ وساقيّ.

تقول ناديا: سيد فيتزجيرالد، هلّا شرحتَ لنا السبب في اختيارك زيارة اختصاصيّ في عِلم الوراثة منذ البداية؟».

ينظر براين إليّ. «إنَّ طفلتنا البالغة ثلاث سنوات من العمر مُصابة بحالة متطرّفة من سرطان الدم. وقد اقترح طبيب الأورام الذي يُتابع وضعها بالعثور على واهب لنقيّ العِظام، لكنَّ ابننا الأكبر لم يكن متطابقاً مع حالتها. وهناك مركز تسجيل وطني للواهبين، ولكن عندما يحين الوقت للحصول على الواهب الصحيح لكيت، ربما تكون... قد ماتت. لذلك فكّرنا أنّه قد تكون فكرة جيدة أنْ نجد طفلاً آخر ربما يكون واهباً متطابقاً مع حالة كيت».

تقول ناديا: «أخ أو أخت لا وجود لهما».

يُجيب براين: «ليس بعد».

«ما الذي دفعكما إلى التحول إلى اختصاصي في عِلم الوراثة؟».

أقول بفظاظة: «لضيق الوقت. لم يكن ممكناً أنْ نستمر في إنجاب الأطفال عاماً بعد عام إلى أنْ نحصل على طفل يتطابق مع حالة كيت. وكان الطبيب قادراً على أنْ يعرض علينا عدداً من الأجنّة لنختار من بينها، إنْ وُجِدَ، مَنْ يصلُح واهباً لكيت. وكنا محظوظَين لأننا اخترنا واحداً من بين أربعة – وقد ازدرعناه بعملية تخصيب خارجي».

نظرت ناديا نحو الأسفل إلى ملاحظاتها. «لقد وصلتكِ رسائل تهديد، أليس كذلك؟».

أومأ براين برأسه إيجاباً. «إنَّ الناس يعتقدون أننا نحاول أنْ نصنع طفلاً حسب مُخطَّط مُسبَق».

«أليس هذا ما يحدث؟».

«نحن لم نطلب طفلاً بعينين زرقاوين، أو طفلاً طوله ستة أقدام، أو طفلاً يبلغ حاصل ذكائه 200. طبعاً نحن طلبنا مواصفات مُعيَّنة – لكنها ليست مواصفات يمكن لأي شخص أنْ يعتبرها مِثالاً للصِّفات الإنسانيّة. إنها فقط مواصفات تناسِب حالة *كيت وحدها*. نحن لا نريد طفلاً خارقاً؛ بل نريد فقط أنْ ننقذ حياة طفلتنا».

أشدُّ على يد براين. يا الله كم أحبّه!

تسألني ناديا، «سيدة فيتزجيرالد، ماذا ستخبرين هذه الطفلة عندما تكبُر؟».

أقول: «أتمنى أنْ يواتيني حُسن الحظ وأستطيع أنْ أطلب منها أنْ تكفّ عن إزعاج أختها».

أدخلُ المُختبَر في ليلة رأس السنة. الممرضة التي تعتني بي تحاول أنْ تُشتِّت تركيزي على نوبات الطلق بالتحدّث عن الشمس. تقول إميرالدا، وهي تدلّك كتفيّ: «هذه المولودة سوف تكون من برج الجدي».

«أهذا أمر جيّد؟».

«أوه، إنَّ مواليد برج الجدي عمليّون».

تنفّسي، تنفّسي. أخبرها «يُسعدني... أنْ... أعرف هذا».

هناك طفلان آخران يولَدان. تقول إميرالدا، إنَّ إحدى النساء وضعَتْ ساقاً

فوق ساق. إنها تحاول أنْ تعيش حتى عام 1991. والطفل الذي سيولَد على رأس السنة مُرشَّح لأنْ يحصل على رزمة مجّانية من الحفاضات وسوف ينال سند توفير بقيمة 100$ من بنك سيتيزنز من أجل مصاريف الدراسة الجامعيّة التي ما زالت بعيدة الحدوث.

عندما تخرج إميرالدا إلى منضدة الممرضة، وتتركنا وحدنا، يمدّ براين يده ليُمسك يدي. «أأنتِ بخير؟».

أرسمُ تكشيرة على وجهي وأنا أنتقل إلى انقباض آخر. «سوف أكون بحالٍ أفضل بعد أنْ أنتهي من هذا».

يبتسمُ لي. إنَّ عمليّة توليد في المستشفى بالنسبة إلى مُسعِف/ رجل إطفاء، هي شيء لا يعني له شيئاً. لو أنَّ مائي تدفّقَ خلال تحطُّم قطار، أو وأنا أُنجِبُ في المقعد الخلفي لسيارة أجرة –

يُقاطعني، على الرغم من أنني لم أنطق كلمة واحدة بصوت مرتفع، «أعرفُ ما تفكرين فيه، وأنتِ مُخطئة». ويرفع يدي، ويُقبّل البراجِم.

فجأة تنحلّ مرساة داخلي. تلتوي سلسلة، ضخمة بحجم الكف، في جوفي. أشهقُ «براين، أحضر الطبيب».

يدخل طبيب الأمراض النسائيّة والتوليد الخاصّ بي ويضع يده بين ساقيّ. يرفع عينيه ويُلقي نظرة سريعة إلى ساعة الحائط. يقول: «إذا استطعتِ أنْ تتحمّلي دقيقة، فسوف تولد هذه الطفلة وتُصبح مشهورة»، لكنني أهزّ رأسي نفياً.

آمره «أخرِجها، *الآن*».

ينظر الطبيب إلى براين. فيُخمِّن «من أجل حسم الضريبة؟».

إنني أفكر في التوفير، لكنَّ هذا لا صِلة له بخدمة الدخل الإجمالي. ينزلق رأس الطفلة من خلال جلدي السميك. تُمسِكُ يدُ الطبيب بها، ويُحرِّر ذلك الحبل الضخم عن عنقها بحركة انزلاقيّة، ويُخرجها كتفاً بعد كتف.

أكافحُ بمِرفقيّ حتى أعرف ما الذي يجري في الأسفل. أُذكّره، «انتبه، إنّه الحبل السرّي». يقطعه، دماءٌ جميلة، ويُسرِعُ بحملها خارج الغرفة إلى مكان تُحفَظُ فيه في وسطٍ بارد إلى أنْ تُصبح كيت مُستعدة لاستقبالها.

تبدأ ساعة الصِّفر لتطبيق حِمية كيت قبل القيام بعمليّة الزرع في صباح اليوم الذي يلي ولادة آنّا. أنزل من جناح الولادة وأقابل كيت في قسم الطب الإشعاعيّ. كلتانا ترتديان ردائيّ العزلة الأصفرين، وهذا يدفعها إلى الضحك. تقول «ماما، نحن متطابقتان».

كانوا قد قدّموا لها مشروباً خاصّاً بالأطفال من أجل التخدير، وفي أي ظرف من الظروف الأخرى، كان ذلك سيكون شيئاً مُضحكاً. إنَّ كيت لا تستطيع أنْ تعثر على قَدَمِها. وكلما نهضَتْ واقفة، تعود فتنهار. ويخطر في بالي أنَّ كيت سوف تبدو هكذا عندما تثمل بشرب شنابس الخوخ للمرة الأولى في المدرسة الثانوية أو في الجامعة؛ ومن ثم سرعان ما أتذكّر أنَّ كيت قد لا تعيش لتبلغ ذلك السن.

عندما جاء المُعالِج لكي يأخذها إلى جناح المعالجة بالأشعة، تتشبّث كيت بساقي، فيقول براين «حبيبتي، سوف يجري كل شيء على ما يُرام».

تهزّ رأسها رفضاً وتقترب أكثر. عندما أجلس القرفصاء، ترتمي بين ذراعيّ. وأعِدها، «لن تغيبي عن عينيّ».

الغرفة فسيحة، تضمّ لوحات جداريّة مرسومة لغابات على الجدران. المُسرِّعات الطوليّة[1] مُثبّتة على السقف وهناك حفرة تحت طاولة العلاج، أكبر قليلاً من سرير القنّب المَكسو بغطاء. تضع المُعالِجة بالأشعة قطعاً سميكة من الرصاص على شكل حبّات البقول على صدر كيت وتطلب منها أنْ تبقى ثابتة. وتعِد بأنها سوف تعطي كيت صورة قابلة للالتصاق بعد انتهاء الفحص.

أحدِّقُ إلى كيت من خلال جدار الزجاج الواقي. أشعّة غاما، لوكيميا، الأبوّة. هذه هي الأشياء التي لا تستطيعين أنْ تريها وقويّة إلى درجة قتلك.

هناك قانون خاص بعلم الأورام، قانون غير مُدوَّن في أي مكان لكنّه اعتقادٌ سائد: إذا لم تمرض، فلن تتحسّن صحتك. ولذلك إذا سبَّبَ لك العلاج الكيميائيّ مرضاً شديداً، إذا سفع الإشعاع جلدك – فهذا أمر جيّد. ومن ناحية أخرى، إذا تجاوزتَ مرحلة العلاج بسرعة ولم تشعر إلّا بغثيان أو بألم لا يكاد يُذكَر، فهذا يعني أنَّ جسمك يرفض العقاقير وأنها ليستْ فعّالة.

1- جزء من جهاز التصوير الإشعاعي لمرضى السرطان. المترجم.

وِفقَ هذا المعيار، كان ينبغي على كيت حتماً أنْ تكون قد شُفيَتِ الآن. وخِلافاً للعلاج الكيميائي في العام السابق، فإنَّ هذا المسار من العلاج تناول فتاة صغيرة لم تكن تعاني حتى من زكام عادي وحوّلها إلى جسد مُحطَّم. لقد تسبّب تعرّضها للإشعاع على مدى ثلاثة أيام بإصابتها بإسهالٍ متواصل، وأعادها إلى استخدام الحفاض. في أول الأمر، سبّبَ ذلك لها حَرَجاً؛ أما الآن فإنَّ مرضها اشتدّ بحيث إنها لم تعد تهتم. وتسبّبتِ الأيام الخمس التالية المتتالية من العلاج الكيميائي بتجمُّع المُخاط في حنجرتها، مما يجعلها على الدوام تتشبّث بأنبوب المصّ وكأنّ حياتها متوقّفة عليه. وعندما تستيقظ، كل ما تفعل هو البكاء.

منذ اليوم السادس، عندما بدأت أعداد خلايا دم كيت البيضاء والمتعددة الأشكال تهبط بشكل حادّ، أصبحتْ في حالة عزلة مُعاكسة. عندئذٍ باتْ في إمكان أيّة جرثومة في العالم أنْ تقتلها؛ ولهذا السبب، خُلِقَ العالم لكي يبقى على مسافة منها. وأصبح عدد زوارها في غرفتها محدوداً، والذين يُسمح لهم بالدخول يبدون أشبه بروّاد الفضاء، يرتدون لباساً خاصاً ويضعون أقنعة. وكانت كيت تقرأ الكتب المُصوّرة وهي تلبس قفّازاً من المطّاط. ولا يُسمَح بوجود نباتات أو أزهار، لأنها تحمل بكتيريا يمكن أنْ تقتلها. وأيّة دُمية تُعطى لها يجب أنْ تُغسَل أولاً جيداً بمحلول مُضاد حشريّ. وهي تنام مع دبّها الدمية، وهو داخل كيس مختوم يُصدرُ حفيفاً طوال الليل وأحياناً يتسبَّب في إيقاظها من النوم.

جلستُ أنا وبراين خارج غرفة الانتظار، ننتظر. وبينما كيت نائمة، أتدرّب على إعطاء حقن لثمرة برتقال. وبعد انتهاء عملية النقل سوف تحتاج كيت إلى حقن عامل النمو، وسوف يُترَك العمل اليوميّ لي. أغرز طرف الحقنة تحت قشرة البرتقالة السميكة، إلى أنْ أشعر بالانسلاخ الناعم للنسيج التحتيّ. والعقار الذي سأعطيه تحت الجلد، يُحقَن تحت الجلد مباشرة. أنا في حاجة إلى التيقّن من صحّة الزاوية ومن أنني أُعطي المقدار المناسب من الضغط. وسرعة دفع الإبرة إلى أسفل يمكن أنْ تُسبِّب أكثر أو أقلّ من الألم. وثمرة البرتقال لا تبكي، طبعاً، عندما أرتكبُ خطأً. لكنَّ الممرضات مع ذلك يُخبرنني بأنَّ حقن كيت لا يختلف كثيراً.

يتناول براين ثمرة برتقالٍ أخرى ويبدأ بتقشيرها. «اترك هذه!».

«أنا جائع» ويومئ برأسه نحو الثمرة التي في يدي. «وأنتِ لديك مريضة».

«لعلمك هذه برتقالة مريض *آخر*. يعلم الله بأي محلول مُخدِّر حُقِنَ».

فجأة يظهر الدكتور تشانس عند المنعطف ويقترب منا. تتبعه دونّا، ممرضة قسم الأورام، تلوّح بكيس محلول ضمور الأوردة المملوء بسائل قرمزيّ اللون، تقول: «درمرول».

أتركُ برتقالتي، وأتبعهما إلى غرفة الانتظار، وأمشي معهما بحيث أصبح على مسافة عشرة أقدام من ابنتي. وفي غضون بضع دقائق تصِلُ دونّا الحقيبة بالعمود، وتصِلُ القطر بالخط الرئيسيّ لكيت. ومن العجيب أنَّ كيت لم تستيقظ. وأقفُ جانباً، ويقفُ براين على الجانب الآخر. أحبسُ أنفاسي. وأحدِّق نحو الأسفل إلى وركيّ كيت، وإلى العظم الحرقفيّ، حيث يُصنَع نقيّ العِظام. وبفعل مُعجزة ما سوف تجري خلايا آنّا الجذعيّة في مجرى دم كيت في صدرها، لكنها سوف تجد طريقها إلى النقطة المناسبة.

يقول الدكتور تشانس: «حسن»، ونراقب حبل الدم ينزلق ببطء خلال الأنبوب، ممر الاحتمال الجنونيّ.

جوليا

بعد مرور ساعتين على الإقامة مع أختي من جديد، أجد من الصعب عليّ أنْ أُصدِّق أننا تقاسمنا الرحم نفسه بارتياح. كانت إيزوبل قد نظَّمتْ أقراصي المُدمجة وِفق سنوات إصدارها، وكنست تحت الأريكة، ورمتْ نصف الطعام المُخزَّن في برّادي. «إنَّ التمر هو صديقنا، يا جوليا» وتتنهّد. «لديك لبنٌ مُصفّى هنا منذ أنْ حكم الديمقراطيون البيت الأبيض».

أصفق الباب وأعدّ حتى العشرة. ولكن عندما يتحرّك إيزي نحو فرن الغاز ويبدأ البحث عن أدوات التنظيف، أفقد هدوء أعصابي. «إنَّ سيلفيا لا تحتاج إلى تنظيف».

«هذا شيء آخر: سيلفيا هي الفرن. سميلا هي البرّاد. أحقاً نحتاج إلى أنْ نُطلِقُ أسماءً على أدوات مطبخنا؟».

بل أدوات مطبخي ***أنا***. ***مطبخي***، وليس مطبخنا، اللعنة. أُتمتمُ «إنني أتساءل بإلحاح لماذا انفصلتْ جانيت عنك».

هنا، ترفع إيزي بصرها، مُصدومة. تقول: «أنتِ فظيعة. أنت فظيعة، وكان ينبغي أنْ أمنع أمي من الإنجاب بعد أنْ وُلِدتُ». وتهرع إلى غرفة الحمّام وهي تبكي.

إيزوبل أكبر مني بثلاث دقائق، لكنني كنتُ دائماً التي تعتني بها. أنا قنبلتها النوويّة: عندما يحدث شيء يُزعجها، أتدخّل وأُدمِّر ذلك الشيء، سواء أكان أحد إخوتنا الستة الأكبر سناً يُضايقها أو الشريرة جانيت، التي قرَّرتْ أنّها ليست مثليّة جنسيّاً حتى بعد مرور سبع سنين على إقامتها علاقة ثابتة مع إيزي. وعندما كبرنا، أصبحتْ إيزي هي المُهذَّبة وأصبحتُ أنا المُقاتلة –

ألوِّح بقبضتيّ يديّ أو أحلق شَعر رأسي لكي أحصل من والديّ على زيادة في المصروف أو أنتعل حذاء قتال مع زيّ مدرستي الثانويّة الرسميّ. ولكن الآن بعد أنْ بلغنا سن الثانية والثلاثين، أصبحتُ عضواً رسمياً في فريق المغامرات رات ريس؛ بينما إيزي هي المثليّة التي تصنع حلي من قُصاصات الورق ومسامير ملولبة. تخيَّل.

باب الحمّام لا يُقفَل، لكنَّ إيزي لا تعلم هذا بعد. لذلك أدخل وأنتظر ريثما تنتهي من غسل وجهها بالماء البارد، وأعطيها المنشفة. «لم أقصد، يا إز».

تنظر إليّ من خلال المرآة. «أعلم». إنَّ معظم الناس لم يعودوا الآن يميّزون بيننا بعد أنْ حصلتُ على عملٍ حقيقيّ يتطلب تسريحة شعر تقليديّة وملابس تقليديّة. أشير قائلة: «على الأقل كنتِ تُقيمين علاقة. في آخر مرَّة خرجتُ مع شاب كانت عندما اشتريتُ ذلك اللبن المُصفّى».

تنحني شفتا إيزي، وتلتفتُ إليّ: «هل للمرحاض اسم؟».

«كنتُ أفكر في اسم **جانيت**»، فتنفلق أختي من الضحك.

يرنّ جرس الهاتف، فأدخل غرفة الجلوس لكي أجيب على المكالمة. «جوليا؟ أنا القاضي ديسالفو. لديّ قضيّة تحتاج إلى وصيّ قانونيّ، وأتمنى أنْ تتمكني من مساعدتي في هذا الأمر».

كنتُ قد أصبحتُ وصيّاً قانونياً قبل عام، عندما أدركتُ أنَّ العمل غير المُربح لا يُغطّي قيمة إيجار مسكني. والوصيّ القانونيّ تعيّنه المحكمة مُدافعاً عن طفل خلال إجراءات قانونيّة يكون أحد أطرافها شخصاً قاصراً. ليس من الضروري أنْ تكون مُحامياً لتتدرَّب لتُصبح وصيّاً قانونيّاً، ولكن عليك أنْ تتحلى بتعاطف أخلاقيّ وقلب كبير. وهذا، في الواقع، يجعل، ربما، معظم المُحامين غير مؤهَّلين لتولّي هذا العمل.

«جوليا؟ أتسمعينني؟».

إنني مُستعدة لمساعدة القاضي ديسالفو؛ كان قد استخدم نفوذه لتدبير عملٍ لي عندما أصبحتُ وصيّاً قانونياً للمرة الأولى. فوعدته «أنا مستعدة لأي شيء تحتاج إليه. ما الأمر؟».

أمدَّني بمعلومات عامّة - مرّتْ في خاطري عبارات على غرار ***التحرُّر***

الطبّي وثلاثة عشر وأم ذات خلفيّة قانونيّة. برزتْ أولاً كلمتان فقط: كلمة *مُلحّ*، واسم المُحامي.

يا الله، لا أستطيع أنْ أقوم بهذا العمل.

أقول: «أستطيع أنْ أكون عندك في غضون ساعة».

«عظيم. لأنني أعتقد أنّ هذه الطفلة تحتاج إلى شخص يدعمها».

تسأله إيزي: «مَن هذا؟». إنها تفتح الصندوق الذي يضمّ موارد عملها: أدوات وأسلاك وحاويات صغيرة لقطع معدنيّة تبدو عندما تخرجها أشبه بأسنان تصرّ.

أجيبها: «إنّه القاضي، هناك فتاة تحتاج إلى مُساعدة».

ما لم أخبر أختي به هو أنني أتحدثُ عن نفسي.

لا أحد في منزل آل فيتزجيرالد. أرنّ جرس الباب مرّتين، متيقّنة من أنني مُخطئة. لقد قادني ما قاله القاضي ديسالفو إلى الاعتقاد أنَّ هذه العائلة في أزمة. لكنني وجدتُ نفسي واقفة أمام رأس بحريّ مُعتنى به جيداً، مع حدائق للأزهار مُشذّبة تحفّ بجانبيّ الممشى.

عندما أستدير لكي أعود إلى سيارتي، أرى الفتاة. ما زالت تلك العجفاء، بشكلها الشبيه بالعجل الذي يسبق مرحلة المراهقة؛ وأخذتْ تقفز من فوق كل صدع على الرصيف. أقول، عندما تُصبح قريبة بالقدر الكافي لتسمعني، «مرحباً، هل أنتِ آنّا؟».

ارتفعت ذقنها، «ربما».

«أنا جوليا رومانو، لقد طلبَ مني القاضي ديسالفو أنْ أكون الوصي القانون عليك. هل شرح لك طبيعة هذا المنصب؟».

ضيَّقَتْ آنّا عينيها. «كانت هناك فتاة في بروكتون اختطفها شخصُ قال إنّ أمّها طلبتْ منه أنْ يُحضِرها بالسيارة إلى مركز عمل الأم».

أخذتُ أبحث داخل كيس نقودي لأُخرِج رخصة القيادة، مع مجموعة من الأوراق. أقول «خذي، تفضّلي». ألقَتْ نظرةً عليّ، ومن ثم على الصورة القبيحة التي على الرخصة؛ وأخذتْ تقرأ نسخة من عريضة التحرّر كنتُ قد

أخذتُها من محكمة العائلة قبل أنْ آتي إليها. إنْ كنتُ قاتلاً مُضطرباً عقليّاً فقد أدّيت عملي على أكمل وجه. ولكن هناك جزءاً مني سلَّمَ بأنها حذرة، هذه ليست طفلة من النوع الذي يندفع بتهوُّر نحو المواقف. إذا كانت تفكِّر طويلاً وبتركيز بشأن الذهاب معي، فلابد أنّها فكّرتْ طويلاً وبتركيز بشأن الفكاك من فخّ عائلتها.

تُعيدُ إليّ كل ما أعطيته لها. وتسألني «أين الجميع؟».

«لا أعلم. حسبتُ أنَّ بإمكانك أنْ تُخبريني».

ينتقل تحديق آنّا نحو الباب الأمامي، بعصبيّة. «آمل ألّا يكون قد وقع مكروه لكيت».

أميِّل رأسي، أتأمّل تلك الفتاة التي نجحت حتى ذلك الحين في إدهاشي، وأسألها «هل لديك متسع من الوقت لنتحدث؟».

أول موقف في حديقة حيوان روجر وليمز هو عند حمير الوحش. لطالما كانت من بين حيوانات القسم الإفريقيّ المُفضّلة لديّ. والفيلة أيضاً، بصورة أو بأخرى. القردة لم تكن تأسرني - بل حمير الوحش. سوف تكون واحدة من الأشياء القليلة المناسِبة إذا حالفنا الحظ وعشنا في عالم أبيض أو أسود.

مررنا بالظباء الإفريقيّة الصغيرة، وحيوانات البونغو، وبشيء يُدعى جرذ الخلد العاري الذي لا يُغادر جحره. وأنا غالباً ما آخذ الأطفال إلى حديقة الحيوان عندما يوكل أمرهم إليّ. وفي حديقة الحيوان، خِلافاً لِما يحدث في قاعة المحكمة عندما نجلس وجهاً لوجه، أو حتى في محل بيع فطائر دنكن، يكونون منفتحين معي. يشاهدون القِردة يتأرجحون في المكان كلاعبي الجمباز في دورة الألعاب الأولمبيّة ونبدأ بالتحدث عن الأحداث التي جرت في المنزل، من دون حتى أنْ يُدركوا ما يفعلون.

أما آنّا فهي أكبر سناً من الأطفال كلهم الذين عملتُ معهم، ولا تُبدي أيّ اهتمام بوجودها هنا. وعندما أعود بذاكرتي أُدرك أنَّ ذلك كان خياراً سيئاً. وأنّه كان ينبغي أنْ آخذها إلى مركز تجاري، أو إلى السينما.

ونتمشّى خلال ممرات حديقة الحيوان الملتوية، ولا تتحدّث آنّا إلّا

عندما تُضطر إلى إعطاء جواب. وتُجيبني بأدب عندما أطرح عليها أسئلة عن صحّة أختها. تقول إنَّ أمّها، في الحقيقة، هي بمثابة المُحامي الخصم. وتشكرني عندما أشتري لها مُثلجات.

أقول: «أخبريني عمّا تحبين أنْ تفعلي، من باب التسليّة».

تقول آنّا: «أحبّ أنْ ألعب الهوكي. كنتُ ألعب في مركز الدفاع».

«تقولين كنتِ؟».

«كلما كبرتِ في السن، قلَّتْ مُسامحة رئيس الفريق لكِ إذا فاتتكِ مباراة»، وتهزّ كتفيها بلامبالاة. «لا أحبّ أنْ أخذل فريقاً كاملاً».

أقول في نفسي، ***أسلوب في التعبير مُثير للاهتمام***. «أما زال أصدقاؤك يلعبون الهوكي؟».

«أصدقاء؟»، وتهزّ رأسها نفياً، «لا يمكنكِ حقاً أنْ تدعي أياً منهم إلى منزلك عندما تكون لديك أخت تحتاج إلى الراحة. ولا يدعوك أحد في المقابل لتنامي عنده عندما تأتي أمك لكي تقلّك عند الساعة الثانية صباحاً إلى المستشفى. ربما مرَّ وقتٌ طويل منذ أنْ كنتِ في المرحلة الدراسيّة المتوسطة، لكنَّ معظم الناس يعتقدون أنَّ غرابة الأطوار سِمة مُعدية».

«إذن إلى مَنْ تتحدثين؟».

تنظر إليّ. تقول «إلى كيت». ثم تسأل إنْ كان معي هاتف خليويّ.

أُخرِجَ هاتفاً من كتاب جيب وأراقبها تطلب رقم المستشفى الذي تحفظه غيباً. تقول آنّا لعامل المقسَّم: «أنا أبحث عن مريضة، اسمها كيت فيتزجيرالد؟» وترفع بصرها إليّ. «شكراً على أيّ حال». تضغط على زر الإقفال، وتُعيد الهاتف إليّ. «كيت غير مُسجّلة عندهم».

«وهذا أمرٌ جيد، أليس كذلك؟».

«إنّه يعني فقط أنَّ الإجراءات المكتبيّة لم تصِل إلى عامل المقسم. أحياناً تستغرق بضع ساعات».

أتّكئ على درابزين قريب من الفيلة. وأشير «تبدين شديدة القلق الآن على أختك. هل أنتِ مستعدّة لمواجهة ما سيحدث إذا رفضتِ أنْ تكوني واهبة؟».

«أنا أعرف ما الذي سيحدث». كان صوت آنّا منخفضاً. «أنا لم أقُل أبداً إنَّ الأمر *يُعجبني*»، وترفع وجهها نحو وجهي، تتحداني لأعثر على عيبٍ فيها.

أنظر إليها برهة. ماذا سأفعل *أنا*، إذا اكتشفتُ أنَّ إيزي تحتاج إلى كلية، أو إلى جزء من كبدي، أو إلى نقي عِظامي؟ إنَّ الجواب لا ريب فيه – سوف أسأل كيف يمكن أنْ أصل إلى المستشفى وأُنجز المطلوب مني.

ولكنْ، سوف يكون خياري *أنا*، قراري *أنا*.

«هل حدث مرّة أنْ سألك أبواك إنْ كنتِ ترغبين في أنْ تكوني واهبة لأختك؟».

ارتعشَتْ آنّا. «تقريباً. كما يطرح الأبوان الأسئلة التي يكونان قد أجابا عنها سَلَفاً في سرّهما. ***أنتِ لستِ السبب في بقاء كامل تلامذة الصف الثاني في غرفة الدرس خلال فترة الاستراحة، أليس كذلك؟*** أو، ***أنت ترغبين في أكل البروكلي، أليس كذلك؟***».

«هل حدث مرَّة أنْ أخبرتِ والديك أنكِ غير مرتاحة للاختيار الذي قاما به بالنيابة عنكِ؟».

تبتعد آنّا عن الفيلة وتبدأ بارتقاء التل بخطى ثقيلة. «ربما تذمّرتُ مرات قليلة. لكنهما والدا كيت، أيضاً».

بدأتْ أطراف قليلة من هذا اللغز تتكشّف لي. تقليديّاً، يتّخذ الآباء القرارات بالنيابة عن الطفل، لأنهم يفترضون أنهم يسعون إلى الأفضل بالنسبة إليه أو إليها. ولكنِ إذا كانت، بدل ذلك، مصلحة طفل آخر من أطفالهم تعمي عيونهم، فإنَّ النظام ينهار. وفي مكان ما، تحت الركام كلّه، يوجَدُ ضحايا من أمثال آنّا.

والسؤال المطروح هو، هل أقامتْ هذه الدعوى القضائيّة لأنها حقاً تشعر بأنها تستطيع أنْ تقوم بخيارات أفضل بشأنِ الاهتمام برعايتها طبيّاً من أبويها، أم لأنها تريد لأبويها أنْ يسمعا بكاءها ولو لمرّة واحدة؟

انتهى بنا المشوار أمام الدبّين القطبييّن، تريكسي ونورتون. وللمرة الأولى منذ قدومنا إلى هنا يُشرق وجه آنّا. وتراقب كوبه، صغير تريكسي – الإضافة الأحدث إلى حديقة الحيوان. كان يضرب أمّه وهي مستلقية على الصخور، مُحاولاً أنْ يدفعها إلى اللعب معه. تقول آنّا: «في آخر مرَّة وُلِدَ صغير لدبٍ قطبيّ أعطوه لحديقة حيوان أخرى».

إنها على صواب؛ لاحتْ في ذهني ذكريات عن مقالات في صحيفة **بروجو**. كانت خطوة علاقات عامة كبرى بالنسبة إلى رود آيلند.

«أتعتقدين أنّه يتساءل ما الذي فعله حتى يُبعدونه؟».

نحن مُدرَّبون، بوصفنا أوصياء قانونيين، على رؤية علامات البؤس. نحن نعرف كيف نقرأ لغة الجسد، والتكلُّف الواضح، وتذبذب المزاج. قبضَتْ يدا آنّا على الدرابزين المعدني. وبهتت عيناها كذهبٍ عتيق.

أقول في نفسي، ***إمّا أنَّ هذه الفتاة تخسر أختها، أو أنها سوف تخسر نفسها***.

تسألني: «جوليا، هل تمانعين في العودة إلى المنزل؟».

كلما اقتربنا من منزل آنّا، تنأى بنفسها عني. خدعة ممتازة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ المسافة الماديّة بيننا تبقى على حالها. وتنكمش ملتصقة بنافذة سيارتي، مُحدِّقة إلى الشوارع التي تسيل كما الدماء. «ما الذي سيحدث بعد ذلك؟».

سوف أتحدث مع كل شخص آخر. مع أمك وأبيك، مع أخيك وأختك، ومع مُحاميك».

ثم توقفت سيارة جيب متهالكة على الممر، وإذا بالباب الأمامي للمنزل يُفتَح. أُطفِئ المُحرِّك، لكنّ آنّا لا تُحرِّك ساكناً لفك حزام مقعدها. «هلّا رافقتني إلى الداخل؟».

«لِمَ؟».

«لأنَّ أمي سوف تقتلني».

إنَّ آنّا هذه –الجفول بصدق– لا تشبه في شيء آنّا التي أمضيتُ معها نصف الساعة الأخيرة. أتعجّب كيف يمكن لفتاة أنْ تكون في وقتٍ واحد شجاعة بحيث ترفع دعوة قضائيّة، وخائفة من مواجهة أمّها. «كيف ذلك؟».

«يمكن القول إنني غادرت المنزل في هذا اليوم من دون أنْ أخبرها إلى أين أنا ذاهبة».

«أتفعلين هذا كثيراً؟».

تهزّ رأسها نفياً. «في المعتاد أنا أنفّذ ما أؤمَر به».

في الواقع، سوف أُضطر إلى التحدّث مع سارة فيتزجيرالد عاجلاً أم آجلاً. أخرج من السيارة، وأنتظر آنّا أنْ تفعل مثلي. نمشي على الممرّ الأماميّ، ونجتاز مساكب الأزهار المُنسّقة، ثم الباب الأماميّ.

إنها ليست الخصم التي أردتُ لها أنْ تكون. لسبب واحد، وهو أنَّ والدة آنّا أقصر قامة مني، وأكثر نحولاً. ولها شعر قاتم وعينان خائفتان وسمعنا خطوتها. وحالما يُفتَح الباب مع صرير، تهرع نحو آنّا. وتهتف، وهي تهزّ ابنتها من كتفيها، «بحقّ الله، أين كنتِ؟ أتعلمين–».

«عفواً، سيدة فيتزجيرالد، أودّ أنْ أعرِّف عن نفسي»، وأتقدَّم، مادّة يدي. «أنا جوليا رومانو، الوصيّ القانوني الذي عيّنته المحكمة».

تُحيطُ آنّا بذراعها، في عرضٍ جامد للحنان. «شكراً لكِ لإعادة آنّا إلى المنزل. أنا واثقة من أنَّ لديك الكثير تناقشينه معها، ولكن الآن–».

«في الحقيقة، كنتُ آمل أنْ أتحدث معكِ *أنتِ*. لقد طلبتِ المحكمة مني أنْ أُقدِّم ما توصلتُ إليه من نتائج خلال أقلّ من أسبوع، فإذا كانت لديك بضع دقائق–».

تقول سارة على عَجَل: «لا وقت لديّ. الآن ليس الوقت المناسِب. لقد أُدخِلَتْ ابنتي الأخرى من جديد إلى المستشفى»، وتنظر إلى آنّا، التي ما زالت واقفة عند باب المطبخ وكأنها تقول لها: *آمل أنْ تكوني سعيدة*.

«أنا آسفة لسماع هذا».

تتنحنح سارة. «وأنا أيضاً. أنا أُقدِّر حضورك للتحدّث مع آنّا. وأعلم أنكِ فقط تؤدين عملك. لكنَّ سوف يُحلّ هذا الأمر تلقائيّاً، حقاً. إنه مجرد سوء فهم. أنا واثقة من أنَّ القاضي ديسالفو سوف يقول لك هذا في غضون يوم أو نحوه».

تتراجع خطوة، كتحدٍّ لي –ولآنّا– لأنّني خالفتُ كلامها. ألقي نظرة على آنّا، التي تلتقي عيناها بعيني وتهزّ رأسها بحركة تكاد لا تُلاحَظ، تناشدني أنْ أدع هذا الأمر يمرّ في الوقت الحالي.

مَنْ تحمي – أمّها، أم نفسها؟

عَبَرَ علمٌ أحمر من أمام ذهني: ***آنّا في الثالثة عشرة. آنّا تُقيم مع أمّها. أُمّ***

آنا ترفض الاستشارة. كيف يمكن لآنّا أنْ تُقيم في المنزل نفسه من دون أنْ تتعرَّض لسيطرة سارة فيتزجيرالد؟

«آنّا، سوف أتّصل بك غداً». ثم من دون أنْ أودِّع سارة فيتزجيرالد أغادر منزلها، متوجهة إلى المكان الوحيد في العالم الذي لا أرغب في الذهاب إليه.

بدت مكاتب مُحاماة كامبل ألكسندر بالضبط كما تخيّلتها: تقع في أعلى مبنى مكسوٍّ بالزجاج الأسود، في آخر رواق مغطّى بسجادة فارسيّة؛ ويخترقها بابان ثقيلَان من الماهوغاني يبعدان الرعاع. وعلى منضدة استقبال ضخمة تجلس فتاة ذات قسمات وجه ملساء وتضع سماعات هاتف مُستترة تحت شعر عنقها. أتجاهلها وأمشي باتجاه الباب الوحيد المُغلَق. تصرخ: «هيه! لا يمكنك الدخول إلى هناك!».

أقول: «إنّه يتوقّع وصولي».

لم يرفع كامبل نظره عمّا كان يكتبه بغضبٍ شديد. كان كُمَّا قميصه مرفوعَين حتى مِرفقيه. وشَعره في حاجة إلى حلاقة. يقول: «كيري، انظري إذا كان في استطاعتك أنْ تعثري على نسخة جيني جونز[1] حول التوأم المتطابِق اللذين لا يعلمان أنهما-».

«مرحباً، كامبل».

أولاً، يتوقف عن الكتابة. ثم يرفع يده. «جوليا»، وينهض واقفاً، كتلميذ مدرسة بوغِتَ وهو يقوم بعمل غير محتشم.

أدخلُ وأُغلِق الباب خلفي. «أنا الوصيّ القانونيّ المُعيَّن في قضيّة آنّا فيتزجيرالد».

يتّخذ كلبٌ لم أكنْ قد رأيته حتى تلك اللحظة موقعه إلى جوار كامبل. «سمعتُ أنكِ التحقتِ بكليّة الحقوق».

في جامعة هارفرد. منحة دراسيّة كاملة.

«إنَّ مدينة بروفيدنس مكان ضيّق... ظللتُ أتوقَّع...» ويتلاشى صوته، ويهزّ رأسه. «حسن، كنتُ متأكّداً من أننا سوف نتقابل قبل الآن».

1- جيني جونز: مذيعة أميركيّة وممثلة، كانت تقدّم برنامجاً تناقشُ فيه كل المشاكل الاجتماعية المطروحة. المترجم.

يبتسم لي، وفجأة أعود من جديد إلى سن السابعة عشرة - العام الذي أدركتُ فيه أنَّ الحبّ لا يُطبّق القوانين، والعام الذي فهمتُ فيه أن لا شيء يستحق الحصول عليه أكثر من شيء لا يمكن بلوغه. أجيب بهدوء: «ليس صعباً كثيراً تجنّب شخص ما، إذا أردت. عليك أنْ تعرف هذا من دون الناس جميعاً».

كامبل

أنا هادئ هدوءاً مذهلاً، حقاً، إلى أنْ يبدأ مدير مدرسة بوناغانست الثانوية بإلقاء محاضرة على مسمعي عبر الهاتف حول الدقّة السياسيّة. يبربر «إكراماً لله، أيّة رسالة تكمن خلف تسمية مجموعة من الأميركيين الأصليين فريقهم الخاص لكرة السلّة بالـ «بيض».

«أتخيَّل أنَّ رسالة مُماثلة تكمن وراء انتقائك فريق الشيفتينز كجالب للحظ للمدرسة».

يُحاجّ المدير قائلاً: «نحن فريق المدرسة منذ عام 1970».

«نعم، وكانوا أفراداً في قبيلة ناراغانسيتْ منذ ولادتهم».

«هذا انتقاص. وغير دقيق من الناحية السياسيّة».

أشيرُ «لسوء الحظ لا تستطيع أنْ تُقاضي شخصاً بسبب عدم الدقّة السياسيّة، وإلّا كنتَ استُدعيتَ للمثول أمام القضاء قبل سنين عديدة. ولكن، من ناحية أخرى، الدستور يحمي حقوقاً فرديّة مختلفة للأميركيين، بمَنْ فيهم الأميركيون الأصليون - أحدها الحق في حريّة التجمّع، وآخر الحق في حريّة التعبير، مما يوحي بأنَّ فريق «البيض» سوف يُسمَح له بالاجتماع حتى وإنْ نجح تهديدك السخيف برفع دعوى في شقّ طريقه نحو دار القضاء. في هذا الأمر، قد ترغب في القيام بعملٍ فذّ ضد الإنسانية في العموم، بما أنك سوف تودّ حتماً أيضاً أنْ تخنق النزعة العرقيّة المتأصّلة الظاهرة في البيت الأبيض، والجبال البيضاء، والصفحات البيضاء». ورانَ صمتٌ مُطبق على الطرف المقابل من الهاتف. «هل أفترِض، إذن، أنَّ باستطاعتي أنْ أخبر موكّلي أنكَ لا تنوي أنْ ترفع دعوى أصلاً؟».

بعد أنْ يُغلق الخط في وجهي، أضغط زر الهاتف الداخلي. «كيري، اتّصلي بإيرني فيشكيللر، وأخبريه بأنَّ ليس لديه ما يقلق بشأنه».

حالما أجلس أمام رُكام من العمل على طاولة مكتبي، يُطلِق جَدج تنهيداً. إنّه نائم، ملتفّ حول نفسه كسجادة مضفورة على يسار طاولة مكتبي. ترتعش مخالبه.

قالت لي، ونحن نراقب جرواً يُلاحق ذيله، هذه هي الحياة. هذا ما أريد أنْ أكون بعد ذلك.

وضحكتُ. قلت لها، سوف ينتهي بكِ الأمر إلى أنْ تُصبحي قطّة. إنهم لا يحتاجون إلى أي شخص آخر.

تجيبه، أنا أحتاج إليك.

قلت، حسنٌ. قد أعود على هيئة نعناع برّي[1].

أضغطُ إبهاميّ داخل مُقلتيّ عينيّ. من الواضح أنني لا أنال قسطاً كافياً من النوم؛ أولاً كانت تلك اللحظة في المقهى، والآن هذه. وأتجهَّم في وجه جدج، وكأنها غلطته، ومن ثم أُركِّزُ انتباهي على بعض الملاحظات التي دوّنتها على الورق. زبونٌ جديد - تاجر مخدرات قبضَتْ عليه جهة الادّعاء عندما ظهر على شريط فيديو. وفي هذه القضية لا مفرّ من الحُكم، إلّا إذا كان للرجل توأم مُطابق له أبقته الأم سرّاً.

وهذا، إذا فكّرتَ فيه...

يُفتَح الباب، ومن دون أنْ أرفع نظري أُصدِرُ أمراً سريعاً لكيري، «انظري إنْ كان في وسعك أنْ تعثري على نسخة جيني جونز حول التوأم المُتطابِق اللذين لم يكونا يعلمان أنهما-».

«مرحباً، كامبل».

أنا أُصاب بالجنون: أنا حتماً أُصاب بالجنون. لأنّه على مسافة خمسة أقدام مني وقفَتْ جوليا رومانو، التي لم أكنْ قد رأيتها منذ خمسة عشر عاماً. أصبح شَعرها الآن أطول، وثمة خطوط دقيقة تحفّ بفمها من الجانبَين،

1- نعناع برّي: نبات تحبّه القطط. المترجم.

كهلالين يُحيطان بمقدار عمرٍ من الكلمات لم أكنْ موجوداً لأسمعها. وأنجحُ في قول «جوليا».

تُغلِق الباب، ويُجفِل جدج لدى سماع الضجيج وينهض على قوائمه. تقول: «أنا الوصيّة الشرعيّة المُعيَّنة في قضية آنّا فيتزجيرالد».

«إنَّ بروفيدنس مكان ضيِّق جداً... وكنتُ دائماً أتوقَّع... حسن، كنتُ أعتقد أننا حتماً سوف نلتقي مُصادفة قبل الآن».

تُجيب: «ليس صعباً جداً تفادي لقاء شخص ما، إذا أردت. وهذا ما ينبغي أنْ تعرفه أنتَ من دون الناس جميعاً». ثم، فجأة، يبدو أنَّ الغضب ينبعث منها. «أنا آسفة. لم يكن هذا القول مُبرّراً قط».

أجيب: «لقد مرّ وقت طويل»، في حين أنَّ ما أردتُ قوله حقاً هو أنْ أسألها عمّا كانت تفعل خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. وإنْ كانت ما تزال تشرب الشاي مع الحليب وعصير الليمون. وإنْ كانت سعيدة. وأقول، لأنني أحمق، «لم يعُد شَعرك قرنفليّ اللون».

تُجيب: «كلا، لم يعُد كذلك. أهذه مُشكلة؟».

أهزُّ كتفيّ باستخفاف. «إنه فقط. حسن...». أين تذهب الكلمات، عندما تحتاج إليها؟ اعترفُ، «كان يُعجبني اللون القرنفليّ».

وتعترف جوليا: «كان يُقلِّل من هيبتي في قاعة المحكمة».

هذا الردّ يدفعه إلى الابتسام. «منذ متى تأبهين بما يظنّه الناس عنكِ؟».

لم تُجِب، لكنَّ هناك شيئاً ما يتغيَّر. ربما درجة حرارة الغرفة، أو ربما الجدار الذي يرتفع داخل عينيها. وتلمِّح بدبلوماسيّة، «ربما بدل استحضار الماضي، ينبغي أنْ نتحدث عن آنّا».

أومئ برأسي إيجاباً. ولكن يبدو كأننا جالسَان على مقعد حافلة ضيّق وثمة شخص يجلس بيننا، لا يرغب أيٌّ منا في الاعتراف بوجوده أو في أنْ يأتي على ذِكره، وهكذا نجد نفسينا نتحدث حوله ومن خلاله، ونتبادل نظرات سريعة مُسترقة عندما لا يكون الآخر مُنتبهاً. كيف يُفترَضُ بي أنْ أفكّر في آنّا فيتزجيرالد في حين أنني أتساءل إنْ كانت جوليا قد استيقظَتْ ذات

يوم ووجدتْ نفسها بين ذراعيّ شخص واعتقدَتْ، لبرهة واحدة فقط، قبل أنْ يتلاشى تأثير النوم عن ذهنها، أنّه ربما أنا؟

عندما يشعر جدج بالتوتّر، ينهضُ واقفاً إلى جواري. ويبدو أنَّ جوليا تلاحظ للمرّة الأولى أننا لسنا وحدنا في الغرفة. «أهو رفيقك؟».

أقول: «هو فقط مُرافِق. لكنّه ظهر في مجلة «**لو ريفيو**»». تحكّ بأصابعها خلف أُذنه –يا له من ابن حرام محظوظ– فأرسمُ ابتسامة عريضة وأطلبُ منها أنْ تتوقف عن فعل ذلك. «إنه كلب خدمات. وليس من المُفترَض أنْ يُداعَب».

ترفع جوليا نظرها، مندهشة. ولكن قبل أنْ تتمكن من طرح سؤال، أُغيِّر مسار الحديث. «إذن. كنا نتحدث عن آنّا»، ويُقحِم جدج أنفه داخل راحة يدي.

تعقد ذراعيها على صدرها. «ذهبتُ لأقابلها».

«ثم؟».

«إنَّ فتيات الثالثة عشرة يتأثّرنَ بقوة بآبائهن. ووالدة آنّا تبدو مقتنعة بأنَّ هذه المحاكمة لن تقع. ولديّ إحساسٌ بأنها ربما تحاول أنْ تُقنِع آنّا بذلك، أيضاً».

أقول: «يمكنني أنْ أحلّ هذه المشكلة».

ترفع بصرها، مرتابة. «كيف؟».

«سوف أعمل على نقل آنّا فيتزجيرالد من المنزل».

يرتخي فكّاها. «أنتَ تمزج، صحّ؟».

كان جدج، حينئذٍ، قد بدأ يشدّ ملابسي بجديّة. وعندما لم أستجب، نبح مرّتين. «في الواقع، أنا حتماً لا أعتقد أنَّ على موكلتي أنْ تتخلّى عن القضية. فهي لم تخرق أوامر القاضي. وسوف أحصل على أمر تقييد مؤقّتٍ لمنع سارة من الاتّصال بها».

«كامبل، هذه أمّها!».

«خلال هذا الأسبوع سوف تكون مُستشارتها المُعارِضة، وإذا تحاملتْ على موكلتي بأي طريقة فسوف تُؤمر بألّا تفعل ذلك».

«إنَّ **لموكلتك** اسماً، وسناً، وعالماً يتهاوون – وآخر ما ستحتاج إليه هو المزيد من القلق في حياتها. هل أزعجتَ نفسك وحاولتَ أنْ تعرفها؟».

كذبت «طبعاً حاولت»، وبدأ جدج يئن عند قدميّ.

أخذتْ جوليا تنظر إليه. «هل يُعاني الكلب من مشكلة؟».

«إنه بخير. اسمعي، إنَّ عملي هو حماية حقوق آنّا الشرعيّة وكسب القضيّة، وهذا بالضبط ما أنوي أنْ أفعل».

«طبعاً ستفعل. ليس بالضرورة لأنّ ذلك يقع في مصلحة آنّا العليا... بل في مصلحتك *أنت*. يا لها من مُفارقة أنَّ ينتهي أمر طفلة ترفض أنْ يستمر استغلالها لصالح شخص آخر بالتفتيش عن اسمك *أنت* في الصحافة الصفراء».

أقول، وفكّاي مشدودان، «أنتِ لا تعرفين أي شيءٍ عني».

«حسن، خطأ مَنْ *هذا*؟».

أكتفي من عدم استحضار الماضي، وتسري رعشة في كامل جسمي، وأقبض على جدج من ياقته. أقول: «بعد إذنك»، وأخرج من باب غرفة المكتب، تاركاً جوليا للمرة الثانية في حياتي.

***

عندما تركِّز انتباهك على مدرسة ويلر تجد أنّها مصنع، يضخّ فنانين مبتدئين وأصحاب بنوك توظيف واعدين. كنا كلنا متشابهين في المظهر وفي الكلام. وبالنسبة إلينا، كان الصيف هو صيغة فعل.

طبعاً كان هناك طلاب كسروا هذا القالب. كالأطفال الذين نالوا منحة دراسيّة، الذين كانوا يرفعون ياقاتهم وتعلَّموا التجذيف، غير مُدركين أبداً أننا نعي جيداً طوال الوقت أنهم ليسوا منا. كانوا نجوماً، على غرار تومي بودرو، الذي انتخبه فريق ديترويت ريدْوينغز في عامه الابتدائيّ. أو المجانين، الذين حاولوا أنْ يقطعوا شرايين أيديهم أو أنْ يمزجوا الخمر مع حبوب الفاليوم ومن ثم غادروا حرم المدرسة بهدوء كما كانوا يفعلون عندما يتجولون في المكان.

في العام الذي جاءت جوليا رومانو إلى مدرسة ويلرر كنتُ في الصف

السادس. كانت تنتعل حذاءً عسكريّاً وترتدي قميصاً رياضيّاً من نوع تشيب تريك[1] تحت سترتها المدرسية الرياضيّة؛ كان باستطاعتها أنْ تحفظ غيباً سوناتات بأكملها بكل سهولة. وفي فترات الاستراحة، بينما بقيتنا تسرق السجائر من خلف ظهر المُدير، كانت هي ترتقي الدَّرَج إلى سقف صالة الألعاب الرياضيّة وتجلس مُستندة بظهرها إلى أنبوب التدفئة، تقرأ كتب هنري ميللر ونيتشه. وخِلاف الفتيات الأخريات في المدرسة، بشلالات شعورهم الشقراء الناعمة المربوطة بعصابات شعر أشبه بشرائط من السكاكر، كان شعرها أشبه بإعصار من خصل الشعر الأسود، ولا تضع أيّة مساحيق - لم يكن لديها إلّا قَسَمات وجهها حادّة الزوايا، ولا تأبه لرأي أحد. كان لها أنحف خصر رأيته، وخيط فضّي، يمرّ من حاجب عينها الأيسر. وكانت رائحتها تشبه رائحة عجين طازج ينتفخ.

وسرتْ شائعات حولها تقول: إنها طُرِدَتْ من إصلاحيّة للبنات؛ وإنها كانت طفلة بارعة صاحبة أفضل نتيجة اختبار؛ وإنها كانت تصغر في السن بمقدار عامين كل أبناء صفّنا؛ وإنها كانت تضع وشماً. ولا أحد كان يعلم جيداً ما هي بالضبط. كانوا يُسمّونها الفلتة، لأنها لم تكن واحدة منّا.

ذات يوم وصلتْ جوليا رومانو إلى المدرسة بشَعر قصير قرنفليّ اللون. وافترضنا جميعاً أنها سوف تُفصَل مؤقتاً، ولكن اتّضحَ أنه وِفق القواعد السائدة بشأنِ ما ينبغي على المرء أنْ يرتدي في المدرسة، لم يُذكر أي شيء عن تصفيف الشَّعر. وهذا دفعني إلى التساؤل لماذا لم يكن هناك أي شاب في المدرسة يترك شعره مشوّشاً، وأدركتُ أنْ السبب لا يكمن في أننا عاجزون عن التميُّز؛ بل في أننا لم نرغب في ذلك.

على مائدة الغداء في ذلك اليوم مرّتْ من أمام الطاولة التي كنتُ جالساً عليها مع مجموعة من الشبان من فريق الإبحار وبعض من فتياتهم.

قالت إحدى الفتيات: «هيه، هل هو مؤلم؟».

تباطأتْ جوليا. «عمَّ تتحدثين؟».

«عن السقوط على آلة صنع حلوى غزل البنات؟».

1- قمصان رياضية فاخرة مصنوعة خصيصاً ليرتديها نجوم الرياضة. المترجم.

لم يرفّ لها جفن. «آسفة، لا أستطيع تحمّل تكاليف تصفيف شَعري في محل «واش، كتْ وبلو جوبس». ثم مشت مبتعدة إلى ركن الكافيتريا حيث كانت تجلس دائماً وحدها، تلعب بحزمة من ورق اللعب التي على ظهورها صور القديسين.

قال أحد أصدقائي: «اللعنة، هذه إحدى الفتيات اللواتي ما كنتُ لأعبثَ معهنّ».

ضحكتُ، لأنَّ هذا ما فعله الآخرون كلّهم. لكنني أيضاً راقبتها وهي تجلس، وتدفع صينيّة الطعام بعيداً عنها، وتبدأ بتوزيع أوراقها. وتساءلتُ كيف يشعر المرء عندما لا يهتم برأي الناس فيه.

ذات يوم، تغيَّبتُ عن الانضمام إلى فريق الإبحار الذي كنتُ قبطاناً عليه من دون إذن، وتبعتُها. حرصتُ على أنْ أبقى على مسافة كافية خلفها بحيث لا تَعلمُ بوجودي. مشتْ على طول جادّة بلاكْستون، ثم انعطفَتْ إلى مقبرة سوان بوينت، وارتقتْ إلى أعلى نقطة فيها. فتحت حقيبة ظهرها، وأخرجتْ منها كتبها المدرسيّة ورباطاً، وتمدَّدتْ أمام أحد القبور. عندئذٍ قالتْ: «يمكنك أنْ تخرج من مخبئك»، وكدتُ أبتلع لساني، متوقّعاً شبحاً، إلى أنْ أدركتُ أنّها تُخاطبني. «إذا دفعتَ ربع دولار زيادة، يمكنك أنْ تنظر عن قُرب».

خرجتُ من خلف شجرة سنديان كبيرة، ويداي محشورتان في جيبيّ. وبما أنني أصبحتُ ظاهراً، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن سبب مجيئي. أومأتُ برأسي مشيراً نحو القبر. «أهو أحد أقربائك؟».

نظرت خلفها. «نعم، كانت جدَّتي تجلس على المقعد المجاور له في ماي فلور»، وحدَّقَتْ إليّ، بكل زواياها وحوافها الصحيحة. «أليست هناك مباراة في الكريكت لكي تحضرها؟».

«هناك مباراة في البولو»، وابتسمت، «إنهم في انتظار وصول حصاني».

لم تفهم النكتة... أو ربما لم تجدها مُضحكة. «ماذا تريد؟».

لم أستطع أنْ أعترف بأنني كنتُ ألاحقها. قلت «للمساعدة، في حل الوظيفة المدرسيّة».

في الحقيقة لم أكن قد راجعتُ واجبنا المدرسي. وأمسكتُ بورقة تقع

في أعلى رباط أوراقها وقرأتُ بصوت مرتفع: إذا شهدتَ حادثَ تصادم أربع سيارات مُريع، وهناك أناس يئنون من الألم، وجثث منتشرة في أرجاء المكان كلّه، فهل أنتَ مُلزم بالتوقّف؟

قالت: «لِمَ أنا مُضطرة إلى تقديم المُساعدة؟».

«في الواقع، من الناحية القانونيّة، أنتِ لستِ مُضطرة. وإذا سحبتِ أحداً وتسبّبتِ في احتراقه أكثر، فقد تتعرَّضين لإقامة دعوى ضدك».

«كنتُ أعني لماذا أنا مُضطرة إلى مُساعدتك».

طارت الورقة وسقطتْ على الأرض. «أنت لا تقيمين لي وزناً، أليس كذلك؟».

«أنا لا أقيم وزناً لأي منكم، باختصار. أنتم حفنة من الأغبياء التافهين لا ترغبون في أنْ تموتوا مع شخصٍ يختلف عنكم».

«أليس هذا ما تفعلينه، أيضاً؟».

حدَّقَتْ إليّ لحظة بدت طويلة. ثم بدأتْ تحشو حقيبة ظهرها. «أليس لديك إيداع ماليّ؟ إن احتجت إلى مساعدة، اذهب واستأجر مدرّساً خصوصيّاً».

أضعُ قدمي على أعلى كتاب مدرسيّ. «هل تفعلين أنتِ هذا؟».

«تعني أنْ أكون مُدرسة خصوصيّة لك؟ مستحيل».

«أقصد أنْ تتوقفي. عند موقع حادث اصطدام السيارات».

هـدأتْ حركة يديها. «نعم. لأنه حتى إذا كان القانون يقول أنْ لا أحد مسؤول عن أي شخص آخر، فإنَّ مُساعدة شخص يحتاج إليها هي التصرّف الصحيح».

أجلسُ إلى جوارها، مُقترباً منها بقدرٍ كافٍ بحيث إنَّ بشرة ذراعها كانت تهمس لذراعي. «أحقاً تُصدّقين هذا؟».

تنظرُ نحو الأسفل إلى حِجرها. «نعم».

سألتها «إذن كيف يمكنكِ أنْ تغادري وتتركيني؟».

بعد ذلك، أمسحُ وجهي بمنديل من الورق أتناوله من العلبة وأُعدِّلُ من

شأن ربطة عنقي. ويمشي جدج ضمن دوائر ضيّقة إلى جواري، كما يفعل دائماً. أقول له، وأنا أربّت على الشعر الكثيف المُحيط بعنقه، «أحسنتَ فعلاً».

عندما أعود إلى غرفة مكتبي، تكون جوليا قد غادرتْ. وكيري جالسة أمام الحاسوب تكتب في لحظة نادرة من الإنتاج. «لقد قالتْ إذا احتجتَ إليها، يمكنكَ بشكلٍ لعين أنْ تأتي وتعثر عليها. حسب تعبيرها، وليس تعبيري. وطلبتْ مني كل السجلات الطبيّة». وتنظر كيري خلفها إليّ. «تبدو في حالة مُزرية».

«شكراً لك». تلفت انتباهي ملاحظة على قُصاصة ورق برتقاليّة اللون على طاولة مكتبها. «أإلى هذا العنوان تريد إرسال السجلات؟».

«نعم».

أضع قُصاصة العنوان في جيبي. أقول: «سأهتم بالأمر».

بعد مرور أسبوع، أحلّ رباط حذاء جوليا رومانو العسكري، أمام القبر نفسه. وأزيل عنها سترة التمويه. كانت قدماها ضيّقتين وقرنفليتين بلون زهر توليب. وعظمة الترقوة عندها كانت لغزاً. أقول «كنتُ أعلم أنكِ جميلة هنا تحت الملابس»، وكانت تلك البقعة الأولى على جسمها التي قبّلتها».

يُقيمُ آل فيتزجيرالد في داربي العليا، في منزلٍ كان يمكن أنْ يخصّ أيّة عائلة أميركيّة نموذجيّة. مرأب يتّسع لسيارتين؛ جدران من الألومنيوم؛ وعلى النوافذ مُلصقات رجال الإطفاء كإعلان عن مركز الإطفاء. ومع وصولي إلى هناك، كانت الشمس قد غربت خلف خط السطح.

طوال فترة قيادة السيارة، حاولتُ أنْ أُقنع نفسي بأنَّ ما قالته جوليا ليس له أي تأثير على سبب قراري بزيارة موكلتي. وأنني لطالما خطّطتُ أنْ أقوم بتلك الزيارة القصيرة قبل أنْ أتوجّه إلى المنزل لقضاء سحابة الليل.

لكنَّ الحقيقة هي أنَّ هذه هي المرَّة الأولى التي أقوم خلالها بزيارة منزل، طوال سنوات تدرّبي كلها.

تفتح آنّا الباب عندما أرنّ الجرس. «ماذا تفعل هنا؟».

«أتفقّدك».

«هل هذا يزيد التكلفة؟».

أقول بجفاف: «كلا، إنّه جزء من تشجيع خاص أقوم به في هذا الشهر».

تضعُ ساقاً فوق ساق. «أوه، هل تحدّثتَ مع أمي؟».

«إنني أبذلُ قُصارى جهدي لكي **لا** أفعل. هل أفهم أنّها ليست في المنزل؟».

تهزّ آنّا رأسها نفياً. «إنها في المستشفى. لقد أُدخِلَتْ كيت إليها من جديد. اعتقدتُ أنكَ ربما ذهبتَ إلى هناك».

«إنَّ كيت ليست موكلتي».

في الحقيقة يبدو أنَّ هذا يُخيّب أملها. وتُقحِم شَعرها خلف أُذُنيها. «أترغب في الدخول؟».

أتبعها إلى غرفة الجلوس وأجلس على الأريكة المُخطَّطة بتشكيلة من ألوان الأحمر والأزرق. يشمّ جدج حواف قِطع الأثاث. «سمعتُ أنك قابلت الوصي القانوني».

«جوليا. لقد رافقتني إلى حديقة الحيوان. وتبدو جيدة». تتوجّه عيناها بسرعة إلى عينيّ. هل قالتْ أي شيءٍ عني؟».

«إنها قلقة من أنْ تكون أمك تتحدث معك عن هذه القضيّة».

تقول آنّا: «حول أي شيء يمكن أنْ نتحدث خلاف موضوع كيت؟».

نتبادل التحديق برهة. وفيما عدا صِلة الموكّلة بمُحاميها، كان شعوري مُشوّشاً.

باستطاعتي أنْ أطلب رؤية غرفتها، لولا أنّه ممنوع منعاً باتّاً على أي محامي دفاع ذَكَر أنْ يرتقي إلى الطابق العلوي وينفرد بفتاة في الثالثة عشرة من العمر. يمكنني أنْ آخذها لتناول العشاء، لكنّني أشكّ في أنْ تُحبّذ الكافيه نووفو، وهي أحد الأشياء المُفضّلة لديّ، ولا أعتقد أنني يمكن أنْ أشتهي شطيرة ضخمة. يمكنني أنْ أسألها عن المدرسة، لكنَّ هذه ليست جلسة استجواب.

تسألني آنّا: «هل لديك أطفال؟».

أضحك. «ما رأيك؟».

اعترَفَتْ «لعلّه أمر جيد. لا أقصد الإساءة، لكنكَ لا تبدو أباً».

أعجبني هذا القول كثيراً. «كيف يبدو أبواكِ؟».

بدا أنها تفكر في الأمر. «أتعلم كيف يرغب السائر على الحبل المشدود في السيرك من الجميع أنْ يعتبروا أداءه فناً، ولكنّك تُدرك في قرارة نفسك أنّه في الحقيقة يأمل في أنْ يحدث العكس؟ *هكذا* هما»، وترميني بالنظرات. «يمكنكَ أنْ تسترخي، في الواقع، لن أعمل على شدّ وثاقكَ وإجباركَ على الإصغاء إلى موسيقى الراب الشعبي».

أمزح، «أوه، حسن. في هذه الحالة»، وأحلّ ربطة عنقي وأسترخي على الوسائد.

يجعل تصرّفي هذا ابتسامةً وجيزة تعبُر بسرعة صفحةَ وجهها. «لستَ مُضطراً إلى التظاهر بأنكَ صديقي أو ما شابه».

«لا أريد أنْ أتظاهر» ومرّرتُ يدي خلال شعري. «لكنَّ المشكلة هي أنَّ هذا الموقف جديد عليّ».

«أي موقف؟».

أشرتُ حولي إلى غرفة الجلوس. «أقصد زيارة موكلي. وتبادل أطراف الحديث. وعدم ترك القضيّة في المكتب في ختام النهار».

تعترف آنّا: «في الواقع، هذا جديدٌ عليّ أيضاً».

«ماذا تقصدين بهذا؟».

تلفّ خصلة من شعرها حول خنصرها، وتقول: «الأمل».

يقع الجزء من البلدة الذي توجد فيه شقّة جوليا في منطقة راقية معروف عنها أنها مقرّ عزّابٍ مُطلَّقين، وهذا ما يُثير حفيظتي طوال فترة بحثي عن موقع أضع فيه سيارتي. ثم ألقى حارس الباب نظرة على جدج وأعاق تقدّمي. يقول «ممنوع دخول الكلاب. آسف».

«هذا كلب يؤدي خدمة»، وعندما بدا أنَّ هذه المعلومة لم تؤثّر فيه، وضّحتُ الأمر له: «أي، كأنْ يرى بدلاً عني».

«أنتَ لا تبدو *أعمى*».

أقول له: «أنا أمرّ بفترة علاج من إدمان الخمر. والكلب يحول بيني وبين شرب البيرة».

شقّة جوليا تقع في الطابق السابع. أقرع بابها ومن ثم أرى عيناً تتفحّصني من خلال العين السِّحريّة. وتفتح شقّة من الباب، لكنّها تُبقي السلسلة في مكانها. وهي تعصِب رأسها بمنديل، وتبدو كأنها كانت تبكي.

أقول: «مرحباً، هل نبدأ من جديد؟».

تمسح أنفها. «مَنْ أنتَ بحق الجحيم؟».

«حسن. ربما أنا أستحق هذا»، وألقي نظرة على السلسلة. «هلّا سمحتِ لي بالدخول؟».

ترميني بنظرة، كأنني مجنون أو ما شابه. «هل تتعاطى *المُخدِّر*؟».

أسمعُ حفيف أقدام، وصوت آخر، ثم فُتِحَ الباب واسعاً وأفكِّر بصورة حمقاء: ***هناك*** **نسختان *منها***. تقول جوليا الحقيقيّة، «كامبل، ماذا تفعل هنا؟».

أحمل السجلات الطبيّة، وما زلتُ أحاول تجاوز الصدمة. كيف حدث ولم تأت على ذِكر وجود نسختين منها طوال فترة مكوثها في مدرسة ويلر؟

«إيزي، أقدِّم لكِ كامبل ألكسندر. كامبل، هذه أختي إيزي».

«كامبل...» وأراقبُ إيزي وهي تجرِّب نطق اسمي. وفي اللحظة التالية، لم تعُد تُشبه حقاً جوليا في أي شيء. أصبح أنفها أطول قليلاً، وبشرتها ليست بالضبط باللون الذهبي نفسه. ناهيك عن أنَّ مراقبة حركة فمها لم تعُد تُثيرني جنسياً. تقول، وهي تلتفت إلى جوليا: «أهو كامبل *المشهور*؟ من...».

«نعم».

يضيق تحديق إيزي. «كنتُ *أعلم* أنّه لا ينبغي أنْ أدعه يدخل».

تلحّ جوليا «لا بأس»، وتتناول الملفّات مني. «شكراً لإحضارها إليّ».

لوتْ إيزي أصابعها. «يمكنك أنْ تغادر الآن».

«كفى» وتضرب جوليا ذراع أختها. «إنَّ كامبل هو المحامي الذي أعمل معه خلال هذا الأسبوع».

«ولكن أليس هو الذي...».

«نعم، شكراً لكِ، لدي ذاكرة يقظة تماماً».

أقاطعها: «ولهذا! عرَّجتُ على منزل آنّا».

تلتفت جوليا نحوي. «ثم؟».

تقول إيزي: «عودي إلى الأرض يا جوليا. هذا سلوك مُدمِّر للذات».

«ليس عندما يتضمَّن الأمر دفع نقود، يا إيزي. هناك قضيّة نعمل معاً عليها، هذا كل ما في الأمر. أفهمتِ؟ وأنا لا أشعر برغبة في سماع مُحاضرة منكِ عن السلوك المُدمِّر للذات. مَنِ التي اتصلتْ بجانيت وطلبتْ منها مُضاجعة الرحمة في الليلة التي تخلتْ عنك؟».

التفتُّ نحو جدج. «هيه، ما رأيك بفريق رد سوكس؟».

مشت إيزي بخطى قوية على طول الرواق، وزعقتْ: «هذا شأنك»، ثم سمعت صفق باب.

أقول: «أعتقد أنها شديدة الإعجاب بي»، لكنَّ جوليا لم تبتسم.

«شكراً لك على السجلات الطبيّة. إلى اللقاء».

«جوليا...».

«هيه، إنني فقط أوفِّر عليك العناء. لا شك في أنَّ من الصعب تدريب كلب لجرِّك خارج غرفتك عندما تحتاج إلى عمليّة إنقاذ من موقف متفجِّر عاطفيّاً، كصديقة قديمة تقول الحقيقة. كيف يسير الأمر، يا كامبل؟ بإشارات اليد؟ بأوامر بالكلمات؟ بصفير حادّ؟».

أنظرُ بحزن على طول الرواق الخالي. «هل أستطيع أنْ أُعيد إيزي بدل ذلك؟».

تحاول جوليا أنْ تدفعني خارج الباب.

«حسن. أنا آسف. لم أقصد أنْ أتركك اليوم في المكتب. ولكن... كانت حالة طارئة».

رمتني بنظرة ثابتة. «ماذا قلت إنّه عمل الكلب؟».

«لم أقُلْ». عندما تلتفت، نلحقُ بها أنا وجدج عميقاً داخل الشقّة، ونغلق الباب خلفنا. «فذهبتُ لأزور آنّا فيتزجيرالد. كنتِ على صواب - قبل أنْ أستصدر أمراً يُقيِّد حركة الأم، كنتُ في حاجة إلى التحدّث معها».

«ثم؟».

أستعيد بعض الذكريات عنّا معاً، ونحن جالسان على تلك الأريكة المُخطّطة، ننشر شبكة من الثقة بيننا. «أعتقد أننا متّفقان». لا تستجيب جوليا، وتكتفي برفع كأس من النبيذ على منضدة المطبخ. أقول «نعم، أرغب في شرب بعض منه».

تهزّ كتفيها استخفافاً. «إنها في سميلا».

تقصد البرّاد، طبعاً. بسبب حسّه بالثلج. عندما مشيتُ إلى هناك وأخرجتُ زجاجة، أشعر بها تحاول ألّا تبتسم. «أنتِ تنسين أنني أعرفك».

تُصحِّح لي صيغة الفعل «كنتَ تعرفني».

«ثقّفيني إذن. ماذا كنتِ تفعلين طوال خمسة عشر عاماً؟» وأومأتُ برأسي باتجاه الرواق وغرفة إيزي. «أعني، خلاف استنساخ نفسك». وتخطر لي فكرة، وقبل حتى أنْ أبوح بها تُجيب جوليا.

«أشقائي كلهم أصبحوا بُناة وطبّاخين وسمكريين. والداي أرادا أنْ تلتحق الفتاتان بالجامعة، واعتقدا أنَّ الانتساب إلى مدرسة ويلر الثانوية العليا قد يكون سبيل نجاحهما. وقد نلتُ من الدرجات الجيدة ما أهّلني لنيل منحة دراسيّة جزئيّة هناك، ولم تحصل إيزي عليها. ولم يكن في مقدرة والديّ إلّا أنْ يدفعا تكاليف واحدة منا للالتحاق بمدرسة خاصّة».

«هل التحقَتْ بالجامعة؟».

تقول جوليا: «بل التحقت بمدرسة التصميم في رود آيلند. إنها مُصمِّمة حلي».

«مُصمِّمة حلي *عِدائيّة*».

«هذا ما يُسبّبه انكسار القلب». تتقابل عيوننا، وتدرك جوليا ما قالت. «لقد انتقلتْ تواً إلى هنا في هذا اليوم».

دقّقتْ عيناي النظر في الشقّة، باحثاً عن عصا لعبة الهوكي، عن مجلة *الرياضة المُصوّرة*، عن كراسي المكاتب الدوّارة، عن أي شيء دالّ وذكوريّ. «هل من الصعب التعوّد على وجود رفيق غرفة؟».

«كنتُ أعيش وحيدةً من قبل، يا كامبل، إنْ كان هذا ما تطلب». تنظر إليّ من فوق حافة كأس النبيذ. «وأنت؟».

«أنا لدي ست زوجات، وخمسة عشر طفلاً، وتشكيلة من الغنم».

تلتوي شفتاها. «إنَّ أمثالك من الناس يدفعونني إلى الشعور بأنني قليلة الإنجاز».

«أوه نعم، أنتِ تبديد حقيقيّ في المساحة على سطح الكوكب. درستِ في هارفرد، كلية الحقوق في هارفرد، وأصبحتِ وصيّة قانونيّة كسيرة القلب...».

«كيف عرِفت أنني التحقت بكليّة الحقوق؟».

كذبتُ قائلاً: «من القاضي ديسالفو»، وصدَّقتْني.

أتساءل إنْ كانت جوليا تشعر بأنّه مرّتْ لحظات، وليس سنوات، منذ أنْ كنا معاً، وإنْ كان الجلوس على هذه المنضدة معي بالنسبة لها سهلة كما هي سهلة بالنسبة إليّ. الأمر أشبه برفع صفيحة من الورق مُدوّن عليها مقطوعة غير مألوفة من الموسيقى والبدء بالتعثّر في عزفها، ثم اكتشافه أنها لحن كان قد حفظه ذات يوم غيباً، من النوع الذي يمكنك عزفه من دون حتى أنْ تتدرّب.

اعترفتُ «لم أكنْ أعتقد أنكِ ستصبحين وصيّاً قانونيّاً».

«ولا أنا»، وابتسمت جوليا، «ما زالت تمرّ عليّ لحظات أتخيّل نفسي خلالها واقفة على صندوق الصابون في متنزه بوسطن كمون، أنتقد المجتمع الأبويّ. ولسوء الحظ، لا يمكن أنْ أدفع قيمة الإيجار لصاحب الملك مبادئ». نظرتْ إليّ. «وطبعاً آمنتُ أيضاً خطأً بأنكَ سوف تكون قد أصبحتَ رئيس جمهوريّة الولايات المتحدة الآن».

أعترفُ: «لقد لجأتُ إلى المخدرات. واضطررتُ إلى التخلّي عن طموحاتي البعيدة. وأنتِ... في الواقع، لقد تخيّلت أنكِ سوف تعيشين في الضواحي، وتقومين بدور الأم لاعبة الكرة مع حفنة من الأطفال ورجل محظوظ».

هزّتْ جوليا رأسها نفياً. «أعتقد أنكَ تخلط بيني وبين موفي أو بيتسي أو توتو أو كائناً ما كانت أسماء الفتيات في مدرسة ويلر».

«كلا. أنا فقط فكّرتُ في أنَّ... أنني قد أكون أنا الرجل».

سادت فترة صمت ثقيلة، مزعجة. أخيراً قالت جوليا: «أنتَ لم ترغب في أنْ تكون ذلك الرجل. لقد بيَّنتَ ذلك بكل وضوح».

ورغبتُ في أنْ أقول إنَّ هذا غير صحيح. ولكن كيف كان سيبدو الأمر لها غير ذلك، عندما رغبتُ، لاحقاً، في ألّا يكون لي بها أيّة صِلة. باشرت بالقول «هل تذكرين...».

قاطعتني قائلة: «أنا أتذكَّر كل شيء، يا كامبل. ولو لم أتذكَّر، لما أصبح الأمر شديد الصعوبة».

أسرع نبض قلبي بجنون حتى إنَّ جدج نهضَ واقفاً على قوائمه وأقحمَ خطمه في وركي، فزعاً. حينئذٍ أدركتُ أنَّ لا شيء يمكن أنْ يؤذي جوليا، التي بدت تتمتع بحريّة مُطلقة. ووددتُ لو أكون محظوظاً مثلها.

وكنتُ مُخطئاً في كلتا الحالتين.

آنّا

في غرفة جلوس بيتنا يوجد مقدار رفٍ كامل مُخصَّص للتاريخ البصريّ لعائلتنا. يضمّ صور كل طفل، وبعض لقطات لكبار العاملين في المدرسة، ومن ثم صوراً متنوعة من عُطل وأعياد ميلاد وعطل رسميّة. إنها تجعلني أفكِّر في ثقوب موجودة على حزام أو خدوش على جدار سجن - وهذا دليل على أنَّ الزمن قد انقضى، وأننا لم نتلاشَ كُلّنا في عالم النسيان.

كانت هناك أُطُر صور مزدوجة، ومفردة 8X10s, 4x6s. مصنوعة من خشب أشقر وخشب مُطعَّم وأحدها مصنوع من فسيفساء الزجاج الرائع. أرفع أحد الأطر الذي يضمّ صورة لجيس - يبدو في سن الثانية، يرتدي زي راعي بقر. وعندما تنظر إليها، لن تعرف ما الذي يجري.

هناك صورة لكيت بشعر وأخرى لكيت صلعاء: إحدى الصور تمثّل كيت طفلة صغيرة جالسة على حجر جِسّ؛ وصورة لأمي تحمل كليهما على حافة بركة السباحة. وهناك صورٌ لي، أيضاً، لكنّها ليست عديدة. تمثّلني وأنا أنتقل من مرحلة الطفولة الأولى وحتى بلوغي حوالي سن العاشرة دفعة واحدة.

فعلوا ذلك ربما لأنني كنتُ الطفل الثالث، وقد سئموا وتعبوا من الاستمرار في وضع سجل للحياة. وربما لأنهم نسوا.

إنه ليس خطأ أحد، وليس بالأمر الجلل، ومع ذلك هو شيء صغير مُحبِط. تقول إحدى الصور الفوتوغرافيّة، *كنتَ سعيداً، وأردتُ أنْ أُسجّل تلك اللحظة*. وتقول صورة أخرى، *لقد كنتَ شيئاً هامّاً بالنسبة إليّ إلى درجة أنني أترك كل شيء آخر وآتي لأنظر إليها*.

***

يتصل والدي عند الساعة الحادية عشرة لكي يسأل إنْ كنتُ أريد منه أنْ يأتي ويُحضرني. ويشرح قائلاً: «سوف تمكث الماما في المستشفى، ولكن إذا كنتِ لا تريدين أنْ تبقي وحدكِ في المنزل، تستطيعين أنْ تنامي في مركز الإطفاء».

أقول له: «كلا، لا بأس. أستطيع أنْ أتصل بجِسّ إذا احتجتُ إلى أيّ شيء».

يقول والدي: «حسن، جِسّ». تظاهرنا نحن الاثنين بأنَّ هذه خطّة بديلة موثوقة.

أسأل: «كيف حال كيت؟».

«ما زالت في حالة مُقلِقة. لقد خدّروها». وسمعته يأخذ نَفَساً عميقاً. ثم باشر قائلاً: «أتعلمين – يا آنّا»، لكنّنا نسمع رنيناً عالياً لجرس في الخلفيّة. «حبيبتي، يجب أنْ أذهب»، ويتركني مع أُذُنٍ مملوءة بالهواء الميّتِ.

بقيتُ أحمل سمّاعة الهاتف برهة من الزمن، أتخيَّل أبي ينتعل حذاءه ذا الرقبة العالية ويرتدي البنطلون المُشوّش مع الحاملَين. أتخيَّل باب مركز الإطفاء يتثاءب كمغارة علاء الدين، والمُحرِّك يهدر، ووالدي جالساً على كرسي المُسافر الأمامي. وكلّما ذهب إلى العمل، يتوجب عليه إطفاء الحرائق.

إنني فقط في حاجة إلى التشجيع. أحملُ سترتي، وأغادر المنزل متوجهة مباشرة إلى المرأب.

في مدرستي هناك ولد، اسمه ستريدْبو، كان فاشلاً فشلاً ذريعاً. لديه بثور كثيرة؛ وكان لديه جرذ أليف اسمه آني اليتيم؛ وذات مرّة في درس العلوم تقيّأ في حوض السمك. لم يتكلَّم معه أحد، خشية أنْ يكون قيؤه مُعدياً. ولكن في صيف أحد الأعوام ظهرت عليه أعراض تعدُّد النوى. وبعد ذلك، لم يعد أحد يُعامل جيمي بخسّة. إذا مررتَ به في الرواق، تبتسم له. وإذا جلس إلى جوارك على مائدة الغداء، تومئ برأسك مُحيّياً. وكأنَّ كون المرء مأساة متجسّدة يُلغي كونه شخصاً مملاًّ.

منذ لحظة ميلادي كنتُ الفتاة التي لها أختٌ مريضة. وطوال حياتي

وموظفو الاستقبال في المصرف يعطونني المزيد من السكاكر؛ كل المُدراء كانوا يعرفونني بالاسم. ولا أحد كان يُعاملني بخسّة صريحة.

إنَّ هذا يدفعني إلى التساؤل كيف كنتُ سأُعامَل لو أنني كأي شخص آخر. قد أكون شخصاً عفناً جداً، ولكن هذا لا يعني أنَّ أي شخص كان سيتحلّى بالشجاعة الكافية للتصريح بها في وجهي. ربما الجميع يعتقدون أنني فظة أو قبيحة أو حمقاء ولكنهم مُضطرون إلى معاملتي بتهذيب لأنه ربما تكون ظروف حياتي هي التي جعلتني هكذا.

وهذا يجعلني أتساءل إنْ كان ما أفعل الآن نابعاً من فطرتي الحقيقيّة.

برزت الأضواء الأماميّة لسيارة أخرى من مرآة المشهد الخلفيّ، تومض أضواؤها الخضراء حول عينيّ جِسّ كالنظرات الجاحظة. إنّه يتولّى القيادة بوضع رسغ إحدى يديه على المقود، بكسل. إنّه يحتاج إلى قصّ شعره، بكميات كبيرة. أقول «إنَّ سيارتك تفوح منها رائحة الدخان».

«نعم، لكنّها تغطي على عبق الويسكي المُراق». وومضَت أسنانه في الظلام. «لماذا؟ أتزعجك؟».

«قليلاً».

يمدُّ جِسّ يده عبر جسمي نحو حُجيرة القفّاز، ويُخرج منها علبة سجائر وولّاعة، ويُشعل سيجارة، وينفخُ الدخان في اتجاهي. يقول «آسف»، على الرغم من أنّه لم يكن كذلك.

«هل لي بأخذ واحدة؟».

«واحدة ممَّ؟».

«من السجائر». كانت شديدة البياض كأنها تتوهّج.

يقول جِسّ مصدوماً: «*أنتِ* تريدين سيجارة؟».

أقول: «أنا لا أمزح».

يرفع جِسّ أحد حاجبيه، ومن ثم يُدير المقود بزاوية حادّة حتى أعتقد أنّه قد يتسبَّب في دحرجة سيارة الجيب. وينتهي بنا الأمر وسط سحابة من غبار الطريق تستقرّ على أكتافنا. يُشغِّل جِسّ الأضواء الداخليّة ويهزّ علبة السجائر لكي تبرز منها سيجارة واحدة.

أشعر بها شديدة الرقّة بين أصابعي، كعَظْمة دقيقة من طائر. أحملها كما أعتقد أنّه ينبغي على ملكة في فيلمٍ دراميّ أنْ تفعل، أي بين إصبعيَّ الثاني والأوسط. وأرفعها إلى شفتيّ.

يضحك جِسّ، «عليكِ أنْ تُشعليها أولاً»، ويقدح الولّاعة.

لم أعرف كيف أميل بطريقة صحيحة نحو اللهب؛ والذي حدث هو أنني أشعلتُ شَعري بدل أنْ أُشعل السيجارة. أقول: «أشعِلها أنتَ».

«كلا، إنْ كنتِ ستتعلّمين، فيجب أنْ تتعلّمي كل شيء» ويقدح الولّاعة من جديد.

ألمس السيجارة حتى الجزء المحترق، وأستنشق الدخان بشدّة كما رأيتُ جِسّ يفعل، فأشعر بصدري ينفجر، وأسعل بقوة إلى درجة أنني أعتقد فعليّاً برهة أنني أتذوّق طعم رئتي وأسعل حلقي، القرنفلي والشبيه بالإسفنج. يتشتَّت جِسّ وينتزع السيجارة من يدي قبل أنْ أرميها. يشفط منها سحبتين طويلتين ومن ثم يرميها من النافذة.

يقول: «محاولة جيدة».

أشعر بصوتي أشبه بحفرة في الرمال. «كأنك تلعق لحماً مشوياً».

بينما أحاول أنْ أتذكَّر كيف أتنفَّس، يتوقف جِسّ من جديد على جانب الطريق. «ما الذي دفعكِ إلى الرغبة في فعل ذلك؟».

أرتعش: تصوّرتُ أنَّ بإمكاني أنْ أجرِّب».

«إذا أردتِ لائحة بالأشياء المُفسِدة، أستطيع أنْ أضع لك واحدة». عندما لا أُجيب، ينظر إليّ. يقول: «آنّا، أنتِ لا ترتكبين عملاً خاطئاً».

حينئذٍ كان قد وصل إلى موقف سيارات المستشفى. أشير قائلة: «وأنا لا أقوم بالعمل الصائب، أيضاً».

يُطفئ المُحرِّك لكنّه لا يحاول أنْ يخرج من السيارة. «هل فكَّرتِ في التنين الذي يحرس الكهف؟».

أُضيِّقُ عينيّ. «أفصِحْ».

«في الحقيقة، إنني أُخمِّن أنّ الماما نائمة على مسافة حوالي خمسة أقدام من كيت».

أوه، اللعنة. هذا لا يعني أنني أعتقد أنَّ أمي سوف تطردني، بل هي حتماً

لن تتركني وحدي مع كيت، وحالياً هذا ما أريد أكثر من أي شيء. وينظر جِسّ إليّ. «إنَّ رؤيتكِ لكيت لن يجعلك تشعرين بأنكِ في حالٍ أفضل».

حقاً، ليست هناك وسيلة لشرح سبب حاجتي إلى معرفة أنّها بخير، على الأقل في الوقت الحالي، على الرغم من أنني قمتُ بخُطوات سوف تضعُ حدّاً لهذا.

ولكن، للمرَّة الأولى يبدو أنَّ هناك شخصاً واحداً يفهم. يُحدّقُ جِسّ من نافذة السيارة. يقول «دعي الأمر لي».

كنا في الحادية عشرة والرابعة عشرة من العمر، وكنّا نتدرّب لكي يُضاف اسمانا إلى ***موسوعة غينيس للأرقام القياسيّة العالميّة***. لا شك في أنّه لم توجد أختان قامتا بحركة الوقوف على الرأس في وقتٍ واحد مدة طويلة حتى أصبحت وجنتاهما قاسيتين كثمرتيّ خوخ ولم تعُد عيناهما تريان غير اللون الأحمر. كانت كيت أشبه بعفريت، كلّها أذرع وسيقان رفيعة كالشعيرية؛ وعندما انحنتْ إلى الأرض ورفست قَدَمَها عالياً، بدتْ رقيقة كأنها عنكبوت يمشي على الجدار. أما أنا، فتحدّيتُ الجاذبيّة بصوت مكتوم.

بقينا متوازنين بضع لحظات. قلت: «كنتُ أتمنّى لو أنّ رأسي مُسطَّح» وشعرتُ بحاجبيّ يُضغطان نحو الأسفل. «أتعتقدين أنَّ هناك رجلاً سوف يأتي إلى المنزل لكي يُحدِّد لنا التوقيت؟ أم أننا سوف نكتفي بإرسال شريط فيديو؟».

«أعتقد أنهم سوف يُعلِموننا بذلك». عقدتْ كيت ذراعيها على صدرها وهي مُتمدِّدة على السجادة.

«هل تعتقدين أننا سوف نُصبح من المشاهير؟».

«قد نظهر في برنامج «***توداي***». لقد عرضوا ذلك الصبي البالغ أحد عشر عاماً ويُحسِن العزف على البيانو بقدميه». فكّرت برهة. «أمي تعرف شخصاً قُتِلَ عندما سقطت عليه آلة بيانو من الشّبّاك».

«هذا غير صحيح. ما الذي يدفع أي شخص إلى دفع آلة بيانو من الشبّاك؟».

«بل صحيح. اسأليها. ولم يكونوا يُخرجون الآلة، بل يُدخلونها». وَضَعتْ ساقاً فوق ساق وأسندتهما إلى الجدار، بحيث بدا كأنها جالسة وهي مقلوبة رأساً على عقب. «ما هي الطريقة المُثلى للموت باعتقادك؟».

قلتُ: «لا أريد أنْ أتحدّث بهذا الشأن».

«لِمَ؟ أنا أحتضر. **وأنتِ** تحتضرين». عندما تجهَّمتُ، قالتْ: «حسنٌ، **أنتِ** تحتضرين فعلاً»، ثم رسمت ابتسامة عريضة. «كل ما في الأمر أنّه تصادفَ أنني موهوبة أكثر منكِ في هذا المجال».

«هذه مُحادثة غبيّة». كنتُ قد بدأتُ أشعر برغبة في حكّ بشرتي في أماكن أعلمُ أنني لن أتمكّن من حكّها.

تقول كيت بتأمُّل «ربما في حادث سقوط طائرة. سوف يكون شيئاً رهيباً عندما تُدركين أنكِ تهبطين... لكنَّ ذلك يحدث وتتحولين إلى مسحوقٍ ناعم. كيف يتبخَّر الناس، ومن ثم يعثرون على ملابس عالقة في الأشجار، وتلك الصناديق السوداء؟».

حينئذٍ كان رأسي قد بدأ يضرب بقوة. «اسكتي، كيت».

زحفَتْ تنزل عن الجدار وجلست منتصبة، متورّدة الوجه. «عندما كنتِ تنعقين لم يكن هناك غير النوم في أثناء ذلك، لكنَّه شيء مُملّ».

أكرر قائلة: «اسكتي»، غاضبة لأننا لم نستمر أكثر من اثنتين وعشرين ثانية، غاضبة لأننا الآن سوف نُضطر إلى المحاولة من جديد من أجل تسجيل رقم قياسيّ. انقلبتُ رأساً على عقِب من جديد وحاولتُ أنْ أرفع عقدة الشعر عن وجهي. «أتعلمين، إنَّ الأشخاص الطبيعيين لا يجلسون ويفكّرون في الموت».

«كاذبة. كل الناس يفكّرون في الموت».

هيمنَ السكونُ على الغرفة إلى درجة أنني تساءلتُ إنْ كان علينا أنْ نحصل على رقم قياسيّ في مجالٍ آخر – كم من الوقت تستطيع أختان أنْ تحبسا أنفاسهما؟

ثم عَبَرَتْ وجهها ابتسامةٌ ملتويّة. قالت كيت: «حسن، على الأقلّ الآن أنتِ تقولين الحقيقة».

***

أعطاني جِسّ ورقة نقديّة بقيمة عشرين دولاراً من أجل الانتقال إلى المنزل بسيارة الأجرة؛ لأنَّ تلك هي العقدة الوحيدة في الخطّة - حالما ننتهي من هذا الأمر، فلن يقود السيارة في رحلة العودة. نرتقي الدَّرَج إلى الطابق الثامن بدل أنْ نستقلّ المصعد، لأنهم بالمصعد يُنزلوننا خلف موقع الممرضات، وليس أمامه. ثم أقحمني داخل خزانة البياضات الممتلئة بوسائد من البلاستيك وبأغطية مطبوعٍ عليها اسم المستشفى. عندما همَّ بتركي، هتفت: «انتظر. كيف سأعرف أنَّ الوقت قد حان؟».

بدأ يضحك. «سوف تعرفين، ثقي بي».

يُخرِجُ قارورة فضيّة من جيبه -إنها التي حصل عليها والدي من الرئيس واعتقد أنّه أضاعها قبل ثلاث سنوات- وحلَّ الغطاء، وصبَّ الويسكيٍ على مقدمة قميصه كلها. ثم باشر بالسير على طول الرواق. في الواقع، إنَّ كلمة «سير» ليست دقيقة - إنَّ جِسّ يصفع ككرة البلياردو على الجدران ويقلِب عربة تنظيف بأكملها. ويصرخ «ماما؟ ماما، أين أنتِ؟».

إنّه ليس ثملاً، لكنّه شديد البراعة في المُحاكاة. ويدفعني ذلك إلى التساؤل حول الأوقات التي نظرتُ خلالها من نافذة غرفة نومي في منتصف الليل ورأيته يتقيّأ على نبتة الورديّة - ربما كان ذلك من باب المُحاكاة، أيضاً.

تجمّع حشدٌ من الممرضات غادرن طاولة مكتبهن المزدحمة، يُحاولنَ إسكات صبيّ يبلغ نصف عمر الواحدة منهن وأقوى منهنّ بثلاث مرّات، كان في تلك اللحظة بالذات يقبض على الصفّ العلويّ من حامل البياضات ويدفعه إلى الأمام، مُحدِثاً ضجيج تحطُّم مرتفعاً إلى درجة أنَّ هديره تردَّد صداه في أُذنيّ. وبدأتْ أزرار الاستدعاء ترنّ كلوحة مفاتيح عامل مقسم الهاتف خلف طاولة مكتب الممرضات، لكنَّ عاملات النوبة الليليّة الثلاث كلّهنَّ كنَّ يبذلن أقصى جهدهنّ لتهدئة جِسّ وهو يرفس ويضرب.

يُفتَح غرفة كيت، وتخرج أمي ذات العينين الدامعتين. تنظر إلى جِسّ، وفي الحال تتجمّد قَسَمات وجهها عندما تدرك أنَّ الأمور، في الحقيقة، يمكن أنْ تُصبح أسوأ. ويلتفتُ جِسّ بسرعة نحوها، كثور ضخم الجثّة، وتتراخى قَسَمات وجهه. يُحيّيها. «مرحباً، ماما»، ويبتسم لها ابتسامة واسعة.

تقول أمي للممرضات: «أنا شديدة الأسف». وتُغمِضُ عينيها عندما يتعثّر جِسّ منتصباً ويُطوِّقها بذراعيه الرخوتين.

تقترح إحدى الممرضات، «هناك قهوة في الكافيتريا»، وتكون أمي من شدّة الحرج بحيث إنّها لا تُجيب. واكتفتْ بالتحرك نحو المصاعد وجِسّ ملتصق بها كالتصاق بلح البحر بقشرة قاسية، وتضغط على زر الهبوط مراراً وتأمل بلا جدوى في أنْ يُفتَح الباب بسرعة أكبر.

عندما يُغادران، يكون الأمر شديد السهولة. وتهرع بعض الممرضات لكي يتفقّدنَ المرضى الذي رنّوا الأجـراس؛ ويسترخي بعضهن خلف طاولات مكاتبهن، يتبادلن التعليقات الخرساء حول جِسّ وأمّي المسكينة وكأنهنّ يلعبن لعبة ورق. ولا ينظرنَ أبداً في اتجاهي وأنا أتسلل خارجة من خزانة البياضات، وأمشي على أطراف أصابع قدميّ في الرواق، وألجُ غرفة أختي في المستشفى.

في عيد الشكر عندما لم تكن كيت في المستشفى، تظاهرنا في الواقع بأننا عائلة عاديّة. شاهدنا العرض العسكريّ على شاشة التلفزيون، حيث وقع منطاد عملاق فريسة رياح عاتية وانتهى به الأمر إلى السقوط وسط حركة مرور مدينة نيويورك. وصنعنا صلصة مرق اللحم. وحملتْ أمي عظم ترقوة ديك الحبش إلى المائدة، وتشاجرنا حول مَنْ منا سوف يحظى بشرف كسرها. وحظينا أنا وكيت بذلك الشرف. وقبل أنْ أمسكها، مالت أمي مُقتربة وهمسَتْ في أُذني، «أنتِ تعرفين ماذا تتمنين». فأغمضتُ عينيّ بقوة وركّزتُ تفكيري على نقل نقي العِظام إلى كيت، على الرغم من أنني كنتُ أنوي أنْ أتمنى الحصول على مُشغّل CD شخصيّ، وشعرتُ برضى خبيث لأنني لم أفُز بلعبة شدّ الحبل.

بعد أنْ تناولنا الطعام، خرجنا مع أبي لممارسة لعبة تبادل ضرب الكرة فيما بيننا بينما كانت أمي تغسل الأطباق. وخرجَتْ بعد أنْ سجلنا أنا وجِسّ مرّتين. قالتْ «قولوا لي إنني أهلوس». لم تكن مُضطرة إلى قول المزيد– كنا جميعاً قد رأينا كيت تقفز كأي طفلٍ عاديّ وينتهي بها الأمر إلى النزف المستمرّ كأي طفل مريض.

«نعم، يا سارة». ووسَّع مساحة ابتسامته، «كيت موجودة في فريقي. ولن أتركها تُطرَد».

تقدَّم مترنّحاً من أمي، وقبّلها مُطوّلاً وببطء حتى إنَّ وجنتيّ احمرّتا خجلاً، لأنني كنتُ متيقّنة من أنَّ الجيران كانوا يرونهما. وعندما رفع رأسه، كانت عينا أمي بلونٍ لم أرَ مثله من قبل ولا أعتقد أنني سأراه من جديد. قال «ثقي بي»، ومن ثم رمى الكرة إلى كيت.

ما أتذكّر عن ذلك اليوم هو كيف كانت الأرض تهتز عندما تجلس عليها- كأول دلائل قدوم الشتاء. وأتذكَّر أنَّ والدي كان يمسكني، وكان دائماً يدعم نفسه بممارسة تمارين الضغط لكي لا أتلقّى أيّ قدرٍ من الثقل وأحصل على حرارته كلها. وأتذكر أمي وهي تهتف للفريقَين معاً على قدم المُساواة.

وأتذكّر أنني رميتُ الكرة لجِسّ، لكنَّ كيت وقفتْ في طريق ذلك – مع تعبير صدمة مُطلقة على وجهها عندما استقرَّتْ بين ذراعيها وصرخ أبي يحثّها على تسجيل هدف. وانطلقَتْ بأقصى سرعة، وكادت تسجل، لكنَّ جِسّ قام بقفزة واسعة وطرحها أرضاً، وسحقها تحته.

في تلك اللحظة توقف كل شيء. كيت منطرحة وممدودة الذراعَين والساقين، لا تحرِّك ساكناً. كان والدي هناك على آخر نَفَس، يندفع نحو جِسّ. «ما خطبك!».

«لقد نسيت!».

أمي: «أين يؤلمكِ؟ أتستطيعين الجلوس باعتدال؟».

لكنَّ كيت تقلَّبَتْ، وكانت تبتسم. «لستُ متألّمة. أنا في أحسن حال».

تبادل أبواي النظرات. لم يفهم أيٌّ منهما شيئاً، ولا أنا، ولا جِسّ –وكائناً مَنْ كنت، هناك جزءٌ منكَ يتمنّى دائماً لو كنتَ شخصاً آخر– وعندما تتحقَّق تلك الأمنية، في جزء من الثانية، تكون مُعجزة. قالت كيت لا لأحد «لقد نسيَ»، واستلقتْ على ظهرها، مُشرقة في عين الشمس الباردة مباشرة.

لا تكون غرف المستشفى مُعتِمة تماماً؛ يبقى هناك دائماً ما يُشبه اللوح المتوهِّج خلف السرير تحسّباً لوقوع كارثة، كمنْفَذ للهرب لكي ترى

الممرضات والأطباء طريقهم. وكنتُ قد رأيتُ كيت مئة مرة على أسرَّة تشبه هذا، لكنَّ الأنابيب والأسلاك تتغيَّر. إنها دائماً تبدو أضأل حجماً مما أتذكّرها.

أجلس بأشدّ ما أستطيع من هدوء. إنَّ شرايين عنق كيت وصدرها تشبه خريطة للطرقات، طرقات لا تُفضي إلى أي مكان. وأخدعُ نفسي وأُصدِّق أنَ باستطاعتي أنْ أرى خلايا سرطان الدم الخبيثة تتحرّك كالإشاعة في أرجاء جسمها.

عندما تفتح عينيها، أكاد أقع عن السرير؛ إنها لحظة *طارد الأرواح الشريرة*. تقول «آنّا؟»، مُحدِّقة إليّ مباشرةً. لم أكنْ قد رأيتها تبدو مرعوبة هكذا منذ أنْ كانت طفلة صغيرة، وأقنعنا جِسّ بأنَّ شبحاً هنديّاً عجوزاً عاد ليُطالب بالعِظام المدفونة خطأً تحت منازلنا.

إنْ كانت لديكِ أخت وماتت، هل تتوقفين عن قول إنَّ لديك أختاً؟ أم إنكِ دائماً أخت، حتى عندما يختفي النصف الآخر من المعادلة؟

أزحفُ إلى السرير، الضيِّق، لكنّ مساحته تتّسعُ لكلينا. أُريحُ رأسي على صدرها، مُقتربة جداً من الأنبوب المركزي إلى درجة أنني أرى السائل يقطر داخلها. إنَّ جِسّ مُخطئ – أنا لم آت لأرى كيت وأشعر بالارتياح، بل أتيتُ لأنه من دونها من الصعب أنْ أتذكَّر منْ أنا.

الخميس

أنتَ، إنْ كنتَ عاقلاً،
عندما أخبرك بأنَّ النجوم تُرسِلُ إشارات وامضة،
كل منها مُرعب،
فلن تلتفت وتُجيبني
«الليل رائع».

د.هـ. لورنس
قصيدة «تحت شجرة السنديان»

براين

في أول الأمر، لم نكن نعلم إنْ كنا ذاهبين لإطفاء وعاء للطبخ أو نار مع دخانٍ خانق. ليلة أمس، عند الساعة الثانية وست وأربعين دقيقة صباحاً، أُضيئت أنوار الطابق العِلويّ. وانطلقَ أيضاً رنين الأجراس، لكنني لا أستطيع أنْ أقول إنني كنتُ أسمعها حقاً في أي وقت. ففي غضون عشر ثوانٍ، كنتُ قد ارتديتُ ملابسي وخرجتُ من باب غرفتي في مركز الإطفاء. وفي سن العشرين كنتُ أرتدي ملابس الإطفاء وأرفع الحمّالات الطويلة المرنة، وأكافحُ لكي أرتدي معطفي الشبيه بدرع السلحفاة. وبعد مرور دقيقتين، يقود سيزار سيارة الإطفاء في شوارع داربي العليا؛ ويركب بولي وريد، جامع عبوات التنك وحامل الصنبور، في الخلف.

بعد ذلك بقليل، يأتي الوعي على شكل ومضات قصيرة برّاقة: نتذكّر أنْ نتفحَّص أجهزة التنفّس؛ ونرتدي قفازاتنا؛ ثم تصدر رسالة لنا لتُخبرنا بأنَّ المنزل يقع في هودينغتون درايف؛ وأنّه يبدو أنّه إمّا حريق في منشأة أو حريق غرفة مع محتوياتها. أقول لسيزار: «انعطِف يساراً هنا». وكان حي هودينغتون قريباً من مكان إقامتي.

بدا المنزل أشبه بفم تنّين. اقترب سيزار بالسيارة قدر استطاعته من المبنى، مُحاولاً أنْ يُقدِّم لي مشهداً من الجوانب الثلاثة. ثم خرجنا جميعاً من السيارة وحدّقنا برهة، كأننا أربع نسخ من شخصية داوود في مواجهة غولياث. قلتُ لسيزار، مُشغِّل مُحرِّك المضخة هذه الليلة: «املأ خط حجم بوصتين ونصف البوصة». هرعتِ امرأة برداء النوم نحوي، تجهش بالبكاء. وثلاثة أطفال يتشبّثون بأذيالها. صرختْ، وهي تشير، «*Mija, iMija!*».

وقفتُ أمامها مباشرة، لكي لا تتمكَّن من رؤية أي شيء آخر غير وجهي. «*¿Donde esta? ¿Cuantos anos tiene?*» (أين هي؟ كم عمرها؟).

أشارت إلى نافذة في الطابق الثاني، وهتفت «*Tres*» (ثلاث سنوات).

صرخ سيزار: «كاب، نحن جاهزون هنا».

سمعت عويل سيارة إطفاء أخرى تقترب، كان رجال الاحتياط قد جاؤوا لمساعدتنا. «ريد، وجِّه المياه إلى الزاوية الشماليّة الشرقيّة من السطح؛ بولين، ضع علامة رطوبة على العلامة الحمراء واضغط عليها عندما تُحدِّد الاتجاه. لدينا طفلة في الطابق الثاني. سوف أدخل لأرى إنْ كان بوسعي إنقاذها».

لم يكن الأمر إنجازاً بطوليّاً، كما يحدث في الأفلام –مشهداً ينال عليه البطل جائزة أوسكار. إذا دخلتُ إلى هناك، ووجدتُ أنَّ الدَّرَج قد اختفى.. إذا هُدِّد المبنى بالانهيار... إذا كانت درجة حرارة المكان قد أضحت مرتفعة جداً بحيث بات كل شيء قابلاً للاشتعال وجاهزاً ولإمساك اللهب فيه– فسوف أتراجع وأطلب من رجالي أنْ يتراجعوا معي. إنَّ سلامة المُنقِذ لها الأولويّة القُصوى أكثر من سلامة الضحيّة.

دائماً.

أنا جبان. أحياناً تنتهي نوبتي وأبقى لكي ألفّ الخرطوم، أو لكي أعدّ إبريقاً آخر من القهوة من أجل الطاقم التالي، بدل أنْ أنطلق عائداً مباشرة إلى منزلي. وكثيراً ما تساءلتُ لماذا أستمدّ راحة أكثر في مكانٍ أنهضُ فيه من سريري، في الغالب، مرّتين أو ثلاث مرّات في الليلة الواحدة. أعتقد أنَّ السبب يعود إلى أنّه في مركز الإطفاء، لستُ مُضطراً إلى القلق بشأن حالات الطوارئ التي تقع – إنها أمورٌ عاديّة. وحالما أدخل من باب المنزل، أبدأ بالقلق حول ما يمكن أنْ يحدث تالياً.

ذات مرة، عندما كانت كيتْ في الصف الثاني، رسمتْ صورةً لرجل إطفاء تُحيط بخوذته هالة من نور. وأخبرتْ تلاميذ الصف بأنّه لن يُسمَح لي إلّا بدخول الجنّة، لأنني إذا دخلت جهنم، فسوف أقوم بإطفاء النيران كلّها.

ما أزال أحتفظ بتلك الصورة.

أضربُ في طاسٍ عدداً من البيض وأباشر في خفقه بنشاط. اللحم المُقدَّد دائماً يُشوى على المدفأة؛ والصاج يُحمّى من أجل إعداد الفطائر. إنَّ رجال الإطفاء يتناولون الطعام معاً – أو على الأقلّ نحاول أنْ نفعل ذلك، قبل أنْ ترن الأجراس. وجبة الإفطار هذه سوف تُعدُّ من أجل رجالي الذين ما زالوا يقومون بإزالة ذكريات الليلة السابقة عن أجسادهم. وخلفي، أسمعُ وقع خطى أقدام. فأهتف من دون أنْ ألتفتْ: «أحضرْ كرسيّاً. يوشك الطعام أنْ يُصبح جاهزاً».

يقول صوتُ نسائيّ: «أوه، شكراً لك، ولكن كلا، لا أريد أنْ أفرِض نفسي عليكم».

ألتفت، مُلوّحاً بالملعقة. إنَّ سماع صوت نسائيّ هنا أمرٌ مُفاجئ؛ وظهور امرأة قُبيل الساعة السابعة صباحاً أشد إدهاشاً. إنها ضئيلة الحجم، بشعر أشعث يشبه حريق غابة. يداها مُدجّجتان بخواتم فضيّة متلألئة. «كابتن فيتزجيرالد، أنا جوليا رومانو، وأنا الوصيّ الشرعيّ المُعيَّن في قضيّة آنّا».

كانت سارة قد أخبرتني عنها – المرأة التي يُصغي القاضي إليها، عندما يحتاج الأمر.

تقول مبتسمة، «الرائحة ذكيّة»، وتتقدَّم لكي تأخذ الملعقة من يدي، «لا أستطيع أنْ أراقبَ أحداً يطبخ من دون أنْ أقدم يد المساعدة. إنها سِمة غريبة متأصّلة». وأراقبها وهي تمد يدها إلى البرّاد، وتفتّش فيه. وتعود مع برطمان من الفجل الحارّ، من دون الأشياء كلها. «كنتُ آمل أنْ تُخصص لي بضع دقائق لأتحدث معك».

«تحت أمرك». فجل حارّ؟

تضيف كميّة كبيرة منه إلى البيض، ومن ثم تتناول بعض قشر البرتقال عن منصب البهارات، بالإضافة إلى بعض من مسحوق الفلفل الحارّ، وترشّه أيضاً. «كيف حال كيت؟».

أصبّ مقدارَ دائرة من الزبد على الصاج، وأراقبه وهو يُبقبق. وعندما أُقلّبه، يُصبح مزيجاً بنيّاً، متساوياً. كنتُ قد تحدّثتُ مع سارة في صباح ذلك اليوم. لقد أمضَتْ كيت ليلة هادئة؛ أما سارة فلم تكن ليلتها كذلك. لكنَّ السبب هو جِسّ.

تمرّ خلال حريق مبنى لحظة تدرك في أثناء ذلك أنكَ إما سوف تُسيطر

عليه، أو إنّه سوف يُسيطر عليك. تلاحظ البقعة من السقف التي توشك أنْ تنهار ومطلع الدَّرَج الذي سيتفتَّت والسجادة المصنوعة تلتصق بأسفل حذائك. وكميّة الأجزاء التي تُهيمن، وهنا تتراجع وتُجبِر نفسك على تذكُّر أنَّ كل حريق سوف ينتهي من تلقاء نفسه، حتى من دون مُساعدتك.

في هذه الأيام أنا أكافح الحريق على ست جبهات. أنظر أمامي فأرى كيت مريضة. وأنظر خلفي فأرى آنّا مع مُحاميها. والمرة الوحيدة التي لا يشرب جِسّ خلالها الخمر كما تشرب السمكة الماء هي حين يُدمن المخدرات؛ وسارة تتشبّث بقشّة. وأنا أواظب على عملي، بأمان. إنني أتمسّك بعددٍ من الكلابات وبقطع الحديد وبالأعمدة - وكلها أدوات تعمل على التدمير، في حين أنَّ كل ما أحتاج إليه هو شيء يربطنا معاً.

يصرعني صوت جوليا رومانو، ويدفعني إلى مطبخٍ يعبقُ بسرعة بالدخان، «كابتن فيتزجيرالد... *براين!*». مرَّت بجواري وتجاوزتني ورفعت الفطائر المحترقة عن الصاج.

«يا إلهي!» وأرمي القرص المتفحِّم الذي كان في الأصل فطيرة في المغسلة، وهناك يهسّ في وجهي. «أنا آسف».

هاتان الكلمتان غيّرتا المشهد كله، على غـرار ما تفعله عبارة «افتح يا سمسم».

تقول جوليا رومانو: «من حُسن حظّنا أننا أنقذنا البيض».

في منزلٍ يحترق، تنشط عندك الحاسّة السادسة. لا تستطيع أنْ ترى، بسبب الدخان. ولا تستطيع أنْ تسمع، لأنَّ النيران تهدر بضجيج مرتفع. ولا تستطيع أنْ تلمس، لأنَّ ذلك سيعني نهايتك.

أمامي، بولي يتحكَّم في فوهة الخرطوم. يُساعده في ذلك رتلٌ من رجال الإطفاء؛ كان الخرطوم المشحون ثخيناً، ثقيل الوزن. وشققنا طريقنا إلى أعلى الدّرَج، ما زلنا سليمين، لدينا النيّة في طرد الحريق خارج الحفرة التي كان ريد قد فتحها في السقف. وكأي شيء مُحاصِر، لدى النيران غريزة للهرب.

ركعتُ على يديّ ورُكبتيّ وبدأتُ أزحفُ خلال الرواق. قالت الأم

إنه الباب الثالث إلى اليسار. امتدتِ النيران على طول الجانب الآخر من السقف، وهرعتْ نحو الفتحة. وعندما بدأ الماء المندفع انقضاضه، ابتلع بخار أبيض رجال الإطفاء الآخرين.

سرعان ما فُتِحَ باب غرفة الطفلة، وزحفتُ إلى الداخل أنادي اسمها. جذبني شكلٌ كبير عند النافذة كالمغناطيس، ولكنْ اتّضحَ أنّه حيوان محشو أكبر من حجمه الطبيعيّ. أخذتُ أفتش داخل الخزائن وتحت السرير، أيضاً، ولكن لم أجد أحداً.

تراجعتُ إلى الرواق من جديد وكدتُ أتعثّر بخرطوم المياه، السميك بحجم قبضة اليد. إنَّ الإنسان يُفكِّر؛ أما النار فلا تستطيع. النار تتبعُ مساراً معيَّناً؛ أما الطفل فقد لا يفعل. أين كنتُ سأذهب لو أنني أُصِبتُ بالذعر؟

بدأتُ أُدخِلُ رأسي في كل باب، متنقّلاً بسرعة. إحدى الغرف كانت قرنفليّة اللون، غرفة طفل رضيع. وأخرى كان في داخلها سيارات بحجم علب الكبريت متناثرة على أرجاء الأرض وعلى الأسرَّة الصغيرة. وواحدة لم تكن غرفة قط، بل خزانة. أما غرفة النوم الكبرى فقد كانت تقع على الجانب القصيّ من مطلع الدَّرَج.

لو كنتُ طفلاً، لأردتُ اللجوء إلى أمي.

خلافاً لغرف النوم الأخرى، كان ينبعثُ منها دخانٌ أسود كثيف. كانت النيران قد أحرقَتْ مساحة شقّ في أسفل الباب. فتحته، عالِماً أنني سوف أسمح للهواء بالدخول، عالِماً أنَّ ذلك هو أسوأ ما يمكن القيام به وأنّه الخيار الوحيد الذي لديّ.

كما توقّعتُ اندلعت النار في الخط المحترق بخمول، وملأ اللهب فوهة مدخل الغرفة. اندفعتُ خلاله بقوة كثور، شاعراً بالجمر ينهمر إلى خلفيّة وأسفل خوذتي ومعطفي. هتفتُ «لويزا!». تلمّستُ طريقي حول محيط الغرفة، وعثرتُ على خزانة. ضربتُ بقوة وناديتُ من جديد.

كان الصوت ضعيفاً، لكنه كان حتماً قرعَ استجابة.

قلتُ لجوليا رومانو، «كنا محظوظَين»، ربما كان ذلك آخر تعليق توقّعتْ سماعه مني. «إنَّ أخت سارة ترعى الأطفال إذا طالت المدّة. وخلال الفترات

القصيرة، كنا نتبادل النوبات - كما تعرفين، تمكث سارة مع كيت ليلة في المستشفى، وأذهب أنا إلى المنزل لأبقى مع الأطفال الآخرين، أو العكس بالعكس. أصَبح الوضع أسهل الآن. أصبحوا أكبر سناً الآن ويستطيعون الاعتناء بأنفسهم».

بينما أقول هذا، تدوّن شيئاً في دفتر ملاحظاتها الصغير، فأتململُ على مقعدي. إنَّ آنّا لا تتجاوز الثالثة عشرة - هل هذا السن صغير جداً ويمنع آنّا من البقاء وحدها في المنزل؟ قد تقول هذا هيئة الخدمات الاجتماعيّة، لكنَّ آنّا مختلفة. لقد كبرتْ آنّا منذ سنين.

تسأله جوليا: «أتعتقد أنَّ آنّا على ما يُرام؟».

«لا أعتقد أنها كانت سترفع دعوى لو أنها على ما يُرام»، وأتردَّد. «سارة تقول إنّها تحتاج إلى رعاية».

«وما رأيكَ *أنت*؟».

لكي أكسب بعض الوقت، أتناول ملء شوكة من البيض. لقد اتَّضحَ أنَّ الفجل الحارّ لذيذ جداً بدرجة مُدهشة. إنّه يُبرِز طعم البرتقال. وأُخبر جوليا رومانو بهذا.

تطوي فوطتها وتضعها إلى جوار طبقها. «أنتَ لم تُجِب عن سؤالي، يا سيد فيتزجيرالد».

«لا أعتقد أنَّ الأمر بهذه السهولة»، وأضع أدواتي الفضيّة بعناية جانباً. «هل لديك أخوة أو أخوات؟».

«لديّ من كليهما. ستة أخوة أكبر مني سناً وأخت توأم».

أُصفِّر. «لا بد أنَّ أبويك يتحليان بطاقةٍ هائلة من الصبر».

تهزّ كتفيها بلا مبالاة «إنهما من الكاثوليك الصالحين. أنا أيضاً لا أعلم كيف فعلا ذلك، ولكن لا أحد منا شعر بالإهمال».

أسألها: «أهذا ما تعتقدين دائماً؟ ألم يحدث وأنتِ طفلة أنْ شعرتِ بأنهما ربما يتظاهران بأنهما يُفضلان أحداً منكم على الآخرين؟». تتوتّر تعبيرات وجهها، بقدر ضئيل جداً، وأشعر بالذنب لأنني وضعتها في موقف مُحرِج.

«نحن نعلم أنّه ينبغي أنْ يحبّ المرء أطفاله على قدم المساواة، ولكن ليس هذا ما يحدث دائماً»، ونهضتُ واقفاً. «هل لديك المزيد من الوقت؟ هناك شخص أريد منك أنْ تقابليه».

في الشتاء الأخير جاءنا طلب سيارة إسعاف في عزّ الشتاء من أجل شخص يُقيم على طريق ريفيّة. كان المُتعهِّد الذي استأجره لكي يجرف له الثلوج عن ممر السيارات قد عثر عليه فاتصل بـ 911؛ يبدو أنّ الرجل كان قد ترجّلَ من سيارته في الليلة السابقة، وانزلقَ، وتجمّدَ وهو على الحصى؛ وكاد المتعهِّد أنْ يدوسه بالسيارة، مُعتقداً أنّه ثلج متراكم.

عندما وصلنا إلى موقع الحادث، كان قد مضى على وجوده في الخارج حوالي ثماني ساعات، ولم يكن أكثر من مُكعَّب من الثلج خالٍ من النبض. كانت رُكبتاه مثنيَّتين؛ أتذكَّر هذا، لأننا عندما نجحنا أخيراً في خلعه ووضعه على لوح خشبي، كانتا مرفوعتين في الهواء. وشغّلنا مولِّد الحرارة في سيارة إسعاف وجلبناه إلى داخلها، وبدأنا نقطع عنه ملابسه. ومع انتهائنا من إعداد الإجراءات المكتبيّة من أجل نقله إلى المستشفى، كان الرجل قد تمكّن من الاعتدال في جلسته وبدأ يُحدّثنا.

إنني أخبركِ بهذا لكي أُبيِّن لك أنّه مهما كان اعتقادك، فإنَّ المعجزات تحدث.

كلام مُبتذَل، لكنَّ السبب الذي دفعني إلى أنْ أصبح رجل مطافئ قبل أيّ شيء كان أنني أردتُ أنْ أُنقذ الناس. ولذلك حالما خرجتُ من الباب المُقنطر المشتعل باللهب ولويزا بين ذراعيّ، وحالما رأتنا أمّها وخرّتْ على رُكبتيها، علِمتُ أنني أدّيتُ واجبي وأحسنتُ أداءه. وانتفضَت من بين ذراعيّ وهبطتْ متجاوزة عامل الطوارئ الطبيّة من الفوج الثاني الذي غرز أنبوباً في ذراع الفتاة وزوّدها بالأكسجين. كانت الفتاة تسعل، وخائفة، لكنها ستتحسّن.

ولم تنطفئ النيران؛ وكان الشبّان في الداخل يُنقذون الناس ويفتشون بدقّة. وشكّلَ الدخان حِجاباً عبر سماء الليل؛ ولم أتبيَّن نجمة واحدة في

مجموعة برج العقرب. وخلعتُ قفّازي وعركتُ عينيّ بيديّ، وكانتا تخزانني منذ ساعات. قلتُ لرد، وهو يُلملم خرطوم الماء، «أحسنت عملاً».

ردَّ عليّ: «أحسنتَ الإنقاذ، يا كاب».

طبعاً، كان يمكن أنْ يكون الوضع أفضل لو أنَّ لويزا عادتْ إلى غرفتها الخاصّة، كما توقّعتْ أمها. لكنَّ الأطفال لا يستقرون حيث ينبغي أنْ يكونوا. وتنظر حولك فلا تجدها في غرفة النوم بل مختبئة في إحدى الخزائن؛ تلتفت حولك وتكتشف أنها ليستْ في الثالثة من العمر بل في الثالثة عشرة. إنَّ عمل الأبوَّة هو في الحقيقة مجرد عمليّة بحث، وتمنّي عدم ابتعاد أطفالك عن أنظارك بحيث لا تعود ترى تحركاتهم التالية.

خلعتُ خوذتي وأخذتُ أحرِّك عضلات عنقي. نظرتُ عالياً إلى المبنى الذي كان ذات يوم بيتاً. وفجأة، شعرتُ بأصابع تقبض على يدي. إنها المرأة التي تسكن هنا والدموع تملأ عينيها. كانت الطفلة ما تزال بين ذراعيها؛ والأطفال الآخرون يجلسون في سيارة الإطفاء تحت إشراف ريد. وبصمت رفعت براجم يدي إلى شفتيها. سقطت قطعة من السخام عن سترتي وتركت خطاً على وجنتها. قلت: «لا شكر على واجب».

في طريق عودتنا إلى مركز الإطفاء وجَّهتُ سيزار لينطلق من طريق أطول، لكي نمرّ من الشارع الذي أسكن فيه. كانت سيارة جِسّ الجيب متوقّفة على ممر سيارات منزلي؛ وكانت الأضواء في المنزل مُطفأة كلها. تصوّرتُ آنّا والأغطية مرفوعة حتى ذقنها، كالمعتاد؛ وسرير كيت خالياً.

سألَ سيزار: «هل أتممنا واجبنا، يا فيتز؟» كانت الشاحنة بالكاد تزحف، وتوقفت تقريباً أمام ممر سيارات منزلي.

قلت: «نعم، أتممناه. فلنذهب إلى المنزل».

لقد أصبحتُ رجل إطفاء لأنني أردتُ أنْ أُنقذ الناس. ولكن كان ينبغي أنْ أكون أشدّ دقّة. كان ينبغي أنْ أذكر أسماءً.

جوليا

إنَّ سيارة براين فيتزجيرالد مملوءة بالنجوم. هناك جداول على مقعد المُسافر وقوائم مُكدّسة على الطاولة التي بيننا؛ والمقعد الخلفي مُلوَّن بنسخ من غيوم سديميّة وكواكب. يقول، وقد احمرَّ وجهه: «آسف، لم أكن أتوقع أنْ يُصاحبني أحد».

أساعده في إفساح مساحة من أجلي، وفي أثناء ذلك أرفعُ خريطة مصنوعة من ثقوب الدبابيس. أسأل: «ما هذا؟».

يهزّ كتفيه استخفافاً. «إنه أطلس للسماء. يمكن القول إنها هواية».

«وأنا صغيرة، حاولتُ ذات مرَّة أنْ أُعطي اسماً لكل نجم في السماء من أسماء أقاربي. والجزء المُخيف من الأمر هو أنني مع حلول وقت استغراقي في النوم لم أكنْ قد استنفدتُ الأسماء كلها».

يقول براين: «سُميَتْ آنّا على اسم مجرَّة سماويّة».

«هذا أجمل من أنْ تُسمّى على اسم قديسة شفيعة. ذات مرَّة سألتُ أمي لماذا تتلألأ النجوم. فقالتْ إنها أضواء ليليّة، لكي تتمكن الملائكة من الاستدلال على طريقها في أرجاء السماء. ولكن عندما سألت أبي، بدأ يتحدث عن الغاز، وبصورة ما عملتُ على مزج كل ما سمعت وتخيّلتُ أنَّ الطعام الذي يُقدِّمه الله هو سبب تردّدي مرات عديدة إلى المرحاض في منتصف الليل».

ضحك براين بصوتٍ مرتفع. «وها أنا ذا أحاول أنْ أشرح الانتشار النوويّ لأطفالي».

«وهل نجح الأمر؟».

فكَّر برهة. «ربما باستطاعتهم كلهم أنْ يعثروا على برج الدب الأكبر وعيونهم مُغمضة».

«شيء مُثير للإعجاب. بالنسبة إليّ النجوم كلها متشابهة».

«الأمر ليس صعباً جداً. ركّزي على بقعة من كوكبة من النجوم –كحزام أوريون– وفجأة يُصبح من الأسهل العثور على ريجل[1] متعلاً حذاءه وبلتيغوز[2] بكتفه الضخم «ويتردَّد» لكنَّ تسعين في المئة من الكون يتألَّف من مادة لا نستطيع حتى أنْ نراها».

«إذن كيف تعرف أنها موجودة؟».

يُبطئ تقدّمه حتى يتوقف عند الإشارة الحمراء. «إنَّ المادة القاتمة تجذب المواد الأخرى. وهي غير مرئيّة، وغير محسوسة، ولكن يمكن مراقبة شيء ينجذب باتجاهها».

بعد أنْ غادر كامبل بعشر ثوان ليلة أمس، ولجتْ إيزي غرفة الجلوس حيث كنتُ أُوشكُ أنْ أنخرط في إحدى نوبات البكاء التي تنظِّف العِظام وعلى المرأة أنْ تلجأ إليها مرَّة واحدة على الأقلّ في أثناء الدورة القمريّة. قالت بجفاف «نعم، أفهم أنَّ هذه علاقة مِهنيّة صِرف».

أعنّفها قائلة: «أكنتِ تسترقين السمع؟».

«اعذريني إذا كنتِ وروميو تُجريان حديثكما الحميم القصير خلف جدار رقيق».

أقترح: «إنْ كان لديك ما تقولين، قوليه».

تجهّمتْ إيزي. «أنا؟ هيه، هذا ليس من شأني، أليس كذلك؟».

«كلا، ليس من شأنك».

«حسن. إذن سوف أحتفظ برأيي لنفسي».

1– ريجل: النجم الأشدّ بريقاً، بيتا أوريون، في كوكبة أوريون، أو برج الجوزاء. المترجم.

2– بيتلغوز، كتف العملاق أو إبط الجوزاء، النجم الثاني الأشد بريقاً في برج الجوزاء (انظر المادة السابقة). المترجم.

أُدير مُقلتيّ عينيّ في مِحجريهما. «أفصحي، إيزوبل».

«حسِبتُ أنكِ لن تطلبي هذا». وجلستْ إلى جواري على المقعد. «أتعلمين، يا جوليا، في أول مرَّة ترى بقّة ذلك الضوء القوي الأرجوانيّ لجهاز قتل البق[1]، تتخيَّل أنه الله. وفي المرة الثانية، تفرّ في الاتجاه المُعاكس».

«أولاً، لا تقارنيني بالبقّة. وثانياً، قولي البقة سوف *تطير* في الاتجاه المعاكس، ولا تقولي تفرّ. وثالثاً، لا توجد مرَة ثانية. البقّة ماتت».

ترسم إيزي ابتسامة متكلِّفة. «يا لكِ من مُحامية *بارعة*».

«لن أدع كامبل يقضي عليّ».

«إذن اطلبي النقل».

«هذا ليس سلاح البحريّة»، وأعانق إحدى الوسائد من الأريكة. «ثم أنا لا أستطيع أنْ أفعل هذا، ليس الآن. سوف أجعله يعتقد أنني ضعيفة ولا أستطيع أنْ أوازن بين حياتي المِهنيّة وحادثة... حمقاء، سخيفة ومراهِقة».

هزَّتْ إيزي رأسها نفياً. «لا تستطيعين. إنّه أحمق مغرور وسوف يمضغك ثم يلفظك؛ وأنتِ لديك تاريخ شنيع حقاً من الإعجاب بالفاشلين ويجب أنْ تبتعدي عنهم بأقصى سرعة وأنت تصرخين: وأنا لا أرغب في الجلوس والإصغاء إليك وأنت تحاولين إقناع نفسك بأنكِ لم تعودي تكنّين أيّة مشاعر نحو كامبل ألكسندر في حين أنكِ، في الواقع، أمضيتِ الخمسة عشر عاماً الأخيرة تحاولين أنْ ترمّمي الفجوة التي أحدثها داخلك».

حدّقتُ إليها. «يا إلهي».

هزّتْ كتفيها استخفافاً. «أعتقد أنَّ لدي الكثير أريد أنْ أزيحه عن صدري، في الأصل».

«هل تكرهين الرجال *كلّهم*، أم فقط كامبل؟».

بدا أنَّ إيزي تفكِّر في ذلك منذ فترة. أخيراً قالتْ: «فقط كامبل».

ما أردتُ في تلك اللحظة كان أنْ أنفرد بنفسي في غرفة الجلوس لكي أستطيع أنْ أرمي الأشياء، كجهاز التحكّم في التلفزيون عن بُعد أو المزهريّة الزجاجيّة أو أُفضّل أنْ أرمي أختي. لكنني لم أستطع أنْ آمر إيزي بمغادرة

1- جهاز تحكُّم عن بُعد لقتل البقّ. المترجم.

المنزل الذي انتقلتْ إليه قبل بضع ساعات فقط. وَقفتُ منتصبة القامة وانتزعتُ مفاتيح منزلي عن المنضدة. وقلت لها: «سوف أخرج. لا تنتظريني».

لستُ ممَّن يهوون ارتياد الحفلات، وهذا يُفسِّر السبب في أنني لم أتردَّد من قبل على حانة «قطّة شكسبير»، على الرغم من أنها كانت قريبة من ملكيّتي المُشتركة. كانت الحانة مُظلمة ومكتظة وتفوح بعبق عِطر الباتشولي وكبش القرنفل. شققتُ طريقي إلى الداخل، واحتللتُ مقعداً بلا ظهر، وابتسمتُ للرجل الجالس إلى جواري.

كنتُ في مزاجٍ يسمح لي بمغازلة شخصٍ لا يعرف حتى اسمي في الصف الأخير من دار للسينما. أردتُ أنْ يتشاجر ثلاثة رجال من أجل نيل شرف تقديم مشروب لي.

أردتُ أنْ أبيِّن لكامبل ألكسندر ما الذي خسره.

كان للشخص الجالس إلى جواري عينان بلون زرقة السماء، وشعر أسود طويل، وابتسامة المُمثّل غاري غرانت. أومأ لي برأسه بأدب، ثم أعطاني ظهره وبدأ يُقبِّل سيداً أبيض الشعر على الفم مباشرة. فتلفتُّ حولي واكتشفتُ أنني أخطأتُ في المدخل. كانت الحانة مملوءة بالرجال العزّاب – لكنهم كانوا يرقصون معاً، ويتبادلون الغزل.

كان لعامل البار شعر أشعث بلون أحمرّ مزرقّ ويضع في أنفه المثقوب حلقة مُخصّصة للثيران.

«أهذا بار للمثليين؟».

«كلا. إنه نادٍ للضباط في ويست بوينت. أترغبين في مشروب أم لا؟» وأشار خلف ظهره إلى زجاجة من التكيلا، ومدَّ يده لجلب كأس الجرعة الواحدة.

فتشتُ داخل كيس نقودي ثم أخرجتُ ورقة نقدية من فئة الخمسين دولاراً. وأنا أنظر إلى الزجاجة. «أريد الزجاجة كلها» وتجهّمتُ، «وأراهن على أنْ شكسبير لم تكن *لديه* قطّة».

سألني عامل البار: «مَنِ الذي تبوّلَ في قهوتك؟»[1].

ضيَّقتُ عينيّ، وحدَّقتُ إليه. «أنتَ لستَ مثلياً».

«طبعاً أنا مثليّ».

«اعتماداً على حياتي التي عشتها، إذا كنتَ مثليّاً، فقد أجدكَ ربما جذّاباً. كما هو الحال...» ونظرتُ إلى الاثنين المنهمكين إلى جواري، ومن ثم هززتُ كتفيّ لعامل البار. فشحب لونه، ثم أعاد لي الورقة النقديّة. فأعدتها إلى محفظة نقودي. تمتمتُ: «مَنْ قال إنكَ لا تستطيع أنْ تشتري أصدقاء بالمال».

بعد ذلك بثلاث ساعات، كنتُ الوحيدة المتبقّية هناك، إلّا إذا وضعتَ في حسبانك سيفن (سبعة)، وهو الاسم الذي كان عامل البار قد أعاد تسمية نفسه به في الصيف السابق بعد أنْ قرَّر أنْ يتخلّص مما كان اسم نيل يوحي به. وقد قال سيفن لي إنّه لا يتبنّى أيّة فكرة، وكان ذلك الموقف يُعجبه ويُناسبه.

قلت له، بعد أنْ أتيت على آخر قطرة في زجاجة التكيلا، «ربما يجب أنْ أكون سيكس (ستّة)، ويمكنكَ أنْ تكون ناين (تسعة)».

انتهى سيفن من تخزين الكؤوس النظيفة. «انتهينا. لم يتبقَّ لك شيء».

قلت «كان يُناديني باسم جويل (جوهرة)»، وكان ذلك كافياً لدفعي إلى البكاء.

الجوهرة هي حجر يُعرَّض لحرارة وضغط هائلين. إنَّ الأشياء الخارقة دائماً تختبئ في أماكن لا يفكر الناس أبداً في البحث فيها.

لكنَّ كامبل كان قد بحث. ومن ثم تخلّى عني، وذكّرني بأنَّ ما عثر عليه لم يستحق هدر الوقت أو الجهد.

قلت لسيفن: «في وقتٍ ما كان لي شعر لونه قرنفليّ».

أجابني: «في وقتٍ ما كان لي عمل حقيقيّ».

«وماذا حدث؟».

هزَّ كتفيه استخفافاً. «صبغتُ شعري باللون القرنفليّ. وماذا حدث لكِ؟».

1- يقصد أنْ يسألها «مَنِ الذي عكَّر مزاجك؟». المترجم.

أجبتُ «تركتُ شَعري يطول».

مسحَ سيفن ما أرقتُ من شراب من دون أنْ ألاحظ. قال «لا أحد يريد ما لديه».

تجلسُ آنّا وحدها على طاولة المطبخ، تأكل مقدار طاسٍ من رقائق الحبوب. تتسع عيناها عندما تندهش لرؤيتي مع والدها، ولكن هذا أقصى ما سيبدو عليها. تقول، وهي تتنشّق، «كان هناك حريق ليلة أمس، هه؟».

يعبُر براين أرض المطبخ ويمنحها عِناقاً. «حريق ضخم».

تسأل: «أهو مُفتعِل الحرائق؟».

«أشكّ في هذا. إنه يستهدف الأبنية الخالية وهذا البناء كان يضمّ طفلة».

تُخمِّن آنّا: «التي أنقذتَها».

«طبعاً»، ونظر إليّ. «لقد فكّرتُ في أخذ جوليا إلى المستشفى. أترغبين في مرافقتنا؟».

نظرتْ إلى وعائها. «لا أعلم».

.يرفع براين لها ذقنها. «لن يمنعك أحد من رؤية كيت».

تقول: «لا أحد سوف يسعد برؤيتي هناك، أيضاً».

يرن جرس الهاتف، فيرفعه. يُصغي برهة، ومن ثم يبتسم. «هذا عظيم. هذا عظيم جداً. نعم، طبعاً سوف آتي». ويُسلِّم الهاتف لآنّا. يقول، «الماما تريد أنْ تكلِّمك» ويستأذِن.

تتردَّد آنّا، ثم تضمّ أصابعها حول السمّاعة. وينحني كتفاها، كنوع من تحقيق مساحة صغيرة من الخصوصيّة. «آلو؟» ومن ثم، بصوتٍ أرقّ: «أحقاً؟ أفعلَتْ؟».

بعد بضع لحظات، تُغلق خط الهاتف. وتجلس وتتناول مقدار ملعقة أخرى من رقائق الحبوب، ثم تدفع الوعاء بعيداً عنها. أسألها، وأنا أجلس قبالتها: «أكانت تلك أمّك؟».

تقول آنّا: «نعم، لقد أفاقتْ كيت».

«هذا خبر جيد».

«أعتقد ذلك».

أضعُ مِرفقي على الطاولة. «لِمَ قد لا يكون خبراً جيداً؟».

لا تجيب آنّا عن سؤالي. «إنها تسأل عن مكاني».

«أمّك؟».

«بل كيت».

«هل تحدثتِ معها عن دعواك، يا آنّا؟».

تتجاهلني، وتُمسك بعلبة رقائق الحبوب وتبدأ بلفّ الجزء الداخلي البلاستيكي. تقول «طعمه كريه. لا أحد يُخرِج الهواء من العلبة، أو يُغلِق الغطاء جيداً».

«هل أخبرَ أحدٌ كيت عمّا يجري؟».

تدفع آنّا غطاء العلبة لكي تُقحِم اللسان الكرتوني داخل الشقّ، بلا طائل. «إنني حتى لا أحبّ رقائق الحبوب». وعندما تُكرِّر المحاولة، تقع العلبة من بين ذراعيها وتنتثر محتوياتها على أرجاء الأرض. «اللعنة!». تزحف تحت الطاولة، وتحاول أنْ تجمع الرقائق بيديها.

أخرّ على الأرض مع آنّا وأراقبها وهي تجمع ملء قبضتها داخل العلبة. لا تنظر باتجاهي. أقول برفق «نستطيع دائماً أنْ نشتري لكيت المزيد منها قبل أنْ تعود إلى المنزل».

تتوقف آنّا وترفع نظرها. تبدو، من دون حجاب ذلك السرّ، أصغر سناً. «جوليا؟ ماذا لو أنّها تكرهني؟».

أُقحِمُ خصلة من شعر آنّا خلف أُذنها. «وماذا لو أنّها لا تكرهك؟».

في الليلة السابقة شرح لي سيفن قائلاً: «الخط السفليّ يدل على أننا لا نحب الأشخاص الذين ينبغي أنْ نحبّهم».

ألقيت عليه نظرة، مفتونة إلى درجة عجزي عن بذل مجهود لرفع وجهي عن موقع التصاقه على البار. «الأمر لا يتعلّق بي وحدي؟».

«يا إلهي، كلا». جمع كمّية من الكؤوس النظيفة. «فكّري في الأمر: لقد عارضَ روميو وجولييت النظام، وانظري إلى أين أوصلهما ذلك. وسوبرمان

كان مولعاً بلويس لين، في حين أنَّ التي تتطابق مع شخصيته كانت، طبعاً، المرأة الخارقة. ودوسون وجوي – هل أحتاج إلى ذِكر المزيد من الأمثلة؟ ولا داعي إلى ذِكر تشارلي براون والفتاة ذات الشعر الأحمر».

أسأله: «وأنت؟».

هزّ كتفيه بلا مبالاة. «كما سبق أنْ قلت، إنَّ هذا يحدث مع كل شخص». اتّكأ بمِرفقيه على المنضدة، واقتربَ مني بمقدارٍ كافٍ لكي أرى الجذور القاتمة تحت شعره الأحمر الأرجواني. «بالنسبة إليّ، كان ليندن».

قلتُ متعاطفة معه، «أنا أيضاً سأقطع علاقتي بشخص يحمل اسم شجرة، أهو رجلٌ أم امرأة؟».

ابتسمَ بتكلُّف. «لنْ أقول».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«إذن ما الذي جعلك ترى فيها خطباً؟».

تنهّد سيفن «في الواقع، هي–».

«ها! ها أنتَ تقول هي!».

أدار عينيه داخل مِحجريهما. «نعم، أيتّها التحريّة جوليا. لقد هزمتِني في هذه المؤسّسة المثليّة. أسعيدة أنتِ؟».

«ليس كثيراً».

«لقد أعدتُ ليندن إلى نيوزيلندا. لقد انتهت مدة إقامتها. إما ذاك، أو الزواج».

«ماذا كان خطبها؟».

اعترفَ سيفن «لا خطب على الإطلاق. إنها تقوم بالتنظيف كالبانشي[1]؛ ولا تسمح لي بغسل طبق واحد؛ وتُصغي إلى كل ما أقول؛ كانت عاصفة في السرير. كانت مجنونة بي، وصدّقي أو لا تصدّقي، كنتُ الرجل المناسب لها. كانت العلاقة مثاليّة بنسبة 98%».

«وماذا عن الاثنين بالمئة الأخرى؟».

«أخبريني أنت»، وبدأ يرتّب الكؤوس النظيفة على الطرف القصيّ من البار.

1- البانشي: في التراث الشعبي الأيرلندي، روح أنثويّة يُنبئ عويلها بموتٍ وشيك. المترجم.

«كان هناك شيء ما مفقود. لا أستطيع أنْ أخبرك ما هو إذا سألتِ، لكنّه اختفى. وإذا اعتبرتِ علاقة ما أنّها هويّة عيش، فأعتقد أنَّ الأمر هو نفسه إذا كانت نسبة الاثنين بالمئة المفقودة أشبه بظفر إصبع. ولكن عندما يتعلّق بالقلب، فالأمر يختلف كليّاً». والتفت نحوي. «أنا لم أبكِ عندما ارتقت إلى الطائرة. لقد عاشت معي أربع سنين، وعندما سافرت، لم أشعر بأي شيء على الإطلاق».

قلت له: «حسن، أنا عانيت من المشكلة الأخرى. كان لدي جوهر العلاقة، ولا أحد لكي ينمو فيها».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

قلت: «ماذا غير أنّه انكسر».

إنَّ المفارقة المُثيرة للسخرية هي أنَّ كامبل انجذبَ إليّ لأنني كنتُ أختلف عن أي شخصٍ آخر في مدرسة ويلر؛ وأنا انجذبتُ إلى كامبل لأنني أردتُ التواصُل مع شخصٍ ما. وسمعتُ تعليقات، رأيتُ نظرات حادة وُجِّهَتْ إلينا عندما حاول أصدقاؤه أنْ يفهموا سبب تبديد كامبل لوقته مع شخص مثلي. لا شك في أنهم اعتبروا أنني صيد سهل.

لكننا لم نكن نفعل ذلك. لقد تقابلنا بعد الدوام المدرسي في المقبرة. أحياناً كنا نتبادل الحديث شِعراً. وذات مرة، حاولنا أنْ نُجري حديثاً كاملاً من دون استخدام حرف «س» كنا نجلس وكلٌّ منا يسند ظهره على ظهر الآخر، يُحاول كل منا أنْ يُخمِّن أفكار الآخر – متظاهراً بالاستبصار، في حين أنَّ الشيء المعقول هو أنَّ عقله كله كان منهمكاً بي وأنَّ عقلي كان منهمكاً به.

كنتُ أحبّ رائحته كلما اقتربَ مني ليسمع ما أقول – كما تضرب أشعّة الشمس وجنة ثمرة البندورة، أو كما يجفّ الصابون على غطاء سيارة. وأحببتُ ملمس يده على عمودي الفقريّ. أحببتُ ذلك.

ذات ليلة قلت، وأنا أستنشق أنفاسه من حافة شفتيه، «ما رأيك أنْ نفعلها؟».

كان مُستلقياً على ظهره، يرنو إلى صخرة القمر تهتز جيئة وذهاباً على أرجوحة من النجوم. ورمى إحدى يديه فوق رأسه، وثبَّتتني الأخرى على صدره. «نفعل ماذا؟».

لم أُجِبْ، بل نهضتُ مُتكئة على أحد مِرفقيّ وقبّلتُه بقوة حتى انهارت الأرض من تحتنا. قال كامبل، بصوتٍ أجشّ، «أوه، هذا».

سألته «هل سبق لك أنْ فعلتها؟».

اكتفينا برسم ابتسامة واسعة. حسبتُ أنّه ربما نكحَ مَفي أو بَفي أو بوفي أو الثلاثة معاً في مُختلى كرة القاعدة في مدرسة ويلر، أو بعد انتهاء إحدى الحفلات في أحد منازلهم عندما كانت رائحة البوربون ما تزال تفوح منهما معاً. وتساءلتُ، حينئذٍ، لِمَ لم يُحاول أنْ يُضاجِعني. وافترضتُ أنَّ السبب هو أنني لم أكن مثل مفي أو بَفي أو بوفي، بل فقط جوليا رومانو، وهذا ليس جيداً بالقدر الكافي.

سألته: «ألا تريد؟».

كانت واحدة من تلك اللحظات التي علِمتُ خلالها أننا لم نكن نتبادل الحديث الذي نحتاج إلى تبادله. وبما أنني لم أعرف بالضبط ماذا أقول، لم يسبق لي أنْ عبرت ذلك الجسر بالذات الممتد بين الفكر والفعل، ضغطتُ يدي على حافة بنطلونه الداخلي فابتعد عني.

قال: «جويل، لا أريد منكِ أنْ تظني أنني موجود هنا من أجل هذا».

دعني أخبرك ما يلي: إذا قابلت شخصاً وحيداً، مهما أخبرك؛ فالسبب ليس لأنه يستمتع بالعزلة، بل لأنه حاول أنْ يندمج في العالم من قبل، والناس يستمرون في إصابته بخيبة الأمل. «ما سبب **وجودك** هنا؟».

قال كامبل: «لأنكِ تعرفين كلمات أغنية «الفطيرة الأميركيّة». ولأنكِ عندما تبتسمين، أكاد أرى السن الذي إلى الجانب والمنحني»، وحدَّقَ إليّ. «ولأنكِ لا تشبهين أحداً ممَّن قابلتهم».

همستُ: «أتحبّني؟».

«ألم أقُلْ هذا تواً؟».

هذه المرَّة، عندما أمدّ يدي إلى أزرار بنطلون الجينز، لا يأتي بأيّة حركة. أحسستُ على راحة يدي حرارته المرتفعة حتى ظننتُ أنّها سوف تترك ندبة عليها. كان عكسي، يعرف ماذا يفعل. قبّلني، زلقه، دفعه، فتحني واسعاً. ثم توقف تماماً. قال: «لمْ تُخبريني بأنك عذراء».

«أنت لم تسأل».

لكنّه افترضَ ذلك. ارتعشَ وبدأ يتحرّك داخلي، في شِعرٍ من الأطراف. ومددتُ يدي لأتمسّك بشاهد القبر الذي خلفي، الذي عليه كلمات لم أرها في عين عقلي: نورا دين، ولدتْ 1832، توفيت 1838.

همسَ، بعد أنْ انتهى، «جويل، ظننتُ...».

«أعرف ماذا ظننت». وتساءلتُ ماذا حدث عندما عرضتِ نفسكِ على شخص، وقام بمباعدة ساقيك، واكتشفَ أنكِ لستِ الهِبة التي توقَّعَ الحصول عليها وكان لا بد أنْ يبتسم ويومئ برأسه ويقول شكراً لكِ على أيّة حال.

وضعتُ اللوم كلّه على كامبل ألكسندر لسوء حظي في إقامة العلاقات. من المُحرِج الاعتراف، ولكنّني لم أمارس الجنس إلّا مع ثلاثة رجال آخرين ونصف الرجل، ولم يكن أيٌّ منهم يشكّل تطوّراً لتجربتي الأولى.

في الليلة السابقة كان سيفن قد قال: «دعيني أُخمِّن. التجربة الأولى كانت تعويضاً عن إخفاق، والثانية كانت زواجاً».

«كيف عرفت؟».

ضحك. «لأنَّ حالتك نمطيّة».

أخذتُ أُحرِّك خنصري حركة دورانيّة داخل مشروبي. كان جعل إصبعي يبدو منقسماً ومعقوفاً خدعة بصريّة. «الآخر كان من شركة كلوب مِدْ السياحية، مُدرباً على ركوب الأمواج بالقارب».

قال سيفن: «لا بدّ أنَّ هذه العلاقة كانت تستحق العناء».

أجبتُ: «كان رائعاً جداً. وقضيبه بحجم سجق ضخم».

«آخ».

قلت متأمّلة: «في الواقع، لم أكن أشعر به البتّة».

رسم سيفن ابتسامة واسعة. «إذن هو الذي كان نصف رجل».

تحول لوني إلى الأحمر القانيّ. اعترفتُ «كلا، هذا كان رجلاً آخر. لا أعرف اسمه. تستطيع أنْ تقول إنني استيقظت فوجدته يعتليني، بعد ليلةٍ كهذه».

أعلنَ سيفن: «أنتِ أشبه بحطام قطار من التاريخ الجنسيّ».
لكنَّ هذا القول غير دقيق. إنَّ القطار المنطلق بأقصى سرعة يؤدي إلى وقوع حادث. وأنا سوف أقفز على السكّة. بل سوف أربط نفسي بالمُحرِّك المُسرِع. هناك جزء غير منطقيّ مني ما زال يصدِّق بأنّه إذا أردتَ لسوبرمان أنْ يظهر، فينبغي أولاً أنْ يكون هناك مَنْ يستحق الإنقاذ.

إنَّ كيت فيتزجيرالد شبح ينتظر أنْ يتجسَّد. جلدها يكاد يكون شفّافاً، وشعرها شديد الصفاء حتى يكاد ينزف على كيس الوسادة. يُغمغم براين: «كيف حالك، يا حبيبتي؟»، ويميل لكي يقبّلها على جبينها.
تقول كيت مازحة: «أعتقد أنني قد أُضطرّ إلى إفساد منافسة أيرون مان».
آنّا تحوم عند الباب أمامي؛ وسارة تمدّ يدها. إنَّ آنّا تحتاج إلى كل التشجيع لكي تقترب من فراش كيت، وأُبرِز في ذهني هذه الإيماءة الصغيرة الموجَّهة من الأم إلى الطفلة. ثم تراني سارة واقفة عند العتبة. وتقول: «براين، ماذا تفعل هذه هنا؟».
أنتظر من براين أنْ يشرح لها، ولكن لا يبدو أنّه يميل إلى نطق أيّة كلمة. لذلك افتعلتُ ابتسامة زائفة على وجهي وتقدَّمت. «لقد سمعتُ أنَّ كيت تشعر بتحسّن هذا اليوم، ورأيتُ أنّ هذا ربما هو الوقت المناسب للتحدث معها».
تكافح كيت للنهوض بالارتكاز على مِرفقيها. «مَنْ أنت؟».
توقّعتُ من سارة أنْ تبدأ الشجار، لكنَّ آنّا هي التي بدأتْ ورفعت صوتها، قالت: «لا أعتقد أنها فكرة جيدة»، على الرغم من معرفتها أنَّ هذا هو السبب الذي من أجله أتيتُ إلى هنا. «أعني، إنَّ كيت ما زالت مريضة جداً».
استغرقَ مني بعض الوقت لأفهم أنَّ في حياة آنّا، كل مَنْ يريد أنْ يتحدث مع كيت يقفُ في صف كيت. إنها تبذل أقصى جهدها لكي تمنعني من الارتداد عن عزمي.
تُضيف سارة على عَجَل «أتعلمين، إنَّ آنّا على صواب. إنَّ كيت بالكاد بدأتْ تتحسَّن».
أضعُ يدي على كتف آنّا. «لا تقلقي». ثم ألتفت نحو أمّها. «إنَّ فهمي لسبب رغبتكِ في جلسة الاستماع هذه-».

قاطعتني سارة بحِدَّة. «سيدة رومانو، هلّا تحدّثنا قليلاً في الخارج؟».

نخرج إلى الرواق، وتنتظر سارة ريثما تمرّ إحدى الممرّضات حاملة صينية عليها حقن. تقول: «أعرف رأيك فيَّ».

«سيدة فيتزجيرالد-».

تهزّ رأسها رفضاً. «أنت تدافعين عن آنا، وهذا ***واجبك***. لقد سبقَ لي أنْ مارستُ المُحاماة ذات يوم، وأنا أتفهَّم. إنه عملك، وجزءٌ منه هو معرفة ما يجعل منّا ما ***نحن عليه***»، وتدعكُ جبينها بإحدى قبضتيها. «أما عملي ***أنا*** فهو الاعتناء بابنتيّ. إنَّ إحداهما مريضة في حالة خطِرة، والأخرى شديدة التعاسة. قد لا أكون قد وعيتُ الأمر برمّته وعياً تامّاً بعد، ولكنْ... لا أعلم إنْ كانت حالة كيت سوف تتحسّن بوتيرة أسرع إذا اكتشَفَتْ أنَّ سبب وجودك هنا هو أنَّ آنا لم تسحب دعواها بعد. ولهذا أطلبُ منكِ ألّا تُخبريها، أيضاً. أرجوك».

أومئ برأسي ببطء، وتستدير سارة لتعود إلى غرفة كيت. تضع يدها على الباب، وتتردَّد. تقول: «أنا أحبّ ***كلتيهما***»، وهذه مُعادلة من المُفترَض بي أنْ أتوصّل إلى حلّها.

أخبرتُ سيفن عامل البار بأنَّ الحبَّ الحقيقيّ شرير.

قال، وهو يُغلِقُ درج صندوق النقود: «إلّا إذا كان الحبيبان قد تجاوزا الثامنة عشرة».

حينئذٍ كان البار نفسه قد أصبح جزءاً إضافيّاً، جذعاً ثانياً يحمل جذعي الأول. وأُشدِّد قائلة: «أنتَ ***تُبهِر*** الأنفاس ***وتسلب*** المقدرة على نطق كلمة واحدة». وأوجّه طرف زجاجة المشروب الفارغة نحوه. «***وتخطف*** القلب».

يمسح أمامي مباشرة بمنشفة الأطباق. «إنَّ أي قاضٍ جدير بأنْ يرفض هذه القضيّة».

«قد تُدهَش إذا علِمتَ أنَّ هذا لم يحدث».

نشر سيفن المنشفة على البار النحاسيّ لكي تجفّ. «في رأيي، يبدو هذا جُنحة».

أرحتُ وجنتي على قطعة الخشب الرطبة والباردة. قلت: «مستحيل. حالما تتورّط فيه، يدوم إلى آخر الحياة».

يأخذ براين وسارة آنّا معهما إلى الكافيتريا. وأبقى وحيدة مع كيت، الفضوليّة بصورة جليّة. وأتخيَّل أنَّ عدد المرات التي تركتْها أمّها خلالها وحدها طوعاً يمكن عدَّها على أصابع يديها. وشرحتُ قائلة إنني أساعد العائلة على اتّخاذ بعض القرارات حول العناية بصحتها».

خمَّنتْ كيت «أأنتِ من لجنة الأخلاق، أم من الهيئة القانونيّة للمستشفى؟ تبدين مُحاميّة».

«وكيف يبدو المُحامي؟».

«يُشبه الطبيب، عندما لا يريد أنْ يُخبرك بما تقوله المخابر».

جررتُ كرسيّاً. «حسن، يُسعدني أنْ أسمع أنكِ أحسن حالاً اليوم».

تقول كيت: «نعم، بالأمس كنتُ ظاهريّاً خارج الوعي، كنتُ مُخدَّرة إلى درجة أنني رأيت أوزي وشارون[1] يُشبهان أوزي وهارييت[2]».

«أتعرفين وضعك حاليّاً، أي من الناحية الطبيّة؟».

تومئ كيت إيجاباً. «بعد إجراء زرع نقي العِظام، ظهر لديّ أعراض مقاومة ذلك النقيّ -وهذا أمر جيد بصورة ما، لأنه يطرد سرطان الدم، لكنّه يتسبَّب في ظهور أشياء غريبة على الجلد وعلى أعضاء الجسم. وأعطاني الأطباء مركّب الستيرويد والسيكلوسبورين لكي يضبطها، وقد نجحت الطريقة، لكنّه عمل أيضاً على تدمير كليتيّ، وهي الحالة الطارئة التي مررتُ بها طوال شهر. وهذا ما كان يحدث- ما إنْ يُرمموا تسرُّباً يجري في الحاجز حتى يبدأ آخر. هناك دائماً شيء يتداعى في جسمي».

قالت هذا بطريقة عادية جداً، كأنني أسألها عن حالة الطقس أو ماذا يوجد على قائمة طعام المستشفى، كان في استطاعتي أنْ أسألها إنْ كانت تحدثت مع اختصاصيِّ الكُلى عن عمليّة نقل الكلية، وعمّا إذا كانت تنتابها مشاعر خاصّة حول الخضوع لأساليب عديدة مختلفة ومؤلمة في المُعالجة. لكنَّ هذا بالضبط ما كانت كيت تتوقّع أنْ أسألها عنه، ولعلَّ هذا هو السبب في

1- أوزي أوزبورن وشارون: هما نجم الروك المشهور وزوجته. المترجم.

2- أوزي وهارييت: نجما مسلسل تلفزيوني كوميدي بعنوان «مغامرات أوزي وهارييتْ». المترجم.

أنَّ السؤال الذي خرج من فمي كان مختلفاً تماماً. «ماذا تريدين أنْ تُصبحي عندما تكبرين؟».

نظرتْ إليّ بإمعان «لم يسبق لأحد أنْ سألني عن هذا. ما الذي دفعكِ إلى الاعتقاد أنني سوف أكبر؟».

«وما الذي دفعكِ إلى الاعتقاد أنكِ لن تكبري؟ أليس هذا هو السبب في أنكِ تفعلين هذا كلّه؟».

حالما أعتقدُ أنها لن تجيب عن سؤالي، تتكلَّم. «لطالما أردتُ أنْ أكون راقصة باليه» وترفع ذراعها، في وضعٍ راقص ضعيف. «أتعلمين بمَ تتصف راقصات الباليه؟».

أقول في نفسي، باضطراب في عادة الأكل.

«بالقُدرة على التحكُّم المُطلَق. وفيما يتعلَّق بأجسادهن، يعرفنَ بدقّة ماذا سيحدث»، ثم تهزّ كيت كتفيها بلامبالاة، وتعود إلى اللحظة الراهنة، إلى غرفة المستشفى هذه. تقول: «لا يهمّ».

«أخبريني عن أخيك».

تبدأ كيت بالضحك. «يبدو أنكِ لم تسعدي بمقابلته بعد».

«لم أفعل حتى الآن».

«تستطيعين بكل سهولة أنْ تكوّني رأياً عن جِسّ من اللحظات الثلاثين الأولى للقائه. إنّه يتورّط في الكثير من الأمور السيئة التي لا ينبغي أنْ يتورّط فيها».

«تعنين المخدرات، والكحول؟».

تقول كيت: «تابعي».

«أكان صعباً على عائلتك أنْ تتعامل مع ذلك؟».

«في الواقع، نعم. ولكن لا أعتقد حقاً أنّه يقوم بها عن قصد. الخطأ يكمن في الطريقة التي يُنظَر بها إليه، أتفهمين؟ أعني، تخيّلي الوضع إذا كنتِ سنجاباً يعيش في قفص للفيل في حديقة الحيوان. هل يذهب أحدٌ إلى هناك ويقول، هيه، *أترون ذلك السنجاب*؟ كلا. لأنَّ هناك شيئاً آخر أكبر حجماً

بكثير سوف يجذب انتباهك أولاً». وتُمرِّر كيت أصابعها على أعلى وأسفل أحد الأنابيب البارزة من صدرها. «أحياناً يسرق بعض السلع المعروضة، وأحياناً أخرى يسكر. وفي العام الفائت، قام بخدعة إصابته بالجمرة الخبيثة. هذه الأشياء التي يقوم بها جِسّ».

«وآنّا؟».

بدأتْ كيت تثني غطاء السرير على شكل طيّات على حِجرها. «في إحدى السنوات كنتُ في كل يوم عطلة، وأعني بذلك مثلاً يوم الذكرى، أمكث في المستشفى. لم يكن ذلك مُخطَّطاً له، طبعاً، ولكن هذا ما حدث. وكانت هناك شجرة عيد ميلاد في غرفتي، وكان يجري صيد بيض الفصح في الكافيتريا، وكنا نحصل على الحلوى من الناس في جناح تجبير العِظام. كانت آنّا في حوالي سن السادسة، وغضبتْ غضباً شديداً لأنها لم تتمكن من إحضار ألعاب ناريّة إلى المستشفى في عيد الرابع من تموز -بسبب وجود خيام الأكسجين»، ورفعتْ كيت نظرها إليّ. «وهربتْ. لم تبتعد كثيراً، أو ما شابه- أعتقد أنها كانت قد وصلت إلى البهو عندما أمسك بها أحدهم. كانت ستبحث عن عائلة أخرى تنتمي إليها، كما قالت. وكما قلت، لم تكن قد تجاوزت السادسة من العمر، ولم يأخذ أحد كلامها على محمل الجد. لكنني كنتُ أتساءل عن شعور المرء عندما يكون طبيعيّاً. ولذلك أنا أفهم تماماً سبب تساؤلها هي أيضاً عن هذا الأمر».

«عندما لا تعانين من المرض، هل تكون صلتك بآنّا جيدة؟».

«أعتقد أننا كأيّة أختين. نتشاجر حول سماع الاسطوانات؛ ونتحدث عن الشبّان الظريفين؛ وتسرق كلٌّ منا طلاءَ أظافر الأخرى الجيد. هي تعبث بأغراضي وأنا أصرخ؛ وأنا أعبث بأغراضها وهي تصرخ في أرجاء المنزل. أحياناً تكون رائعة. وفي أحيانٍ أخرى أتمنى لو أنّها لم تولَد».

يبدو هذا الكلام مألوفاً بامتياز إلى درجة أنني رسمتُ ابتسامة عريضة. «أنا لدي أخت توأم. وكلما كنتُ أقول هذا، كانت أمي تسألني إنْ كان باستطاعتي حقاً وفعلاً أنْ أتخيَّل نفسي طفلة وحيدة».

«أكنتِ تتخيلين ذلك؟».

أضحك. «أوه... لا شك في أنّه مرَّت عليّ أوقات استطعتُ خلالها أنْ أتخيّل حياتي من دونها».

لا تبتسم كيت البتّة. وتقول «في الواقع، إنَّ أختي هي التي عليها دائماً أنْ تتخيَّل الحياة من دوني».

سارة

1996

ليلاً، تُصبح كيت شبكة طويلة من الأذرع والسيقان، أحياناً تُشبه مخلوقاً مصنوعاً من أشعة الشمس ومكانس كهربائيّة أكثر مما تشبه فتاة صغيرة. أُدخِلُ رأسي إلى الغرفة للمرة الثالثة في صباح ذلك اليوم، فأجدها ترتدي ثوباً مختلفاً. وفي هذه المرة كان ثوباً أبيض عليه ثمار كرز حمراء. أقول لها: «سوف تتأخرين عن حفلة عيد ميلادك».

تتجرَّد كيت من الثوب، خارجة من الفتحة العلويّة. «أبدو كقمع من البوظة».

أُشير «هناك أشياء أسوأ».

«لو أنكِ مكاني، هل كنتِ ارتديتِ التنورة القرنفليّة أم تلك المُخطَّطة؟».

أنظرُ إلى كلتيهما، كبركتين على الأرض. «القرنفليّة».

«أنتِ لا تُحبّين الخطوط».

«إذن ارتدي تلك».

تُقرِّر «سوف أرتدي التي عليها ثمار الكرز»، وتستدير لكي تحملها. ثمة رضّة على خلفيّة فخذها بحجم نصف دولار، هي لطخة ثمرة الكرز التي نفذتْ خلال القماش.

أسألها: «كيت، ما هذا؟».

تلتفّ حول نفسها، وتنظر إلى البقعة التي أشرتُ إليها. «أعتقد أنني سحقتها».

منذ خمس سنوات وكيت تُجري عمليات تخفيف الألم. في أول الأمر،

عندما بدا أنَّ حبل نقل الدم يعمل، انتظرتُ أحداً يُخبرني بأنَّ ذلك كلّه خطأ. وعندما اشتكت كيت من ألمٍ في قَدَمِها، هرعتُ إلى الدكتور تشانس، متيقّنة من أنَّ ذلك ألم العِظام يُعاودُ الظهور، وإذا بي أكتشف أنَّ حجم قَدَمِها أصبح أكبر من مقاس حذائها الرياضيّ. وعندما سقطتْ على الأرض، بدل أنْ أُقبِّل مكان الخدش، سألتها إنْ كانت مُخثرات الدم جيدة.

يظهر الرضّ عندما يحدث نزف في نسيج تحت البشرة، ويكون في المعتاد -ولكن ليس دائماً- نتيجة صدمة.

ومرّت خمسة أعوام كاملة، هل سبقَ أنْ ذكرتُ هذا؟

تُبرِز آنّا رأسها من باب الغرفة. «يقول البابا إنَّ أول سيارة قد وصلتْ وإذا كانت كيت تريد أنْ تنزل وهي ترتدي كيس طحين لا يهمّه. ما هو كيس الطحين؟».

تنتهي كيت من شدّ الثوب الصيفيّ فوق رأسها ثم ترفع الحافّة وتدعك الرضّ، تقول: «هاه».

في الطابق السفليّ، هناك خمسة وعشرون تلميذاً من الصف الثاني، وكعكة على شكل وحيد قرن، وطفل من المدرسة المحليّة لجؤوا إليه من أجل صناعة سيوف ودببة وتيجان من البالونات. فتحتْ كيت هداياها -قلائد مصنوعة من خرز برّاق، صناديق للعدّة، أدوات شخصيّة للدمية باربي. وأبقت الصندوق الكبير ليكون الأخير- الصندوق الذي أحضرناه أنا وبراين لها. وداخل طاس من الزجاج كانت تسبح سمكة ذهبيّة بذيلٍ كالمروحة.

لطالما رغبت كيت في اقتناء حيوان أليف. لكنَّ براين كان يُعاني من الحساسية ضد القطط والكلاب التي تحتاج إلى الكثير من العناية، مما أدّى بنا إلى هذه النتيجة. وكانت سعادة كيت لا توصَف. وظلّتْ تحمل الطاس معها طوال فترة الحفلة. وسمّتها هرقل.

بعد انتهاء الحفلة، وبينما كنا نقوم بأعمال التنظيف، كنتُ أُحدِّقُ إلى السمكة الذهبيّة. البرّاقة كقطعة نقديّة، التي تسبح ضمن دوائر، سعيدة لأنها تبقى في مكانها.

لا يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين ثانية ليُدرك المرء أنّه سوف يُلغي كل

خِططه، ويمحو كل ما كان يتباهى بإدراجه على قائمة أعماله. ولا يستغرق منه أكثر من ستين ثانية ليفهم أنّه حتى إذا خُدِعَ إلى درجة اعتناق هذا الاعتقاد، فليست لديه حياة عاديّة.

عاد روتين شفط نقي العِظام -كنا قد وضعناه ضمن جدول قبل أنْ أرى ذلك الرض بوقتٍ طويل- مع ظهور بعض الخلايا البيضاء غير العادية تطفو. ثم بيَّنَ اختبار تفاعل البوليمر -الذي يسمح بدراسة الـ DNA- أنّ الكروموزومات رقم 15 و17 غيَّرا موقعهما في كيت.

هذا كلّه يعني أنَّ كيت الآن هي في مرحلة انتكاس جُزيئيّ، والأعراض السريريّة ليست بعيدة عن ذلك. قد لا تُطلِق دفقات طوال شهر. قد لا نعثر على دم في بولها أو غائطها طوال عام. لكنَّ ذلك سيحدث، لا مناص.

يقولون إنَّ كلمة، *انتكاس*، كما يمكن أنْ يقولوا **عيد ميلاد** أو ***الموعد النهائي لتسديد الضرائب***، شيء يحدث بشكلٍ روتينيّ جداً بحيث أضحى جزءاً من تقويمك الداخليّ، شئتَ أم أبيت.

شرح الدكتور تشانس أنَّ هذه هي إحدى المناظرات الكبرى بالنسبة إلى المُتخصصين في علم الأورام - هل تُصلِح دولاباً ليس مكسوراً، أم تنتظر إلى أنْ تنهار العربة؟ إنّه يوصي بأنْ نعطي كيت الحمض الريتوني. وهو على شكل أقراص بنصف حجم إبهامي، سُرِقَ في الأساس من طبيب صيني طاعن في السن كان يستخدمه منذ سنين طويلة. وخِلافاً للعلاج الكيميائيّ، الذي يتغلغل ويقتل كل ما يُصادف في طريقه، فإنَّ الحمض الريتونيّ يتوجّه مباشرة إلى الكروموزوم 17. وبما أنَّ انتقال الكروموزمين 15 و17 من مكانيهما هو جزئيّاً ما يمنع التخثّر من الحدوث بشكل صحيح، فإنَّ الحمض الريتونيّ يفكّ التفاف الجينات التي ترابطت معاً... ويمنع السلوكيات الغريبة من الاستمرار.

يقول الدكتور إنَّ الحمض الريتوني قد يُخفّف من جديد آلام كيت. وبالتالي، قد تُنمّي مُقاومة لها.

يلج جِسّ غرفة الجلوس حيث أجلس على الأريكة. «ماما؟». وكنتُ حينئذٍ قد أمضيت فيها ساعات عديدة، ويبدو أنني لا أستطيع أنْ أدفع نفسي إلى النهوض والقيام بأيّ من الأمور التي من المفترَض أنْ أقوم بها، إذ ما فائدة إعداد وجبات المدرسة أو جعل حاشية للبنطلون أو دفع قيمة فاتورة التدفئة؟

يقول جِسّ من جديد: «ماما؟ لم تنسي، أليس كذلك؟».

أنظر إليه وكأنه يتكلَّم باليونانيّة. «ماذا؟».

«لقد قلتِ إنكِ ستأخذينني لنشتري حافظة لنعل الحذاء بعد أنْ نذهب إلى طبيب تقويم الأسنان. أنتِ *وعدتِ*».

نعم، وعدتُ. لأنَّ مباراة كرة القدم تبدأ بعد يومين، وحذاء جِسّ القديم أصبحَ ضيّقاً على رجليه. أما الآن لا أعلم إنْ كان باستطاعتي أنْ أجرّ نفسي إلى عيادة طبيب تقويم الأسنان، حيث ستبتسم موظفة الاستقبال لكيت وتخبرني، كما تفعل دائماً، كم أنَّ أطفالي جميلون. وثمة شيء في التفكير في الذهاب إلى مخازن سبورتس أوثورايتي يبدو بذيئاً تماماً.

أقول: «سوف ألغي الموعد مع عيادة طبيب تقويم العِظام».

«عظيم» ويبتسم، ويومض فمه الفضّيّ، «هل نستطيع أنْ نذهب فقط لكي نُحضِر حافظة النعل؟».

«الآن ليس وقتاً مناسباً».

«ولكن–».

«*جِسّ. كفى*».

«لا أستطيع أنْ ألعب إذا لم أحصل على حذاء جديد. وأنتِ حتى لا *تفعلين* أي شيء. وتكتفين بالجلوس هنا».

أقول بهدوء: «إنَّ أختك مريضة مرضاً شديداً. وأنا آسفة إنْ كان ذلك يتعارَض مع موعدك مع طبيب الأسنان أو مع خطّتك للذهاب وشراء حافظات للنعل. لكنَّ هذه الأمور لا ترقى في أهميتها إلى مستوى النظام الأكبر للأشياء في الوقت الحالي. أنا أعتقد أنّه بما أنكَ في العاشرة من العمر، قد تستطيع أنْ تكون ناضجاً بالقدر الكافي لتدرك أنَّ العالم بأسره ليس دائماً يدور حولك».

أطلَّ جِسّ من النافذة، حيث كيت تمتطي فرعاً في شجرة سنديان، وترشد آنّا إلى كيفيّة التسلّق. يقول «نعم، **معك حق**، إنها مريضة. لِمَ لا تنضجين *أنت*؟ لِمَ لا تُدركين أنَّ العالم لا يدور حولها هي؟».

للمرة الأولى في حياتي أبدأ بفهم كيف يمكن للآباء أنْ يضربوا أبناءهم–

لأنك تستطيع أنْ تنظر في عيونهم وترى انعكاس نفسك التي تتمنى ألّا تكونها. ويهرع جِسّ إلى الطابق العِلويّ لكي يصفق باب غرفة نومه.

أُغمضُ عينيّ، وآخذ بضعة أنفاس عميقة. وفجأة يخطر في بالي أنَّه ليس كل شخص يموت بفعل الشيخوخة. يمكن أنْ تضربه سيارة. يمكن أنْ يذهب ضحيّة تحطّم طائرة. أو أنْ يختنق من الفول السوداني. ليست هناك أيّة ضمانات لأيّ شيء، وخاصّة فيما يتعلّق بالمستقبل.

أرتقي إلى الطابق العِلوي وأنا أتنهّد، وأقرع باب غرفة ابني. كان قد اكتشفَ حديثاً الموسيقى؛ كانت تضجّ وتصلني من خلال الخط الرفيع من الضوء المتسرِّب من تحت عقب الباب. عندما أخفضَ جِسّ ضجيج الستيريو سرعان ما خفتت الأنغام. «*ماذا*».

«أريد أنْ أتحدث معك. أريد أنْ أعتذر».

أسمع صوت حفيف أقدام على الجانب الآخر من الباب، ومن ثم يُفتَح. كان الدم يُغطّي فم جِسّ، بأحمر شِفاه مصّاص دماء؛ وقطع من السلك تبرز كدبابيس الخيّاطة. وألاحظ الشوكة التي يحملها، وأُدركُ أنَّه هكذا كان يقتلع المشابك. يقول: «الآن لم تعودي مُضطرة إلى اصطحابي إلى أي مكان».

يمرّ أسبوعان وكيت تتلقّى الحمض الريتوني. وذات يوم يقول جِسّ، بينما أنا أجلب لها قرص الدواء، «أتعلمين أنَّ السلحفاة العملاقة يمكن أنْ تعيش حتى 177 عاماً. لقد ظهر في برنامج «***عجائب وغرائب ريبلي***». «يمكن للبطلينوس القطبيّ أنْ يعيش 220 عاماً».

تجلس آنّا على المنضدة، تأكل زبدة الفول السوداني بالملعقة. «ما هو البطلينوس القطبيّ؟».

يقول جِسّ: «لا يهمّ. يمكن للببغاء أنْ يعيش ثمانين عاماً. والقطة يمكن أنْ تعيش ثلاثين».

تسأل كيت: «وماذا عن هرقل؟».

«يقولون في كتابي إنّه مع العناية الشديدة، يمكن للسمكة الذهبيّة أنْ تعيش سبعة أعوام».

يراقب جِسّ كيت وهي تضع القرص على لسانها، وتتناول رشفة من الماء لكي تبتلعه. يقول: «لو كنتِ هرقل، لكنتِ قد مُتِّ الآن».

نجلس أنا وبراين على كرسيينا الخاصّين في عيادة الدكتور تشانس. كانت قد مرّتْ خمسة أعوام، لكنَّ المقعدين كانا متطابقين علينا كفردتيّ قفّاز لعبة بيسبول قديم. حتى الصور الفوتوغرافيّة التي على طاولة مكتب أخصّائي الأورام لم تتغيَّر -تمثّلان زوجته تعتمر القبعة ذات الحواف العريضة وهي جالسة على الحاجز المائي الصخريّ في نيوبورت؛ وابنه في وضعٍ ساكن وهو في سن السادسة، يحمل سمكة تراوت مُرقّطة- يُساهم في الشعور بأنَّه على الرغم مما أؤمن به، فإننا لم نغادر هذا المكان أبداً.

ونجح مفعول الحمض الريتونيّ. فطوال شهر، عـادتْ كيت إلى تخفيف الألم الجزيئيّ. ومن ثم بيَّنَ الفحص العام وجود المزيد من البقع المريضة في دمها.

يقول الدكتور تشانس: «يمكننا أنْ نستمر في إعطائها الحمض الريتوني، لكنني أعتقد أنَّ فشله يُخبرنا منذ الآن أنها تجاوزت ذلك المسار».

«ماذا عن ازدراع نقي العِظام؟».

«هذه مهمة خطِرة - خاصّة بالنسبة إلى طفلة لم تُبدِ أعراض انتكاس سريري كامل»، ونظر الدكتور تشانس إلينا. «هناك شيء آخر يمكننا أنْ نُجرّبه أوّلاً. يُسمّى تشريب الكريات اللمفاويّة للواهب DLI. أحياناً يمكن لتشريب خلايا دم بيضاء من واهب متوافق أنْ يُساعد الاستنساخ الأصليّ لخلايا حبل الدم على مكافحة خلايا اللوكيميا. يمكن تشبيهه بجيش النجدة، لدعم الجبهة الأماميّة».

يسأل براين: «هل سيُخفِّف هذا من آلامها؟».

يهزّ الدكتور تشانس رأسه نفياً: «إنه مجرد إجراء بديل مؤقَّتْ -في الغالب، سوف تمر كيت بانتكاسة كاملة- لكنها في حاجة إلى وقت من أجل بناء دفاعاتها قبل أنْ نندفع إلى علاج أشدّ عنفاً».

أسأل: «وكم من الوقت سيستغرق الحصول على الكريّات اللمفاويّة هنا؟».

يلتفت الدكتور إليّ. «هذا يتوقف. هل تستطيعين إحضار آنّا إلى هنا قريباً؟».

عندما فُتِحَتْ أبواب المصعد لم يكن هناك إلّا شخص آخر داخله، رجل متشرِّد يضع نظارات شمسيّة زرقاء لمّاعة ويحمل ستة أكياس تبضّع بلاستيكية ممتلئة بالأسمال البالية. زعقَ حالما دخلنا: «أغلقوا الباب، اللعنة. ألا ترون أنني أعمى؟».

أضغط الزر من أجل الهبوط إلى البهو. «أستطيع أنْ آخذ آنّا عندي بعد انتهاء دوام المدرسة. إنهم يغادرون روضة الأطفال غداً عند الظهيرة».

يُزمجر الرجل المتشرِّد: «لا تلمسي حقيبتي».

أُجيب، بتشامُخ وبأدب: «لم ألمسها».

يقول براين: «لا أعتقد أنك يجب أنْ تفعلي».

«أنا لم أقترب منه البتّة!».

«سارة، أنا أقصد الـ DLI. لا أعتقد أنّه ينبغي أنْ تأخذي آنّا من أجل أنْ تهب الدم».

يتوقف المصعد، من دون أي سبب، عند الطابق الحادي عشر ثم ينغلق الباب من جديد.

يبدأ المتشرّد يبحث داخل حقائبه البلاستيكيّة. أُذكِّر براين: «عندما استقبلنا آنّا عندنا، تيقّنّا من أنها سوف تكون واهبة كيت».

«حدثَ هذا مرَّة واحدة. وهي لا تتذكَّر أنَّ أيّاً منا فعل ذلك معها».

أنتظرُ إلى أنْ ينظر إليّ. «هل أنتَ مستعد لوهب الدم لكيت؟».

«يا إلهي، يا سارة، أي سؤالٍ هذا-».

«أنا أيضاً مُستعدّة. أنا مستعدة لإعطائها نصف قلبي، وحقّ الله، إنْ كان ذلك يُساعدها. إنَّ المرء يفعل أقصى ما في وسعه، عندما يتعلَّق الأمر بالأشخاص الذين يُحبّهم، صحّ؟». يُحني براين رأسه ويومئ إيجاباً. «ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنَّ آنّا سوف ينتابها شعور مختلف؟».

يُفتَح باب المصعد، لكنَّ براين وأنا نبقى في الداخل، نتبادل التحديق. ومن الخلف، يشقّ المتشرِّد طريقه بيننا، وغلّته تُصلصل بين ذراعيه. يصرخ

«كفاكما صراخاً»، على الرغم من أننا نقف وسط صمت تامّ. «ألا تريان أنني أصمّ؟».

تشعر آنّا كأنها في عطلة. أمّها وأبوها يقضيان وقتاً معها، وحدهم. إنها حريصة على الإمساك بكلتيّ يدينا طوال فترة سيرنا عبر أرض موقف السيارات. فماذا سيحدث إذا كنا ذاهبين إلى المستشفى؟

لقد شرحتُ لها أنَّ كيت ليست على ما يُرام، وأنَّ الأطباء في حاجة إلى أخذ شيءٍ من آنّا وإعطائه إلى كيت لكي تتحسَّن حالتها؟ ورأيتُ أنَّ تلك المعلومات كافية.

ننتظر في غرفة الفحص، وثمة رسوم بالخطوط الملوّنة لحيوانات زاحفة مُجنّحة منقرضة ولديناصورات الـ تي-ريكس. تقول آنّا: «اليوم ونحن نتناول وجبة خفيفة قال إيثان إنَّ الديناصورات كلها ماتت لأنها أُصيبَت بالبرد، ولكن لا أحد صدَّقه».

يرسم براين ابتسامة عريضة. «ولِمَ في اعتقادك ماتت؟».

رفعتْ نظرها إليه «لأنها، في الواقع، تبلغ من العمر ملايين السنين. هل كانت تُقام حفلات أعياد الميلاد حينئذٍ؟».

يُفتَح الباب، وتدخل أخصائيّة فحص الدم. «مرحباً، يا جماعة. ماما، هلّا وضعتِها على حجركِ؟».

وهكذا أزحفُ نحو الطاولة وأضعُ آنّا بين ذراعيّ. ويتمركز براين خلفنا، لكي يتمكن من الإمساك بكتفيّ آنّا ومِرفقها وتثبيتها. تسأل الطبيبة آنّا، التي ما زالتْ تبتسم، «جاهزة؟».

ثم ترفع حقنة.

تعِدها الطبيبة، «لن تشعري بأكثر من وخزة صغيرة»، مُستخدمة الكلمات الخاطئة تماماً، وتبدأ آنّا تتلوّى. وتضرب ذراعاها وجهي، وبطني. ويعجز براين عن تثبيتها، ويصرخ قائلاً لي، من فوق زعيقها: «حسبتُ أنكِ *أخبرتها*!».

تعود الطبيبة، التي كانت قد تركت الغرفة من دون حتى أنْ ألاحظ، مع

عدد من الممرضات. تقول، بينما الممرضات يُخلّصنَ آنّا من بين ذراعيّ ويُهدِّئنَ من روعها بأيديهن الناعمة وكلماتهن الرقيقة، «إنَّ الأطفال وعمليّة الفصد لا يتوافقان أبداً. لا تقلقي؛ نحن محترفات».

مشهدٌ مُتكرِّر، كما حدث في اليوم الذي خضعَتْ كيت للفحص. أقول لنفسي، *احذري مما تتمنين*. إنَّ آنّا تُشبه أختها.

بينما أنا أقوم بتنظيف غرفة الفتاتين يرتطمَ مقبض المكنسة الكهربائيّة بحوض السمكة هرقل ويُطيح بالسمكة في الهواء. لم يتحطَّم الزجاج ولكنْ استغرقَ مني برهة لأعثر على السمكة وهي تتخبَّط جافّة على السجّادة تحت طاولة مكتب كيت.

أهمسُ «انتظري، يا هذه»، وأقذف بها إلى الحوض. وأملؤه بالماء من مغسلة الحمّام.

تطفو على السطح. أناشدها في نفسي، *لا تموتي، أرجوك*.

أجلسُ على حافة السرير. كيف يمكن أنْ أخبر كيت بأنني قتلتُ سمكتها؟ هل ستلاحظ إذا هرعتُ إلى محل بيع الحيوانات الأليفة واشتريت بديلاً لها؟

فجأة أجد آنّا إلى جواري، وقد عادتْ إلى المنزل من دوام روضة الأطفال الصباحيّ. «ماما؟ لِمَ لا تتحرك هرقل؟».

أفتحُ فمي، فيذوب الاعتراف على لساني. ولكن في تلك اللحظة ترتعشُ السمكة الذهبيّة على جنبها، وتغوصُ، وتبدأ بالسباحة من جديد. أقول: «ها هي ذي، في أحسن حال».

عندما يبدو أنَّ خمسة آلاف كريّة لمفاويّة عدد غير كافٍ، يطلب الدكتور تشانس عشرة آلاف. وموعد آنّا الثاني من أجل سحب الكريات اللمفاويّة يقع في منتصف حفل عيد ميلاد فتاة من صفّها الذي سيتمّ في صالة ألعاب الجمباز. وأوافق على السماح لها بالذهاب وقضاء فترة وجيزة، ومن ثم ننتقل من صالة الألعاب إلى المستشفى بالسيارة.

الفتاة أشبه بأميرة من سكاكر وشعرها أشقر يميل إلى البياض، وهي

نسخة طبق الأصل مُصغَّرة عن والدتها. وبينما أخلع حذائي لأشقّ طريقي بصعوبة عبر الأرضيّة المُبطّنة، أحاول بيأس أنْ أتذكَّر أسماءهم. الطفل اسمه... مالوري. والأم اسمها... أهو مونيكا؟ أم مارغريت؟

ألمحُ آنّا في الحال، جالسة على منصّة القفز البهلوانيّ بينما المُدرِّب يجعلهم يقفزون إلى أعلى وإلى أسفل كحبّات الفشار. وتقترب الأمّ مني، وابتسامة تمتد على صفحة وجهها كرتلٍ من أضواء عيد الميلاد. تقول «لابد أنّكِ والدة آنّا، أنا ميتي. أنا شديدة الأسف لأنها ستغادر، ولكن طبعاً، نحن نتفهَّم. لا بدّ أنَّ الذهاب إلى مكان لا يُتاح لأي شخص آخر بالذهاب إليه شيء مُذهل».

إلى المستشفى؟ «حسن، فقط تمنّي ألّا تضطري إلى فعل الشيء نفسه».

«أوه، *أعلم*. لقد أُصِبتُ بالدوار وأنا أستقلّ المصعد». وتستدير نحو منصّة البهلوان. «آنّا، حبيبتي! أمّك موجودة هنا!».

تهرع آنّا عبر الأرضيّة المُبطَّنة. هذا بالضبط ما وددتُ أنْ أفعله لغرفة الجلوس في بيتي عندما كان أولادي كلهم صِغاراً: أنْ أُبطِّن الجدران والأرضيّة والسقف من أجل الحماية. ومع ذلك اتَّضحَ أنّه كان بوسعي أنْ أُدثِّر كيت بورق من البلاستيك، لأنَّ الخطر الذي تتعرَّض له يكمن تحت الجلد.

أحثّها «ماذا يجب أنْ تقولي؟»، وتشكر آنّا والدة مالوري.

«أوه، أهلاً بكم». وتناوِلُ آنّا كيساً صغيراً من الأطايب. «اطلبي من زوجك أنْ يتّصل بنا في أي وقت. سوف يُسعدنا أنْ نستقبل آنّا في أثناء وجودكما في تكساس».

تتردَّد آنّا في أثناء ربط شريط حذائها. أسألُ «ميتي؟ ماذا أخبرتكِ آنّا بالضبط؟».

«أخبرتني بأنَّها مُضطرة إلى المغادرة باكراً لكي يصحبك أفراد العائلة كلهم إلى المطار. لأنه ما إنْ يبدأ التمرين في هيوستن، لن تريهم إلّا بعد الطيران».

«الطيران؟».

«على متن المكوك الفضائيّ...؟».

للوهلة الأولى ذُهِلتُ - مِنْ قيام آنّا باختلاق مثل تلك الحكاية السخيفة، ومِنْ تصديق هذه المرأة لها. أعترفُ «أنا لستُ رائدة فضاء. لا أعلم السبب الذي دفع آنّا إلى قول شيء كهذا».

أرفعُ آنّا لتقف على قدميها، وما زال أحد الشريطين غير مربوط. وأجرّها

إلى خارج صالة الألعاب، ونصل إلى السيارة قبل أنْ أنطق بأيّة كلمة. «لِمَ كذبتِ عليها؟».

تعبُس آنّا. «لِمَ اضطُررتُ إلى ترك الحفلة؟».

لأنَّ أختك أشدّ أهميّة من الكعكة والمثلجات؛ لأنني لا أستطيع أنْ أُخيِّب أملها، ولأنني أردتُ ذلك.

ينتابني غضب شديد لاضطراري إلى محاولة فتح قفل الشاحنة مرّتين قبل أنْ أتمكّن من ذلك. أتّهمها، «كُفّي عن التصرُّف كفتاة في الخامسة»، ومن ثم أتذكَّر أنَّ هذا هو عمرها فعلاً.

يقول براين: «كانت الحرارة عالية جداً. ذابت عدَّة الشاي الفضيّة. وأقلام الرصاص قُصَّت إلى نصفَين».

أرفعُ نظري عن قراءة الصحيفة. «كيف بدأ الأمر؟».

«بقطة وكلب يُلاحق أحدهما الآخر، في أثناء غياب أصحابهما في إجازة. وأشعلا الغاز». ويخلع بنطلونه الجينز، ويجفل. «لقد أُصِبتُ بحروق من الدرجة الثانية لمجرد ركوعي على السطح».

الجلد مسلوخ، ومتقرِّح. أراقبه وهو يدهنه بالمرهم ويُضمّده بالشاش، ويُتابع الكلام، يُخبرني شيئاً عن إطفائيّ مُبتدئ اسمه سيزار انضمَّ إلى جماعته حديثاً. لكنَّ عينيّ انجذبتا إلى عمود حلّ المشاكل في الصحيفة.

عزيزي آبي،

كلما قامت حماتي بزيارتنا، تصرّ على تنظيف البرّاد. يقول زوجي إنها فقط تحاول أنْ تقدِّم لنا يد المُساعدة، لكنني أشعر بأنها تنتقدني. إنها تحطِّم حياتي. كيف أمنع تلك المرأة من تدمير زواجي؟

المُخلِصة،

انتهتْ مدَّة صلاحيتي،

سياتل

أي نوعٍ من النساء هي التي تعتبر هذه مشكلتها الأكبر؟ أتخيّلها تدوِّن رسالة قصيرة إلى العزيز آبي على ورق قرطاسيّة مزيَّن. أتساءل إنْ كانت ربما شعرتْ مرَّة في حياتها بطفل يتحرّك داخلها، بيدين صغيرتين وقدمَين تمشيان بدوائر بطيئة، وكأنَّ داخل الأم هو مكانٌ يجب معرفة تفاصيله بعناية.

يسأل براين، عندما يقرأ العمود من خلف ظهري، «بمَ أنت مهتمة هكذا؟».

أهزّ رأسي غير مُصدِّقة. «هناك امرأة تحطّمتْ حياتها بسبب حلقات من برطمانات الهلام».

يُضيف براين، وهو يضحك، «والكريما الفاسدة».

«والخسّ القذر. أوه يا إلهي، كيف تتحمّل حياتها؟»، ثم نباشر نحن الاثنان بالضحك. كل ما علينا فعله هو أنْ نتبادل النظرات ونضحك بالعدوى بعنفٍ أكبر.

ومن ثم بالفجاءة نفسها التي أصبحَ فيها هذا كلّه مُضحكاً، لم يعُد مُضحِكاً. ليس كلّنا نعيش في عالم تُعتبَر فيه محتويات برّادنا مقياساً لسعادتنا الشخصيّة. إنَّ بعضنا يعملون في أبنيةٍ تحترق حتى تُسوَّى بالأرض، وبعضنا لديهم بنات صغيرات يحتضرن. أقول، بصوت متعثّر: «خسّ قذر لعين. هذا ليس عدلاً».

يجتاز براين أرض الغرفة في لحظة؛ ويضمّني إليه بعناقه. يُجيب: «العدل لا يتحقَّق أبداً، يا حبيبتي».

بعد ذلك بشهر، نعود من أجل وهب دفعة ثالثة من الكريات اللمفاويّة. نجلس أنا وآنّا في عيادة الطبيب، في انتظار أنْ يأتي دورنا. وبعد بضع دقائق تشدّ كُمّي. تقول: «ماما».

ألقي عليها نظرة. آنّا تؤرجح قدميها. وتطلي أظافر أصابعها بطلاء أظافر كيت الذي يؤثّر في المزاج. «ماذا؟».

ترفع ابتسامتها إليّ. «في حال نسيتُ أنْ أخبركِ لاحقاً، أخبركِ الآن بأنَّ الأمر لم يكن سيئاً كما ظننته سيكون».

***

ذات يوم تصل أختي بلا سابق إنذار، وبإذنٍ من براين، تختطفني إلى جناح منفصل في فندق ريتز كارلتون في بوسطن. تقول لي: «نستطيع أنْ نفعل ما نشاء. نرتاد المعارِض الفنيّة، ونتمشّى في شارع فريدوم تريل، ونتناول الطعام في الهاربور» ولكنْ ما أردتُ أنْ أفعل حقاً هو فقط أنْ *أنسى*، وهكذا بعد مرور ثلاث ساعات ها أنا جالسة بجوارها على الأرض، نُجهِزُ على زجاجتنا الثانية من النبيذ التي ثمنها 100$.

أرفعُ الزجاجة من عنقها. «كان بوسعي أنْ أشتري ثوباً بثمن هذه».

تشخر زان. «ربما في الطابق التحتيّ لمحلات فيلين». إنها تضع قدميها على كرسيّ مُطرَّز؛ وجسمها متمدِّد على السجادة البيضاء. وعلى شاشة التلفزيون تنصحنا أوبرا[1] بتحجيم حياتنا. «زيادة على ذلك، عندما تشربين زجاجة نبيذ لا تبدين أبداً بدينة».

أنظر إليها، وفجأة أرثي لحالي.

«كلا. لن تبكي. أجرة الغرفة لا تتضمَّن البكاء».

ولكن فجأة كل ما استطعتُ التفكير فيه هو كم تبدو النساء حمقاوات في برنامج أوبرا، مع محافظهن الممتلئة، وخزاناتهن المكدّسة بالملابس. وأتساءل ماذا أعدَّ براين على العشاء، وإنْ كانت كيت على ما يرام. «سوف أتّصل بالمنزل».

نهضَتْ متكئة على مِرفقها. «كما تعلمين، يُسمَح لك بأخذ فترة استراحة. لا أحد مُضطر إلى أنْ يكون شهيداً طوال الأسبوع وعلى مدار الساعة».

لكنني أُخطئ سماع ما قالت. «أعتقد أنك حالما توقّعين على كونك أصبحتِ أمّاً، فهذه هي نوبة العمل التي يعرضونها عليك».

تضحك زان «أنا قلت ***شهيداً***، وليس ***أمّاً*** [2]».

أبتسمُ قليلاً. «وهل هناك فرق؟».

1- هي أوبرا وينفري مُقدّمة البرامج الأميركيّة الشهيرة. المترجم.

2- أي هناك تشابه في لفظ كلمتيّ Martyr (شهيد) وMother (أم). المترجم

تأخذ سمّاعة الهاتف من يدي. «هل أردتِ أولاً إخراج إكليل الشوك[1] من حقيبة السفر؟ أصغي إلى نفسك، يا سارة، وكفّي عن أنْ تقومي بدور ملكةٍ مأساويّة. نعم، كان نصيبك سيئاً. نعم، شيء سيئ أنْ تكوني كما أنتِ».

تحمرّ وجنتاها. «أنتِ لا تعرفين كيف كانت حياتي».

تقول زان «ولا أنتِ تعرفين. أنتِ لا تعيشين، يا سارة. أنتِ تنتظرين موت كيت».

أباشر بالقول «أنا لستُ–»، لكنني أسكتْ. الحقيقة هي، أنني ***كذلك***.

تداعب زان شَعري وتتركني أبكي. أعترفُ «أحياناً يكون الأمر شديد الصعوبة»، وهي الكلمات التي لم أبُح بها لأي شخص، ولا حتى لبراين.

تقول زان: «ما دام أنّه لا يبقى الأمر كذلك *طوال* الوقت. حبيبتي، كيت لن تموت قريباً لأنَّ لديك كأساً آخر من النبيذ، أو لأنكِ سوف تبيتين ليلة في الفندق أو لأنكِ سمحتِ لنفسك أنْ تضحكي على نكتة رديئة. لذلك اجلسي وارفعي صوتك وتصرّفي كأنكِ شخص طبيعيّ».

أتلفّتُ حولي إلى فخامة الغرفة، إلى التبعثُر الدال على الانحطاط لزجاجات النبيذ وللشوكولاتة بالفريز. أقول، وأنا أمسح عينيّ، «زان، هذا ليس ما يفعله الأناس الطبيعيّون».

تتابع تحديقي. «أنتِ على صواب تامّ». تلتقط جهاز التحكُّم عن بُعد، وتُقلِّب القنوات إلى أنْ تعثر على برنامج جيري سبرينغر. «أهذا أفضل؟».

أبدأ بالضحك، ومن ثم تبدأ هي بالضحك، وسرعان ما تأخذ الغرفة تدور من حولي ونتمدَّد على ظهرينا، نُحدِّق عالياً إلى قمّة السقف وحوافه. وفجأة أتذكّر كيف كانت زان، ونحن صغيرتان، تمشي وتسبقني إلى موقف الحافلة. كان بوسعي أنْ أركض وألحق بها – لكنني لم أفعل أبداً. أردتُ فقط أنْ أتبعها.

يتصاعد الضحك كما البخار، ويسبح خارجاً من النوافذ. وبعد مرور

1– إكليل الشوك: الذي وُضِعَ على رأس السيد المسيح، ورمز المُعاناة وتحمّل العذاب. المترجم.

ثلاثة أيام من سيول الأمطار والفيوض ابتهجَ الأطفال لانتقالهم إلى الخارج، واللعب بكرة القدم مع براين. عندما تكون الحياة طبيعيّة، فهي طبيعيّة جداً.

أدخل غرفة جِسّ، مُحاولة أنْ أخوض بين قطع اللعب البلاستيكيّة والكتب المُصوّرة لكي أضع ملابسه النظيفة على السرير. ومن ثم ألجُ غرفة كيت وغرفة آنّا، وأفصِلُ بين قِطع غسيل كلٍّ منهما.

عندما أضع قميص كيت الرياضيّ على طاولة زينتها أرى السمكة هرقل، تسبح مقلوبة رأساً على عقب. فأمدّ يدي إلى الحوض وأقلبها، ممسكة بها من ذيلها؛ تتخبّط قليلاً ومن ثم تطفو ببطء على السطح، ببطنها الأبيض وفمها الفاغر.

أتذكّر أنَّ جِسّ يقول، إنَّنا إذا أحسنّا معاملة السمك فقد يعيش حتى سبع سنين. وهذه لم تدُم أكثر من سبعة أشهر.

بعد حمل حوض السمك إلى غرفة نومي، أرفع سمّاعة الهاتف وأطلب مكتب الاستعلامات. أقول: «بتكو».

عندما يصلني الاتّصال، أسأل موظفة المكتب عن هرقل. فتسألني: «هل تريدين أنْ تشتري سمكة جديدة؟».

«كلا، بل أريد أنْ أنقذ هذه».

تقول الفتاة: «سيدتي، نحن نتكلَّم عن سمكة ذهبيّة، أليس كذلك؟».

وهكذا أتّصل بثلاثة من الأطباء البياطرة، أحدهم يُعالج السمك. أراقبُ هرقل وهي تُنازع سكرات الموت دقيقة أخرى، ومن ثم أتصل بدائرة عِلم المُحيطات في جامعة رود آيلند وأسأل عن أي أستاذ جامعي متوفّر.

يقول الدكتور أوريستوس لي إنّه يدرُسُ برك المدّ، كالرخويات والصدفيات وقنفذ البحر، لكنّه لا يدرس السمك الذهبيّ. ولكن وجدتُ نفسي أخبره عن ابنتي، المُصابة بحالة حادّة من اللوكيميا APL. وعن هرقل، التي نجت مرةً رغم كل شيء.

أما أخصائي الأحياء المائيّة فلزم الصمت برهة، «هل غيَّرتِ ماءه؟».

«في صباح هذا اليوم».

«هل هطل عندكم هنا الكثير من المطر خلال اليومين الأخيرين؟».

«نعم».

«ألديكم بئر؟».

ما دخل هذا بأي شيء؟ «نعم...».

«مجرد حدس، ولكن بوجود المياه الجارية، يمكن للماء في الجسم أنْ يحتوي العديد من المعادن. املئي الحوض بماء مُعبّأ بزجاجات، فقد تنتعش».

وهكذا أفرغت حوض السمكة، ونظَّفته، وأضفتُ نصف غالون من الماء المُعبّأ. استغرق الأمر عشرين دقيقة، ثم بدأت السمكة تسبح وتتجول. وأخذت تتجول بين فلقات النباتات الزائفة. وتقضم الطعام.

بعد نصف ساعة تلاحظ كيت أنني أراقب السمكة. «لا داعي لتغيير الماء. لقد غيَّرتها هذا الصباح».

أكذبُ قائلة: «أوه، لم أكن أعلم».

تضغط وجهها على زجاج الحوض، وتتّسع ابتسامتها. تقول كيت: «يقول جِسّ إنَّ السمكة الذهبيّة لا تستطيع أنْ تركّز اهتمامها أكثر من تسع ثوانٍ. ولكن أعتقد أنَّ هرقل تعرف جيداً مَنْ أنا».

ألمسُ شعرها. وأتساءل إنْ كنتُ قد استنفدتُ معجزتي.

آنّا

إذا أصغيتَ إلى قدرٍ كافٍ من أشرطة الإعلانيّة فسوف تبدأ بتصديق بعض الأشياء الجنونيّة: أنَّ العسل البرازيلي يمكن استخدامه كشمع لانتزاع شعر الأقدام، وأنَّ باستطاعة السكاكين أنْ تقطع المعدن، وأنَّه يمكن أنْ يكون لطاقةِ التفكير الإيجابي مفعول الجناحين اللذين يوصلانك إلى حيث تشاء. وبفضل فترة قصيرة من الأرق والكثير جداً من جرعات توني روبنز[1]، أُقرِّر ذات يوم أنْ أُجبِر نفسي على تخيُّل كيف سيكون الوضع بعد وفاة كيت. وعندما يحدث هذا حقاً، أو كما تعهَّدَ توني، فسوف أكون مُستعدّة.

بقيتُ أُفكِّر في ذلك طوال أسابيع. إنّ البقاء في المستقبل أمر أصعب مما يُعتقد، خاصة عندما كانت أختي تتمشى في المكان وهي تحاول أنْ تكون ذاتها المُزعجة. وطريقتي في التعامُل مع هذا هي أنْ أتظاهر بأنَّ كيت تتملّكني. وعندما توقفتُ عن التحدث معها، اعتقدتْ أنها ارتكبتْ خطأً ما، وربما ***هذا ما حصل***، على أيّة حال. وقد مرّتْ عليّ أيامٌ كاملة قضيتها في البكاء؛ وفي أيام أخرى شعرتُ كأنني ابتلعتُ طبقاً من الرصاص؛ وفي أيام غيرها انهمكتُ باجتهادٍ في ارتداء ملابسي وترتيب سريري ودراسة نطق الكلمات لأنَّ ذلك أسهل من القيام بأي شيء آخر.

ولكن أيضاً، مرّتْ عليّ أيامٌ كنتُ أرفع خلالها الحجاب قليلاً، وتبرز أفكارٌ أخرى. كالتفكير في ماهيّة دراسة عِلم المُحيطات في جامعة هاواي. أو في تجريب الانزلاق في الجو، أو الانتقال إلى براغ. أو في أيٍّ من ملايين الأحلام الأخرى، كنتُ أُقحِمُ نفسي في أحد تلك الأجواء، لكنَّ الأمر كان

1- توني روبنز: إعلامي أميركي، ومهتم بالشؤون الإنسانيّة. المترجم.

أشبه بارتداء حذاء رياضيّ مقياس خمسة في حين أنَّ مقياس قدمك هو سبعة - يمكنكَ أنْ تمشي به بضع خطوات، ومن ثم تجلس وتخلع الحذاء لأنه ببساطة مؤلمٌ جداً. أنا مُقتنعة من أنَّ هناك رقيباً جالساً في دماغي يحملُ ختماً أحمر، يُذكّرني بما ليس من المُفتَرَض حتى أنْ ***أفكّر*** فيه، مهما كان مغويّاً.

لعلّه شيء جيد. لدي إحساسٌ بأنّني إذا حاولتُ جاهدةً أنْ أعرفَ مَنْ أنا من دون كيت في المعادلة، فلن يُعجبني مَنْ أرى.

نجلسُ أنا ووالديّ معاً على طاولة في كافيتريا المستشفى، على الرغم من أنني أستخدم كلمة ***معاً*** جزافاً. وكأننا روّاد فضاء، كلٌّ منا يضع خوذة مختلفة، وكلٌّ منا يصِله الهواء من مصدر منفصل. أمي تضع أمامها وعاءً صغيراً مستطيل الشكل من حُزم السُّكَّر. وهي ترتّبها بدقّة متناهية، المتساوية ثم الحلوة والخالية من السُّعرات الحراريّة وبعد ذلك قطع البلورات الصغيرة الطبيعيّة البُنيّة. ترفع نظرها إليّ. «حبيبتي».

لماذا تعبيرات التحبُّب تؤخذ دائماً من الأطعمة[1]؟ ***عسل، بسكويت، سُكَّر، مربّى القرع***. وكأنَّ العناية بشخصٍ ما في الحقيقة ليس كافياً.

تتابع أمي قائلة: «أنا أعلم ماذا تحاولين أنْ تفعلي هنا. وأوافقُ على أنّ والدك وأنا نحتاج ربّما إلى الإصغاء إليك أكثر مما نفعل. ولكننا، يا آنّا، لا نحتاج إلى قاضٍ لمساعدتنا في القيام بهذا».

أشعر بقلبي كإسفنجة رقيقة في أسفل حنجرتي. «تعنين أنّه لا بأس في التوقُّف؟».

عندما تبتسم، أشعر كأننا في أول يوم دافئ من شهر آذار - بعد أمدٍ طويل من هطول الثلوج، عندما يتذكّر المرء فجأة الشعور بالصيف على خلفيّة بطّتيّ ساقيه وعلى مفرق شَعره. تقول: «هذا ***بالضبط*** ما أعني».

لا سحب دم بعد الآن. لا هاضمات الجراثيم الغريبة أو الكريات اللمفاويّة أو خلايا جذعيّة أو نقل كلية. أقترحُ قائلة: «إذا أردتِ، سوف أخبر كيت، لكي لا تضطري إلى ذلك».

1- لكي تُعبِّر أمها عن حبّها لها، استخدمتْ كلمة «Honey» (حرفيّاً: عسل). المترجم.

«هذا حسن. حالما يعلم القاضي ديسالفو، نستطيع أنْ نتصرَّف وكأنَّ شيئاً لم يحدث».

في خلفيّة عقلي، تضرب مطرقة. «ولكن... ألنْ تسأل كيت لِمَ لَمْ أعُد الواهبة لها؟».

تلزم أمي السكون التامّ، «عندما قلت *التوقُّف*، كنتُ أعني الدعوى».

أهزُّ رأسي نفياً بقوة، لكي أُعطِها جواباً يُخرِج عقدة الكلمات المتشابكة في أحشائي.

تقول أمي، مذهولة: «يا إلهي، يا آنّا، ماذا اقترفنا بحقّك حتى تفعلي بنا هذا؟».

«الأمر لا صِلة له بما اقترفتما بحقّي».

«إذن هو *ما لم* نفعله من أجلك، صحّ؟».

صرختُ: «أنتِ لا تصغين إلى ما أقول!»، وفي تلك اللحظة بالذات، اقترب فيرن شتاكْهاوس من طاولتنا.

نقّل الوكيل نظره مني إلى أمي وإلى أبي، وابتسمَ قسراً. قال: «أعتقد أنَّ هذا ليس الوقت الأمثل لأقاطعكم. أنا شديد الأسف على هذا، يا سارة، ويا براين»، ويُسلِّم أمي مُغلّفاً، ويومئ برأسه، ويمشي مبتعداً.

تُخرِجُ الورقة التي في داخله، ثم تلتفتُ إليّ. تسألني: «ماذا قلتِ له؟».

«لِمَنْ؟».

التقط أبي الرسالة. إنها مكتوبة بلغة قانونيّة، كأنها لغة إغريقيّة. «ما هذا؟».

انتزعتُها من يد والدي. «إنها اقتراح بإصدار أمر بالحجز المؤقّتِ. هل تُدركين أنكِ بهذا تطلبين طردي من المنزل، ومنعي من الاتصال بك؟ أهذا حقاً ما تريدين؟».

أطردها؟ لا أستطيع أنْ أتنفّس. «أنا لم أطلب هذا أبداً».

«حسن، لا يمكن للمُحامي أنْ يطلب هذا من تلقاء نفسه، يا آنّا».

أتعلم كيف تمرّ عليك لحظات، وأنت تمتطي متن دراجة هوائيّة وتبدأ بشق طريقك على الرمال، أو عندما تتعثَّر خطوتك وتبدأ بالتدحرج على الدَّرَج – لحظات طويلة، طويلة، قبل أنْ تعرف أنكَ سوف تتأذّى، وتُصاب بجرحٍ بالغ؟ أقول «لا أعلم ما الذي يجري؟».

«إذن كيف تعتقدين أنكِ مُؤهّلة لاتخاذ قرارات وحدك؟» تنهضُ أمي واقفة فجأة ويُقعقع كرسيها على أرضيّة الكافيتريا. «أهذا ما تريدين، يا آنّا، نستطيع أنْ نباشر في الحال»، تقول هذا بصوتها الشديد والخشن كحبلٍ في اللحظة السابقة لمغادرتها.

قبل حوالي ثلاثة أشهر، استعرتُ من كيت مساحيقها. حسن، قد لا تكون كلمة استعرتُ هي الكلمة الصحيحة، الدقيقة؛ بل سرقتُها. لم يكن لديّ ما يخصّني منها؛ لم يكن مسموحاً لي بوضعها إلى أنْ أبلغ الخامسة عشرة. لكنَّ معجزةً حدثت، ولم تكن كيت موجودة لأطلبها منها، والأوقات العصيبة تتطلّب إجراءات يائسة.

المعجزة تمثّلتْ على هيئة شابٍ طويل القامة، شعره حريريّ بلون الذُّرة مع ابتسامة تجعلني أشعر كأنني أدور ضمن دوائر. اسمه كايل كان قد انتقلَ من أيداهو إلى مقعد الصف الذي يقع مباشرة خلف مقعدي. لم يكن يعرف أيّ شيء عني أو عن عائلتي، ولذلك عندما طلبَ مني أنْ أرافقه إلى السينما علِمتُ أنَّ ذلك ليس لأنه يُشفق عليّ. شاهدنا فيلم «**سبايدر مان**» الجديد، أو على الأقلّ هو شاهده، أما أنا فأمضيتُ الوقتَ كلّه أحاول أنْ أفهم كيف يمكن للتيار الكهربائيّ أنْ يقفز ويجتاز المسافة الوجيزة بين ذراعي وذراعه.

عندما رجعتُ إلى المنزل، كنتُ لا أزال أمشي فوق سطح الأرض بمقدار ست بوصات، ولهذا السبب استطاعتْ كيت أنْ تباغتني بضربة مُفاجئة. طرحتني على السرير، وثبّتتْ كتفيّ. وأصدرت اتّهامها «أيتّها اللصّة. أغَرتِ على درج حمّامي من دون أخذ الإذن مني».

«أنتِ دائماً تأخذين أغراضي. لقد استعرتِ سترتي الرياضيّة الزرقاء قبل يومَين».

«هذا أمر مختلف تماماً. إنَّ السترة يمكن ***غسلها***».

«فكيف تسمحين إذن لجراثيمي بأنْ تطفو في أوردتكِ، ولا تقبلينها على أحمر شفاهك؟» أتحرّك بقوة أكبر، وأنجح في أنْ نتدحرج، بحيث أُصبحُ الآن أنا المُسيطرة.

تومض عيناها. «مَنْ كان معك؟».

«عمَّ تتحدثين؟».

«أنتِ تضعين مساحيق تجميل، يا آنّا، ولا بدّ أنَّ لهذا سبباً».

قلت: «اذهبي إلى الجحيم».

ابتسمتْ كيت «اغربي عن وجهي»، ثم مدَّت إحدى يديها الحرَّة إلى تحت ذراعي ودغدغتني، وباغتتني بحيث حرّرتها. وبعد دقيقة تعاركنا خارج السرير، وكل منّا تحاول أنْ تدفع الأخرى إلى الاستسلام. شهقَتْ كيت: «آنّا، توقفي فوراً. أنتِ تقتلينني».

لم يتطلّب الأمر أكثر من هذه الكلمات، وسقطَتْ يداي عنها وكأنَّ ناراً لسعتني. واستلقينا كتفاً على كتف بين سريرينا، نُحدِّق إلى السقف ونتنفّس بقوة، وكلانا نتظاهر بأنَّ ما قالت لم يكن له أثر عميق.

في السيارة، يتشاجر والداي. يقول والدي، ***ربما كان ينبغي أنْ نوكّل مُحامياً حقيقيّاً***، وتُجيب أمي، «***أنا مُحامية***».

يقول والدي: «***ولكن يا سارة، إذا لم نتخلّص من هذا، كل ما أقول هو–***».

تتحداه، «***ماذا تقول، براين؟ ماذا تقول حقاً؟ تقول إنَّ رجلاً يرتدي بزّة ولم تقابله من قبل سوف يتمكّن من معرفة آنا أفضل من أمّها؟***» ومن ثم يتولّى والدي القيادة خلال ما تبقّى من الطريق يلفّه الصمت.

أُصْعقُ عندما أجدُ أنَّ هناك آلات تصوير تلفزيونيّة تنتظر على دَرَج مبنى غاراي[1]. أنا متأكِّدة من أنَّ تواجدها هنا هو من أجل حدث جلل، لذلك يمكن تصوّر دهشتي عندما يُقحَم مايكروفون أمام وجهي، وثمة مُراسلة تعتمر خوذة تسألني عن سبب مُقاضاتي والديّ. تدفع أمي المرأة جانباً. تقول «ليس لدى ابنتي أي تعليق»، وتكرِّر قول هذا مراراً؛ وعندما يسأل رجل إنْ كنتُ أعي أنني طفلة مُصمّمة الأزياء الأولى في رود آيلند، أعتقد برهة من الزمن أنها كانت مستعدة لطرحه أرضاً.

منذ أنْ كنتُ في السابعة من العمر عرِفتُ كيف تمَّ إنجابي، ولم أكنْ

1– غاراي: مُجمّع دار القضاء في رود آيلند، الولايات المتحدة. المترجم.

حَدَثاً كبير الأهميّة. أولاً، أخبرني والداي أنَّ تفكيرهما في ممارسة الجنس كان أشدّ إثارة للاشمئزاز من التفكير في الخليقة في طبق استزراع الجراثيم في المُختبَر. وثانياً، في ذلك الحين كان آلاف الناس يتناولون المُخصّبات ويُنجبون سبعة توائم ولم يعُد في قصّة إنجابي شيء استثنائيّ. أما أنْ أكون طفلة مُصمّمة أزياء؟ نعم، هذا *استثنائيّ*. إذا كان والداي قد اضطرّا إلى تكبّد كل ذلك العناء، فقد تعتقد أنهما حرِصا على زرع الجينات من أجل الطاعة، والمذلّة والامتنان.

يجلس والدي إلى جواري على المقعد، ويداه معقودتان بين رُكبتيه. وداخل جناح القاضي، كانت أمي وكامبل ألكسندر يتشاجران بالألفاظ. وهنا في الرواق، يرين علينا هدوء مُفتَعَل، وكأنهما أخذا معهما كل ما يمكن من كلمات ولم يتركا لنا أي شيءٍ.

أسمعُ امرأةً تسبّ، ومن ثم تظهر جوليا. «آنّا. آسفة لأنني تأخّرت؛ لم أستطع أنْ أتفادى وسائل الإعلام. هل أنتِ بخير؟».

أومئ برأسي إيجاباً، ثم أهزّ رأسي نفياً.

تركع جوليا على رُكبتيها أمامي. «هل تريدين من أمّك أنْ تغادر المنزل؟».

«كلا!» مع شعور تام بالحرج، وعيناي تترقرقان بالدموع. «لقد غيَّرتُ رأيي. لم أعد أريد أنْ أستمرّ في هذه القضيّة. لا أريدها».

تنظر إليّ على مدى لحظة طويلة، ثم تومئ برأسها. «دعيني أدخل وأتحدّث مع القاضي».

عندما تغادر، أُركِّز على استنشاق الهواء إلى رئتيّ. الآن هناك كثير من الأشياء التي ينبغي أنْ أعمل جاهدة لإنجازها، وكنتُ في المعتاد قادرة على القيام بها غريزيّاً – أنْ أتلقّى الأكسجين، وألزم الصمت، وأقوم بالأمر الصائب. يجعلني ثقل تحديق عينيّ والدي عليّ ألتفتْ. يسألني: «هل كنتِ جادّة؟ أعني بشأنِ عدم رغبتك في الاستمرار في هذه القضيّة؟» لا أُجيب. ولا أُحرِّك ساكناً.

«لأنه إنْ كنتِ لا تزالين غير متيقّنة، فربما هي ليست فكرة سيئة، أي أنْ تحظي بحيِّز من الحريّة. أعني، لديّ سرير إضافيّ في غرفتي في مركز

الإطفاء». ويدْعكُ خلفيّة عنقه. «هذا لا يعني أننا ننتقل إلى مكان آخر، أو ما شابه. بل فقط...»، وينظر إليّ.

أختم قائلة «... نتنفّس»، وأفعل ذلك.

ينهضُ والدي واقفاً ويمدّ يده. ونخرج معاً من مُجمَّع غاراي، نمشي جنباً إلى جنب. ينقضّ المراسلون علينا كالذئاب، ولكن في هذه المرَّة كانت أسئلتهم ترتطم بي وترتد. وأشعر بصدري ممتلئاً بالتلألؤ وبغاز الهليوم، كما كنتُ أشعر وأنا صغيرة وأمتطي كتفيّ والدي عند الغسق، عندما علِمتُ أنني إذا رفعتُ يديّ ونشرت أصابعي كالشبكة، أستطيع أنْ أُمسك النجوم المارَّة.

كامبل

ربما في الجحيم هناك ركنٌ مُخصَّص للمُحامين الذين يعظّمون من ذواتهم، ولكن يمكنك المُراهنة على أننا جميعاً مستعدّون لمِسْك ختامنا. عندما أصل إلى محكمة العائلة وأجد قطيعاً من المراسلين محتشدين، أُصدِرُ ضجيجَ قضمٍ كأنه سكاكر، وأحرص على أنْ تُسلَّط آلات التصوير عليّ. وأُدلي بتصريحات تمدح السِّمة التحررية لهذه القضية، ولكنها مؤلِمة لكلّ المتورطين فيها. وأُشير إلى أنَّ سيطرة القاضي قد تؤثّر على حقوق الأقلّيات في أرجاء البلاد وأيضاً على أبحاث الخلايا الجذعيّة. ثم أمسِّد سترة بزّتي تصميم أرماني، وآتي على ذِكر القاضي، وأشرح قائلاً إنني مُضطر إلى الذهاب للتحدث مع موكلتي.

في الداخل، تلتقي عيناي بعينيّ فيرن شتاكْهاوس ويرفع أمامي إشارة الانتصار. وكنتُ قد قابلت الوكيل في وقت سابق، وأسأل بكل براءة إنْ كانت أخته، المُراسلة لمجلة **بروجو**، ستأتي اليوم. وأشير «لا أستطيع حقاً أنْ أقول أيَّ شيء، وسأكتفي بالاستماع... سوف تكون جلسة صاخبة».

في ذلك الركن الخاصّ من الجحيم، ربما هناك عرشٌ للذين يُحاولون بيننا أنْ يستفيدوا من عملنا للمصلحة العامة.

بعد ذلك بدقائق، نكون في جناح القاضي. يرفع القاضي ديسالفو الاستدعاء من أجل نظام الحماية. «سيد ألكسندر، هلّا أخبرتني لِمَ طلبتَ هذا الاستدعاء، بعد أنْ عرضت القضيّة بكل وضوح بالأمس؟».

أجبتُ: «لقد عقدتُ اجتماعاً أوّليّاً مع الوصيّ الشرعيّ، سيادة القاضي. وفي حضور السيدة رومانو، قالت السيدة فيتزجيرالد لموكلتي إنَّ الدعوى

هي سوء فهم وسوف تحلّ من تلقاء ذاتها». أنقلُ نظري إلى سارة، التي لا تُبدي أي انفعال خلاف الشدّ على فكّها. «وهذا خرقٌ مباشَر لأمر سيادتكم. وعلى الرغم من أنَّ هذه المحكمة حاولتْ أنْ تضع شروطاً من أجل الحِفاظ على تماسُك الأسرة، لا أعتقد أنَّ ذلك سيفيد إلّا إذا رأت السيدة فيتزجيرالد أنَّ من الممكن الفصل ذهنيّاً بين دورها كأحد الأبوين ودورها كمُستشارة مُعارِضة. وحتى ذلك الحين، من الضروري تحقُّق الفصل الجسديّ».

ربّتَ القاضي ديسالفو بأصابعه على طاولة المكتب. «سيدة فيتزجيرالد؟ هل قلتِ هذه الأشياء لآنّا؟».

تنفجر سارة قائلة: «حسن، طبعاً قلتها! إنني أحاول أنْ أصِل إلى أصْل هذه المسألة!».

كان الاعتراف أشبه بخيمة سيرك تتهاوى، وتتركنا وسط صمتٍ مُطبق. وتختار جوليا تلك اللحظة لكي تندفع من خلال الباب. تقول، لاهثة: «آسفة على التأخير».

يسألها القاضي: «سيدة رومانو، هل أُتيحَتْ لك فرصة التحدّث مع آنّا اليوم؟».

«نعم، الآن بالذات»، وتنظر إليّ، ومن ثم إلى سارة. «أعتقد أنّها شديدة الاضطراب».

«ما رأيك في الاستدعاء الذي قدّمه السيد ألكسندر؟».

تُقحِمُ خصلة من الشَّعر خلف إحدى أُذنيها. «لا أعتقد أنَّ في حوزتي ما يكفي من المعلومات يدفعني إلى اتّخاذ قرار رسميّ، لكنَّ إحساسي الداخلي يقول لي إنَّ من الخطأ إبعاد والدة آنّا عن المنزل».

في الحال، يُصيبني التوتّر. وكردّة فعل على ذلك، ينهض الكلب واقفاً. «أيها القاضي، لقد اعترفَت السيدة فيتزجيرالد تواً بأنها خرقَتْ أمر المحكمة. على الأقلّ يجب أنْ توجّه لها المحكمة تهمة ارتكاب انتهاكات أخلاقيّة و-».

«سيد ألكسندر، إنَّ في هذه القضيّة ما هو أهمّ من رسالة القانون»، ويلتفتُ القاضي ديسالفو إلى سارة. «سيدة فيتزجيرالد، إنني أوصي بقوة أنْ توكّلي مُحامياً مُستقلّاً يمثّلك ويمثّل زوجك في هذا الالتماس. لن أمنح أمر

التقييد في هذا اليوم، ولكن سوف أُحذّركِ مرة أخرى من التحدّث مع ابنتك عن هذه القضيّة حتى موعد جلسة الاستماع في الأسبوع القادم. فإذا وصل إلى عِلمي في وقتٍ ما في المُستقبل أنكِ تجاهلتِ هذا الأمر من جديد، فسوف أبلغ عنك دار القضاء بنفسي وسوف أرافقك إلى منزلك»، وأطبقَ الملفّ بقوة ليُغلقه ونهضَ واقفاً. «*إياك* أنْ تزعجني مرة أخرى وحتى حلول يوم الاثنين، يا سيد ألكسندر».

أعلنُ «أنا بحاجة إلى مقابلة موكلتي»، وهرعتُ خارجاً إلى الرواق حيث عِلمتُ أنَّ آنّا تنتظر مع والدها.

كما توقّعتُ، لحقت السيدة فيتزجيرالد بي. وخلفها كانت جوليا – لكي تبقى في إثرها، بلا أدنى شك. توقفنا معاً نحن الثلاثة لدى مرأى فيرن شتاكْهاوس، يغفو وهو جالس على المقعد حيث تجلس آنّا. أقول: «فيرن؟».

وفي الحال يقفز واقفاً على قدميه، يتنحنحُ كمَنْ يُدافع عن نفسه. «أعاني من مشكلة في أسفل ظهري. ويجب أنْ أجلس بين حينٍ وآخر لكي أُخفِّف الضغط عنه».

«أتعرف أين ذهبتْ آنّا فيتزجيرالد؟».

يهزّ رأسه باتجاه الباب الأماميّ للمبنى. «خرجتْ مع والدها قبل قليل».

من النظرة التي ترتسم على وجه سارة، أستشفّ أنَّ هذا أمرٌ جديدٌ عليها، أيضاً. تسأل جوليا: «هل تحتاجين إلى مَنْ يوصلك إلى المستشفى؟».

تهزّ رأسها نفياً وتنظر من خلال الباب الزجاجيّ، حيث يحتشد المُراسلون الصحفيون. «هل هناك باب خلفيّ هنا؟».

يبدأ جدج إلى جانبي بإقحام خطمه داخل راحة يدي. ***اللعنة***.

تبدأ جوليا تحثّ سارة فيتزجيرالد باتجاه الجزء الخلفيّ من المبنى. وتهتف لي من خلف ظهرها، «أحتاج إلى التحدّث معك».

أنتظرها لكي تعود. ثم أقوم على عَجَل بالقبض على رسن جدج وجرّه على طول الرواق.

بعد برهة، أسمع كعبيّ جوليا يضربان أرض القرميد خلفي. «هيه! ***قلتُ*** إنني أريد أنْ أتحدث معك!».

أفكّر لبرهة من الزمن جديّاً بالقفز من إحدى النوافذ. ثم أتوقفُ على عجل، وألتفت، وأرسم ابتسامة فاتنة على وجهي. «من الناحية التقنيّة، أنتِ قلتِ إنك *بحاجة* إلى التحدّث معي. ولو أنكِ قلتِ إنك *تريدين* أنْ تتحدثي معي، لكنتُ انتظرتُ». يغرز جدج أنيابه في أطراف بزّتي، بزة أرماراني *باهظة الثمن*، ويشدّ. «أما الآن، فلدي اجتماع ويجب أنْ ألحق به».

تقول: «ما خطبك بحق الجحيم؟ لقد أخبرتني بأنكَ تحدّثتَ مع آنّا عن أمّها وأننا جميعاً متّفقون».

«*أخبرتكِ، واتّفقنا* – لقد كانت سارة تحاول أنْ تُجبرها على طاعتها، وأرادتْ آنّا أنْ توقِف هذه القضيّة. وشرحتُ البدائل».

«بدائل؟ إنّها في *الثالثة عشرة*. أتعلم كم طفلاً قابلت يختلف تقبّلهم للمحكمة تماماً عن تقبّل أولياء أمورهم؟ تدخل الأم وتعِد بأنَّ طفلها سوف يشهد ضد طفل آخر يتحرّش به، لأنها تريد أنْ يُسجَن المُسيء إلى الأبد. لكنَّ الطفل لا يأبه بما يحدث للمُسيء، ما دام لن يكون معه في الغرفة نفسها مرة أخرى. وإلّا فإنَّه يعتقد أنَّ المُسيء قد تُتاح له فرصة أخرى، كالفرصة التي منحها له *والداه* عندما كان *هو* سيئاً. لا يمكنك أنْ تتوقَّع من آنّا أنْ تتصرَّف كأيّ موكِّل بالغ عادي. إنها لا تتمتع بالمقدرة العاطفيّة اللازمة لاتخاذ قرارات مستقلّة حول الوضع في منزلها».

أقول: «في الحقيقة، هذا هو الهدف من هذه العريضة كلّها».

«في الحقيقة، وكما أخبرتني آنّا، قبل أقلّ من نصف ساعة، لقد غيَّرتْ رأيها بشأنِ هذه العريضة كلها». ترفع جوليا أحد حاجبيها. «أنتَ لم تكن تعلم هذا، أليس كذلك؟».

«لمْ تحدثني عنه».

«ذلك لأنكَ تتحدث عن الأمور الخطأ. لقد أجريتَ معها حديثاً حول طريقة قانونيّة لإبعادها عن الضغط عليها لكي تتخلّى عن الدعوى. *طبعاً* هي تجاوزت ذلك كلّه. ولكن أتعتقد حقاً أنّها تفكِّر في معناه الحقيقيّ – أي في أنّه سوف يكون أحد الأبوين غائباً لكي يطبخ أو يقود السيارة أو يساعدها في إنجاز واجبها المدرسيّ، وفي أنها لن تتمكّن من تقبيل أمّها قبلة المساء، وأنَّ

باقي أفراد عائلتها سوف ينزعجون منها في الغالب؟ إنَّ كل ما سمعتْ من حديثك هو كلمتا **لا ضغط**. هي لم تسمع كلمة **فصل**».

بدأ جدج يئنّ بجديّة. «يجب أنْ أذهب».

تبعَته. «إلى أين؟».

«أخبرتكِ، لدي **موعد**». الرواق يحفّه صفٌّ من الغرف، وكلّها مغلقة. أخيراً أعثر على أُكرة باب تتحرّك في يدي. أدخل وأغلقُ الباب خلفي. أقول بحماس «أيّها السادة».

تحرِّك جوليا أكرة الباب. وتضرب بقوة على مربَّع الزجاج الصغير الضبابيّ. أشعر بالعرق يتفصّد من جبيني. تصرخ فيّ من خلف الباب: «لن تفلت مني هذه المرَّة. ما زلتُ أنتظرُ هنا».

يردّ عليها صارخاً «أنا مشغول». عندما يدفع جدج خطمه نحوي، أدفن أصابعي في الفرو الكثيف في عنقه. أقول له «لا بأس»، ثم ألتفتُ لكي أواجه الغرفة الخالية.

جِسّ

بين حينٍ وآخر أُضطرّ إلى أنْ أناقض نفسي وأؤمن بالله، كما يحدث في هذه اللحظة بالذات عندما أعود إلى المنزل وأجد على العتبة طفلة ظريفة، تنهضُ واقفة وتسأل إنْ كنتُ أعرف جِسّ فيتزجيرالد.

أقول «مَنِ الذي يسأل؟».

«أنا».

أبتسم لها ابتسامة فاتنة. «إذن فهو أنا».

دعني فقط أتوقف برهة وأخبرك أنها أكبر سناً مني، ولكن مع كل نظرة ألقيها عليها يبدو الفارق أقلّ فأقلّ – لها شَعر يمكنني أنْ أتوه فيه، وفم شديد الرقّة وممتلئ حتى إنّي أجد صعوبة في إبعاد عينيّ عنها لكي أتفحّصَ ما تبقّى منها. إنني أتحرَّق شوقاً لألمس بشرتها –حتى الأجزاء العاديّة– فقط لكي أتبيَّن إنْ كانت بالنعومة التي تبدو عليها.

تقول: «أنا جوليا رومانو. أنا وصيّة قانونيّة».

فجأة سكتت آلات الكمان كلها التي تُحلِّق داخل شراييني. «أأنتِ من الشرطة؟».

«كلا. أنا مُحامية، وأعمل مع قاضٍ من أجل مُساعدة أختك».

«تقصدين كيت؟».

توتَّرَ شيءٌ في وجهها. «أنا أقصد آنّا. لقد أقامتْ دعوى من أجل الحصول على التحرّر طبيّاً من أبويك».

«أوه، نعم، أعلم هذا».

«أحقاً؟» بدا أنَّ جوابي هذا أدهشها؛ وكأنَّ التحدي هو شيء حاصرتْ آنّا به السوق. «هل يتصادف أنك تعلم أين هي؟».

أُلقي نظرة على المنزل، المُظلِم والخالي، أقول: «هل أخبرك أحدهم أنني حارس أختي؟»، ثم أبتسم لها ابتسامة عريضة. «إذا رغبتِ في انتظارها، يمكنك أنْ تأتي معي لكي أُريك رسومي المحفورة».

وأصْعَق عندما توافق. «في الحقيقة، لا بأس بهذه الفكرة. أريدُ أنْ أتحدث معك».

أتّكئ من جديد على الباب وأعقد ذراعيّ على صدري. بحيث تمدّدت عضلات ساعديّ. وابتسم لها ابتسامة عريضة أوقفَتْ نصف طالبات جامعة روجر وليامز عن متابعة سيرهن. «ألديك خطط لقضاء هذه الليلة؟».

حدَّقتْ إليّ كأنَّ ما قلتُ كان باليونانيّة. كلا، اللعنة. ربما هي تفهم اليونانيّة. بل بلغة المريخ. أو بلغة الفاتيكان الغريبة. «أتطلب مني أنْ أخرج معك *لنسهر*؟».

أقول: «هذا ما أحاول القيام به».

أجابت بصراحة مباشرة: «وهذا ما ستفشل فيه. إنني كبيرة وأصلح أنْ أكون أمّاً لك».

«أنتِ صاحبة أجمل العيون قاطبة»، وبالعيون، أقصد، ***الحلمات***، ولكن مهما يكن.

تختار جوليا رومانو تلك اللحظة لكي تُثبِّتْ أزرار سترتها، مما يدفعني إلى الضحك بصوت مرتفع. «لِمَ لا نتحدّث هنا؟».

أقول: «لا بأس»، وأقودها ونرتقي إلى الشقّة.

بالنظر إلى ما يبدو عليه المكان، فهو ليس سيئاً. الأطباق على المنضدة موجودة منذ يوم أو يومين فقط؛ والحبوب المنتثرة التي تجدها عندما تعود إلى المنزل ليست سيئة بمقدار سوء الحليب المُراق. ووسط الأرضيّة هناك دلو وممسحة وعبوة غاز؛ إنني أعمل على بعض وسائل فايرستيكس الإلكترونيّة. وثمّة ملابس مُبعثرة على الأرض، رُتِّبَ بعضها ببراعة لكي تُخفِّف من تأثير تسرّب في جهاز التقطير خاصتي.

أبتسمُ لها «ما رأيك؟ جدير بأنْ يُثير إعجاب مارثا ستيوارت[1]، أليس كذلك؟».

غمغمتْ جوليا، «جدير بمارثا ستيوارت أنْ تجعل منك مشروع حياتها». وتجلس على أريكة، ثم تقفز، وتزيل حفنة من رقائق البطاطا المقليّة التي خلَّفَت، ويا للهول، بقعة من الشحم على شكل قلب على مؤخّرتها الحلوة.

«أترغبين في مشروب؟». لا ينبغي أنْ يُقال إنَّ أمي لم تُعلّمني حُسن السلوك.

تتلفّت حولها، ثم تهزّ رأسها نفياً. «لا أرغب».

أهزّ كتفيّ استخفافاً، وأُخرِجُ زجاجة بيرة من البرّاد. «إذن فقد انتثرَ القليل من الغبار الذرّي على طول واجهة المنزل؟».

«ألا تعلم؟».

«أحاول ألّا أعلم».

«كيف ذلك؟».

«لأنه أفضل ما أُحسِن عمله»، وأُكشِّر. وأشرب جرعة طويلة من البيرة. «على الرغم من أنَّ هذا انفجار لا أحبّ أنْ أراه».

«أخبرني عن كيت وعن آنّا».

«ماذا يُفترَض بي أنْ أخبرك؟»، وأجلس إلى جوارها على الأريكة. قريباً جداً منها. عن عمد.

«كيف تتعامل معهما؟».

أميل إلى الأمام. «ماذا، سيدة رومانو. أتسألينني إنْ كنتُ أُحسِن اللعب؟»، ولمّا لم يرمش لها جفن، أفسدُ الأمر. أُجيب «لقد تخلّصتا مني، كما حدث مع الجميع».

هذا الجواب يجب أنْ يُثير اهتمامها، لأنها تدوِّن شيئاً على حزمة أوراقها. «ما شعورك وأنت تكبُر وسط هذه العائلة؟».

تزاحم عددٌ من الإجابات وهي تشقّ طريقها خلال حنجرتي، لكنَّ الجواب الذي خرج مني كان غامضاً تماماً. «عندما كنتُ في الثانية عشرة،

1- مارثا ستيوارت: مُقدّمة برامج الطبخ الشهيرة في أميركا. المترجم.

أُصيبَتْ كيت بالمرض - ولم يكن خطيراً، كان فقط عدوى، ولكن بدا أنّها لا تستطيع التخلُّص منها وحدها. لذلك أخذوا آنّا لكي تزوّدها بالخلايا البيضاء. لم تكن كيت تقصد أنْ يحدث ذلك أو ما شابه، ولكن تصادفَ أنْها كانت ليلة عيد الميلاد. وكان من المُفتَرَض أنْ نخرج كعائلة، كما تعلمين، ونُحضِر الشجرة». أخرجتُ علبة سجائر من جيبي. سألتها «أتمانعين؟»، لكنني لم أمنحها فرصة لتُجيب قبل أنْ أُشعِلها. «وفي الدقيقة الأخيرة أرسلوني إلى منزل أحد الجيران، مما أزعجني. لأنَّ الجيران كانوا يقضون ليلة عيد ميلاد سعيدة مع أقاربهم وأخذوا يتهامسون فيما بينهم عني كأنني صندوق إعانات خيريّة وأطرش تماماً. على أي حال، سرعان ما ساد جوٌّ راكد، فقلتُ إنني أريد أنْ أتبوّل وتسلّلتُ إلى الخارج. ذهبتُ إلى المنزل وتناولتُ أحد فؤوس والدي والمنشار اليدويّ وقطعْتُ تلك الشجرة الراتينجيّة الصغيرة التي تنمو وسط الفناء الأمامي. ومع إدراك الجيران أنني قد ذهبت، كنتُ قد أعددتُ كل شيء في غرفة جلوسنا في موقع الشجرة، مع الإكليل، والزخارف، وكل ما يخطر على بالك».

ما زلتُ أرى في عين عقلي تلك الأضواء -حمراء وزرقاء وصفراء، تومض باستمرار على شجرة مُثقلة بالزينة كرجل إسكيمو في بالي Bali. «وهكذا جاء أبواي في صباح عيد الميلاد إلى منزل الجيران لكي يُحضراني. بدوا كالمجانين، معاً، ولكن عندما أعاداني إلى المنزل كانت هناك هدايا تحت الشجرة، فغمرني الفرح ووجدتُ هدية عليها اسمي، اتّضحَ أنها تلك السيارة التي تعمل بالزنبرك- وهي شيء كان يمكن أنْ يكون شيئاً عظيماً بالنسبة إلى ولد في الثالثة من العمر، ولكن ليس لي، وقد علِمتُ مُصادفة أنها كانت معروضة للبيع في محل بيع الهدايا في المستشفى. كما كان حال كل هديّة أخرى تلقّيتها في ذلك العام. سُحقاً لذلك الشيء»، وأضربُ عقب السيجارة على فخذ بنطلوني الجينز، وأخبرها، «بل إنهما لم يقولا أيّ شيء عن الشجرة. هذا هو معنى أنْ تكبري وسط مثل هذه العائلة».

«أتعتقد أنَّ الوضع كان نفسه مع آنّا؟».

«كلا. كانا يُراقبان آنّا، لأنها كانت ضمن خطّتهما الكبرى من أجل كيت».

وتسألُ: «كيف قرَّر والداك موعد مُساعدة آنّا لكيت طبيّاً؟».

«إنكِ تجعلين الأمر يبدو كأنّه عمليّة متدرّجة، وكأنَّ هناك **خياراً**».

رفعتْ رأسها. «أليس هناك خيار؟».

تجاهلتُها، لأنه سؤال بلاغيّ إنَّ كنتُ قد سمعتُ واحداً يوماً، وحدَّقتْ خارج النافذة. في الفناء الأمامي كان لا يزال بالإمكان رؤية الجذع المتبقّي من الشجرة الراتنجيّة، لا أحد في هذه العائلة يعمل أبداً على تغطية أخطائه.

وأنا في سن السابعة عزمتُ على أنْ أحفر حتى أصل إلى الصين. فكّرت في مدى صعوبة ذلك العمل - باندفاعٍ مباشر، أم بحفر نفق؟ تناولت رفشاً من المرأب وباشرت بحفر حفرة واسعة بحيث تكفي لأتسلّل من خلالها. وفي كل ليلة كنتُ أجرّ غطاء صندوق الرمال البلاستيكي القديم لكي أغطّيها به. فقط تحسّباً إذا ما هطل مطر. وعملتُ عليها مدة أربعة أسابيع، إلى أنْ جرحتِ الصخور ذراعيّ وتركت ندوباً صغيرة عليهما، وتشبّثت الجذور بكاحليّ.

وما لم أحسب له حساب هو الجدران العالية التي تكتنفني، أو بطن الكوكب، الحارّ تحت حذائي الرياضيّ. لقد نسيت، وأنا أحفر عميقاً، أنني تورطتُ في متاهة لا نهاية لها. عندما تدخل في نفق، يجب أنْ تستخدم الإضاءة بنفسك، ولم أكنْ بارعاً جداً في ذلك.

عندما صرختُ، عثر والدي عليّ في الحال، على الرغم من يقيني من أنني انتظرتُ على مدى حيوات عديدة. وزحف إلى داخل الحفرة موزَّعاً بين تقديره لعملي الشاقّ وحماقتي. قال: «كان يمكن لهذا أنْ ينهار فوق رأسك!» ورفعني إلى الأرض الصلبة.

من وِجهة النظر تلك، أدركتُ أنَّ حفرتي لم تمتد في العمق أميالاً. في الحقيقة، كان باستطاعة والدي أنْ يقف في القعر ولا يصل عمقها إلى أكثر من مستوى صدره.

في الواقع، إنَّ الظلام مسألة نسبيّة.

براين

لم يستغرق من آنّا إلّا أقلّ من عشر دقائق للانتقال إلى غرفتي التي في مركز الإطفاء. وبينما كانت تضع ملابسها داخل الدرج وفرشاة شَعرها بجوار فرشاتي على طاولة الزينة، خرجتُ إلى المطبخ حيث كان بولي يُعدّ وجبة العشاء. وكان الرجال كلهم في انتظار سماع تفسير لِما يحدث.

أقول: «سوف تُقيم معي هنا بعض الوقت. نحن نحاول أنْ نحلّ مشكلة ما».

يرفع سيزار رأسه عن المجلّة. هل ستركب معنا سيارة الإطفاء؟».

لم أفكّر في هذا. قد يُلهيها ذلك عن بعض الأشياء، ويجعلها تشعر بأنها مُبتدئة في مجال ما. «في الواقع، قد تفعل».

يستدير بولي. في هذه الليلة يُحضِّر لنا شطائر من اللحم المشوي. «أكل شيء على ما يُرام، يا كاب؟».

«نعم، بولي، شكراً لسؤالك».

يقول ريد: «هل هناك مَنْ يزعجها، سوف يُضطر إلى أنْ يواجهنا نحن الأربعة الآن».

يومئ الآخرون برؤوسهم. وأتساءل ماذا سيفعلون عندما أخبرهم أنَّ اللذين يُزعجانها هما سارة وأنا.

أترك الشبان لكي يُكملوا إعداد العشاء وأعود إلى غرفتي، فأجد آنّا جالسة على السرير الثاني من السريرين التوأم واضعة قدميها تحتها. أقول «مرحباً»، لكنها لا تُجيب. ويستغرق مني برهة لأدرك أنّها تضع سماعتيّ الأُذنين، ويعلم الله إلامَ تستمع.

تراني فتُسكِتُ الموسيقى، وتنزع السماعتيّن لتضعهما حول عنقها كالياقة. «مرحباً».

أجلسُ على حافة السرير وأنظر إليها. «إذن. آه. أتريدين أنْ تفعلي شيئاً؟».

«مثل ماذا؟».

أهزّ كتفيّ بلا مبالاة. «لا أعلم، كأنْ تلعبي الورق؟».

«أتعني البوكر؟».

«نلعب بوكر، أو «هيا بنا نصطاد»[1]. أو أي شيء».

تنظر إليّ بإمعان. «*هيا بنا نصطاد*؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أتريدين أنْ تجدّلي شعرك؟».

تسألني آنا، «بابا، أنتَ بخير؟».

أنا أكون مرتاحاً عندما أندفع إلى مبنى ينهار من حولي أكثر من محاولة جعلها تشعر بارتياح. «أنا فقط – أريد أنْ تعلمي أنَّ باستطاعتك أنْ تفعلي ما تشائين وأنتِ هنا».

«هل تمانع في أنْ أترك صندوقاً من ضمادات وقف النزف في الحمّام؟».

في الحال، يحمرّ وجهي، ويحدث الشيء نفسه لها، كأنما بالعدوى. ليس بين الرجال إلّا أنثى واحدة تعمل امرأة مطافئ، بدوامٍ جزئيّ، وحمّام النساء موجود في الطابق السفليّ من المركز. ولكن مع ذلك.

يتدلّى شعر آنا فوق وجهها. «لم أقصد أنْ... أستطيع أنْ أحتفظ بها في الـ –».

أعلنُ لها «تستطيعين أنْ تضعيها في الحمّام». ثم أُضيف بلهجة سلطويّة «إذا اشتكى أحدٌ، سوف نقول إنّها تخصّني».

«بابا – لا أعتقد أنهم سوف يُصدقونك».

أحيط كتفها بذراعي. «قد لا أُحسِن فعل ذلك في أول الأمر. لم يحدث أبداً أنْ نمت في مكان واحد مع فتاة في الثالثة عشرة».

«ولا أنا أبيتُ كثيراً مع أشخاص في الثانية والأربعين من أعمارهم».

«عظيم، وإلّا كنتُ سأضطر إلى قتلهم».

أشعر بابتسامتها كختمٍ على عنقي. ربما هذا لن يكون أمراً صعباً كما

1- «هيا بنا نصطاد»: من ألعاب الورق. المترجم.

أعتقد. ربما أستطيع أنْ أُقنِع نفسي بأنَّ هذه الحركة سوف تُحافظ من دون أدنى شك على تلاحم عائلتي، على الرغم من أنَّ الخطوة الأولى تتضمَّن تفكيك أوصالها.

«بابا؟».

«همم؟».

«فقط من باب العِلم بالشيء: لا أحد يلعب» هيا بنا نصطاد «بعد أنْ يتعلَّم كيف يستخدم النونيّة».

تعانقني بشدة إضافيّة، كما كانت تفعل وهي صغيرة. وفي تلك اللحظة، أتذكّر آخر مرَّة حملتُ فيها آنّا. كنا نجتاز أحد الحقول، نحن الخمسة – كانت عشبة البرك وأزهار الربيع باسقة وتعلو فوق رأسها. فرفعتها بين ذراعيّ، وخضنا بحراً من نبات القصب. ولكننا لاحظنا معاً للمرة الأولى كم كانت ساقاها طويلتين، وكم كانت كبيرة بحيث لا تصلح أنْ تجلس على وركي، وسرعان ما بدأتْ تكافح لتنزل وتمشي وحدها.

كبرتِ السمكة الذهبيّة بحيث لم تعد تصلح إلّا للعيش في الوعاء الذي وضعتها فيه. أشجار بونساي القزمة تتلوّى. إنني على استعداد لأهبَ أي شيء مقابل أنْ أُبقيها صغيرة. إنَّ أطفالنا يسبقوننا في النمو وبوتيرة أسرع بكثير مما نفعل نحن.

يبدو أمراً مُدهِشاً أنَّ تقودنا إحدى ابنتينا نحو أزمة قانونيّة، والأخرى تتخبّط في أزمة صحيّة –ولكن أعود فأقول، لقد علِمنا على مدى فترة طويلة أنَّ كيت على شفا نهاية مراحل من الفشل الكلويّ. وهذه المرة، آنّا هي التي تستخدمنا كأنشوطة. ومع ذلك –كالمعتاد– نحلّ المشكلة؛ ننجح في التعامل مع كلتيهما. إنَّ المقدرة الإنسانيّة على تحمّل العبء تشبه الخيزران– أكثر مرونة مما تعتقد من النظرة الأولى.

بينما آنّا تحزم أغراضها بعد ظهيرة ذلك اليوم، ذهبتُ إلى المستشفى. لدى ولوجي الغرفة كانت كيت تتلقّى العلاج. كانت نائمة وهي تضع سماعة الموسيقى على أُذنيها؛ نهضَتْ سارة عن كرسيها وهي تضغط أحد أصابعها على شفتيها، مُحذِّرة.

قادتني إلى الرواق. سألتها «كيف حال كيت؟».

أجابت «على حالها. وكيف حال آنّا؟».

تبادلنا المعلومات حول حالة ابنتينا كما كنا نتباهى ونحن أطفال ببطاقات لعبة البيسبول التي نختلس النظر إليها، لكننا نرفض أنْ نتخلّى عنها. نظرتُ إلى سارة، متسائلاً كيف أخبرها عمّا فعلت.

قالت: «إلى أين ذهبتما أنتما الاثنان بينما كنتُ أُصارع القاضي؟».

ربما لو أنَّ المرء يجلس ويفكّر في مدى خطورة المسألة، لما خاضَ فيها. «لقد أخذتُ آنّا معي إلى المركز».

«أهناك شيء يحدث في العمل؟».

أخذتُ نَفَساً عميقاً ووقفتُ على حافّة الجرف الذي أصبح عليه زواجنا. «كلا. سوف تُقيم آنّا معي هناك بضعة أيام. لقد رأيتُ أنّها ربما تحتاج إلى أنْ تنفرد بنفسها قليلاً».

حدَّقَتْ سارة إليّ. «لكنَّ آنّا **لن** تنفرد بنفسها. سوف تكون ***معك***».

فجأة بدا الرواق شديد البريق والاتّساع. «أهذا أمرٌ سيئ؟».

قالت: «نعم. أحقاً تعتقد أنَّ مُجاراة نوبة غضب آنّا سوف يُساعدها على المدى الطويل؟».

«أنا لا أُجاري نوبة غضبها؛ إنني أمنحها حيِّزاً لكي تتوصل فيه إلى اتّخاذ القرارات الصائبة بنفسها. ولستِ أنتِ التي جلستِ معها وهي في الخارج بينما كنتِ في جناح القاضي. أنا قلقٌ عليها».

جادلته سارة قائلة: «حسن، هنا أختلف معك. أنا قلقة على كلتا ابنتينا».

نظرتُ إليها، ولجزء يسير من الدقيقة رأيتُ المرأة التي كانت في السابق عليها – المرأة التي كانت تعرف أين تعثر على ابتسامتها، بدل اضطرارها إلى التفتيش عنها، المرأة التي كانت دائماً لا تفهم النكتة ومع ذلك تضحك؛ المرأة التي كانت تجذبني إليها من دون حتى أنْ تُحاول. وضعتُ يديّ على وجنتيها. قلتُ في نفسي، ***أوه، ها أنتِ ذي***، وانحنيتُ نحوها لأقبّلها على جبينها. قلت: «تعرفين أين تجدينني»، وأغادر.

بُعيد منتصف الليل تصلنا مُكالمة تطلب سيارة إسعاف. تطرف آنّا عينيها من السرير عندما ينطلق ضجيج الأجراس ويغمر الضوء الغرفة تلقائيّاً. أقول لها «تستطيعين أنْ تبقي»، لكنّها كانت قد نهضَتْ وانتعلتْ حذاءها.

كنتُ قد منحتها معدّات إطفاء قديمة كانت تخصّ زميلة لنا أنثى في فوج الإطفاء تعمل بدوامٍ جزئيّ؛ حذاء عالي الرقبة، وقبعة قاسية. تهتز وهي ترتدي المعطف وترتقي إلى الجزء الخلفيّ من سيارة الإسعاف، وتربط نفسها إلى المقعد المواجه للخلفيّة خلف ريد، السائق.

نصرخ ونحن ننطلق في شوارع داربي العليا باتجاه مأوى العجزة صنشاين غيتز، الذي هو بمثابة غرفة انتظار للقاء القديس بطرس، ويحمل ريد النقّالة ويُخرجها من سيارة الإسعاف بينما أحملُ حقيبة المُعدّات الطبيّة. تستقبلنا ممرضة عند البوابات الأماميّة. «لقد سقطتْ وفقدت الوعي بعض الوقت. ودخلتْ في حالة اضطراب عقلي».

قادتنا إلى إحدى الغرف. في الداخل كانت امرأة عجوز مُمدَّدة على الأرض، ضئيلة الحجم ورقيقة العِظام كعصفور، والدم ينزّ من قمّة رأسها. والرائحة المنبعثة تدل على أنها فقدت السيطرة على أحشائها. أقول منحنياً فوقها في الحال: «مرحباً، يا عزيزتي». أمدّ يدي لأمسك بيدها، فأجد جلدها رقيقاً كقماش الكريب. «هل تستطيعين أنْ تشدّي على يدي؟» وأوجّه كلامي إلى الممرضة: «ما اسمها؟».

«إلدي بريغز. في السابعة والثمانين».

أقول، وأستمر في مساعدتها، «إلدي، سوف نساعدك. هناك مادة صمغيّة على المنطقة القزاليّة. سوف أحتاج إلى مسند للظهر»، وبينما ريد يهرع إلى سيارة الإسعاف ليُحضره، أقيس ضغط دم إلدي ونبضها - غير مُنتظَم. «هل تعانين من أي ألم في صدرك؟». تئن المرأة، لكنها تهزّ رأسها نفياً وتجفل. «سوف أُضطر إلى وضعك داخل طوق، يا عزيزتي، أسمعت؟ يبدو أنّك تلقّيتِ ضربة قوية على رأسك». يعود ريد حاملاً المسند. وأرفع رأسي، وأنظر من جديد إلى الممرضة. «أتعلمين إنْ كان ما طرأ من تغّير على وعيها هو نتيجة السقطة، أم هو سبب سقوطها؟».

تهزّ رأسها نفياً. «لا أحد شاهد الحادث».

تمتمتُ بصوتٍ خافت «طبعاً، أحتاج إلى غطاء».

اليد التي قدَّمته صغيرة ومرتعشة. وحتى تلك اللحظة، كنتُ قد نسيتُ تماماً أنَّ آنّا موجودة معنا. أقول، مُنتهزاً الفرصَة لأبتسم لها: «شكراً، حبيبتي، أتريدين أنْ تساعديني هنا؟ هل تستطيعين أنْ تهبطي إلى قَدَميّ السيدة بريغز؟».

تومئ برأسها إيجاباً، شاحبة الوجه، وتجثم على الأرض. يضع ريد لوح دعم الظهر. «سوف ندحرجك، إلدي... عندما نعدّ ثلاثة...» ونبدأ العدّ، وننقلها، ونُثبّتها بحزام. تجعل الحركةُ جرحَ فروة رأسها يدمى من جديد.

ننقلها إلى سيارة الإسعاف. وينطلق ريد إلى المستشفى حالما أدور حول الجزء المزدحم من العربة، وأعلِّقُ وعاء الأكسجين، وأساعد في الإسعاف. «آنّا، هلّا أمسكتِ عدّة البداية الرابعة؟» وبدأتُ أمزّق ملابس إلدي عنها. أقول: «أما زلتِ واعية، سيدة بريغز؟ سوف نعطيك حقنة صغيرة». أضع ذراعها في وضعيّة معيَّنة وأحاول أنْ أجد وريداً، لكنها تشبه خطوطاً باهتة بالقلم الرصاص، وظلال خطوط أوّليّة. وتتفصّد حبّات العرق على جبيني. «لا أستطيع أنْ أنفذ بمقياس عشرين، يا آنّا، هلّا عثرتِ على مقياس اثنين وعشرين؟».

إنَّ أنين المريضة وبكاءها لا يُساعدان. ولا تمايُل سيارة الإسعاف إلى الخلف والأمام، وانعطافها عند الزوايا، واستخدام المكابح، بينما أحاول أنْ أغرز الإبرة الأصغر حجماً. أقول «اللعنة»، وأرمي المُخطَّط الثاني على الأرض.

أقوم بتخطيط سريع للقلب ومن ثم أرفع اللاسلكي وأتّصل بالمستشفى لكي أخبرهم بقدومنا. «معنا سيدة في السابعة والثمانين، سقطتْ. إنها يقظة وتُجيب عن الأسئلة، BP 136 على 83، النبض 130 وغير مُنتَظَم. أحاول أنْ أحصل على منفَذ إلى الأوعية الدمويّة من أجلك لكنَّ الحظ لا يحالفني. وهناك بقعة من صمغ اللك على خلفيّة رأسها لكننا نُسيطر عليها الآن. وصلتُها بالأكسجين. هل لديكم أسئلة؟».

على ضوء سيارة شاحنة قادمة، أرى وجه آنّا. تنعطف الشاحنة، ويسقط الضوء، وأُدرك أنَّ ابنتي تُمسك بيد هذه المرأة الغريبة.

عند مدخل قسم الطوارئ في المستشفى، نُخرِج المِحفّة من العربة وندخل من الأبواب الآليّة. كان فريق من الأطباء والممرضين في انتظارنا. أقول: «ما زالت تكلّمنا».

يربُت أحد الممرضين على رسغها النحيل. «يا إلهي».

«نعم، لهذا السبب لم أتمكّن من العثور على التخطيط. احتجتُ إلى مقياس خاص بالأطفال لأقيس ضغطها».

فجأة أتذكّر آنّا، التي كانت واقفة جاحظة العينين عند ممر الباب. «بابا. هل هذه السيدة ستموت؟».

«أعتقد أنّها قد تُصاب بسكتة دماغيّة... لكنها ستنجو. اسمعي، لِمَ لا تذهبين وتنتظرين هناك، على الكرسي؟ سوف أخرج في غضون خمس دقائق، على أبعد تقدير».

تقول: «بابا؟»، أتوقفُ عند عتبة الباب، «أليس أمراً جيداً إذا كانوا كلّهم هكذا؟».

إنها لا ترى الأمر كما أراه – لا ترى أنَّ إلدي بريغز هي بمثابة كابوس بالنسبة إلى عامل الإسعاف، وأنَّ أوردتها مسدودة ووضعها مُضطرب وأنَّ هذا ليس جيداً على الإطلاق. إنَّ ما تعنيه آنّا هو أنّه كائناً ما كان خطب إلدي بريغز يمكن تصحيحه.

أدخل وأستمرّ في تزويد طاقم الطوارئ بالمعلومات اللازمة. وبعد مرور عشر دقائق، أنتهي من ملء استمارتي وأبحث عن ابنتي في منطقة الانتظار، لكنني لا أجدها. أرى ريد يمِد أغطية جديدة على المِحفّة، ويربط وسادة تحت حِزامها. أين آنا؟».

«اعتقدتُ أنها معك».

ألقي نظرة إلى إحدى جهتيّ الرواق ومن ثم إلى الجهة المقابلة، فلا أرى غير أطباء مُرهقين، ومُسعفين آخرين، ومجموعة صغيرة مبعثرة من

الأشخاص المذهولين يرشفون القهوة ويأملون الأفضل. «سوف أعود في الحال».

مُقارنة بالجو المتوتّر الذي يسود قسم الطوارئ، يكون الطابق الثامن شديد الانضباط. يُحيني الممرضون كلهم باسمي وأنا متوجه إلى غرفة كيت ويفتحون لي الباب بتهذيب.

آنّا ضخمة الجسم ولا تستطيع سارة أنْ تضعها في حجرها، ولكنها تجلس هناك. وهي وكيت نائمتان. تراقبني سارة من فوق قمة رأس آنّا وأنا أقترب.

أركعُ أمام زوجتي وأمسّد على شعر آنّا وأُبعِده عن سبلتيها. أهمس: «حبيبتي، حان وقت العودة إلى بيتنا».

تعتدل آنّا ببط في جلستها. وتتركني أمسك يدها وأرفعها لتقف، وراحة يد سارة تجري على طول عمودها الفقري. تقول آنّا «إنّه ليس بيتنا»، لكنها مع ذلك تتبعني إلى خارج الغرفة.

يتجاوز الوقت منتصف الليل، وأتكئ إلى جوار آنّا وأزن كلماتي على حافة أُذنها. أغويها «اقتربي وانظري إلى هذا». تعتدل في جلستها، وتتناول قميصها الرياضيّ، وتنتعل حذاءها الخفيف، ونرتقي معاً إلى سطح مركز الإطفاء.

الليل يهبط من حولنا. والنيازك تنهمر كالألعاب الناريّة - كتمزّقات في درزة الظلام. تهتف آنّا بتعجّب «أوه!» وتستلقي أرضاً لترى بشكلٍ أفضل.

أقول لها «إنهن بنات بيرسيوس، رذاذ من النيازك».

«شيء مُذهل».

الشُّهُب ليست نجوماً البتّة. إنها مجرد صخور. تدخل الغلاف الجويّ وتندلع فيها النار بفعل الاحتكاك. وما نتمنّى أنْ نكون على متنه، عندما نشاهد أحدها، ما هو إلّا ذيل حطامها.

في الركن اليساري العُلويّ من السماء، انفجارات مُشعّة في السيل الجديد من الشرر. تسأل آنّا: «أهذا ما يحدث في كل ليلة، ونحن نيام؟».

هذا سؤال رائع - هل كل الأشياء الرائعة تحدث ونحن لا نعيها؟ أهزّ

رأسي نفياً. من الناحية التقنيّة، يعترض درب الأرض ذيل النيزك الرمليّ هذا مرةً كل عام. لكنَّ عَرْضاً مُبهراً كهذا قد لا يحدث إلّا مرّة في العمر.

«أليس جميلاً لو أنَّ نجماً يحطّ في فناء بيتنا الخلفي؟ لو أننا نعثر عليه عندما تشرق الشمس ونضعه في حوض السمك ونستخدمه كضوء في الليل أو كمصباح في مُخيَّم؟». أكاد أراها تفعل ذلك، تمشِّطُ المرج بحثاً عن علامة على احتراق العشب. «أتعتقد أنَّ باستطاعة كيت أنْ تشاهد هذه من نافذتها؟».

«لا أعلم». أقترب متكئاً على مِرفقي وأنظر إليها بتمعّن. «لستُ واثقاً».

لكنَّ آنّا تُبقي عينيها ثابتتين على حوض السماوات المستند على أطرافه. «أعلم أنكِ تريدين أنْ تسأليني لِمَ أفعل هذا كلّه».

«لستَ مُضطراً إلى قول أيّ شيء إذا كنتَ لا ترغب».

تستلقي آنّا، ورأسها يتوسّد كتفي. ومع مرور كل لحظة، يتوهّج شعاعٌ فضيّ آخر؛ كلمة بين قوسين، علامات استفهام، فواصل - كامل علامات النحو مصنوعة من نور، لأنَّ الكلمات عصيّة على النطق.

الجمعة

يمكنك أنْ تشكّي في أنْ تكون النجوم من نار؛
يمكنكِ أنْ تشكّي في أنَّ الشمس تتحرَّك؛
يمكنكِ أنْ تشكّي في أنْ تكون الحقيقة كذباً؛
ولكن لا تشكّي أبداً في أنّي أحبّكِ.

وليم شكسبير
من (هاملت)

كامبل

حالما أدخل المستشفى وجدج إلى جواري، أعلمُ أنني في مشكلة. تعترض طريقي ضابط أمن عند مدخل المصعد وتعقد ذراعيها على صدرها - تخيَّل هتلر يرتدي ملابس امرأة مع تسريحة شعر رديئة. تأمرني «ممنوع دخول الكلاب».

«هذا كلب خدمات».

«أنت لستَ أعمى».

«لديّ حالة من عدم انتظام نبض القلب وهو حامل شهادة في إنعاش القلب والرئتين».

توجّهتُ من فوري إلى عيادة الدكتور بيتر بيرغن، طبيب الأمراض النفسيّة الذي تصادفَ أنْ كان رئيس هيئة الأخلاق الطبيّة في مستشفى بروفيدنس. وأنا هنا بالنيابة؛ يبدو أنني لا أعثر على موكّلتي، التي ربما ما زالت تعمل على دعواها أو تخلّتْ عنها. وبصراحة، بعد جلسة الاستماع التي تمّت في اليوم السابق ثار غضبي -لقد أردتُ *لها* أنْ تلجأ *إليّ*. ولمّا لم تفعل، تماديتُ إلى درجة الجلوس على عتبة بيتها في الليلة السابقة على مدى ساعة، ولكن لم يأتِ أحدٌ إلى منزلها؛ وفي صباح هذا اليوم، افترضتُ أنَّ آنّا موجودة مع أختها، فأتيتُ إلى المستشفى- لكنهم أخبروني بأنني لا أستطيع أنْ أدخل لأرى كيت. ولم أعثر على جوليا أيضاً، على الرغم من أنّي كنتُ متيقّناً من أنني سأراها ما زالت تنتظر منذ الأمس على الجانب الآخر من الباب عندما غادرنا أنا وجدج بعد حادثة المحكمة. وسألتُ أختها عن رقم الحجرة، على الأقلّ، لكنَّ حدساً يُخبرني بأنَّ الحجرة 401–Go2–HELL خارج الخدمة.

وهكذا، لأنه ليس لديّ عمل آخر أقوم به، سوف أعمل على قضيتي هذه إذا كانت لا تزال قائمة.

بدتْ سكرتيرة بيرغن كأنها من النوع الذي حجم حامل صدرها أكبر من حاصل ذكائها. قالت بصوتها الرفيع: «أووه، جرو!». ومدّتْ يدها لتربِّت على جدج.

باشرتُ بالإدلاء بأحد الأجوبة الجاهزة «أرجوكِ. لا تفعلي»، ولكن لِمَ أُبدِّده عليها؟ ثم هرعت نحو الباب الخلفي.

هناك وجدتُ رجلاً ضئيلاً، قصيراً وبديناً، يربط خصلات شَعره الذي يزداد شيباً بمنديلٍ مُزخرف بالعلم الأميركيّ، ويرتدي زيّ رياضة اليوغا ويؤدي حركات رياضة تاي تشي الصينيّة. زمجر بيرغن، «أنا مشغول».

«ثمة شيء نشترك فيه، يا دكتور. أنا كامبل ألكسندر، المحامي الذي طلب تخطيطات حالة ابنة فيتزجيرالد».

امتدت ذراعان إلى الأمام، واستنشق الطبيب النفسي الهواء. «لقد أرسلتها».

«أنتَ أرسلتَ سجلات كيت فيتزجيرالد. وأنا أحتاج إلى سجلات آنّا فيتزجيرالد».

يُجيب «في الواقع، الآن ليس الوقت المناسب بالنسبة لي...».

«لنْ أقاطع تمارينك الرياضيّة» وأجلس، ويتمدَّد جدج عند قدميّ. «كما كنتُ أقول – آنّا فيتزجيرالد؟ هل لديك أيّة ملاحظات من اللجنة الأخلاقيّة عنها؟».

«إنَّ اللجنة الأخلاقيّة لم تجتمع أبداً من أجل آنّا. إنَّ أختها هي المريضة».

أراقبه وهو يقوِّس ظهره، ومن ثم ينحني إلى الأمام. «ألديك أيّة فكرة كم مرَّة كانت آنّا في وقتٍ واحد مريضة خارجيّة ومريضة مُقيمة في هذه المستشفى؟».

يقول بيرغن: «كلا».

«أنا أعرف أنّها ثماني مرّات».

«لكنَّ تلك الإجراءات لا تُتَّخَذ بالضرورة قبل انعقاد اللجنة الأخلاقيّة. عندما يتّفق الأطباء حول ما يُريده المرضى، والعكس بالعكس، لا يحدث

نزاع. وليس لدينا سبب لنسمع عنه». يُنزِل الدكتور بيرغن القدم التي كان قد رفعها في الهواء ومدّ يده لتناول منشفة ليمسح تحت ذراعيه. «كلنا لدينا أعمال بدوام كامل، يا سيد ألكسندر. نحن أطباء نفسيون وممرضون وأطباء عامّون وعلماء ومُلحقون. ولا نخرج لنبحث عن المشاكل».

اتّكأتُ أنا وجوليا على خزانتي، واتّفقنا حول مريم العذراء. كنتُ أتحسَّس ميداليتها المُعجزة - في الواقع، ما كنتُ أسعى إليه هو عظمة الترقوة عندها، والميدالية اعترضَت طريقي. قلت: «ماذا لو أنها كانت مجرد طفلة أوقعتْ نفسها في المشاكل، وابتكرت طريقة بارعة للخروج منها؟».

كادت جوليا تختنق. «أعتقد أنّه بإمكانهم حتى أنْ يرموك من الكنيسة الأسقفيّة بسبب هذه المشكلة، يا كامبل».

«فكّري في الأمر -تخيّلي أنكِ في الثالثة عشرة، أو مهما كانت أعمارهم حينئذٍ وهم في ذروة عنفوانهم- وكنتِ على علاقة قصيرة مع يوسف[1]، وفجأة اكتشفتِ أنك حامل. فإمّا أنْ تواجهي غضب والدك، أو تستطيعين أنْ تلفّقي قصّة جيدة. مَنِ الذي سيخالفك إذا قلتِ إنَّ الرب هو الذي تسبَّب في حملك؟ ألا تعتقدين أنَّ والد مريم قال في نفسه، «أودّ أنْ أسحقها... ولكن ماذا لو تسبَّبَ ذلك في انتشار طاعون؟».

حينئذٍ فقط فتحتُ خزانتي وتدفقَ منها مائة واقٍ ذكريّ. وخرجت عُصبة من الشبّان من فريق الإبحار من مخابئهم، يضحكون، كالضباع. قال أحدهم: «اعتقدتُ أنَّ باستطاعتك أنْ تستخدم مخزوناً جديداً.

حسن، ماذا كان من المُفتَرَض أنْ أفعل؟ ابتسمت.

سرعان ما غادرتْ جوليا. كانت سريعة، إذا أخذنا بعين الاعتبار كونها فتاة. ولم أتمكّن من اللحاق بها إلّا بعد أنْ أصبحت المدرسة بقعة بعيدة جداً خلفنا. قلت «جوهرة»، على الرغم من أنني لم أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك. لم تكن المرة الأولى التي أدفع فيها فتاة إلى البكاء، لكنها المرة الأولى التي أتألّم لفعل ذلك. «هل يجب أنْ أكدّسها كلها؟ أهذا ما تريدين؟»

1- أي يوسف النجّار، خطيب السيدة مريم العذراء. المترجم.

استدارتْ نحوي. «ماذا أخبرتهم عنّا عندما كنا في غرفة تغيير الملابس؟».
«أنا لا أخبرهم بأي شيء».
«ماذا تخبر والديك عنّا؟».
اعترفت: «لا أخبرهما بأي شيء».
قالت: «اغرب عن وجهي»، وانطلقت تركض من جديد.

يُفتَح باب المصعد في الطابق الثالث، وإذا بي أمام جوليا رومانو. نتبادل النظرات برهة، ومن ثم ينهضَ جدج ويبدأ يهزّ ذيله. «ستنزلين؟».

تدخل وتضغط الزر إلى البهو، وكان مُضاءً أصلاً. لكنَّ ذلك يجعلها تميل نحوي، فأشمُّ رائحة شَعرها - رائحة الفانيلا والقرفة. تسألني «ماذا تفعل هنا؟».

«أُصبحُ يائساً يأساً مُطلقاً من وضع الرعاية الصحيّة في أميركا. وأنتِ؟».

«أقابل طبيب كيت المختصّ بالأورام، الدكتور تشانس».

«هل أفترِض أنَّ قضيتنا ما زالت جارية؟».

تهزّ جوليا رأسها نفياً. «لا أعلم. لا أحد في هذه العائلة يردّ على مكالماتي الهاتفيّة، ما عدا جِسّ، وهذا أمر يتعلَّق حصراً بالهورمونات».

«هل صعدتِ إلى...».

«تقصد غرفة كيت؟ نعم. لم يسمحوا لي بالدخول. لأمرٍ يتعلَّق بفصل الخلايا».

أخبرها «لقد قالوا الشيء نفسه لي».

«حسن، إذا تحدثتَ معها-».

أقاطعها: «اسمعي، يجب أنْ أفترِض أنّه ما زالتْ أمامنا جلسة استماع بعد ثلاثة أيام إلّا إذا أخبرتني آنّا بخِلاف ذلك. فإذا كان هذا هو الحال، فإننا أنا وأنتِ نحتاج إلى أنْ نجلس ونفهم ما الذي يحدث في حياة هذه الطفلة. أترغبين في شرب كوب من القهوة؟».

تقول جوليا «كلا»، وتتهيّأ للمغادرة.

«توقفي». عندما أقبض على ذراعها، تتجمّد. «أعلم أنَّ هذا شيء مزعج

بالنسبة إليك. وهو يزعجني، أيضاً. ولكنْ مجرد أنّه لا يبدو أننا أنا وأنتِ لا نكبُر لا يعني أنّه لا ينبغي أنْ تسنح الفرصة لآنّا لتكبُر». رافقَ هذا نظرةٌ مُثيرةٌ للشفقة.

تعقد جوليا ذراعيها على صدرها. «هل تريد أنْ تدوّن هذه الفكرة، لكي تستعين بها من جديد لاحقاً؟».

أنفجرُ بالضحك. «يا إلهي، أنتِ صلبة-».

«أوه، كفى، يا كامبل. إنكَ زلِق اللسان إلى درجة أنكَ ربما تزيِّت شفتيك في صباح كل يوم».

هذا الكلام استحضر في ذهني صوراً شتّى، لكنّها صورٌ تتضمَن أجزاءً من جسدها هي.

ثم قالت «أنتَ على صواب».

«الآن *هذا* ما أودَّ أنْ أدوّنه...». عندما بدأتْ تمشي مبتعدة هذه المرَّة، تبعناها أنا وجدج.

خرجَتْ من المستشفى إلى رصيف الشارع، أو الزقاق، واجتازَتْ أحد المساكن قبل أنْ نخرج إلى أشعة الشمس من جديد في جادة مينرال سبرينغ في نورث بروفيدنس. بحلول ذلك الوقت، كنتُ ممتناً لأنَّ يدي اليُسرى مشدودة بحزم إلى رسن كلب مزوّد بكميّة وافرة من الأسنان. تُخبرني جوليا، «لقد أخبرني تشانس بأنّه لم يعُد هناك ما يمكن فعله من أجل كيت».

«تعنين خِلاف إعادة زرع الكبد».

توقفتْ عن المشي، ووقفَتْ بثبات أمامي. «كلا. هنا يكمن الشيء الذي لا يُصدَّق. إنَّ الدكتور تشانس لا يعتقد أنَّ كيت قويّة».

أقول: «وسارة فيتزجيرالد تستعجل الأمور».

«عندما تفكر في الأمر مليّاً، يا كامبل، لا يمكنك أنْ تضع اللوم على منطقها. إنَّ كانت كيت ستموت من دون إجراء أيّة عملية زرع، فلمَ لا تُجريها؟».

أخذنا ندور بهدوء حول رجل متشرّد ومجموعته من الزجاجات. أنوّه قائلاً: «لأنَّ عملية الزرع تتضمَّن إجراء عمليّة جراحيّة لابنتها الأخرى.

وتعريض حياة آنّا للخطر من أجل إجراءات ليستْ ضروريّة لها يبدو عملاً شهماً قليلاً».

فجأة تتوقف جوليا أمام كوخٍ صغير عليه لافتة مكتوبٌ عليها بخط اليد، لويجي رافيولي. يبدو من الأماكن التي يبقونها مُظلمة، لكي لا تلاحظ وجود الجرذان. أسألُ: «ألا توجد محلات لبيع القهوة في الجوار؟»، حالما يفتح رجلٌ ضخم الجثّة وأصلع يرتدي مئزراً أبيض البابَ ويكاد يطرح جوليا أرضاً.

يهتف «إيزابيلا!»، ويُقبل وجنتيها.

«كلا، عم لويجي، أنا جوليا».

يتراجع ويتجهَّم. «جوليا؟ أواثقة أنت؟ يجب أنْ تقصّي شعرك أو ما شابه، حتى نتعرّف عليكِ».

«كنتَ تعترض على شَعري عندما كان قصيراً».

«كنا نعترض على شعرك لأنه كان *قرمزيّ اللون*»، وينظر إليّ. «هل أنتَ جائع؟».

«كنا نأمل في شرب بعض القهوة، وفي طاولة في ركنٍ هادئ».

يُكشِّر. «طاولة في ركنٍ هادئ؟».

تتنهّد جوليا. «ليس كما تعتقد».

«حسن، حسن، كل شيء في طيّ الكتمان. ادخلا. سوف أمنحكما الغرفة التي في الخلفيّة»، ينظر نحو الأسفل إلى جدج. «الكلب سيمكث في الخارج».

أردّ: «الكلب سيدخل».

يُصرّ لويجي: «ليس في مطعمي».

«إنه كلب خدمات، ولا يمكن أنْ يبقى في الخارج».

يميل لويجي مقترباً مني، على مسافة بوصتين من وجهي. «أنتَ أعمى؟».

أجيب «لديّ عمى ألوان. وهو يُخبرني عندما تتبدَّل ألوان إشارات المرور».

تميل زاويتا فم عم جوليا نحو الأسفل. يقول «الجميع يتّسمون بالذكاء هذا اليوم»، ومن ثم يتقدّمنا على الطريق.

***

على مدى أسابيع عديدة، حاولتْ أمي أنْ تخمّن هوية صديقتي. «اسمها بيتسي، صحّ؟ - تلك التي قابلناها في كرم العنب؟ أو كلا، انتظر، إنها ليست ابنة شيلا، ذات الشعر الأحمر، أليس كذلك؟». فأخبرها مراراً وتكراراً أنها ليستْ إحدى معارفها، في حين أنَّ ما أعني حقّاً هو أنّ جوليا ليست شخصاً تعرفه».

تُخبرني جوليا: «أنا أعرف ما يُناسب آنّا، لكنني لستُ متأكّدة من أنها ناضجة إلى درجة اتّخاذ قراراتها الخاصّة».

أنتقي قطعة أخرى من المُشهيات. «إنْ كنتِ تعتقدين أنَّ لديها ما يُبرِّر تقديمها العريضة، فأين يكمن النزاع؟».

تقول جوليا بجفاف: «في الالتزام. هل تريد مني أنْ أعرِّفه لك؟».

«في الحقيقة، من قلّة الذوق أنْ تُشهري مخالبك على مائدة العشاء».

«في الوقت الحالي، كلما تواجه والدة آنّا ابنتها، تتراجع آنّا. وكلما يحدث أمر لكيت، تتراجع آنّا. وعلى الرغم مما تعتقد أنها قادرة على فعله، فإنها لم تتخذ قراراً بمثل هذه الأهميّة من قبل - أي الأخذ بعين الاعتبار العواقب التي ستنزل بأختها».

«ماذا لو أخبرتك أنّه عندما يحين وقت جلسة الاستماع إلينا، سوف تكون قادرة على اتّخاذ ذلك القرار؟».

ترفع جوليا نظرها. «لمَ أنتَ شديد الثقة في أنَّ هذا سيحدث؟».

«أنا دائم الثقة بنفسي».

تنتزع حبّة زيتون من الصينيّة التي بيننا. تقول بهدوء: «نعم. أتذكّر هذا».

على الرغم من أنّه لا بدّ أنَّ لدى جوليا شكوكها الخاصّة، فأنا لم أحكِ لها عن أبويّ، وعن بيتنا. وفي أثناء توجهنا بسيارتي الجيب إلى نيوبورت، انعطفت إلى ممشى قصر ضخم من القرميد. قالت جوليا «كامبل، أتمزح؟». درت حول الممشى الدائريّ وخرجت من الطرف الآخر. «نعم، أنا أمزح». بهذه الطريقة، عندما أتوقف عند المنزل الذي يقع بعد ذلك بمسافة

قصيرة، لا يبدو المنزل المترامي المبني على الطراز الجورجيّ بصفوفه من أشجار الزان ومنحدره الهابط إلى المرفأ، لا يبدو مُبهِراً جداً. وعلى أقلّ تقدير، يبدو أضأل حجماً من المكان الأول.

هزّتْ جوليا رأسها رفضاً. «سوف يُلقي أبواك نظرة واحدة عليّ ويُفرّقا بيننا بعتلة».

قلت لها «سوف يُحبّانك»، كانت تلك أول مرّة أكذب فيها على جوليا، ولكن ليست الأخيرة.

نزلتْ جوليا تحت الطاولة مع طبق مملوء بالباستا، وقالت: «هذا لك، يا جدج. وماذا يفعل الكلب؟».

«إنه يُترجم لزبائني من المتحدثين بالإسبانية».

«حقاً».

أبتسم لها ابتسامة عريضة. «حقاً».

تميل إلى الأمام، وتضيّق عينيها. «أتعلم أنَّ لديّ ستة إخوة. أنا أعلم كيف يعمل الرجال».

«أخبريني».

«وأُفشي أسرار تجارتي؟ لا أظنّ ذلك». هزّت رأسها رفضاً. «ربما آنّا عيَّنتك وكيلاً عنها لأنك مُراوغ مثلها».

قلت: «لقد عيّنتني لأنها رأت اسمي في الصحيفة. ليس هناك سبب آخر».

«ولكن لماذا قبلتَ قضيتها؟ هذه القضيّة ليست من النوع الذي تقبله في المعتاد».

«ما أدراك بالقضايا التي أقبلها في المعتاد؟».

سألتها السؤال بخفّة، كأنه نكتة، لكنَّ جوليا لزمت الصمت، وهذا هو جوابي: طوال تلك السنين كانت تتابع مسيرتي المهنيّة.

كنتُ أودّ لو أنّي تابعتُ مسيرتها المهنيّة.

أتنحنح، بانزعاج، وأُشير إلى وجهها. «ثمة بقعة من الصلصة... هناك».

ترفع فوطتها وتمسح جانب فمها، لكنها تُخطئ في ذلك تماماً. تسأل «هل أزلتُها؟».

أميل إلى الأمام مع فوطتي الخاصة، وأُنظِّف بقعتها الصغيرة - لكنني لا أبتعد عنها. وتستقرّ يدي على وجنتها. تتلاقى عيوننا، وفي تلك اللحظة، عدنا شباناً من جديد يتفحَّص كلٌّ منا شكل الآخر.

تقول جوليا: «كامبل، لا تفعل هذا بي».

«أفعل ماذا؟».

«تدفعني عن حافة الجرف نفسه مرّتين».

عندما بدأ هاتفي المحمول الذي في جيب معطفي يرنّ، أجفلنا معاً. وتَقلِب جوليا كأس مشروبها عن غير قصد بينما أنا أجيب. «كلا، اهدئي. اهدئي. أين أنتِ؟ حسن، أنا قادم». عندما أنهيت المكالمة كانت جوليا تمسح الطاولة. «يجب أنْ أذهب».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

أقول: «كانت تلك آنّا. إنها في مركز شرطة داربي العليا».

في طريق العودة إلى بروفانس، حاولتُ أنْ أنهي كل ميل أقطعه في طريقي إلى والديّ بميتة شنيعة واحدة على الأقلّ. بالضرب بالهراوة، بسلخ فروة الرأس. بسلخ الجلد الحيّ وبالرشّ بالملح. التخليل بمشروب الجِن، على الرغم من أنني لا أعلم إنْ كان ذلك يُعتبَر تعذيباً أم هو فقط نيرفانا[1].

ربما شاهدوني أتلصّص على غرفة الضيوف، وأنا أُنزِل جوليا من درج الخدم إلى الباب الخلفيّ من المنزل. ربما تبيّنوا جانب وجهينا ونحن نتعرّى من ملابسنا ونخوض في مياه المرفأ. ربما راقبوا ساقيها وهما تلتفّان حولي، وراقبوني أضعها على سرير مصنوع من القمصان الرياضيّة والملابس الداخليّة.

عذرهم، الذي أدلوا به في صباح اليوم التالي في أثناء تناول طبق بيض بينيدكت[2]، كان دعوة إلى حفلة في النادي في تلك الليلة - مع ربطة عنق سوداء، وخاصّة بالعائلات. دعوة لا تتضمّن، طبعاً، جوليا.

1- النيرفانا: في البوذيّة؛ بلوغ السعادة القصوى بقتل الشهوات. المترجم.

2- طبق بيض بينيدكت: يتألّف من الخبز المُحمَّص، مع شرائح لحم الخنزير، والبيض المفقوس بالماء الغالي والصلصة الهولنديّة. المترجم.

كان الجو شديد الحرارة عندما وصلنا بالسيارة إلى منزلها حتى إنَّ أحد الصِّبية المُغامرين يفتح صنبور إطفاء الحريق ويقفز الأطفال كالفشار مخترقين سيل المياه. «جوليا، ما كان ينبغي أنْ أجرّك إلى المنزل لكي تُقابلي أبويّ».

تعترف: «هناك الكثير من الأمور ما كان ينبغي عليك أنْ تقوم بها، ومُعظمها يشملني».

قلت، وهي تُقبّلني وتخرج من سيارة الجيب، «سوف أتّصل بك قبل التخرّج».

لكنّي لم أتّصل. ولم ألتقِ بها عند التخرّج. وهي تعتقد أنّها تعرف السبب، لكنّها لا تعرف.

الغريب في أمر رود آيلند هو خلوّها تماماً من أي توازن. وأعني بهذا أنَّ هناك بلدة كومبتون صغير، ولكن لا يوجد بلدة اسمها كومبتون كبير. هناك داربي عُليا ولا توجد داربي سفلى. هناك أنواع شتّى من الأماكن تُعرَّف بشيءٍ آخر لا وجود له في الواقع.

تتبعني جوليا بسيارتها الخاصّة. وأنا وجدج يجب أنْ نكسر الرقم القياسي في السرعة على اليابسة، لأنه يبدو أنَّ أقلّ من خمس دقائق قد مرّتْ منذ المكالمة الهاتفيّة بالإضافة إلى اللحظة التي دخلنا فيها مركز الشرطة لكي نجد آنّا في حالة هستيريّة بجوار رقيب المكتب. وتهرع نحوي، مسعورة. تصرخ «يجب أنْ تساعدنا، لقد ألقوا القبض على جِسّ».

«ماذا؟» وأحدّقُ إلى آنا، التي حرمتني من وجبة لذيذة، ومن الحديث الذي كنتُ أفضّل حقاً أنْ أواصله حتى نهايته. «لماذا تكون هذه مشكلتي؟».

«لأنني أحتاج إليك لتُخرِجه» هكذا شرحت آنّا ببطء، وكأنني أبله. «أنت مُحام».

«أنا لستُ مُحاميه هو».

«ولكن ألا تستطيع أنْ تكون كذلك؟».

أقترحُ: «لِمَ لا تستدعين أمك. أسمعُ أنها تقبل موكلين جُدداً».

تضربني جوليا على ذراعي. «اخرس». ثم تلتفتُ إلى آنّا. «ماذا حدث؟».

«سرقَ جِسّ سيارة وقُبِضَ عليه».

أقول: «أعطني المزيد من التفاصيل»، وعلى الفور أندم على هذا.

«كانت سيارة طراز همفي، في اعتقادي. كبيرة، وصفراء».

في هذه الولاية بأكملها لا توجد إلّا سيارة همفي واحدة، وصاحبها القاضي نيوبل. يبدأ صداع يضرب ما بين عينيّ. «أخوك سرق سيارة قاض، وتريدين مني أنْ أُخرجه من ورطته؟».

تطرف آنّا لي بعينيها «حسن، **نعم**».

يا إلهي. «دعيني أتحدث مع الضابط»، وأتركُ آنّا في رعاية جوليا، وأمشي إلى رقيب المكتب، الذي -أُقسم بالله- كان قد بدأ يضحك عليّ. أتنهّد. «أنا أمثّل جِسّ فيتزجيرالد».

«يؤسفني أنْ أسمع هذا».

«كانت سيارة القاضي نيوبل، أليس كذلك؟».

يبتسم الضابط. «نعم».

آخذُ نَفَساً عميقاً. «ليس للولد أي سجل».

«هذا لأنه بلغ توّاً سن الثامنة عشرة. إنَّ لديه سجلاً وهو حَدَث بطول ميل».

أقول: «اسمع، إنَّ عائلته تمرّ بفترة عصيبة في الوقت الحالي. هناك أختٌ تحتضر؛ وأخرى تُقاضي أبويها. ألا تستطيع أنْ تمنحني فرصة هنا؟».

نقل الضابط نظره إلى آنّا. «سوف أتحدث مع النائب العام إكراماً لك، ولكن يُستحسَن أنْ تدافع عن الفتى، لأنني متيقّن من أنَّ القاضي نيوبيل لا يريد أنْ يحضر لكي يشهد».

بعد المزيد من التفاوّض أعود إلى آنّا، التي تقفز واقفة حالما تراني. «هل حللتَ المشكلة؟».

«نعم. ولكن لن أفعل هذا مرة أخرى، وأنا لم أنته منكِ أنتِ». وأمشي ببطء نحو مؤخّر مركز الشرطة، حيث الزنزانات.

جِسّ فيتزجيرالد يستلقي على ظهره على السرير الحديدي الصغير، وإحدى ذراعيه على عينيه. للوهلة الأولى أقفُ خارج زنزانته. «أتعلم، أنتَ أفضل برهان قابلته على الانتقاء الطبيعيّ».

يعتدل في جلسته. «مَنْ أنتَ بحق الجحيم؟».

«أنا عرّابتك الخرافيّة. أيها الأبله القذر الصغير – هل تعلم أنّكَ سرقتَ سيارة القاضي الهمفي؟».

«كيف كان يمكن لي أنْ أعرف صاحبها؟».

أقول: «ربما من اللوحة القضائيّة الأنيقة التي كُتِبَ عليها «**فلينهض الجميع**»؟ أنا مُحامٍ. واختك طلبتْ مني أنْ أمثّلك. وقد قبلتُ، على الرغم من عدم رغبتي في ذلك».

«أتمزح؟ لكي تُطلِق سراحي؟».

«سوف يُطلقون سراحك بعد دفع كفالة التمثيل التناسبي. عليك أنْ تُعطيهم رخصتك وتوافق على أنْ تلزم المنزل، وهو ما تفعله أصلاً، لكي لا تقع في مشكلة».

يفكِّر جِسّ في هذا. «هل سأُضطر إلى إعطائهم سيارتي؟».

«كلا».

في الواقع يبدأ الأمل بالتجدُّد. إنَّ فتى مثل جِسّ لا يأبه لقطعة من الورق تسمح له بالقيادة، ما دامت لديه سيارة. يقول «هذا جيد، إذن».

أشير إلى ضابط ينتظر على مقربة، فيدير قفل الزنزانة ويسمح لجِسّ بالمغادرة. ونمشي جنباً إلى جنب إلى منطقة الانتظار. إنَّ طول قامته يُجاري طول قامتي، لكنّه غير مكتمل النمو عند الحواف. ويُضيء وجهه حالما ننحدر عند المنعطف، وأعتقد برهة من الوقت أنّه قادر على الخلاص، وأنّه ربما يتعاطف مع آنّا ويتحالف معها.

لكنّه يتجاهل أخته، وبدل ذلك يتقدَّم من جوليا، يقول «مرحباً، هل قلقتِ بشأني؟».

في تلك اللحظة، أرغبُ في إعادته إلى السجن. بعد أنْ أقتله.

تتنهّد جوليا. «ابتعد عني. هيا بنا، آنّا. دعينا نجد شيئاً نأكله».

يرفع جِس نظره. «عظيم. أنا شديد الجوع».

أقول: «ليس أنت. نحن سنذهب إلى المحكمة».

في يوم تخرّجي من مدرسة ويلر، هجم الجراد. وصل كعاصفة صيفيّة قويّة،

كان يتدلّى من أغصان الأشجار ويرتطم بقوة بالأرض. وقضى علماء الأرصاد الجويّة يوماً ميدانياً، محاولين أنْ يشرحوا تلك الظاهرة. أتوا على ذِكر الأوبئة التوراتيّة وتقلّبات أحوال الطقس وفترة الجفاف الطويلة التي نمرّ بها. فأوصوا بحمل المظلات، واعتمار القبعات عريضة الحواف، والبقاء في المنازل.

لكنَّ مراسم التخرّج أُقيمتْ في العراء تحت خيمة كبيرة بيضاء من القنّب. وبينما الطالِب المُرحِّب يتكلَّم، كانت تقفز على رسالته الحشرات المنتحرة، ويقفز الجراد عن الأسطح المُنحدرة، ويسقط على المشاهدين.

لم أكن راغباً في الحضور، لكنَّ والديّ أجبراني على الذهاب. عثرتْ جوليا عليّ بينما كنتُ أعتمر قلنسوتي. أحاطتْ خصري بذراعيها. حاولتْ أنْ تُقبّلني. قالتْ «مرحباً، من أي جانب من الكرة الأرضيّة سقطت؟».

أتذكّر أننا ونحن نرتدي ملابسنا البيضاء، كنا نبدو أشبه بالأشباح. دفعتها بعيداً عني. «لا تفعلي. ممكن؟ فقط لا تفعلي».

في كل صورة فوتوغرافيّة التقطها والداي، ظهرتُ مبتسماً وكأنَّ هذا العالم الجديد مكان أرغب حقاً في العيش فيه، بينما طوال الوقت كانت الحشرات تتساقط عليّ، ضخمة، بحجم قبضة اليد.

إنَّ ما هو أخلاقيّ بالنسبة إلى محامٍ يختلف عمّا يعتبره باقي العالم أخلاقياً. في الحقيقة، لقد وضعنا دستوراً -قواعد المسؤوليّة الحِرفيّة- علينا أنْ نقرأه، ونُختبَر فيه، ونتّبعه من أجل المُحافَظَة على ممارسة المهنة. لكنَّ هذه المعايير تتطلَّب منا أنْ نقوم بالأشياء التي يعتبرها معظم الناس لا أخلاقيّة. على سبيل المثال، إذا أتيتَ إلى مكتبي وقلت: «لقد قتلتُ طفل ليندبيرغ[1]»، فقد أسألك أين هو الطفل. فتخبرني «إنّه تحت أرضيّة غرفة نومي، على عمق ثلاثة أقدام تحت أساس المنزل». فإذا أردتُ أنْ أؤدي عملي بشكلٍ صحيح، لا أستطيع

1- الطيّار الأميركيّ تشارلز أوغست ليندبيرغ (1902–1974)، الذي نجح في اجتياز المحيط الأطلسي بالطائرة وحده عام 1927 للمرة الأولى - تعرَّض ابنه الوليد للاختطاف ومن ثم للقتل. (من أجل المزيد من التفاصيل، اقرأ ترجمتي لرواية «*التآمر على أميركا*» للكاتب فيليب روث وإصدار دار المدى للنشر. المترجم.

أنْ أُخبر أحداً عن مكان ذلك الطفل. في الحقيقة، إذا فعلتُ، فسوف أُشطَب من جدول المُحامين.

إنَّ هذا كلّه يعني أنني في الحقيقة تعلَّمتُ أنْ أعتقد أنَّ آدابَ مهنةٍ ما والمبادئ الأخلاقيّة ليسا بالضرورة متلازمين.

أقول للنائب العام، «بـروس، إنَّ موكّلي سوف يمتنع عن الإدلاء بمعلومات. وإذا تخلّصتَ من بعض تلك الجُنَح الخاصة بحركة المرور، أُقسِم على أنّه لن يقترب من القاضي وسيارته من جديد أكثر من خمسين قَدَماً بعد الآن».

أتساءل كم من عدد السكان العام لهذا البلد يعلمون أنَّ النظام القانوني له صِلة بلعب دورة جيدة بالبوكر أكثر من صِلته بالعدالة.

إنَّ بروس رجل مستقيم. إضافة إلى ذلك، تصادفَ أنني علِمتُ أنّه أوكِلَ إليه العمل على جريمة قتل مزدوجة؛ وهو لا يريد أنْ يُبدِّد وقته على تجريم جِسّ فيتزجيرالد.

يقول: «اعلَمْ أننا نتحدَّث عن سيارة القاضي نيوبل الهمفي، يا كامبل».

أُجيب برصانة، «نعم، أعي هذا»، في حين أنَّ ما أفكِّر فيه هو أنَّ أيَّ شخص تافه إلى درجة أنْ يقود سيارة همفي فكأنه يطلب حرفيّاً أنْ تُمزَّق.

يتنهّد بروس «دعني أتحدث مع القاضي. قد يُمزِّق أحشائي إذا اقترحت الأمر عليه، ولكنّي سأخبره أنَّ الشرطة لا تمانع إذا منحنا الفتى فرصة».

بعد ذلك بعشرين دقيقة، وقّعنا كل الاستمارات، وجِسّ يقفُ إلى جواري أمام حضرة المحكمة. وبعد خمس وعشرين دقيقة أخرى عُلِّقَت العقوبة الصادرة بحقّه، رسميّاً، وخرجنا وهبطنا دَرَج المحكمة.

إنّه أحد أيام فصل الصيف تلك التي يشعر فيها المرء أنَّ ذِكرى ما تتصاعد في حنجرته. في أيامٍ كتلك، كنتُ أخرج في المعتاد مع أبي لكي نُبحِر.

يرفعُ جِسّ رأسه عالياً. يقول بلا مقدمات: «كنا نصطاد السمك من أجل إطعام شراغيف الضفادع. كنا نمسكها ونضعها في دلو، ومن ثم نراقب أذيالها وهي تتحول إلى أطراف. وأُقسِم على أنَّ لا أحد منها تحول إلى ضفدع».

ويلتفتُ إليّ ويُخرج علبة سجائر من جيب قميصه. «أترغب في واحدة؟».

لم أكنْ قد دخَّنتُ منذ أنْ كنتُ في كليّة الحقوق. لكنني وجدتُ نفسي آخذ سيجارة وأُشعلها. ويُراقب جدج الحياة تحدث أمامه، وهو يُدلّي لسانه. وإلى جواري، يقدَحُ جِسّ عود ثقاب. يقول «شكراً لك على ما فعلتَ من أجل آنّا».

مرَّت بنا سيارة، وصوت مذياعها يصدح بإحدى تلك الأغاني التي لا تذيعها المحطات في الشتاء. ويتدفّق سيل أزرق من الدخان من فم جِسّ. أتساءل إنْ كان قد أبحر مرَّة. إنْ كانت هناك ذِكرى يحملها طوال كل تلك السنين – عن جلوسه على المرج الأماميّ وشعوره بالعشب يزداد برودة بعد غروب الشمس، وحمله ألعاباً ناريّة بمناسبة الرابع من تموز إلى أنْ تحرق أصابعه. كلنا لدينا ذكرى ما.

بعد التخرّج بسبعة عشر يوماً تركتْ جوليا الملاحظة المكتوبة تحت ماسحة زجاج سيارتي الجيب. وقبل حتى أنْ أفتحها تساءلتُ كيف وصلتْ إلى نيوبورت، كيف عادتْ. أخذتُ الرسالة وحملتُها معي إلى المرفأ لكي أقرأها وأنا جالس على الصخور؛ وبعد أنْ انتهيت رفعتها وأخذتُ أشمّها، لعلّها تحمل رائحتها.

لم يكن يُسمح لي تقنياً بقيادة السيارة، لكنَّ هذا ليس بالأمر الهامّ. لقد تقابلنا، كما ورد في هذه الملاحظة، في المقبرة.

كانت جوليا جالسة أمام شاهد القبر، وذراعاها متشابكتين حول رُكبتيها. رفعتْ نظرها عندما رأتني. «أردتُ أنْ أراك بشكلٍ مختلف».

«جوليا، هذا ليس أنتِ».

«أحقاً؟ أنا لا أمتلك وديعة مصرفيّة، يا كامبل. ووالدي لا يمتلك يختاً. إذا كنتَ تصالب أصابع يديك، وتتوقّع مني أنْ أتحول ذات يوم إلى سندريلا، فقد أسأتَ الفهم».

«لا يهمّني أياً من هذه الأشياء».

ضيَّقتْ عينيها. «ما تقوله هراء. ماذا اعتقدتَ، أنَّ من الممتع التسكّع في الأحياء القذرة؟ هل فعلتَ ذلك لكي تُغضِب والديك؟ والآن تستطيع أنْ

تزيلني عن حذائك وكأنني شيء وطأته بالمُصادفة؟» وهاجمتني، وثبّتني من صدري. «أنا لستُ بحاجة إليك. ولم يحدث أبداً أن احتجتُ إليك».

صرختُ فيها في المقابل «أمّا أنا، فاحتجتُ إليك!»، وعندما التفتَتْ قبضتُ عليها من كتفيها وقبّلتُها. تناولتُ الأشياء التي لم أتمكَّن من الإفصاح عنها، وصببتُها فيها.

هناك بعض الأشياء نقوم بها لأننا مُقتنعون بأنَّها أفضل لكل مَنْ يشترك فيها. ونقول لأنفسنا إنها أفضل ما يمكن القيام به، وإنّها الشيء الإيثاري الذي ينبغي القيام به. وهي أسهل من أنْ نبوح بالحقيقة لأنفسنا.

دفعتُ جوليا بعيداً عني. وبدأتُ أهبط تل تلك المقبرة. وقلت لنفسي لا تنظر خلفك.

تجلس آنّا على المقعد المجاور للسائق، وهذا لا يُناسِب جدج. ويرسم على وجهه ذلك التعبير الحزين، وهو جالس بيننا، يلهثُ بقوة. أقول لها «هذا اليوم لم يكن نذيراً جيداً جداً بما سيأتي».

«عمَّ تتحدث؟».

«إذا أردتِ الحق في اتّخاذ قرارات كبرى، يا آنّا، فعليكِ أنْ تتّخذيها الآن. ولا تتكّلي على باقي العالم لتنظيم الفوضى».

تجهّمتْ في وجهي. «كل هذا لأنني اتصلتُ بك لتساعد أخي؟ حسبتُ أنك صديقي».

«لقد سبقَ أنْ أخبرتك أنني لستُ صديقك؛ أنا مُحاميك. هناك فرقٌ جذريّ».

«عظيم»، وهي تعبث في القفل، «سوف أعود إلى الشرطة وأطلب منهم أنْ يُلقوا القبض على جِسّ من جديد». وتكاد تنجح في فتح باب المقعد المُجاور للسائق، على الرغم من أنّنا نسير على طريق عامّة.

أُمسِك المقبض وأُسرِع بإغلاقه. «أجُننتِ؟».

تُجيب: «لا أعلم. أودّ أنْ أسألك عن رأيك، ولكن ربما هذا ليس مذكوراً في مواصفات الوظيفة».

وبحركة سريعة من المقود، أتوقف بالسيارة عند حافة الطريق. «أتعلمين ماذا أعتقد؟ أعتقد أنَّ السبب في أنَّ لا أحد يطلب منك إبداء رأيك حول أيّ أمرٍ هامّ هو أنكِ تغيّرين رأيك كثيراً بحيث إنهم لا يعرفون ماذا **يُصدّقون**. أنا، على سبيل المثال، لا أعلم حتى إنْ كنّا لا نزال نقدِّم عريضة للقاضي بشأن تحرّرك الطبيّ».

«ولِمَ لا نقدّمها؟».

«اسألي أمّك. اسألي جوليا. كلما استدرتُ يُبلغني شخصٌ بأنكِ لا تريدين أنْ تستمري في هذه الدعوى». أنظرُ نحو الأسفل إلى مسند الذراع، حيث تستقر يدها – طلاء أظافر أرجواني لامع، وأظافر مقروضة حتى اللحم. «إذا أردتِ أنْ تُعاملك المحكمة كشخصٍ بالغ، فيجب أنْ تتصرّفي كشخص بالغ. إنَّ الوسيلة الوحيدة للدفاع عنك، يا آنا، تكمن في أنْ تبرهني للجميع أنَّ باستطاعتكِ أنْ تحاربي من أجل الدفاع عن نفسك بعد أنْ أرحل».

أعود للانطلاق بالسيارة على الطريق العامة، وأُلقي نظرة جانبيّة عليها، لكنَّ آنّا تجلس وهي تُقحِم يديها تحت فخذيها، ووجهها متجه مع تعبير متمرّد إلى الأمام. أقول بحياء «وصلنا تقريباً إلى بيتكم. أي باستطاعتكِ أنْ تخرجي وتصفعي الباب بقوة في وجهي».

«لن نذهب إلى المنزل. أحتاج إلى أنْ أذهب أولاً إلى مركز الإطفاء. أنا وأبي نقيم هناك بعض الوقت».

أقول: «أأنا أحلم أم إنني لم أقضِ ساعتين كاملتين في محكمة العائلة بالأمس أناقش هذه النقطة بالذات؟ وحسبتُ أنكِ أخبرتِ جوليا بأنكِ **لا تريدين** أنْ تنفصلي عن أمّك؟ هذا بالضبط ما أتحدث عنه، يا آنّا»، وأضرب بقوة على المقود. «ماذا تريدين بحقّ الجحيم؟».

عندما انفجرتْ، كان الانفجار مهولاً. «أتريد أنْ تعرف ماذا أريد؟ لقد سئمتُ كوني حقل تجارب. سئمتُ أنَّ لا أحد يسألني عن شعوري حيال هذا. لقد سئمت، لكنني لم أسأم هذه العائلة بالقدر الكافي»، وتفتح باب السيارة وهي لا تزال تسير، وتنطلق بأقصى سرعة نحو مركز الإطفاء، على مسافة بضع مئات من الأقدام.

حسن. إنَّ في أعماق موكّلتي الصغيرة مقدرةً على جعل الآخرين يُصغون إليها. وهذا يعني أنّها على منصّة الشهود في المحكمة، سوف تصمد بصورة تتخطّى خيالي.

وفي إثر هذه الفكرة، قلتُ في نفسي: قد تتمكن من الإدلاء بالشهادة، ولكن ما قالت يجعلها تبدو غير متعاطفة. بل غير ناضجة. أو بعبارة أخرى، ومن المُستبعَد إلى أقصى درجة أنْ تُقنِع القاضي بالحكم لصالحها.

براين

إنَّ النار والأمل مترابطان، فقط من باب المعرفة. وحسب طريقة اليونانيين القُدامى في التعبير عن هذا، كان زيوس قد أوكلَ بروميثيوس وإبيميثيوس بخلق الحياة على الأرض. فخلقَ إبيميثيوس الحيوانات، وزاد عليها مزايا إضافيّة كالنعومة والقوة والفراء والأجنحة. وعندما خلق بروميثيوس الإنسانَ، كانت كل المزايا قد نفدتْ. فقرَّر أنْ يجعله يسير مستقيم القامة، وأعطاه النار.

غضبَ زيوس، وانتزعها منه. لكنَّ بروميثيوس شعر بكبريائه وفرحه يرتعشان لعدم قدرته على الطبخ. فأضاء مِشعلاً من أشعة الشمس وجلبه إلى الإنسان من جديد. وعِقاباً لبروميثيوس، أوثقه زيوس بسلاسل إلى صخرة، وأخذت الصقور تقتات على كبده. وعِقاباً للإنسان، خلقَ زيوس أول امرأة -باندورا- ومنحها هِبة، هي صندوق مُحرَّمٌ عليها فتحه.

لكنَّ فضول باندورا تغلَّبَ عليها، وفي أحد الأيام فتحتْ ذلك الصندوق، فخرجت منه الأوبئة والبؤس والخبث. ونجحتْ في إعادة إغلاق الغطاء بإحكام قبل أنْ يهرب الأمل. إنّه السلاح الوحيد الذي يتبقّى لنا من أجل مُحاربة الأسلحة الأخرى.

اسألْ أي رجل إطفاء؛ وسوف يقول لك إنَّ هذا صحيح. اللعنة. بل اسأل أيّ والد.

***

أقول لكامبل ألكسندر، حالما يصِل مع آنّا، «تعالا، لدينا قهوة طازجة»، ويتبعني في ارتقاء الدَّرَج، يتبعه كلب الراعي الألماني. وأصبّ مقدار كوبين. «ما الحاجة إلى الكلب؟».

يُجيب المُحامي «إنه يجذب الفتيات. هل لديك بعض الحليب؟».

أعطيه علبة من الكرتون من البرّاد، ثم أجلس حاملاً إبريقي الخاصّ. الجو هادئ جداً هنا في الأعلى؛ الصِبية في الطابق السفليّ يغسلون السيارة ويقومون بالصيانة اليوميّة.

«إذن»، ويرشف ألكسندر رشفة من قهوته، «تخبرني آنّا أنكما انتقلتما أنتما الاثنان».

«نعم، لقد أدركتُ بصورة ما أنّك سوف تسألني عن هذا».

قال بعناية: «أنتَ تعلم أنَّ زوجتك هي مُستشارة مُعارِضة».

نظرتُ في عينيه. «أعتقد أنكَ تعني بهذا إنْ كنتُ أُدركُ أنّه ينبغي ألّا أجلس هنا وأتحدث معك».

«سوف يُصبح هذا نقطة خلاف إذا كانت زوجتك لا تزال تمثّلك».

«أنا لم أطلب من سارة أبداً أنْ تمثّلني».

يعبس ألكسندر. «لستُ متيقّناً من أنّها تعي هذا».

«اسمع، مع كل احترامي، قد يبدو هذا قضيّة غاية في الأهميّة، وهو كذلك فعلاً، ولكن لدينا قضيّة أخرى غاية في الأهميّة في الوقت نفسه. لقد أودِعَتْ ابنتنا الكبرى المستشفى و... حسن، وسارة تُقاتل على كلتا الجبهتين».

يقول: «أعلم. وأنا أرثي لحالة كيت، يا سيد فيتزجيرالد».

«نادني براين». أُحيطُ إبريقي بكلتا يديّ. «وأودّ أنْ أتحدث معك... في غياب سارة».

استند بظهره على الكرسي القابل للطيّ. «ما رأيك في أنْ تفعل هذا الآن؟».

إنه ليس وقتاً مناسِباً، لكنّه لن يكون هناك وقت مناسِب أبداً لهذا الموضوع. أخذتُ نَفَساً عميقاً. «حسنٌ، أعتقد أنَّ آنّا على صواب».

في أوّل الأمر لم أتيقَّنْ من أنَّ كامبل ألكسندر سمعَني أصلاً. ثم يسألني: «هل ترغب في أنْ تُخبر القاضي بهذا في جلسة الاستماع؟».

نظرت نحو الأسفل إلى قهوتي. «أعتقد أنّني مُضطر إلى هذا».

عندما لبّينا أنا وبولي نداء الطوارئ في هذا الصباح، كان الصديق قد وضعَ الفتاة تحت الدش. كانت جالسة في الأسفل، وساقاها ممدودتين

حول مصرف الماء، بكامل ملابسها. وكان شَعرها مُتلبّداً على وجهها، ولكن حتى لو لم يكن كذلك، عرفتُ أنّها غائبة عن الوعي.

«أهي تعاني من نوبة سكّري؟».

«ما أهميّة ذلك؟».

يا إلهي. طلبتُ منه، «أخبرني ماذا كنتَ تستخدم؟».

قال الصديق: «كنا فقط نسكر. نشرب التكيلا».

لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من العمر. لكنّه مُناسب ليكون قد سمعَ عن الأسطورة القائلة إنَّ الدشّ سوف يُخرِج شخصاً ما من حالة تعاطي جرعة زائدة من الهيروييين. «دعني أشرح هذا لك. لقد أردنا أنا وصاحبي أنْ نساعد ماغدا، أنْ ننقذ حياتها. ولكنْ إذا قلتَ لي إنَّ في جسمها كحولاً واتَّضَحَ بعد ذلك أنّه مخدر، فإنَّ أي شيء نُعطيه لها يمكن أنْ يكون له ردّ فعل عكسيّ ويزيد من سوء حالتها. أفهمت؟».

حينئذٍ، وخارج مكان الدش، كان بولي يتصارع مع ماغدا لكي ينزع عنها قميصها. كانت هناك رضوض في كل موقع من ذراعيها. «إنْ كان هذا من تأثير التيكيلا، فإنهم كانوا يُعطونه إياها بالحقن. على غرار كوكتيل الغيبوبة؟»

أخرجتُ مُضاد الإدمان من حقيبة الإسعافات الأوّليّة وأعطيتُ بولي معدّات التقطير، قال الفتى «إذن، لن تُخبر الشرطة، أليس كذلك؟».

بحركة سريعة واحدة، أُمسكُ به من ياقة قميصه وأرفعه وأسنده إلى الجدار. «أأنتَ أبله لعين إلى هذه الدرجة؟».

«كل ما في الأمر أنَّ والديّ سوف يقتلاني».

«لا يبدو أنكَ تأبه كثيراً إنْ أنتَ قتلتَ نفسك، أو قتلتها»، وهززتُ رأسه باتجاه الفتاة، التي كانت عندئذٍ تتقيَّأ في أرجاء الأرضيّة كلها. «أتظنّ أنَّ الحياة شيءٌ تستطيع أنْ ترميه كأنها نفايات؟ أتعتقد أنك تُصبح مُدمناً، وتنال فرصة ثانية؟».

كنتُ أصرخ بصوتٍ مرتفع في وجهه. وشعرتُ بيدٍ على كتفي – يد بولي. قال بصوتٍ هامس «كفى، أيها القائد».

أدركتُ ببطء أنَّ الفتى كان يرتعش أمامي، وأنَّ لا صِلة له البتّة بسبب

صراخي فيه. ابتعدتُ لكي يصفو ذهني. انتهى بولي من أمر المريضة ومن ثم عادَ إليّ. اقترح قائلاً: «أتعلم، إنْ كان الأمر شديد الوطأة عليك، نستطيع أنْ نحلّ محلك. سوف يمنحك الرئيس فترة استراحة قدر ما تشاء».

«أنا بحاجة إلى العمل». ورأيتُ خلفه الفتاة تستعيد تورّد وجهها؛ والفتى إلى جوارها يجهشُ بالبكاء داخل كفّيه. نظرتُ في عينيّ بولي. شرحتُ قائلاً: «عندما لا أكون موجوداً هنا، فيجب أنْ أكون في مكان آخر».

انتهينا أنا والمحامي من شرب قهوتنا. أعرضُ عليه، «أترغب في كوب آخر؟».

«أفضّل ألّا أشرب المزيد. يجب أنْ أعود إلى المكتب».

يومئ كلٌّ منا للآخر، ولكن في الحقيقة لم يعُد هناك المزيد لنقوله. «لقد عملتُ على إخلاء سبيل ابنك بلا كفالة لسرقته سيارة القاضي الهمفي».

يضع كوب القهوة الخاصّ به في المغسلة ويتركني حاملاً تلك المعلومة، مُدركاً أنها، عاجلاً أو آجلاً، سوف تُجبرني على الركوع.

سارة

1997

مهما تردَّدت على قسم الطوارئ، لا يُصبح الأمر عاديّاً. يحمل براين ابنتنا بين ذراعيه، والدم يُضرِّجُ وجهها. تومئ لنا ممرضة الطوارئ لكي ندخل، وتقود الأطفال الآخرين نحو صفٍ من كراسي البلاستيك حيث يمكنهم أنْ ينتظروا. يدخل أحد النزلاء إلى المهجع، منهمكاً في العمل. «ماذا حدث؟».

قلت «لقد انقلبتْ على مقوَدْ دراجتها، واستقرّتْ على الإسمنت. لا يبدو أنَّ هناك أي دليل على وجود ارتجاج في المخّ، ولكن هناك بقعة راتنجيّة على فروة الرأس عند خط الشَّعر بمساحة بوصة ونصف».

مدَّدها الطبيب برفق على الطاولة، وارتدى قفّازاً، وأنعمَ النظر في جبينها. «أأنتِ طبيبة أم ممرضة؟».

أحاول أنْ أبتسم. «أنا فقط متعوّدة على هذا».

تتطلَّب خياطة مكان تدفق الدم اثنتين وثمانين غرزة. وبعد ذلك، نخرج، بعد إلصاق قطعة من الشاش الأبيض البرّاق على رأسها، مع تناوُل جرعة قوية من مُضاد الألم والحمّى خاصة بالأطفال تسبح في شرايينها، إلى منطقة الانتظار، يداً بيد.

سألها جِسّ عن عدد الغرز التي احتاجتها. ويُخبرها براين بأنها لا تقلّ شجاعة عن رجل إطفاء. تنظر كيت إلى ضِماد آنّا الحديث، وتقول: «أفضِّل أنْ أخرج وأجلس هنا».

يبدأ الأمر مع صراخ كيت في الحمّام. فأهرع إلى الطابق العِلويّ وأخلع القفل لأجد طفلتي ذات السنوات التسع واقفة أمام مرحاض مبقّع برذاذ من

الدم. الدم يجري بين ساقيها، أيضاً، وينقع سروالها الداخليّ. هذه هي بطاقة استدعاء إسعاف حالات سرطان الدم الحادّة - نزف بكل أشكاله وألوانه. كانت كيت قد أُصيبتْ بنزف معويّ قبل ذلك، لكنّها كانت لا تزال تحبو، ولا تتذكَّر. أقول بهدوء: «لا بأس».

أُحضِر قطعة قماش دافئة لكي أقوم بتنظيفها، وأعثر على فوطة صحيّة لتحل محل سروالها الداخليّ. وأراقبها تحاول أنْ تضع كتلة الضمادة بين ساقيها. هذه هي اللحظة التي سأكون خلالها معها عندما يحين موعد عادتها الشَّهرية؛ هل ستعيش عمراً مديداً لتشهد هذا؟

تقول كيت: «ماما، لقد عاد النزف».

«انتكاسة سريريّة». يخلع الدكتور تشانس نظارته ويضغط إبهامه على زاويتيّ عينيه. «أعتقد أنّه يجب إجراء عملية ازدراع نقي عِظام».

يقفز عقلي إلى ذكرى كيس ملاكمة سخيف قابل للنفخ كان بحوزتي وأنا في مثل سن آنّا؛ مملوء بالرمل في أسفله، كنتُ ألكمه فإذا به يقفز عائداً.

يقول براين: «ولكن قبل بضعة أشهر أخبرْتَنا بأنْ تلك العمليات خطرة».

«هي كذلك. إنَّ خمسين بالمئة من المرضى الذين يتلقّون ازدراعاً لنقي العِظام شفوا. النصف الآخر لا ينجون من العلاج الكيميائيّ والأشعة تقود إلى الزرع. البعض تقتلهم الاختلاطات التي تحدث عندهم بعد انتهاء عمليّة الزرع».

ينظر براين إليّ، ومن ثم يعبِّر عن الخوف الساري بيننا. «فلِمَ إذن ستعرِّض حياة كيت للخطر؟».

يشرح الدكتور تشانس: «لأنكم إذا لم تُجروا العملية، فسوف تموت حتماً».

في أول مرَّة اتصلتُ بشركة الضمان، أغلقوا الخط في وجهي خطأً. وفي المرة الثانية، انتظرتُ وأنا أسمع الموسيقى على مدى اثنتين وعشرين دقيقة قبل أنْ أتكلَّم مع ممثّلة خدمة الزبون. «هل لي أنْ أعرف رقم بطاقة تأمينك؟».

أعطيتها الرقم الذي في حوزة كل المُستخدمين المحليين، ورقم الضمان الاجتماعي الخاص ببراين. «كيف أخدمكِ؟».

أشرح لها: «قبل أسبوع تحدثتُ مع شخص ما عندكم. ابنتي مُصابة بسرطان الدم، وتحتاج إلى عملية ازدراع نقي عِظام. وقالت لنا المستشفى إنَّ على شركة الضمان الخاصة بنا أنْ توقِّع من أجل التغطية النقدية».

عملية زرع نقي العِظام تكلِّف مبلغاً يتراوح بين 100,000$ فما فوق. ولا حاجة إلى القول إنّه لا يتوفَّر لدينا هذا المبلغ الضخم من المال. ولكن مجرّد أنَّ الطبيب أوصى بإجراء العمليّة لا يعني أنَّ شركة التأمين الخاصة بنا سوف توافق.

«إنَّ هذا النوع من الإجراءات يحتاج إلى معاينة خاصّة-».

«نعم، أعلم هذا. هكذا كان عليه الحال قبل أسبوع. وأنا أتصل بكم الآن لأنني لم أسمع ردَّكم بعد».

تركتني أنتظر، لكي تراجع ملفّي. وأسمع رنّة مُرهفة، ومن ثم الصوت الرفيع للعامل الآلي المُسجّل. *إذا أردتَ أنْ تتصل*...

«*اللعنة!*» وأُغلقُ الخط بضربة قوية.

تُبرزُ آنّا، اليقظة، رأسها من ممر الباب. «قلتِ كلمة بذيئة».

«أعلم». وأرفعُ السمّاعة وأضغط على زر إعادة الاتصال. أشقّ طريقي الملتوية خلال لائحة أنغام اللمس. وأخيراً، أصل إلى شخص حيّ. «أنا التي انقطع الاتّصال تواً بها، أعود من جديد».

استغرقَ هذه الممثّلة للشركة خمس دقائق أخرى لتدوِّن كل الأرقام والأسماء وتاريخ الحياة نفسها التي كنتُ قد أعطيتها للممثلين السابقين. وتقول المرأة: «لقد عاينّا **فعلاً** حالة ابنتك. ولسوء الحظ، لا نعتقد أنَّ الإجراء، في مثل هذا الوقت، في صالحها».

أشعر بالحرارة تندفع إلى وجهي، «وهي تحتضِر؟».

استعداداً لحصاد نقي العِظام، اضطررتُ أنْ أُعطي آنّا جرعات متواصلة من عامل النموّ، تماماً كما كنتُ قد أعطيتُ كيت بعد إجراء عملية الزرع الأولى لدم الحبل السرّي. والقصد من ذلك تجميع كمية كبيرة من نقي عِظام آنّا، بحيث عندما يحين وقت سحب الخلايا، يتوفَّر الكثير منه من أجل كيت.

قيل هذا الكلام لآنّا، أيضاً، لكنَّ كل ما كانت تعرفه هو أنَّ على أمّها أنْ تعطيها جرعة مرّتين في اليوم.

كنا نضع لها مرهم (كريم) «إيمْلا»، كمُخدِّر موضعي. وكان من المُفترَض أنْ يُبعِدها عن الإحساس بوخز الإبرة، ومع ذلك تصرخ. وأتساءل إنْ كان الأمر يؤلِم بقدر إيلام تحديق ابنتك ذات السنوات الست في عينيك مباشرة وقولها لكِ إنها تكرهك.

تقول المُشرفة على خدمة الزبون في شركة التأمين: «سيدة فيتزجيرالد، إننا نقدِّر حقاً المكان الذي أتيتِ منه. حقاً».

أقول: «إنني، بصورة ما، أجد صعوبة في تصديق هذا. وبصورة ما، أشكّ في أنَّ لديك ابنة تعيش حالة من الحياة في الموت، وفي أنَّ هيئتك الاستشاريّة لا تنظر فقط إلّا إلى الحدّ الأدنى لتكاليف عملية الزرع». وقلتُ لنفسي لن أفقد أعصابي، وبعد مُضيّ ثلاثين ثانية على هذه المكالمة مع شركة التأمين، تخلّيتُ عن خوض المعركة.

«سوف تدفع شركة التأمين تسعين في المئة مما تعتبره مبلغاً معقولاً ومعتاداً لواهب تشريب كريات لمفاويّة. ولكن، إذا أصررت على إجراء ازدراع لنقي العظام فسوف نسدِّد عشرة في المئة من التكاليف».

أخذتُ نَفَساً عميقاً: «ما هو اختصاص الأطباء الذين أوصوا بهذا في الهيئة؟».

«لا أعـ___».

«لكنّه ليس لوكيميا حادة في نقي العِظام، أليس كذلك؟ لأنه حتى اختصاصيّ أورام تخرَّج بالترتيب الأخير في صفّه يمكن أنْ يقول لك إنَّ زراعة نقي العِظام لن تنفع كعلاج. وبعد ثلاثة أشهر من الآن سوف يدور بيننا هذا النقاش نفسه من جديد. زيادة على ذلك، إذا سألتَ طبيباً على معرفةٍ بعبء مرض ابنتي الخاص، سوف يُخبرك بأنَّ تكرار المُعالجة التي تمّتْ تجربتها من المُستبعد أنْ تعطي نتائج في حالة مريض اللوكيميا الحادّة، لأنه أصبح لها مقاومة. وهذا يعني أنَ شركة التأمين توافق في الأساس على تبديد المال بلا فائدة، بدل إنفاقه على الشيء الوحيد الذي يمكن أنْ ينطوي على فرصة حقيقيّة لإنقاذ حياة طفلتي».

سادتْ برهة متضخمة من الصمت على الطرف المقابل من خط الهاتف.

اقترحت المُشرفة: «سيدة فيتزجيرالد، إنَّ ما أفهمه هو أنكِ إذا اتّبعتِ بنود هذا الاتّفاق، فلن تجد شركة التأمين أيّة مشكلة في تسديد تكاليف عملية الزرع».

«لكنَّ ابنتي قد لا تكون على قيد الحيّاة حينئذٍ لتحصل عليها. نحن لا نتحدث عن سيارة، حيث يمكننا أنْ نجربَ جزءاً مُستعملاً أولاً فإذا لم يعمل، نحصل على آخر جديداً مستورداً. نحن نتحدث عن كائن بشريّ. كائن بشريّ. هل تعرفون أنتم أيها الأناس الآليّون معنى هذا؟».

هذه المرَّة، أتوقَّع أنْ أسمع التكّة عندما ينقطع الخط.

ظهرتْ زان في الليلة السابقة لذهابنا إلى المستشفى لكي نباشر إعداد كيت لحِمية ما قبل إجراء عملية الزرع. وتسمحْ لجِسّ بمساعدتها على إعداد مكتبها المتنقّل، وتلقّي المكالمات من أستراليا، ومن ثم تدخل المطبخ من أجل تلبية حاجاتها اليوميّة الروتينيّة. أقول لها: «آنّا لديها درس في الألعاب الرياضيّة في يوم الثلاثاء، عند الساعة الثالثة. وأتوقع وصول شاحنة الزيت خلال هذا الأسبوع».

يُضيف براينْ: «وسيارة القمامة تخرج في يوم الأربعاء».

«*لا ترافق* جِسّ إلى المدرسة. من الواضح أنَّ هذه لعنة بالنسبة إلى تلاميذ الصف السادس».

تومئ برأسها وتُصغي بل وتدوِّن ملاحظات، ومن ثم تقول إنَّ لديها سؤالين. «السمكة...».

«تُطعَم مرَّتين في اليوم. يمكن لجِسّ أنْ يفعل هذا، إذا ذكّرتِه».

تسأل زان: «هل هناك موعد رسمي للنوم».

أُجيب: «نعم. أتريدينني أنْ أعطيك الموعد الحقيقيّ، أم الموعد الذي تستطيعين أنْ تلجئي إليه إذا كنتِ ستستقطعين ساعة زائدة من أجل قضاء وقت خاص ممتع؟».

يقول براين: «آنّا تنام عند الساعة الثامنة، وجس عند العاشرة. أي سؤال آخر؟».

«نعم» وتمدّ زان يدها إلى جيبها وتُخرج منها شيكاً مُحرَّراً باسمنا، مقداره $100,000.

أقول مذهولة «سوزان، لا يمكننا أنْ نقبل هذا».

«أنا أعلم كم تكلِّف العمليّة. وأنتم لا تقدرون على تسديدها. أما أنا فأستطيع. اسمحي لي».

يمسِك براين الشيك ويُعيده إليها. يقول: «شكراً لك. ولكن في الواقع لقد تمّ تسديد تكاليف عملية الزرع».

هذا الخبر جديد عليّ. «مَنْ سدَّدها؟».

«لقد أرسل شباب مركز الإطفاء نداءً إلى كل أرجاء البلاد، وجمعوا حصيلة من المعونات من رجال إطفاء آخرين». نظر براين إليّ. «اكتشفتُ ذلك في هذا اليوم».

«حقاً؟» وينزاح عن داخلي عبءٌ ثقيل.

يهزّ كتفيه باستخفاف. ويُبرِّر قائلاً: «إنهم كإخوتي».

ألتفتُّ إلى زان وأعانقها. «شكراً لكِ. لأنكِ عرضتِ المساعدة».

تُجيب: «المبلغ موجود إذا احتجتموه».

لكننا لا نحتاج إليه. أخيراً نتمكّن من إجرائها.

في صباح اليوم التالي أهتف: «كيت، حان وقت المغادرة!».

تلتف آنّا حول نفسها على حجر زان على الأريكة. تُخرِج إبهامها من فمها لكنّها لا تقول إلى اللقاء.

أصرخ من جديد: «كيت! سوف نغادر!».

يتكلَّف جِسّ الابتسام وهو يلعب النينتندو. «كأنكِ ستغادرين حقاً من دونها».

أتنهّد. «هي لا تعلم هذا. كيت!». أرتقي الدَّرَج المؤدي إلى غرفة نومها. يُغلَق الباب. أقرع برقّة، وأدفعه لينفتح، فأجد كيت توشك أنْ تنتهي من ترتيب سريرها، اللحاف مشدود بقوة بحيث يمكن جعل قطعة نقد صغيرة تقفز على منتصفه؛ والوسادة جُعِلَتْ منفوشة ولها مركز. وحيواناتها

المحشوّة، التي أضحت رفاتاً الآن، تجلس على مقعد النافذة بتسلسل متدرّج، من الأطول إلى الأقصر. حتى أحذيتها مرتّبة بأناقة داخل خزانتها، واختفَت الفوضى تماماً عن طاولة مكتبها.

«أوكيه». لم أكن قد طلبتُ منها أنْ ترتّب سريرها. «من الواضح أنني في غرفة النوم الخطأ».

تستدير. تقول: «تحسّباً إذا لم أعُد».

***

في أوّل عهدي بالأمومة كنتُ أستلقي على السرير ليلاً وأتخيَّل سلسلة من أشدّ الأمراض فظاعة: عضّة من قنديل بحر، تذوّق ثمرة علّيق مسمومة، ابتسامة شخص غريب وخطير، الغوص في بركة ضحلة. هناك العديد من الطرق التي يمكن لطفل أنْ يتأذّى بها ويكاد يبدو من المستحيل على شخصٍ واحدٍ وحده أنْ ينجح في المُحافظة على سلامته. ومع تقدُّم أولادي في السن، لم تتغيَّر إلّا المُصادفات: استنشاق الغراء، العبث بعيدان الكبريت، بيع أقراص قرمزيّة صغيرة خلف مدرج مكشوف في مدرسة متوسطة. يمكنك أنْ تبقى يقظاً طوال الليل ولا تنتهي من إكمال إحصاء عدد السُّبُل التي يمكنكَ أنْ تفقد بها الذين تحبّهم.

يبدو لي، الآن وقد أصبح هذا أكثر من مجرد فرضيّة، أنَّ الأب أو الأم يتّجه إلى أحد السبيلين عندما يُقال له إنَّ طفله مُصاب بمرض قاتل. فإما أنْ يغرق في الهمّ، أو يتقبَّل الضربة على وجهه ويُجبِر نفسه على رفع وجهه من جديد لتلقّي المزيد. في هذه النقطة ربما نُشبه كثيراً المرضى.

كيت نصف واعية على سريرها، وأنابيبها المركزيّة مزدهرة كنافورة تنبع من الصدر. وقد دفعها العلاج الكيميائي إلى التقيّؤ اثنتين وثلاثين مرَّة وأحدثَ تقرّحات على فمها مع مُخاط كثيف حتى لكأنها مُصابة بتليّف المرارة.

التفتت إليّ وحاولتْ أنْ تتكلَّم، لكنها بدل ذلك سعلت ولفظَتْ بلغماً. اختنقت وهي تقول: «إنّي أغرق».

ترفعُ أنبوب الامتصاص الذي تقبض عليه بكلتا يديها، وأقوم بتنظيف فمها وبلعومها. وأعِدها: «سوف أفعل ذلك وأنت تستريحين»، وهكذا صرتُ أتنفّس بالنيابة عنها.

إنَّ جناح الأورام في المستشفى هو ميدان معركة، وهناك تسلسل هرمي صارم في القيادة. والمرضى هم الذين يقومون بجولات أداء الواجبات. ويتردَّد الأطباء جيئة وذهاباً كالأبطال المنتصرين، ولكن عليهم أنْ يقرؤوا جداول طفلتك لكي يتذكّروا أين توقفوا في آخر زيارة. والممرّضون هم الرقباء الموسميون – الذين يتواجدون عندما تهتز طفلتك من الحمّى العالية وتحتاج إلى الاستحمام بالثلج، والذين يُعلّمونك كيفية مسح القسطرة الوريدية المركزية، أو اقتراح أي مطابخ أرضية ما تزال تحتوي حلوى مُثلّجة يمكن سرقتها، أو يُخبرونك أي نوع من المنظفات على الناشِف يزيل بقع الدم أو المواد الكيميائيّة التي تُستخدَم في المعالجة عن الملابس. الممرضون يعرفون اسم حيوان الفظ المحشو الخاصّ بابنتك ويُبيّنوا لها كيف تصنع من مناديل الورق أزهاراً تُحيطُ بها حامل الوريد الضامر. وقد يعمل الأطباء على وضع خطط لألعاب الحرب، لكنَّ الممرضين هم الذين يجعلون النزاع مُحتَمَلاً.

وتتعرَّف عليهم كما يتعرَّفون عليك، لأنهم يحلّون محل أصدقاء كانوا لك في حياة سابقة، أصدقاء ما قبل تشخيص مرضك. على سبيل المِثال، ابنة دونا تدرس لكي تُصبح طبيبة بيطريّة. ولودميلا، في نوبة المقبرة، ترتدي صوراً على شكل صفائح لجزيرة ستنيبل مثبَّتة كالتعاويذ على سمّاعة الأطباء لأنها تمثّل المكان الذي تريد أنْ تذهب إليه عندما تتقاعد. وويلي، الممرِّض الذكر، لديه نقطة ضعف أمام الشوكولاتة وزوجته تنتظر إنجاب ثلاثة توائم.

ذات ليلة خلال إجراء الحثّ لكيت، وكنتُ مُستيقظة منذ فترة طويلة حتى إنَّ جسدي نسيَ كيف يستغرق في النوم، شغّلتُ جهاز التلفزيون بينما كانت نائمة. وألغيتُ الصوت، لكي لا تستيقظ. إنَّ روبين ليتش[1] يتجوّل في منزل فخم لأحد المشاهير والأغنياء. هناك مراحيض نسائيّة مُلبّسة برقائق الذهب وأسرَّة من خشب الساج محفورة يدويّاً، وبركة سباحة على شكل فراشة. هناك مرائب تتّسع لعشر سيارات وملاعب تنس من الغضار[2] الأحمر وأحد

1- روبين ليتش (1941–2018): مراسل ومُقدِّم برامج إنكليزي عمل في أميركا، من أحد برامجه زيارة منازل الشخصيات المشهورة والغنيّة. المترجم.

2 - الغضار: تراب طيني دقيق الحبيبات، كثير الاندماج والصلابة، تُتخذ منه الأواني الصينية. المترجم.

عشر طاووساً يتجولون في المكان. إنه عالمٌ لا أستطيع حتى أنْ أُحيط به ذهنيّاً - حياة لا يمكن أنْ أتخيّل أنْ أعيشها.

هذا النوع من الحياة كان موجوداً.

بل لا أستطيع حتى أنْ أتذكَّر حقاً كيف يكون الشعور بسماع حكاية عن أمٍ مُصابة بسرطان الثديّ أو عن طفل وُلِدَ مع مشاكل خلقيّة في القلب أو بأيّ عِبء طبّيّ آخر، أو الشعور بأنني مُنقسِمة: نصف متعاطف، نصف ممتنّ لأنَّ عائلتي آمنة. لقد *أصبحنا* نحن تلك القصة، بالنسبة إلى كل شخص آخر.

لا أدركُ أنني أبكي إلّا عندما تركع دونّا أمامي وتنتزع من يدي جهاز التحكّم بقنوات التلفزيون عن بُعد. تقول الممرضة: «سارة، هل أُحضِر لكِ شيئاً؟».

أهزّ رأسي نفياً، مُحرجة لأنني انهرتُ، ويزداد شعوري بالخزيّ لأنني فوجئتُ متلبّسة. وأُصرّ قائلة: «أنا بخير».

تقول: «نعم، وأنا هيلاري كلينتون»، وتمدّ يدها لتُمسِك بيدي وتشدّني لأنهض، وتجرّني نحو الباب.

«كيت-».

تُكمِل دونّا جُملتي قائلة: «- سوف تشتاق إليك».

في المطبخ الصغير حيث تُعدّ القهوة على مدى أربعٍ وعشرين ساعة يوميّاً، وتحضِّر كوباً منها لكلٍ منّا. أقول: «أنا آسفة».

«لِمَ؟ لأنكِ لستِ مصنوعة من حجر الغرانيت؟».

أهزّ رأسي نفياً. «بل لأنَّ الأمر لم ينته». تومئ دونّا برأسها إيجاباً، ولأنها تفهم فهماً تاماً، أجد نفسي أتكلَّم. وأتكلَّم. وبعد أنْ أُفشي أسراري كلّها، آخذُ نَفساً عميقاً وأُدركُ أنني كنتُ أتكلَّم طوال ساعة متواصلة. أقول: «أوه يا إلهي، لا أُصدِّق أنني بدَّدتُ كل ذلك القدر من وقتك».

تُجيب دونّا: «لم يكن تبديداً للوقت. ثم إنَّ نوبتي انتهتْ قبل مضيّ نصف ساعة».

تحمرّ وجنتاي. «كان ينبغي أنْ تُغادري. أنا متأكّدة من أنَّ لديك مكاناً آخر تفضّلين أنْ تكوني فيه».

ولكن بدل أنْ تغادر، تضمّني بين ذراعيها الرحبتين. وتقول: «حبيبتي، أليس هذا هو حالنا جميعاً؟».

ببطء ينفتح الباب المؤدي إلى غرفة عمليات الطوارئ على غرفة صغيرة مزدحمة بأدوات فضيّة لامعة – كفمٍ مُلبَّس بدعامات. والأطباء والممرضون الذين قابلتهم يضعون أقنعة ويلبسون أرديّة خاصّة، ولا يمكن التعرُّف عليهم إلّا من عيونهم. تشدّني آنّا إلى أنْ ركعتُ إلى جوارها. وتقول: «ماذا لو غيّرتُ رأيي؟».

وضعتُ يديّ على كتفيها؟ لستِ مُضطرة إلى فعل هذا إذا لم تكن تلك رغبتك، لكنني أعلم أنَّ كيت تعتمد عليك. وأبوك أيضاً وأنا».

تومئ برأسها مرّة واحدة، ثم تدسّ يدها داخل يدي. وتقول لي: «لا تتركيها».

تقودها ممرضة إلى الاتّجاه الصحيح، نحو الطاولة. «انتظري إلى أنْ تري ماذا أعددنا لكِ، يا آنّا»، وتنشر عليها غطاءً مُسخّناً.

يمسح اختصاصيّ التخدير بضمادٍ من الشاش مع أثر من اللون الأحمر حول قناع الأكسجين. «هل سبقَ لكِ أنْ استغرقتِ في النوم وسط حقلٍ من الفريز؟».

ينكبون على كل أرجاء جسم آنّا، يضعون الضمادات المُغمّسة بالهلام التي ستُوصَل بمَراقب[1] من أجل مُتابعة عمل قلبها وتنفّسها وأعطوها الدواء وهي ممدَّدة على ظهرها، على الرغم من عِلمي أنهم سوف يقلِبونها لكي يستخلصوا النقي من عِظام وركها.

يعرَض اختصاصيّ التخدير على آنّا آليّة الأكورديون على أداته. ويسألها: «هل تستطيعين أنْ تنفخي ذلك البالون؟»، ويضع القِناع على وجه آنّا.

في أثناء ذلك، لم تترك يدي. وأخيراً تتراخى قبضتها. وتقاوم حتى آخر دقيقة، كان جسمها قد نام لكنّه يندفع نحو الأمام عند الكتفَين. إحدى الممرضات تُثبّت آنّا إلى أسفل؛ والأخرى تكبحني. وتشرح قائلة: «إنَّ هذا فقط من تأثيرات الدواء على جسمها. يمكنك أنْ تُرسلي إليها قُبلة الآن».

1- مَراقِب: جمع مِرقاب، من مُراقبة. المترجم.

وهذا ما فعلت، على الرغم من وجود قناعي. وأشكرها همساً، أيضاً. ثم أخرج من الباب الهزّاز وأنزعُ قبعتي الورقيّة وحذائي ذا الرقبة العالية. ومن خلال النافذة الشبيهة بطابع البريد أراقبهم وهم يقلبون آنّا على جنبها ثم يحقنونها بإبرة طويلة طولاً لا يُصدَّق تناولوها من طبقٍ مُعقَّم.

ثم أرتقي إلى الطابق العِلويّ لأنتظر كيت.

يُبرِز براين رأسه إلى داخل غرفة كيت. يقول، مُرهَقاً: «سارة، آنّا تسأل عنك».

ولكن لا يمكنني أنْ أتواجد في مكانَين في وقتٍ واحد. أرفع حوض التقيّؤ الزهريّ إلى فم كيت وهي تتقيّأ من جديد. وإلى جواري، تساعد دونّا في إخفاض ظهر كيت إلى الوسادة. أقول: «أنا مشغولة قليلاً الآن».

يُكرِّر براين القول: «آنّا تسأل عنك»، لا أكثر.

تنقّل دونّا نظرها بينه وبيني. وتعِدني «سوف نكون بخير إلى أنْ تعودي»، وبعد لحظة، أومئ برأسي موافقة.

آنّا موجودة في طابق الأطفال، الطابق الذي ليس فيه غرفٌ مختومة بإحكام لغرض العزلة الواقية. أسمعها تبكي قبل حتى أنْ ألج الغرف. تجهشُ قائلة: «ماما، إنّها تؤلِم».

أجلسُ على حافة السرير وأضمّها بين ذراعيّ. «أعلمُ يا حبيبتي».

«ألا تستطيعين أنْ تبقي هنا؟».

أهزّ رأسي نفياً. «كيت مريضة، وسوف أُضطر إلى العودة إليها».

تتراجع آنّا. وتقول «ولكن *أنا أيضاً* موجودة في المستشفى. أنا في المستشفى!».

أنظر خلف رأسها إلى براين. «ماذا يُعطونها لمكافحة الألم؟».

«الشيء القليل. لقد قالت الممرضة إنهم لا يحبّون أنْ يُفرِطوا في إعطاء الأدوية للأطفال».

«هذا سُخف». عندما أنهضُ واقفة، تئن آنّا وتتشبّث بي. «سأعود سريعاً، يا حبيبتي».

أتكلّم مع أول ممرضة أقابلها في طريقي. وخِلاف طاقم قسم الأورام،

كانت الممرضات المُسجّلات غير مألوفات. تشرح المرأة لي: «لقد أعطوها مُخففاً للآلام قبل ساعة من الزمن. أنا أعلم أنها منزعجة قليلاً-».

«أعطِها روكسيست. وتيلينول مع كوديين. ونابروكسن. وإذا لم تستطيعي أنْ تحصلي على أوامر من الطبيب اتصلي واسألي ما إذا كان بالإمكان إعطائها إياها».

تتّخذ الممرضة موقِفاً عِدائيّاً. «مع كامل احترامي، سيدة فيتزجيرالد، إنني أفعل هذا كل يوم، و-».

«*وأنا كذلك*».

عندما أعود إلى غرفة آنّا، أحمل معي جرعة من الروكسيت للأطفال، سوف تعمل إمّا على تخفيف أوجاعها أو على جعلها تغيب عن الوعي ولا تشعر بأي شيء. أدخل وأجد يديّ براين الكبيرتين تعبثان بمشبك منمنم في خلفيّة قِلادة، وهو يُعلِّق مُدلّاة حول عنقها. يقول: «رأيتُ أنكِ تستحقين أنْ أمنحك هديّة، بما أنكِ كنتِ تعطين واحدة لأختك».

طبعاً كان ينبغي على آنّا أنْ تشعر بالفخر لأنها وَهَبَت نقي عِظامها. وطبعاً هي تستحق التقدير. لكنَّ فكرة مكافأة شخص على معاناته، بصراحة، لم أفهمها أبداً. إننا نفعل هذا منذ سنين طويلة.

يرفع الاثنان أنظارهما عندما دخلتُ من الباب. تقول آنّا: «انظري ماذا أحضَرَ أبي لي!».

أقدم لها كوب الجرعة البلاستيكي، كبديل بائس.

بُعيد الساعة العاشرة، يجلب براين آنّا إلى غرفة كيت. تتحرَّك ببطء، كامرأة عجوز، متكئة على براين ليدعمها. وتساعدنها الممرضات لتضع قِناعاً وترتدي الرداء وتلبس القفّاز وتنتعل الحذاء ذا الرقبة العالية لكي يُسمَح لها بالدخول - وهذا خرق مُحبّب للبروتوكول، بما أنّه لا يُسمَح للأطفال في المعتاد بالزيارة في منطقة العزل الواقي.

يقفُ الدكتور تشانس بجوار حامل أنبوب ولوج الوريد، الذي يرفع كيس نقي العِظام. وأُدير آنّا لكي تتمكن من رؤية ذلك. وأخبرها: «هذا ما تهبينه لنا».

ترسم آنّا تعبير اشمئزاز على وجهها. «شيء مُقرف. *احتفظي* به».

يقول الدكتور تشانس: «هذا ما ننوي أنْ نفعل»، ويبدأ نقي العِظام الأحمر الكثيف بالتدفّق إلى أنبوب كيت الرئيسيّ.

أضعُ آنّا على السرير. هناك حيِّز لكليهما، لتكونا متلاصقتين. تسألها كيت: «هل تألَّمتِ؟».

«قليلاً» وتُشير آنّا إلى الدم المُتدفِّق خلال الأنابيب البلاستيكيّة إلى الشقّ الذي في صدر كيت. «وهل يؤلمكِ هذا؟».

«ليس كثيراً»، وتعتدل قليلاً في جلستها. «آنّا؟».

«نعم؟».

«أنا سعيدة لأنه أتى منكِ» وتمد كيت يدها ليد آنّا وتضعها تحت أنبوب القسطرة المركزي، البقعة المُجاورة بصورة خطرة من القلب.

بعد القيام بعملية نقل نقي العِظام بأحد عشر يوماً، بدأ عدد خلايا دم كيت البيضاء يرتفع، وهو برهان على نجاح عملية التطعيم. واحتفاءً بذلك، يُصرّ براين على أنْ يأخذني لكي نتناول وجبة عشاء في الخارج. ويعمل على تخصيص ممرّضة لتسهر على راحة كيت، ويحجز طاولة في مقهى إكسو بل ويُحضر لي ثوباً أسود من خزانة ملابسي. وينسى أنْ يُحضِر الحذاء الخفيف، لذلك خرجتُ وأنا أنتعل حذاء النزهات السيّئ معه.

المُطعم شبه ممتلئ. وحالما نجلس تقريباً، يأتي الساقي لكي يسأل إنْ كنا نرغب في شرب النبيذ. فيطلب براين نبيذ كابرنيه سوفينيون.

«هل تعرف إنْ كان نبيذاً أحمر أم أبيض؟». لا أعتقد أنني رأيت براين، طوال كل تلك السنين، يشرب أيّ شيء خلاف البيرة.

«أنا أعرف أنّه يحتوي كحولاً، وأعرف أننا نحتفل». يرفع كأسه بعد أنْ يصبّ الساقي المشروب. ويُعلن النخب، «في صحّة العائلة».

نضرب كأسينا ونتناول رشفة. أسأل: «ماذا ستطلب؟».

«ماذا تريدين مني أنْ أطلب؟».

«الفيليه. بهذه الطريقة يمكنني أنْ أتذوَّقه إذا حصلتُ على سمك موسى»، وأُغلقُ لائحة الطعام. «هل سمعت آخر نتائج فحوص عدد خلايا الدم؟».

ينظر براين نحو الأسفل إلى الطاولة. «كنتُ آمل أنْ نأتي إلى هنا ونبتعد عن ذلك كلّه. ونكتفي بتبادل الحديث».

اعترفُ: «أحبّ أنْ نتحدث». ولكن عندما أنظر إلى براين، فإنَّ المعلومات التي تقفز إلى شفتيّ تكون عن كيت، وليس عنّا. لا مُبرِّر لديّ لأسأله عن مجريات يومه - لقد أخذ فترة ثلاثة أسابيع عطلة من عمله في مركز الإطفاء. ولا يربط بيننا إلّا المرض.

يُخيِّم علينا الصمت. أتلفّتُ حولي في مقهى إكسو وألاحظ أنَّ الأحاديث تدور في مُعظمها حول الطاولات التي يتناول الجالسون عليها العشاء هم من الشبّان والمملين. أما الأزواج الأكبر سناً، الذين يمارسون روابط الزواج التي تومض مع الأواني الفضيّة، فيأكلون من دون فلفل الحديث. هل يعرف كلٌّ منهما مُسبقاً ما يُفكِّر فيه الشخص الآخر لأنهما مرتاحان كثيراً؟

عندما يصل النادل لكي يتلقّى طلباتنا، نلتفتُ نحن الاثنين بلهفة نحوه، ممتنّين لوجود شخص يُبعِدنا عن اضطرارنا إلى أنْ نعي أننا شخصان غريبان.

نغادر المستشفى مع طفلةٍ مختلفةٍ عن تلك التي أحضرناها إليها. تتنقّل كيت بحذر، متفحّصة أدراج الطاولة المُجاورة للسرير بحثاً عن أي شيء يمكن أنْ تكون قد نسيته. كانت قد فقدَتِ الكثير من وزنها حتى إنَّ بنطلون الجينز الذي أحضرته لها لم يكن على مقاسها؛ واضطررنا إلى استخدام منديلين مُزيَّنين معقودين معاً لكي نصنع منهما حزاماً مؤقّتاً.

كان براين قد تقدَّمنا جميعاً لكي يُحضِر السيارة. أضعُ آخر أعداد مجلة تايغر بيت وأسطوانة مُدمجة في حقيبة كيت القماشيّة. وتُقحِم هي قلنسوة من الصوف على فروة رأسها الصلعاء، الملساء وتُطوِّق عنقها بشدّة بلفاع، وتضع قناعاً وتلبس قفّازاً؛ والآن ونحن نغامر بمغادرة المستشفى، تكون هي التي سوف تحتاج إلى حماية.

خرجنا من الباب لنواجه تصفيق الممرضين الذين أصبحنا نعرفهم معرفة جيّدة. يُنكّت ويلي قائلاً: «مهما تفعلين، *إياكِ* أنْ تعودي لتزورينا، أسمعتِ؟».

مرّوا بنا واحد إثر آخر لكي يودِّعونا. وبعد أنْ يختفوا جميعاً، ابتسمُ لكيت. «مستعدَّة؟».

تومئ كيت برأسها إيجاباً، لكنّها لا تتقدَّم. تتجمَّد في مكانها، مدركة كل الإدراك أنّها ما إنْ تضع قَدَمها خارج هذا الباب، سوف يتغيَّر كل شيء.

«ماما؟».

أضمُّ يدها داخل يدي. أعِدها، «سوف نخرج معاً»، ونتّخذ الخطوة الأولى، جنباً إلى جنب.

البريد ممتلئ بفواتير المستشفى. لقد علِمنا أنَّ شركة التأمين لن تتحدث مع قسم المُحاسبة في المستشفى، والعكس بالعكس، ولكن لا يعتقد أيٌّ منهما أنَّ الرسوم دقيقة – هذا يدفعهما إلى تغريمنا نحن تكاليف الإجراءات التي ما كان ينبغي أنْ نُسددها، يحدوهما الأمل في أنْ نكون من فرط الغباء بحيث نقوم تسديدها. ولم يكن باستطاعة براين أو أنا أنْ نسهر على رعاية كيت على مدار الساعة.

أتصفّح منشور محل البقالة، ومجلة AAA، وإعلاناً عن ضريبة طويلة الأمد قبل أنْ أفتح الرسالة الواردة من تمويل مشترَك. إنها ليست من الأشياء التي تلفت انتباهي حقاً؛ وفي المعتاد يقوم براين بإدارة الشؤون المالية التي تتطلَّب أكثر من مجرّد موازنة دفتر الشيكات. إضافة إلى أنَّ الموارد الماليّة الثلاثة التي لدينا كلها مُخصّصة لتعليم أولادنا. نحن لسنا من العائلات التي لديها مُدخرات كافية لكي تنخرط في سوق البورصة.

عزيزي السيد فيتزجيرالد:

نوجّه إليك هذه الرسالة لكي نؤكِّد على تحريرك مؤخراً من الاعتماد المالي رقم #323456، براين د. فيتزجيرالد كستوديان لصالح كاثرين س. فيتزجيرالد، ومقداره 8,369,56$. وهذا المبلغ المُنفَق يُغلق فعليّاً الرصيد.

يُعتبَر هذا الخطأ المصرفيّ خطأً كبيراً. وفي حسابنا المصرفيّ نحن

دقيقون، ولكن على الأقلّ أنا لم أفقد ثمانية آلاف دولاراً. وخرجتُ من المطبخ إلى الفناء، حيث يعمل براين على تثبيت خرطوم ماء آخر في الحديقة. أقول له، ممسكة الرسالة بيدي: «إمّا إنَّ أحداً في المورد المالي المُشترك خدعنا، أو أنَّ إعالتك لزوجة ثانية لم يعُد سرّاً».

واستغرقت منه قراءتها لحظة طويلة، اللحظة نفسها التي أدركتُ خلالها أنَّ هذه ليست غلطة على الإطلاق. ويمسح براين جبينه بخلفيّة رسغه، يقول: «أنا الذي أخذتُ هذا المبلغ».

«من دون أنْ تخبرني؟» لا أستطيع أنْ أتخيَّل أنَّ براين يفعل مثل هذا الشيء. أحياناً، في الماضي، كنا نمدّ أيدينا إلى حساب أولادنا ولكن فقط لأننا نمرّ بضائقة ماليّة شهريّة من أجل تسديد تكاليف البقاليّة ***وأيضاً*** الرهن، أو لأننا احتجنا تسديد قسط من ثمن سيارة جديدة بعد أنْ أُحيلَت سيارتنا القديمة أخيراً على التقاعُد. وكنا نستلقي على السرير والشعور بالذنب يرزح علينا كلحافٍ إضافيّ، ويعِدُ كلٌّ منا الآخر بأننا سوف نُعيد المبلغ إلى مكانه حالما تسمح طاقتنا البشريّة بذلك.

«لقد حاول رجال مركز الإطفاء أنْ يجمعوا بعض المال، كما قلت لك. وجمعوا عشرة آلاف دولار. ومع إضافة هذا المبلغ وافقت المستشفى على وضع خطة لتسديد المبلغ لأجلنا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لكنّكَ قلتَ–».

«أعرف ماذا قلت، يا سارة».

هززتُ رأسي نفياً، مذهولة. «*كذبتَ عليّ*؟».

«أنا لم–».

«لقد عَرَضَتْ زان علينا – ».

يقول براين: «لن أدع أختك تعتني بكيت. ***أنا الذي*** من المُفترَض أن أعتني بكيت». يسقط الخرطوم منه إلى الأرض، يقطر ويبصق على أقدامنا. «سارة، إنها لن تعيش عمراً مديداً بحيث يُتاح لها أنْ تستخدم المال للإنفاق على تعليمها».

الشمس برّاقة؛ والمِرشّة تنتفض على العشب، ترش أقواس قُزح. إنه يوم

جميل جمالاً يعصى على مثل هذه الكلمات التعبير عنه. وأستدير وأركض إلى داخل المنزل. وأوصد باب الحمّام على نفسي.

بعد قليل، يضرب براين بقوة على الباب. «سارة؟ سارة، أنا آسف».

أتظاهر بأنني لا أطيق وجوده. أتظاهر بأنني لم أسمع أيّ شيء مما قال.

في المنزل، كلنا نضع أقنعة لكي لا تُضطر كيت إلى فعل ذلك. وأجد نفسي أتفحّص أظافر أصابعها في أثناء تنظيفها أسنانها بالفرشاة أو وهي تعدّ طبق الحبوب، لأرى إنْ كانت الحواف السوداء التي أحدثتها المعالجة الكيميائيّة قد اختفتْ - إنها إشارة مؤكَّدة على نجاح نقل نقي العِظام. إنني أعطي كيت مرّتين في اليوم حقنة من عامل التنمية في الفخذ، وهو أمر ضروريّ إلى أنْ يبلغ عدد نيوتروفيل الخلايا البيضاء الألف. وعند تلك النقطة سوف يبدأ النقي بالتوالد.

ليس باستطاعتها أنْ تعود إلى المدرسة بعد، ولذلك نأتي لها بالدروس إلى المنزل. وفي مناسبة أو اثنتين رافقتني لكي نُحَضِر آنّا من روضة الأطفال، لكنها الآن ترفض أنْ تخرج من السيارة. وسوف تعود إلى المستشفى من أجل معرفة عدد خلايا الدم التقليديّة، ولكن إذا اقترحتُ عليها القيام بجولة قصيرة إلى محل بيع الفيديو أو إلى محل بيع فطائر دنكن بعد ذلك، ترفض عرضي.

في صباح أحد أيام السبت، يكون باب غرفة نوم الفتاتين مواربأ؛ فأقرع عليه برفق. «أترغبين في الذهاب إلى المتجر العام؟».

تهزّ كيت كتفيها رفضاً. «ليس الآن».

أتّكئ على إطار الباب. «سوف تشعرين بتحسّن إذا خرجتِ من المنزل».

«لا أريد». ومرّرَتْ راحة كفّها على رأسها قبل أنْ تدسّ يدها في جيبها الخلفيّ، على الرغم من يقيني من أنها لا تُدرك حتى أنها تفعل ذلك.

باشرتُ بالقول: «كيت».

«لا تقوليها. لا تقولي لي إنَّ لا أحد سوف يُحدِّق إليّ، لأنهم سيفعلون. لا تقولي لي إنَّ هذا لا يهمّ، لأنه يهمّ. ولا تقولي لي إنني أبدو بأحسن حال

لأنَّ هذا كذب». وامتلأت عيناها، الخاليتان من الرموش، بالدموع. «أنا شنيعة، يا أمي، *انظري إليّ*».

أنظرُ، وأرى البقعتين اللتين لم يعُد حاجباها ينموان فيهما، ومنحدر الحاجب الذي لا ينتهي، والكتلِ الصغيرة المُنتزَعة والنتوءات التي في المعتاد تختفي تحت غطاء من الشَّعر. أقول بنبرة صوت متوازنة: «حسن، يمكننا إصلاح هذا».

من دون إضافة أيّة كلمة أخرى، أخرجُ من غرفتها، عالِمة أنَّ كيت ستلحق بي. أتجاوز آنّا، التي تتخلّى عن دفتر التلوين لكي تسير في إثر أختها. وفي الطابق التحتيّ، أستخرجُ آلة حلاقة كهربائيّة قديمة عثرنا عليها عندما اشترينا المنزل، وأصلها بالكهرباء. ثم أقوم بجزّ مقدار شريط يمتد على طول وسط فروة رأسي وإلى أسفل.

تشهق كيت «ماما!».

«ماذا؟». تسقط كتلة متموّجة بنيّة اللون من الشَّعر على كتِف آنّا؛ فتلتقطها برقّة. «إنه مجرّد شَعر».

ومع حركة منسابة أخرى من الموسى، تبدأ كيت بالابتسام. وتشير إلى بقعة لم أقصّها، حيث تبرز جزّة من الشعر تشبه الغابة. أجلسُ على صندوق مقلوب مُخصص لقناني الحليب وأتركها لتحلق لي الجانب الآخر من رأسي بنفسها. تزحف آنّا إلى حجري. وتتوسل قائلة: «أنا التالية».

بعد ذلك بساعة، مشينا خلال المتجر العمومي تُمسك كلٌّ منا بيد الأخرى، ثلاثيّ من الفتيات الصُّلع. بقينا كذلك طوال ساعات. وأينما نذهب، تستدير الرؤوس وتتهامس الأصوات. نحن جميلات، ثلاث مرات.

عطلة نهاية الأسبوع

لا توجد نار من غير دخان.

دون هايوود، من «*أقوال مأثورة*»

جِسّ

لا تُنكِر –لقد جرفك بولدوزر أو جرّافة أماميّة– خلفيّة على جانب الطريق العامة، بعد مرور ساعات، وتساءلتَ لِماذا يترك فريق أشغال الطرقات الآليّات هناك حيث يمكن لأي شخص، أعني أنا، أنْ يسرقها. وأول عمليّة اختطاف شاحنة وَقَعَتْ قبل سنين عديدة، لقد أفلتُّ مكابح خلّاط إسمنت ووضعته على منحدر وراقبته يتدحرج ويرتطم بعربة مقطورة تابعة لشركة إنشاءات. والآن هناك شاحنة نفايات على مسافة ميل من بيتي؛ رأيتها هاجعة كصغير فيل بجوار ركام من حواجز إسمنتيّة على الطريق 1-195. ليست سيارتي المُفضّلة، لكنّ المتسوّلين لا خيار لديهم: إثر ارتطامي بالقانون، حجز والدي سيارتي، واحتفظَ بها في مركز الإطفاء.

يتبيّن أنْ قيادة شاحنة نفايات أصعب بما لا يُقاس من قيادة سيارة عادية. أولاً، إنّها تحتل عرض الشارع اللعين كلّه. وثانياً، تبدو كأنّها دبّابة، أو على الأقل كما أفترِضُ أنَّ الدبابة تتصرَّف إذا لم يُضطر المرء إلى الالتحاق بجيشٍ مملوء ببلهاء بكل معنى الكلمة، وبمجانين مهووسين بالقوة لكي يقودوا واحدة. وثالثاً، والأقلّ قبولاً من العقل – الناس يرونك وأنت قادم. وعندما أقترب من الطريق السفليّة حيثُ يُنشئ دوراسيل دان منزله من الكرتون، ينكمش مرتعداً خلف خطّ حمايته المؤلَّف من براميل سِعة كل منها ثلاثة وثلاثين غالوناً. أقول «مرحباً»، وأخرج من مقعد الشاحنة، «إنّه أنا».

ما زال يستغرق من دان دقيقة لكي يتلصَّص من بين أصابع يديه، ليتأكَّد من أنني أقول الحقيقة. أسأله «أتُعجبك مركبتي؟».

ينهض واقفاً بحذرٍ شديد ويلمس الجانب المُخطَّط من الشاحنة. ثم يضحك. «يبدو أنَّ سيارتك الجيب تأخذ مقوّيات، يا فتى».

أُحمِّل مؤخرة المركبة بالمواد التي أحتاج. كم سيكون شيئاً رائعاً لو أعود بالشاحنة إلى الخلف نحو إحدى النوافذ وأُفرِغُ داخلها مقدارَ عددٍ من الزجاجات من حمولتي من مواد الإحراق، ثم أبتعد بالسيارة تاركاً المكان يتلظّى باللهب؟ ويقفُ دان بجوار باب جانب السائق، ويكتب عبر السطح الخشن «*اغسلني*».

أقول: «هيه»، وأسأله إنْ كان يريد أنْ يُرافقني، لمُجرَّد أنّي لم أفعل ذلك من قبل.

«أأنتَ جادّ؟».

«نعم. ولكن بشرط. لا تُخبِر أحداً عمّا تراه أو نفعله مهما كان».

تظاهر بأنّه يُقفِل شفتيه ويرمي المفتاح. وبعد ذلك بخمس دقائق، انطلقنا إلى سقيفة قديمة كانت تُستخدَم كمنزل عائم لأحد زملائي في العمل. أخذ دان يعبث بالمكابح، ويرفع ويُخفِض صندوق الشاحنة ونحن ننطلق في طريقنا. وأخبره بأنني دعوته لمرافقتي زيادة في الإثارة – إنَّ شخصاً إضافياً يعرف أكثر يزيد من الإثارة. لكنَّ السبب الحقيقيّ هو أنّكَ أحياناً ترغب في أنْ تعلم أنَّ هناك شخصاً آخر إلى جوارك في هذا العالم الشاسع.

عندما كنتُ في الحادية عشرة من العمر حصلتُ على لوح تزلج. ولم أطلبه من أحد؛ كان هدية بدافع التخفيف من الإحساس بالذنب. وعلى امتداد الأعوام حصلتُ على عدد لا بأس به من تلك الأشياء باهظة الثمن، كانت لها صِلة في المعتاد بإحدى الحوادث التي وقعَتْ مع كيت. كان والداي يُغدقانها بكل الأشياء السخيفة الممتعة كلما اضطرّا إلى فعل أي شيء لها؛ وبما أنَّ آنّا تكون متورطة في الأمر، تحصل أيضاً على بعض الهدايا المُذهلة، ومن ثم بعد مرور أسبوع يشعر والداي بالذنب جرّاء معاملتهما غير المتساوية فيشتريان لي دمية ما ليتيقّنا من أنني لا أشعر بالنبذ.

على أيّة حال، لا أستطيع حتى أنْ أبدأ بإخبارك كم كان لوح التزلّج ذاك مُذهلاً. كان في أسفله جمجمة تتوهج في الظلام، ومن أحد أسنانها يقطر

دمٌ أخضر. كانت الدواليب من النيون الأصفر والسطح خشن، عندما تضع قَدَمَكَ عليها بحذائك الرياضي، فإنها تُطلِق صوت نجم روك يتنحنح. كنتُ أتزلّج على طول ممر السيارات جيئة وذهاباً، وحول الأرصفة، أتعلّم كيف أرفع الدواليب وأدور بها في الهواء وأصيح. كان هناك فقط شرط واحد: لم يكن مسموحاً لي بأنْ أخرج بها إلى الشارع، لأنَّ السيارات يمكن أنْ تظهر في أيّة لحظة؛ الأطفال يمكن أنْ يُدهسوا في لحظة.

حسن. لا داعي إلى القول إنَّ منبوذين في الحادية عشرة من أعمارهم وقواعد السلوك في المنزل هما كالنار والماء. ومع انتهاء أسبوعي الأول مع ذلك اللوح صرتُ أعتقد أنني أفضِّل أنْ أتزحلق على حافة شفرة وأُصبح مُدمناً على أنْ أتزلج جيئة وذهاباً على الأرصفة مع أطفال صِغار على دراجاتهم الكبيرة.

ناشدتُ والدي كي يأخذني إلى موقف سيارات كْمارت، أو إلى ملعب كرة السلّة في المدرسة، أو إلى أي مكان يمكنني أنْ ألعب فيه قليلاً. فوعدني بأنّنا في يوم الجمعة، بعد إجراء عملية نقل النقي إلى كيت المعتاد، نستطيع أنْ نذهب إلى المدرسة. ويمكنني أنْ آخذ المزلجة معي. وتستطيع آنّا أنْ تُحضِر دراجتها الهوائيّة، وإذا رغبتْ يمكنها أنْ تتزلّج على حذائها.

يا الله، كم كنتُ أصبو إلى ذلك. كنتُ أُشحّمُ الدواليب وألمّع أسفل لوح المزلجة وأتدرب على الدوران الحلزونيّ على منحدر ممر السيارات الذي صنعته من بعض قطع خشب الرقائق وزند ضخم من الخشب. وحالما رأيت السيارة -كانت أمي وكيت عائدتين من عيادة اختصاصيّ الدم- هرعتُ من الشرفة الخارجية للمنزل لكي لا نُبدِّد أي فترة من الوقت.

اتَّضَحَ أنَّ أمي، أيضاً، كانت في عجلة من أمرها. لأنَّ الباب المؤدّي إلى سيارة النقل انزلقَ منفتحاً وظهرت كيت، مُضرّجة بالدم. وأمرتني أمي، وهي تضعُ حشوة من مناديل الورق على وجه كيت، «استدعِ والدك».

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تعاني فيها من نزيف الأنف. وكانت أمي دائماً تُخبرني، عندما يُصيبني ذلك بالرعب، بأنَّ النزيف يبدو أسوأ بكثير مما هو فعلاً. لكنني استدعيتُ أبي، وأسرعا معاً بحمل كيت إلى الحمّام وحاولا أنْ يحولا دون بكائها، لأنَّ ذلك لا يعمل إلّا على تفاقُم صعوبة الأمر.

قلت: «أبي، إلى أين نحن ذاهبون؟».

لكنّه كان منهمكاً في جمع الورق الصحيّ، وحشره في أنف كيت.

كرّرت: «أبي؟».

نظر أبيّ إليّ مباشرة، لكنّه لم يُجب. كانت عيناه مذهولتين وتُحدّقان إليّ، وكأنني مصنوع من دخان.

تلك كانت المرَّة الأولى التي اعتقدتُ فيها أنني ربما أكون كذلك.

إنَّ الشيء الذي يتَّسِم به اللهب هو الغدر -فهو يتسلَّل، ويحرق، وينظر خلفه ويضحك. واللعنة، إنّه جميل. وكشمسٍ غاربة يلتهم كلّ شيء في طريقه. للمرّة الأولى، هناك مَنْ يُطري عمل يديّ. إلى جواري، كان دان يُصدر صوتاً خفيفاً من عمق حلقه- يدل على الاحترام، بلا أدنى شكّ. ولكنْ عندما نظرتُ إليه، بافتخار، وجدتُ أنّه يدفن رأسه داخل الياقة الدهنيّة لمعطفه الفائض عن حاجة الجيش. وكانت الدموع تجري غزيرة على وجهه.

قلتُ: «دان. يا رجل. ما الذي يجري؟»، مُسلِّماً بأنَّه مجنون، لكنّه هادئ. وضعتُ يدي على كتفه، ومن ردَّة فعله قد تعتقد كأنَّ عقرباً استقرَّ هناك. «أتخاف اللهب، داني؟ لا شيء يُخيف. نحن بعيدان بقدر كافٍ عنه»، وأنفحُهُ ما آمل أنْ تكون ابتسامة تشجيع. ماذا لو أنّه أُصيبَ بالرعب وباشر بالصراخ، ولفتَ انتباه أحد رجال الشرطة؟

يقول دان: «تلك السقيفة».

«نعم، لا أحد سيشتاق إليها».

«هناك يعيش الجرذ».

أُجيب: «لم يعد كذلك».

«لكنَّ الجرذ...».

«إنَّ الحيوانات تعرف كيف تخرج من النار. أؤكّد لك. سوف يكون الجرذ بخير تماماً. اهدأ».

ولكن ماذا عن الصُّحُف؟ إنَّ في حوزته تلك الصحيفة التي تورد خبر اغتيال الرئيس كينيدي....

يتبدّى لي أنَّ الجرذ في الغالب ليس من القوارض، بل هو مُتشرِّد

آخر. يستخدم هذه السقيفة كملجأ. «دان، أتريد أنْ تقول إنَّ هناك شخصاً يعيش هناك؟».

ينظر إلى اللهب المتصاعد وعيناه مترعتان بالدموع. ثم يُكرِّر كلماتي. يقول: «لم يعد كذلك».

كما قلتُ. كنتُ في الحادية عشرة. وحتى هذا اليوم لا أستطيع أنْ أخبرك كيف شققتُ طريقي من منزلنا في داربي العليا وحتى قلب بلدة بروفيدنس. أظنّ أنَّ الأمر استغرقَ مني بضع ساعات؛ أظنّ أنني اعتقدتُ أنني برداء البطل الخفيّ الذي كنتُ أرتدي، ربما أمكنني أنْ أختفي وأعود إلى الظهور في مكان آخر كليّاً.

أجريتُ اختباراً لنفسي. مشيتُ في مناطق تجاريّة، وفعلاً، مرَّ بي الناس مباشرة، وعيونهم تنظر إلى الشقوق التي على الرصيف أو تُحدِّق أمامها مباشرة كعُصبة من الموتى الأحياء. مشيتُ بمُحاذاة جدار طويل من زجاج المرايا على جانب أحد الأبنية، حيث كان في وسعي أنْ أرى نفسي. ولكن مهما رسمت من تعبيرات على وجهي، ومهما طالتْ مدَّة وقوفي هناك، لم يُعلِّق أيٌّ من المتجمّعين من حولي بأي شيء.

انتهى بي الأمر في ذلك اليوم إلى وسط تقاطع طرق، تحت أضواء المرور مباشرة، وسيارات الأجرة تزعق وتنعطف إحدى السيارات بسرعة إلى اليسار ويهرع اثنان من رجال الشرطة ليمنعاني من قتل نفسي. وفي مركز الشرطة عندما جاء أبي لكي يستلمني، سألَني فيمَ كنتُ أفكِّر.

في الحقيقة، لم أكنْ أفكِّر البتّة. كنتُ فقط أحاول أنْ أصل إلى مكانٍ أكون فيه ظاهراً للعيان.

أولاً خلعتُ قميصي وغمسته في بركة ماء راكد على جانب الطريق؛ ثم طوَّقتُ به رأسي ووجهي. كان الدخان قد بدأ يتصاعد كغيوم سوداء غاضبة. وفي تجويف أُذني رنّ زعيق صفّارات الإنذار. لكنني كنتُ قد قطَعتُ وعداً للدان.

أول ما فاجأني كان الحرارة، كأنّها جدار أشدّ صلابة مما يبدو. كان إطار السقيفة يبرز، كأشعة إكس برتقاليّة. لم أكنْ أرى مقدار قَدَم أمامي.

صحتُ: «أيّها الجرذ»، وكنتُ قد بدأتُ أندم على تلقّي الدخان الذي يتسبَّب في جفاف حنجرتي وخشونتها، «أيّها الجرذ!».

لا جواب. لكنَّ السقيفة ليست فسيحة. وركعتُ على يديّ ورُكبتيّ وبدأتُ أتحسَّس طريقي من حولي.

مررتُ فقط بلحظة سيئة حقاً، وذلك عندما وضعتُ يدي بالمُصادفة على شيءٍ معدنيّ قبل أنْ تترك عليها علامة مختومة. والتصقَ جلدي به. تقرَّحَ في الحال. ومع سقوطي على قدمٍ تنتعل حذاءً ذا رقبة عالية كنتُ أجهشُ بالبكاء. لم أتمكّن من الخروج أبداً. تحَسَّستُ طريقي إلى أعلى الجرذ، حاملاً جسمه الرخو على كتفي، وأترنّحُ عائداً من حيثُ أتيت.

واستطعنا أنْ نخرج بفعل نكتة صغيرة ألقاها الله. حينئذٍ، كانت الآلات تسحبُ إلى أعلى، تشدّ أسلاكها. ربما حتى والدي موجود هنا. أبقى تحت ستارٍ من الدخان: أُلقي الجرذ على الأرض. أركضُ في الاتّجاه المقابل، وقلبي ينبض بسرعة، تاركاً ما تبقّى من عملية الإنقاذ هذه بين أيدي الذين يرغبون بقوة في أنْ يصبحوا أبطالاً.

آنّا

هل حدثَ مرَّة أنْ تساءلتَ كيفَ أتيت إلى هنا؟ أعني، إلى الأرض. دعك من الرقص والغناء الذي يدور حول آدم وحوّاء، والذي أعلمُ أنّه محضُ هراء. إنَّ والدي مُعجب بأسطورة هنود الباوني[1]، الذين يقولون إنَّ آلهة النجوم تسكن العالم: إنَّ نجمة المساء التحمَتْ مع نجمة الصباح وأنجبتا الأنثى الأولى. والطفل الذكر الأول أنجبه تزاوج الشمس مع القمر. وامتطى البشر ظهر الإعصار.

علَّمنا السيد هيوم، أستاذي في مادة العلوم، تلك الخلطة البدائيّة المترعة بالغازات الطبيعيّة والقذارة اللزجة ومادة الكربون التي تتصلَّب بطريقة ما لتكوِّن كائنات وحيدة الخليّة اسمها السوطيات القمعيّة choanoflagellates... والتي تبدو أقرب شَبَهاً، في رأيي، باسم مرض ينتقل بالممارسة الجنسيّة من كونها بدايةَ سلسلةٍ ارتقائيّة. ولكن حتى عندما تصل إلى هناك، تجد أنه يمثّل قفزة هائلة من الخليّة الأميبيّة إلى القرد أكثر ممّا يُمثّل مخلوقاً مفكّراً مكتمل النموّ.

والشيء المُذهل حقاً بشأنِ هذا كلّه هو أنّه مهما كان ما تؤمن به، فإنَّ الانتقال من نقطةٍ في العَدَم، إلى نقطةٍ تشتعلُ عندها كل الخلايا العصبيّة وتقفز لكي تتمكن من اتّخاذ قراراتك، يتطلَّب بعض العمل.

والأشدّ إذهالاً من هذا هو كيف أنّه على الرغم من أنَّ هذا يُصبح فطرة ثانية، ما زلنا ننجح كلنا في إفسادها.

***

1- الباوني: قبائل من هنود حمر أميركا، كانت تسكن خاصة ولايتيّ نبراسكا وكنساس، ثم تمركزت في أوكلاهوما. المترجم.

في صباح يوم سبت أكون في المستشفى مع كيت وأمي، وكلنا نبذل أقصى جهدنا لنتظاهر بأنَّ جلسة مُحاكمتي لن تبدأ بعد يومين من الآن. كنتَ تظن أنَّ هذا أمرٌ صعب، لكنّه في الواقع، أسهل بكثير من البديل. إنَّ عائلتي تشتهر بالكذب على نفسها بالحذف: إذا لم نتحدث عن الدعوى المرفوعة، فإنّها -*في الحال!*- تختفي من الوجود، لا يوجد فشَل كَلَويّ، ولا أي مصدر للقلق.

أشاهد مُسلسل «*أيام سعيدة*» على قناة TVLand. إنَّ أفراد عائلة كننغهام لا يختلفون كثيراً عن عائلتنا. فكل ما يُقلقهم هو ما إذا كانت فرقة ريتشي سوف تعمل في حانة آل، أو إنْ كان فرينزي سوف يفوز في مسابقة تبادُل القُبل، في حين أنّه حتى أنا أعلم أنّه في حقبة الخمسينيات كان ينبغي على جوني أنْ يُجري دورة تجريبيّة في الغارات الجويّة في المدرسة، وأنّ ماريون ربما تتعاطى أقراص الفاليوم، وأنَّ هوارد يخشى شنّ هجوم شيوعيّ. ربما إذا أمضيتَ حياتك وأنت تتظاهر بأنكَ في موقع تصوير سينمائيّ، فلن تُضطر إلى الاعتراف بأنَّ الجدران مصنوعة من الورق، وأنَّ الطعام هو من البلاستيك، وأنَّ الكلمات التي على لسانك ليست نابعة حقاً من نفسك.

كيت تحاول أنْ تحلّ الكلمات المتقاطعة. وتسأل: «ما هي الكلمة المؤلَّفة من أربعة أحرف وتعني **vessel**[1]؟».

هذا اليوم هو يوم جيد. وأعني بهذا أنها تشعر برغبة في الصراخ في وجهي لأنني استعرتُ اثنين من أقراصها المُدمجة من دون إذنها (إكراماً لله، لقد كانت غائبة عن الوعي بالمعنى الحرفيّ؛ وهذا يعني أنّها لم تكن قادرة على إعطاء الإذن بذلك)؛ إنها تشعر بميلٍ إلى حلّ لغز الكلمات المتقاطعة هذا.

أقترحُ كلمة: «راقود. جرَّة».

«*أربعة أحرف*».

تقترح أمي: «مركب. ربما المعنى الذي يقصدون هو في هذا الاتجاه».

يقول الدكتور تشانس، وهو يلج الغرفة: «دمّ».

1- هذه الكلمة تعني، من بين ما تعني: وعاء، سفينة، طائرة، شريان دموي أو وريد... المترجم.

تجيب كيت: «هذان حرفان»، يمكنني القول، إنها استخدمتْ نبرة صوت ممتعة أكثر من تلك التي استخدمَتها معي.

نحن جميعاً مُعجبون بالدكتور تشانس؛ ربما باتَ من الممكن أنْ يُصبح العضو السادس في عائلتنا.

«أعطني رقماً»، ويقصد بذلك على مُدرَّج الألم. «أهو خمسة؟».

«بل ثلاثة».

جلس الطبيب على حافة سريرها. وحذَّرَ قائلاً: «قد يُصبح خمسة في غضون ساعة. وقد يُصبح تسعة».

استحال لون وجه أمي إلى الأرجواني. هتفتْ بمرح: «لكنَّ كيت تشعر الآن بأنها على أفضل ما يُرام!».

يشرح الدكتور تشانس: «أعلم. لكنَّ لحظات الصفاء سوف تقصُر مدتها وتتباعد فتراتها. وهذه ليست نوبة لوكيميا حادّة. هذا فشل كلَويّ».

تقول أمي: «ولكن عملية النقل-».

أُقسِم على أنَّ هواء الغرفة كلّه تحول إلى إسفنجة. كان بوسعك أنْ تسمع رفرفة جناحيّ عصفور طنّان، إلى هذه الدرَجة أصبحَ الصمت عميقاً. أريد أنْ أتسلّل إلى خارج الغرفة كالضباب؛ لا أريد أنْ يكون هذا خطئي.

كان الدكتور تشانس هو الشجاع الوحيد الذي نظر إليّ. «كما أفهم، يا سارة، إنَّ تأمين عضو يجري النقاش بشأنه».

«ولكن-».

قاطعتها كيت: «ماما»، ثم التفتَتْ إلى الدكتور تشانس. «ما هي المدّة التي نتحدث عنها؟».

«أسبوع، ربما».

قالت بنعومة «واو. واو». ولمستْ حافة الصحيفة، ودعكَتْ إبهامها على الطرف المُدبَّب لحافتها. «هل سأتألَّم؟».

وعَدَها الدكتور تشانس: «كلا، سوف أحرص على ألّا تتألّمي».

تضع كيت الصحيفة على حجرها وتلمس ذراعه. «شكراً لك. أقصد، لأنك قلت الحقيقة».

عندما يرفع الدكتور تشانس نظره، يكون ثمة احمرار يُحيط بعينيه. «لا تشكريني»، ونهضَ واقفاً بحركة ثقيلة حتى ظننتُ أنّه مصنوع من حجر، وغادر الغرفة من دون أنْ ينطق كلمة واحدة أخرى.

انكمشتْ أمي على نفسها، كانت تلك الطريقة الوحيدة لشرح الوضع. كما يحدث لصحيفة، عندما تحشرها عميقاً داخل الموقد، وبدل أنْ تحترق، فإنها بكل بساطة تختفي.

تنظر كيت إليّ، ومن ثم تنظر نحو الأسفل إلى كل تلك الأنابيب التي تُثبّتها إلى السرير. أنهض وأقترب من أمي، وأضعُ يدي على كتفها. أقول: «ماما، كفى».

ترفع رأسها وتنظر إليّ بعينين ممسوستين. «كلا، يا آنا. كفى *أنتِ*».

بعد برهة وجيزة، أتمتم فجأة: «***آنا Anna***».

تستدير أمي «ماذا؟».

أقول: «الكلمة المُرادفة لكلمة **vessel** والمؤلَّفة من أربعة أحرف»، وأغادر غرفة كيت.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أجلس على كرسي غرفة مكتب والدي في مركز الإطفاء وأدور وأنا عليه حول نفسي، وتجلس جوليا على الطرف المقابل مني. على طاولة المكتب يوجد عدد من الصور تمثّل أفراد عائلتي. واحدة تبيِّن كيت وهي طفلة رضيعة، ترتدي قبعة صوف منسوجة تُشبه ثمرة الفريز. وأخرى تبيِّن جِسّ وأنا، نرسم تكشيرة واسعة ونحن نوازن سمكة زرقاء بأيدينا. تساءلتُ عن الصور الزائفة التي تُشترى من المتجر وهي داخل أُطُر –لسيدات ذوات شعر بُنّي أملس مع ابتسامات غير مُصدِّقة، وأطفال رُضَّع برؤوس تشبه ثمار الليمون الهندي يجلسون على رُكَب أولادهنّ– أناسٌ ربما هم في الحياة الواقعيّة أشخاصٌ غرباء جَمَعَهم شخصٌ موهوب يبحثُ عن الوجوه الجديدة ليشكّلوا عائلة زائفة.

لعلّها، في نهاية المطاف، لا تختلفُ كثيراً عن الصور الواقعيّة.

أنتقي صورةً تبيِّن أمي وأبي يبدوان أصغر سنّاً مما يمكن أنْ أتذكّرهما وقد لفحتهما أشعة الشمس. أسألُ جوليا: «هل لديكِ صديق؟».

تقول، بسرعة كبيرة: «كلا!». وعندما أرفع بصري، تقوم بما يُشبه هزّ الكتفين استخفافاً. «وأنتِ؟».

«كان هناك شاب، يُدعى كايل مكفي، حسبتُ أنني أُعجِبتُ به أمّا الآن فلم أعُد متأكّدة». وأمسكُ قلم حبر وأبدأ بتفكيكه، أُخرِجُ الأنبوب الصغير والرفيع الذي يحتوي الحبر. سيكون شيئاً جميلاً لو يوضَع أحدها داخل المرء، ويُصبح كحيوان الحبّار؛ يستطيع أن يُبرز إصبعه ويضع علامته الخاصة على كل ما يريد.

«وماذا حدث؟».

«ذهبتُ معه إلى السينما، كما لو أننا في موعد، وبعد انتهاء عرض الفيلم نهضَ واقفاً وإذا به –» وأحمرُّ خجلاً. «يعني، كما تعلمين». وأشرتُ بيدي إلى منطقة حِجري عموماً.

تقول جوليا: «آه».

«يسألني إنْ كنتُ قد تلقّيت دروساً في أشغال الخشب في المدرسة -أعني، يا إلهي، *أشغال الخشب*؟ – فأقول له كلا وبوم، وأبدأ بالقذف في *الحال*». أضعُ قلم الحبر المُفكَّك على نشّافة والدي. «وعندما أراه الآن في مكان ما من المدينة فهذا كل ما أفكّر فيه». وأحدِّقُ إليها، وتخطر الفكرة على بالي. «هل أنا منحرفة؟».

«كلا، بل أنتِ في الثالثة عشرة. ومن باب العِلم بالشيء، وكذلك هو كايل. لم يستطع أنْ يكبح نفسه تماماً كما أنكِ لا تستطيعين منع نفسك من التفكير فيما حدث عندما ترينه. وأخي أنتوني يقول دائماً إنَّ هناك مناسبتين تحدث فيهما الإثارة لدى المرء: في أثناء النهار، وفي أثناء الليل».

«أيتحدث أخوك معك في مثل هذه المواضيع؟».

تضحك. «أعتقد ذلك. لماذا، ألا يتحدث جِسّ معك حول هذا؟».

أُصدِرُ ما يُشبه الشخير. «إذا سألتُ جِسّ سؤالاً عن الجنس، يضحك بقوة حتى يكاد ضلعه ينكسر، ومن ثم يُعطيني أعداداً يُخبئها من مجلة **بلاي بوي** ويطلب مني أنْ أُجري بحثاً فيها».

«وماذا عن والديك؟».

أهزّ رأسي نفياً. الأمر مستحيل مع أبي - لأنه أبي. وأمي دائماً شاردة. وكيت تقع في نفس الحالة المُستعصية. «هل سبقَ أنْ تشاجرتِ مع أختك بسبب فتى واحد؟».

«في الحقيقة، نحن لا نُعجب بالنوع نفسه».

«وما هو النوع الذي يُعجبك؟».

تفكّر في الأمر. «لا أعلم. طويل القامة. أسود الشَّعر. حيويّ».

«أتظنين أنَّ كامبل ظريف؟».

تكاد جوليا تسقط عن كرسيها. «ماذا؟».

«أقصد، من ناحية كونه *أكبر سناً*».

تقول: «أستطيع أنْ أفهم النواحي التي قد تجده فيها بعض النساء... جذاباً».

«إنّه يبدو أشبه بشخصية من إحدى تلك المسلسلات التلفزيونيّة التي تحبّها كيت»، وأُمرِّر ظِفر إبهامي داخل أخاديد خشب طاولة الكتابة. «شيء غريب أنني سوف أتزوّج وأُقبِّل أحدهم وأتزوّج».

وكيت لن تفعل.

تميل جوليا إلى الأمام. «ماذا سيحدث إذا ماتت أختك، يا آنّا؟».

إحدى تلك الصور التي على طاولة الكتابة تمثّلني مع كيت. كنا صغيرتين -ربما في الخامسة والثانية. كان ذلك قبل وقوع النكسة الأولى، ولكن بعد أنْ نما شعرها من جديد. كنا واقفتين على حافة شاطئ، نرتدي ثوبيّ سباحة متشابهَين، ونلعب لعبة تبادل التصفيق على وقع أغنية للأطفال. ويمكن طيّ تلك الصورة إلى نصفَين فتعتقد أنها صورة تظهر في مرآة- كيت تبدو أصغر من سنّها وأنا أبدو طويلة القامة؛ ولون شعر كيت مختلف لكنّه في الجزء السفليّ ما زال على حاله؛ كانت يدا كيت مضغوطتين على يديّ. وحتى هذا اليوم، لا أعتقد أنني أدركتُ حقاً كم نحن متشابهتان.

يرنّ جرس الهاتف قُبيل الساعة العاشرة من تلك الليلة، وأُفاجأ بأنَّ اسمي مكتوب في جميع أنحاء مركز الإطفاء وأرفع سماعة الهاتف الفرعيّ للمطبخ الذي كان قد نُظِّفَ ومُسِحَ في أثناء الليل. «آلو؟».

تقول أمي «آنّا».

في الحال أفترِض أنها تتصل لأمرٍ يتعلَّق بكيت. لم يكن لديها المزيد تقوله لي، بالنظر إلى الحال التي تركنا عليها الأوضاع قبل وقت مبكّر في المُستشفى. «هل كل شيء على ما يُرام؟».

«كيت نائمة».

أجيب «عظيم»، ومن ثم أتساءل إنْ كانت هذه حقيقة الأمر.

«لقد اتصلتُ لسببين. الأول هو لكي أعتذر عمّا جرى في هذا الصباح».

أشعر بأنني شديدة الضآلة. وأعترف «وأنا أيضاً». في تلك اللحظة، تذكّرتُ كيف كانت تدسّني في السرير ليلاً. كانت تذهب إلى سرير كيت أولاً، وتميل، وتُعلن أنها كانت تُقبل آنّا. ومن ثم تأتي إلى سريري وتقول إنها جاءت لكي تعانق كيت. وفي كل مرة كنا ننهار من فرط الضحك. كانت تُطفئ الأنوار، وبعد أنْ تغادر بلحظات طويلة، تبقى الغرفة تفوح برائحة الغسول الذي كانت تستعمله على بشرتها لتبقيها ناعمة كالجزء الداخلي من كيس وسادة من الفانيلا.

تقول أمي: «السبب الثاني لاتّصالي هو فقط لأقول تصبحين على خير».

«أهذا كل شيء؟».

أستطيع أنْ أتبيَّن من خلال نبرة صوتها ابتسامة. «أليس هذا كافٍ؟».

أخبرها، «طبعاً»، على الرغم من أنّه ليس كذلك.

لأنَّ النوم يُجافيني، أغادر سريري في مركز الإطفاء، وأتجاوز والدي، الذي يشخر. وأسرق نسخة «*موسوعة غينيس للأرقام القياسية في العالم*» من مرحاض الرجال وأجلس على سطح المركز لكي أقرأ على ضوء القمر. طفل عمره ثمانية عشر شهراً اسمه أليخاندرو سقط من علوّ 65 قدماً وسبع بوصات من نافذة شقّة والديه في مورسيه، في إسبانيا، وأصبح يُعرَف بأنّه الطفل الوليد الذي ينجو من أطول مسافة سقوط. وروي ساليفان، من فيرجينيا، ينجو من سبع صواعق برق، ومن ثم ينتحر لأنَّ حبيبته نبذته. وتمَّ العثور على قطّة بين الحطام بعد مضيّ ثمانين يوماً على وقوع زلزال في تايوان قتلَ 2000 شخصٍ، وتعافت. ووجدتُ نفسي أقرأ وأُعيد قراءة قسم

تحت عنوان «ناجون ومُنقِذون» وأضيف في ذهني مادتين عنوانهما. «*أطول الناجين من حالة لوكيميا حادّة عمراً*» و«*الأخت الأشد سعادة*».

يعثر والدي عليّ بعد أنْ أضع الكتاب جانباً وأبدأ البحث عن فُلك النسر الساقط. يسألني، وهو يجلس إلى جواري، «لا ترين الشيء الكثير هذه الليلة، أليس كذلك؟». إنها ليلة تعجّ بالغيوم؛ حتى القمر يبدو مكسوّاً بالقطن.

«كلا، كل شيء ضبابيّ».

«هل جرّبت النظر من خلال العدسة المُكبِّرة؟».

أراقبه وهو يُعالج العدسة بعض الوقت، ومن ثم يُقرِّر أنَّ الأمر لا يستحق العناء هذه الليلة. وفجأة أتذكَّر وأنا في السابعة من العمر، أركب إلى جواره في السيارة، وأسأله كم من الأشخاص البالغين يصلون إلى الأماكن التي يقصدونها. فقبل كل شيء، لم أره أبداً يُخرِجُ خارطة.

قال: «أعتقد أننا تعوّدنا على اتّخاذ المنعطفات نفسها»، لكنَّ جوابه لم يُرضني.

«ثم ماذا عن المرة الأولى التي ذهبتَ فيها إلى أي مكان؟».

قال: «في الواقع، لدينا توجيهات».

ولكن ما أردتُ معرفته هو مَنِ الذي حصل عليها في المرة الأولى في *المُطلَق*؟ ماذا لو أنَّ لا أحد ذهبَ إلى حيث أنت ذاهب؟ وأسأله: «أبي؟ أصحيح أنَّ باستطاعتك أنْ تستخدم النجوم كما تستخدم الخارطة؟».

«نعم، إذا فهمتِ دروبَ السماء».

«أهي صعبة على الفهم؟». ربما أنا أفكِّر في أنَّ عليَ أنْ أتعلَّم. خطة بديلة، من أجل كل تلك الأوقات التي أشعر خلالها أنني أدور ضمن دوائر.

«إنّه عِلم رياضيات معقّد جداً - عليك أنْ تقيسي الارتفاع الزاوي، وتعرفي موقعه باستخدام التقويم الملاحي، وتخلصي إلى ما *تعتقدين* أنَّه الارتفاع الزاوي وما ينبغي أنْ يكون عليه اتجاه النجم اعتماداً على ما تعتقدين أنَّه موقعك، وتقارنين بين ارتفاع الزاوية الذي قستِه وذاك الذي قدَّرتِه. ثم تضعين النتيجة ضمن جدول، كخط في موقع. وتحصلين على عدد من الخطوط يجب اجتيازها، إلى هناك تذهبين». يلقي والدي نظرة على

وجهي ويبتسم. يضحك «بالضبط، لا تغادري المنزل من دون أنْ تأخذي معك جهاز تحديد المواقع».

لكنني أراهن أنَّ باستطاعتي أنْ أُحدِّد الموقع؛ إنه ليس أمراً شديد الصعوبة. يكفي أنْ تتّجه مباشرة إلى الموقع الذي تجتمع عنده كل تلك الخطوط المتقاطعة المختلفة، وتأمل خيراً.

لو كانت هناك ديانة اسمها الآنيّة (أي مذهب آنّا)، وكان عليَّ أنْ أخبرك عدد البشر الذين شقّوا طريقهم إلى الأرض، فسوف يكون الأمر كما يلي: في البدء لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق ما عدا الشمس والقمر. وأراد القمر أنْ يخرج في أثناء النهار، ولكن يبدو أنَّ هناك شيئاً أشدّ سطوعاً قادراً على الإشراق طوال ساعات النهار. فازداد غضبُ القمر ونحوله باضطّراد، إلى أنْ لم يتبقَّ منه غير شريحة، وأصبحت حوافه حادّة كالسكين. وبالمُصادفة، لأنه هكذا تحدث غالبيّة الأشياء، أحدَثَ ثقباً في الليل ونثر ملايين النجوم، كنافورة من الدموع.

أُصيب القمر بالرعب، وحاول أنْ يبتلعها كلها. وأحياناً كانت هذه الطريقة تنجح، لأنه أصبح أكثر بدانة واستدارة. ولكن في الغالب لم تنجح، لأنَّ عدد النجوم كان هائلاً. وأخذت النجوم تزداد في أعدادها، إلى أنْ جعلت السماء شديدة السطوع وانتابت الغيرة الشمس. فدعا النجوم إلى جانبه من العالم، حيث السطوع دائم. ولكن ما لم يُخبرهم به هو أنَّها في وقت النهار لن تكون مرئيّة. وهكذا قفزت الحمقاء منها من السماء إلى الأرض، فتجمّدتْ تحت وطأة ثقل حمقها.

بذلَ القمرُ أقصى جهده. ونحتَ كل كتلةٍ من كُتل الحزن تلك وجعلَ منها رجلاً وامرأة. وأمضى ما تبقّى من وقته يراقبُ ليمنع ما تبقّى من نجوم من الوقوع. وأمضَى ما تبقّى من وقته يتمسّك بما تبقّى من شظايا تطايرت منه.

براين

قُبيل حلول الساعة السابعة صباحاً، في يوم أحد، دخل أخطبوطٌ مركز الإطفاء. في الواقع، هو امرأة ترتدي زي أخطبوط، ولكن عندما تشاهِد مخلوقاً كهذا، لا تهمّ الفروق. كانت الدموع تنهمر على وجهها وتحمل بين ذراعيها المتعدِّدة كلب بكّين[1]. تقول «يجب أنْ تساعدني»، وهنا أتذكَّر: إنها السيدة زيغنا، التي كان حريقٌ اندلعَ في المطبخ قد دمَّر منزلَها، قبل ذلك ببضعة أيام.

تتشبث بمجسّاتها. «إنَّ هذا الثوب هو كل ما تبقّى لديّ. إنّه زي عيد كل القديسين. القديسة أرسولا. وجَدتُه يتعفَّن في خزانة في متجر يو -ستور- إتْ في تونتون مع ألبومي الذي يضم مجموعة من أغاني فريق بيتر وبول وميري».

أجعلُها تجلس برفق على كرسيّ قِبالة طاولة مكتبي. «سيدة زيغنا، أعلم أنَّ منزلك لم يعُد صالحاً للسكن-».

«غير صالح للسكن؟ ***لقد أصبح حطاماً!***».

«أستطيع أنْ أمدّك بملجأ. وإذا رغبتِ، أستطيع أنْ أتحدث مع شركة التأمين التي تتعاملين معها لكي تُعجِّل في إجراءاتها».

ترفع إحدى أذرعها لكي تمسح عينيها، وترفع ثمانٍ أخرى مربوطة بخيوط دفعة واحدة. «ليس لديّ تأمين على منزلي. أنا لا أؤمن بعيش حياتي وأنا أتوقَّع الأسوأ».

1- كلب بكّين: كلب صيني صغير الحجم، قصير القوائم وكثيف الشَّعر. المترجم.

أحدِّقُ إليها برهة. أحاول أنْ أتذكَّر الإحساس باحتمال وقوع كارثة مُفاجئة.

***

عندما أصل إلى المستشفى، أجد كيت مستلقية على ظهرها، تتمسّك بقوة بدبّ دمية محشوّ تحتفظ به منذ أنْ كانت في السابعة من العمر. إنها موصولة بأحد تلك الأنابيب التي تمدّها بقطرات من المورفين مُخصَّص للمرضى، وإبهامها يضغط على زر بين حينٍ وآخر، على الرغم من أنّها مُستغرقة في النوم.

أحد الأسرَّة في الغرفة يمكن أنْ يُمدّ ليُصبح سريراً نقّالاً مع فراش رقيق كبسكويت هشّ؛ هناك سارة تلتفّ حول نفسها. وتقول، وهي تدفع شعرها بعيداً عن عينيها، «هيه، أين آنا؟».

«ما زالت نائمة كأي طفلة. كيف كانت حالة كيت في هذه الليلة؟».

«لا بأس. تألَّمت قليلاً بين الساعة الثانية والساعة الرابعة».

أجلسُ على حافة سريرها الصغير. «إنَّ اتصالك بالأمس ترك أثراً بليغاً في آنّا».

عندما نظرتُ في عينيّ سارة، رأيتُ جِسّ - كان لهما اللون نفسه، والقَسَمات نفسها. وأتساءل إنْ كانت سارة تنظر إليّ وتفكِّر في كيت. أتساءل إنْ كان ذلك مؤلماً.

من الصعب تصديق أنّني كنتُ جالساً ذات مرَّة مع هذه المرأة في السيارة وانطلقنا على طول الطريق 66، ولم نكفّ عن الكلام. إنَّ أحاديثنا الآن أضحت عن حقائق مُقتضبة، ممتلئة بالتفاصيل وبمعلومات سرّيّة.

أسألها «أتتذكرين ذلك العرّاف؟». عندما نظرتْ إليّ مباشرة، تابعت الكلام. «كنا ننطلق في قلب نيفادا، ونفد منا الوقود... ولم تسمحي لي بتركك في السيارة ريثما أذهب لأبحث عن محطة وقود؟».

قالت سارة: «*بعد عشرة أيام من الآن، وأنت لا تزال تمشي تائهاً ضمن دوائر، سوف يعثرون عليّ والصقور تنهشُ أحشائي*»، ومشتْ معي. مشينا

إلى الخلف أربعة أميال قاصدين الكوخ الذي كنا قد مررنا به، وهو محطة وقود. كان يُديرها رجل عجوز وأخته، التي أعلنتْ أنها وسيطة روحانيّة. وناشدتني سارة، «*فلنجرّب*»، لكنَّ قراءة الحظ كانت تكلِّف خمسة دولارات ولم يكن في حوزتي أكثر من عشرة. قالت سارة: «*إذن سوف نحصل فقط على نصف كميّة الوقود، واسأل العرّافة متى نتوقَّع أنْ ننقطع من الوقود في المرَّة التالية*»، وكما يحدث دائماً، أقنعتني.

كانت مدام أغنيس من نوع العميان الذين يُخيفون الأطفال، بعينين مُعتمتين تبدوان كسماء زرقاء خالية. وضعَتْ يديها بارزتيّ العِظام على وجه سارة لكي تقرأ عِظامها، وقالت إنها رأتْ ثلاثة أطفال وحياةً مديدة، لكنّها لن تكون حياة سعيدة. سألتها سارة، ساخطة، «*ما معنى هذا؟*»، فشرحت مدام أغنيس قائلة إنَّ الأقدار تشبه الغضار، يمكن إعادة تشكيلها في أي وقت. ولكن بإمكانك أنْ تعيدي تشكيل مستقبلك أنتِ فقط، وليس مستقبل أي شخص آخر، وهذا لا يناسِب بعض الناس.

وَضَعَتْ يديها على وجهي ولم تَقُل إلّا شيئاً واحداً: ***أنقذ نفسك***.

أخبرتنا بأنَّ الوقود سوف ينفد منّا من جديد بعد اجتياز ولاية كولورادو، وهذا ما حصل.

والآن، ونحن في غرفة المستشفى، تنظر سارة إليّ مباشرة. تسألني «متى ذهبنا إلى نيفادا؟». ثم تهزّ رأسها نفياً. «يجب أنْ نتحدّث. إذا كانت آنّا تنوي حقاً أنْ تحضر جلسة الاستماع في المحكمة يوم الاثنين، إذن يجب أنْ نراجع ما ستقوله أنتَ في الشهادة».

نظرتُ نحو الأسفل إلى يديّ. «في الواقع، سوف أتكلَّم بالنيابة عن آنّا».

«*ماذا؟*».

ألقي نظرة سريعة خلفي لأتيقّن من أنَّ كيت ما زالت نائمة، وأبذل أقصى جهدي لأشرح لها، «صدّقيني، يا سارة، لقد فكّرتُ مُطوّلاً وعميقاً في هذا الأمر. وإذا كانت آنّا قد ملّت كونها واهبة لكيت، فعلينا أنْ نحترم ذلك».

«إذا كنتَ ستشهد لصالح آنّا، فسوف يقول القاضي إنّ أحد الأبوين على الأقلّ قادر على دعم هذه العريضة، وسوف يحكم لصالحها».

أقول: «أعلم. لِمَ عليَّ أنْ أفعل خلاف ذلك؟».

تبادلنا التحديق كلٌّ منا إلى الآخر، غير راغبَين في الاعتراف بما ينتظرنا في آخر كلٍ من هذين الطريقَين.

أخيراً أسألها: «سارة، ماذا تريدين مني؟».

تقول بتشديد: «أريد أنْ أنظر إليك وأتذكَّر كيف كان الوضع. أريد أنْ أعود إلى الماضي، يا براين. أريد منك أنْ تعود بي إلى الخلف».

لكنّها لم تعد المرأة التي كنتُ أعرفها، المرأة التي جابت مناطق الريف لكي تُحصي أوجرة الكلاب في البراري، والتي كانت تقرأ بصوتٍ مرتفع الكتب المحظورة التي تتحدث عن رُعاة بقر وحيدين يبحثون عن نساء وقالتْ لي، في أشد أوقات الليل حلكة، إنها سوف تحبّني إلى أنْ يُضيِّع القمر طريقه في السماء.

ولكي أكون مُنصِفاً، أنا لم أعد الرجل نفسه. الرجل الذي كان يُصغي إليها. الرجل الذي كان يُصدّقها.

سارة

2001

أنا وبراين نجلس على الأريكة الطويلة، نتقاسم أجزاء من الصحيفة، ثم تدخل آنّا غرفة الجلوس. تسأل «إذا جززتُ المرج من الآن وحتى أتزوج، على سبيل المثال، هل أستطيع أنْ أحصل الآن على مبلغ 614.96$؟».

نسألها معاً «لماذا؟».

تحفّ حذاءها الرياضي على السجادة. «أحتاج إلى بعض النقود».

طوى براين جزء الأخبار الوطنيّة. «لا أعتقد أنّ جينز ماركة غاب أصبح باهظ الثمن إلى هذه الدرجة».

تقول، وهي تستعد للتعبير عن سخطها: «كنتُ ***أعلم*** أنكما ستكونان هكذا».

«مهلاً»، وأعتدلُ في جلستي، وأضعُ مِرفقيّ على رُكبتيّ. «ما الذي ترغبين في شرائه؟».

«ما الفرق؟».

يُجيب براين: «آنّا، لن ندفع مبلغ ستمائة دولار من دون أنْ نعرف السبب».

تفكِّر في هذا قليلاً. «من أجل شراء غرض موجود على موقع التسوق في الإنترنت».

«أصبحت ابنتي الصغيرة تتفرج على مواقع التسوّق في الإنترنت؟».

تتنهّد. «حسن، أريد أنْ أشتري واقي الركبة لحارس المرمى».

أنظر إلى براين، لكنه مع ذلك لم يبدُ أنّه فهم. يقول: «من أجل لعبة الهوكي؟».

«يعني، **نعم**».

أشير «آنّا، أنتِ لا تلعبين الهوكي»، وعندما تحمر خجلاً، أُدركُ أنَّ الأمر ليس كما يبدو البتّة.

يلحّ براين عليها لكي تقدِّم المزيد من الشرح. «قبل شهرَين، سقطت السلسلة عن دراجتي أمام ملعب الهوكي على الجليد. وكانت هناك حفنة من الشبّان يتدرّبون، لكنَّ حارس المرمى كان مريضاً، وقال المُدرِّب لي إنّه مستعد أنْ يدفع لي خمسة دولارات إذا وقفت عند الشبكة وحرستُ المرمى. فاستعرت مُعدّات الحارس المريض. والمشكلة هي... أنني لم أكن سيئة أبداً. وقد *أحببتُ* اللعبة. وهكذا صرتُ أتردَّد على الملعب». تبتسمُ آنّا بحياء. «وطلب مني المُدرّب أنْ أنضمّ إلى الفريق جديّاً، قبل أنْ يحل موعد دورة الألعاب. أنا أول فتاة تنضم إليهم. ولكن يجب أنْ أمتلك مُعدّاتي الخاصة».

«والتي تكلِّف 614 دولاراً؟».

«وستة وتسعين سنتاً. وهذا فقط ثمن واقي الركبة. ما زلت في حاجة إلى حامي الصدر والمقبض والقفاز والقناع» وحدَّقَتْ إلينا بترقّب.

أخبرها: «علينا أنْ نتحدث في الأمر».

تمتمت آنّا بشيء بدا أشبه بـ «*أرقام*»، وخرجت من الغرفة.

سألني براين: «أكنتِ تعلمين أنّها تلعب الهوكي؟»، أهزّ رأسي نفياً. وأتساءلُ ما الذي تخفيه ابنتي عنّا أيضاً.

نهمُّ بمغادرة المنزل لكي نشاهد آنّا تلعب الهوكي للمرّة الأولى وإذا بكيت تُعلن أنّها لن تذهب. وتناشدني «أرجوك ماما، لن أذهب وأنا أبدو هكذا».

وتظهر علامات طفح الغضب الأحمر على وجنتيها، وراحتيّ كفّيها، وأسفل قَدَميها، وصدرها، وعلى وجهها المُستدير، دلالة على المُنشّطات التي تتناولها لمعالجته. وتُصبح بشرتها خشنة وسميكة.

هذه هي مواصفات مرض رفض التطعيم التي ظهرتْ على كيت بعد تطعيمها بنقي العِظام. وعلى مدى السنوات الأربع الماضية كان يأتيها على فترات، يلتهب في أوقات غير متوقّعة. إنَّ نقي العِظام هو عضو، وعلى غرار

القلب والكبد، يمكن للجسم أنْ يرفضه. ولكن أحياناً، بدل ذلك، يبدأ النقي المنقول برفض الجسم الذي وُضِعَ فيه.

الخبر السعيد هو أنه إذا حدثَ هذا، تُصبح الخلايا السرطانيّة كلها مُحاصَرَة، أيضاً – وهو ما يُسمّيه الدكتور تشانس مرض التطعيم في مواجهة سرطان الدم. والخبر السيئ هو مبحث الأعراض symptomology: الإسهال المُزمن، اليرقان، فقدان مدى الحركة في مفاصلها، ظهور الندوب وتصلّب الأنسجة حيثما وُجِدت الأنسجة الضامّة. إنني معتادة كثيراً على هذا بحيث إنّه لا يزعجني، ولكن عندما يلتهب مرض رفض التطعيم بصورة سيئة، أجعلُ كيت تلازم المنزل بعيداً عن المدرسة. إنها في الثالثة عشرة، والشكل بالنسبة إليها يقع في الذروة. وأنا أحترم تفاهتها، لأنها لا تتّصف إلّا بالقليل منها.

لكنني لا أستطيع أنْ أتركها وحدها في المنزل، وقد وعدنا آنّا بأننا سنحضر لنشاهد لعبها. «إنَّ هذا شديدة الأهميّة بالنسبة إلى أختك».

ردّاً على هذا، تتقلَّب كيت على الأريكة وتجرّ وسادة مسند لتغطي بها وجهها.

ومن دون أنْ أنطق أيّة كلمة أمشي إلى خزانة الرواق وأنتقي تشكيلة من الأغراض من الأدراج. أعطي القفّاز لكيت، ثم أُقحِمُ القبعة في رأسها وأُطوِّق أنفها وفمها بوشاح بحيث لا يبقى مرئيّاً منها غير العينين. أقول، بصوتٍ لا يترك مجالاً لأي شيء آخر غير القبول، «سوف يكون الجو بارداً في الملعب».

أكاد لا أتعرَّف على آنّا، وهي محشورة ومُحزّمة ومشدودة داخل تلك الأدوات التي توصّلنا، أخيراً، إلى استعارتها من نسيب المُدرِّب. لا يمكن القول، مثلاً، إنّها الفتاة الأولى التي تتزلج على الجليد. ولا يمكن القول إنها أصغر بسنتين من أي لاعب آخر هناك.

أتساءل إنْ كانت آنّا تسمع التهليل من خلال خوذتها، أو إنْ كانت شديدة التركيز عند مواجهة القادم نحوها وتمنعه من التسجيل، أو إنْ كانت تركِّز بدل ذلك على انزلاق القرص المطاطيّ أو على قعقعة العصيّ.

يجلس جِسّ وبراين على حافة مقعديهما؛ حتى كيت –التي رافقتهم على مضض– تتحمّس للعبة. أما حارس مرمى الخصم، بالمقارنة مع آنّا،

فيتحرّك ببطء. الحركة تتبدّل كالفيضان، واللعب ينتقل من المرمى البعيد إلى مرمى آنّا. ولاعب المركز ينتقل إلى الجناح الأيمن، الذي يتزحلق ويُصاب بكسر، وتنزلق شفرته من خلال هدير الجمهور المُهلِّل. تخطو آنّا واثقة من اتّجاه القرص المطاطيّ قبل وصوله بلحظة، وركبتاها محنيّتان نحو الداخل، ومِرفقاها بارزان.

يقول براين لي بعد الاستراحة الثانية، «شيء لا يُصدَّق. إنَّ موهبتها فِطريّة كحارسة مرمى».

كان بوسعي أنْ أقول له الشيء نفسه. وتنجو آنّا، في كل مرَّة.

في تلك الليلة تستيقظ كيت والدم يتدفَّق من أنفها، ومستقيمها، ومن مِحجريّ عينيها. لم أكن قد رأيتُ في حياتي كل ذلك المقدار من الدم، وحتى وأنا أحاول أنْ أوقِف التدفّق أتساءل كم من الدم تستطيع أنْ تتحمّل فقدانه. ومع وصولنا إلى المستشفى، كانت قد فقدت الإحساس بالزمان والمكان واهتاجتْ، وأخيراً أخذتْ تغيب في اللاوعي. ويقوم الطاقم الطبيّ بملئها بالبلازما، وبالدم، وبلويحات الدم تعويضاً عن الدم المفقود، الذي بدا كأنه يتسرَّب منها بالسرعة نفسها. أعطوها سوائل عن طريق الأوردة لمنع حدوث صدمة فرط فقدان الدم، وأدخلوا أنبوباً فيها. وأجروا مسحاً طبقيّاً لدماغها ولرئتيها ليتبيَّنوا إلى أي مدى انتشر النزيف.

على الرغم من المرات العديدة التي هرعنا فيها إلى قسم الطوارئ في قلب الليل، والمرات التي انهارت فيها كيت مع ظهور أعراض مُفاجئة، فإنَّ براين وأنا نعلم أنَّ الوضع لم يكن بهذا السوء من قبل. إنَّ نزيف الأنف هو أمر؛ أما الانهيار العام فأمرٌ آخر. حتى الآن أصيبتْ باضطراب نبض القلب مرّتين. والنزف يمنع دماغها، وقلبها، وكبدها، وكليتيها من استقبال دفق الدم الذي تحتاج إليه لتعمل.

يأخذنا الدكتور تشانس إلى استراحة صغيرة في نهاية طابق العناية الفائقة الخاص بالأطفال. على جدرانه رُسِمَتْ أزهار ربيع بوجوه مبتسمة. وعلى أحد الجدران ثمة جدول يبيِّن مقدار النموّ، ورسم لدودة ضخمة الحجم تقول: *إلى أي مدى يمكن أنْ أنمو؟*

نجلس أنا وبراين لا نأتي بحركة، وكأننا سوف نُكافأ لحُسن السلوك.

يُكرِّر براين القول: «زرنيخ؟ سُمّ؟».

يشرح الدكتور تشانس: «إنّه علاج جديد جداً. يؤخَذ عبر الوريد، على مدى خمسة وعشرين يوماً وحتى ستين يوماً. وحتى الآن، لم نُحقِّق أي حالة شفاء به. وهذا لا يعني أنَّ ذلك قد لا يتحقّق في المستقبل، ولكن حاليّاً، لم تمرّ علينا بعد مدة خمس سنوات لنشهد بعدها حالات شِفاء - إلى هذه الدرجة ما زال العقار جديداً. وواقع الحال هو أنَّ دم الحبل السرّي عند كيت ناضب، بالإضافة إلى عمليات نقل النقي غير المتناسقة، والمعالجة بالأشعة، وبالمواد الكيميائيّة. لقد عاشت عشر سنين أكثر مما توقّعنا».

أجد أنني أومئ برأسي تواً. أقول: «طبِّق العلاج»، وينظر براين إلى حذائه طويل الرقبة. أخبرنا الدكتور: «يمكنكم أنْ تُجرّبوا. والأرجح أنَّ النزف سوف يُساعد على التخلّص من الزرنيخ».

تفحّصت لائحة النمو المُعلّقة على الجدار. هل أخبرتُ كيت أنني أحبّها قبل أنْ أضعها في السرير في الليلة السابقة؟ لا أتذكّر. لا أتذكّر على الإطلاق.

بُعيد الساعة الثانية صباحاً، لا أجد براين. لقد تسلَّل من الغرفة وأنا غارقة في النوم بجوار سرير كيت ولم يعُد حتى بعد مرور أكثر من ساعة. فسألتُ عنه على منضدة الممرضة؛ وبحثتُ في الكافيتريا وفي مرحاض الرجال، كلها فارغة. وأخيراً لمحته في نهاية الرواق، في ردهة صغيرة المساحة سُميَتْ على شرف طفل واهب مسكين ميت، مكان يغمره الضوء والهواء وتنتشر فيه النباتات البلاستيكيّة التي يمكن للمريض بنقص كريات الدم البيضاء أنْ يستمتع بوجودها. يجلس على أريكة قبيحة بنيّة اللون من القطن، ويكتب بغضب بقلم رصاص أزرق على مُزقة من الورق.

أقول بهدوء «هيه»، متذكرة كيف يقوم الأطفال بالرسم معاً على أرضيّة المطبخ، وأقلام التلوين منتشرة حولهم كأزهار بريّة. «بادلني القلم الأصفر بالقلم الأزرق».

يرفع براين بصره، مُجفلاً. «أهي-».

«كيت بخير. أقصد أنها على حالها». كانت الممرضة ستيف قد أجرتْ لها أول عمليّة حثّ بالزرنيخ، وأيضاً عمليتيّ نقل دم، لكي تعوِّض عمّا فقدته.

يقول براين: «ربما يجب أنْ نعيد كيت إلى المنزل».

«نحن طبعاً-».

يُشكِّل يديه على هيئة برج. «أعني الآن. أعتقد أنها ترغب في أنْ تموت على سريرها الخاص».

انفجرت تلك الكلمة، بيننا، كقنبلة يدويّة، «لن-».

«نعم، ستموت». ينظر إليّ، والألم يحفر قَسَمات وجهه. «إنها تحتضر، يا سارة. سوف تموت، في هذه الليلة أو في الغد أو ربما بعد عام من الآن إذا واتانا الحظ. أنتِ سمعتِ ما قال الدكتور تشانس. الزرنيخ ليس علاجاً. إنّه إرجاءُ ما هو قادم».

تغرغرت عيناي بالدموع. أقول، لأنَّ هذا سببٌ كافٍ، «لكنني أحبّها».

«وأنا أيضاً. إنَّ مواصلة هذا الأمر يفوقُ طاقتنا على التحمُّل». تسقط مُزقة الورق التي كان يُدوِّن عليها شيئاً من بين يديه وتستقرّ على قدمي؛ وقبل أنْ يتمكَّن من التقاطها أرفعها. إنها مُشبّعة بلطخ من الدموع، ومن الكلمات المشطوبة. أقرأ، ***كانت تحبّ الرائحة المنبعثة في الربيع. كان باستطاعتها أنْ تتغلَّب على أي شخص في لعب الورق. وكانت تُحسن الرقص حتى من دون عزف موسيقى.*** وكانت هناك تعليقات على الحواف، أيضاً: ***اللون المُفضَّل: القرنفليّ. الوقت المُفضَّل من النهار: الغسق. كانت تقرأ «حيث تكمن الأشياء الجامحة»، وتعيد قراءته، وتحفظه غيباً.***

الشعر على خلفيّة عنقي منتصب كلّه. «أهذا... ***تأبين؟***».

هنا، يكون براين قد بدأ، أيضاً، يبكي. «إذا لم أضعه الآن، فلن أتمكّن من وضعه عندما يحين الوقت المناسِب».

أهزّ رأسي نفياً. «لم يحُن الوقت بعد».

أتصَّل هاتفيّاً بأختي عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً. أقول، مُدركةً حالما تصل زان إلى جهاز الهاتف أنَّ الوقت، بالنسبة إليها، كما بالنسبة إلى أي شخص طبيعيّ، هو منتصف الليل. «لقد أيقظتك».

«الأمر يتعلَّق بكيت؟».

أومئ إيجاباً، على الرغم من أنّها لا تستطيع أنْ تسمع الإيماء. «زان؟».

«نعم؟».

أُغمضُ عينيّ، شاعرةً بالدموع تنبع منهما.

«سارة، ما الأمر؟ أتريدين مني أنْ آتي إليك؟».

من الصعب الكلام مع وجود الضغط الهائل الجاثم على حنجرتي؛ يمكن للحقيقة أنْ تتمدَّد إلى أنْ تخنقك. ونحن طفلتان، كانت غرفة نوم زان وغرفتي تتقاسمان رواقاً واحداً، وكنا نتشاجر حول ترك المصباح مُضاءً طوال الليل. أنا أردتُ أنْ يبقى مُضاءً؛ وهي لم ترغب في ذلك. كنتُ أقول لها، *ضعي وسادة على رأسك*. ***يمكنكِ أنْ تجعلي الظلام يسود، أما أنا فلا أستطيع أنْ أختلق الضوء.***

أقول، وأنا أجهشُ بالبكاء بلا ضوابط الآن، «نعم، أرجوك».

على الرغم من كل الصعوبات، تبقى كيت على قيد الحياة عشرة أيام عبر عمليات نقل الدم المُكثّفة والعلاج بالزرنيخ. في اليوم الحادي عشر من وجودها في المستشفى، تغرقُ في غيبوبة. وأقرِّر أنْ أبقى ساهرة بجوار سريرها إلى أنْ تستيقظ. وأقوم بهذا على مدى بالضبط خمسٍ وأربعين دقيقة، إلى أنْ أتلقّى مُكالمة هاتفيّة من مدير مدرسة جِسّ.

يبدو أنَّ مادة الصوديوم تُحفَظ في مُختبر المدرسة الثانوية العِلميّ داخل أوعية صغيرة تحتوي زيتاً، بسبب تفاعله المتطاير مع الهواء. ويبدو، أيضاً، أنّه يتفاعل مع الماء، وينتج الهيدروجين والحرارة. ويبدو أنَ ابني تلميذ الصف التاسع كان تلميذاً لامعاً بحيث يعلم هذا، فقام بسرقة العيِّنة، وأفرغها في المرحاض، فنسَفَ ذلك الحوض القذر.

بعد أنْ طرده المدير مدة ثلاثة أسابيع، وكان من الكياسة بحيث يسأل عن حالة كيت بينما كان يُخبرني في الأساس أنَّ ابني الأكبر مؤهّل لأنْ يودَع إصلاحيّة الولاية، انطلقتُ مع جِسّ بالسيارة عائدَين إلى المستشفى. «لا داعي إلى القول إنكَ راسخ القدم».

«لا يهمّ».

«إلى أنْ تبلغ سن الأربعين».

يترهّل جِسّ، ويقطّبُ ما بين حاجبيه أكثر فأكثر، إنْ كان ذلك مُمكناً. وأتساءلُ متى، بالضبط، تخلّيتُ عنه. أتساءلُ عن السبب، بما أنَّ تاريخ حياة جِسّ ليس مُخيّباً للآمال البتّة كتاريخ حياة أخته.

«إنّ المدير أحمق».

«أتعلم، يا جِسّ؟ إنَّ العالم مملوءٌ بأمثاله. سوف تجد نفسك دائماً في مواجهة شخصٍ ما. أو شيء ما».

يُحدِّقُ بغضبٍ إليّ. «أنتِ قادرة على أنْ تُحوّلي حديثاً عن فريق ريد سوكس اللعين إلى الحديث عن كيت».

توقّفنا في موقف سيارات المستشفى لكنني لم آتِ بأيّة حركة لأخرج من السيارة. كان المطر يرشق حاجب الريح. «كلنا موهوبون في هذا المجال. أم إنكَ نسفتَ حوض المرحاض لسببٍ آخر؟».

«أنـتِ لا تعرفين الشعور الـذي ينتاب الولد الـذي تحتضر أخته بفعل السرطان».

«أنا أعرف ذلك جيداً. بما أنني أم تلك الطفلة التي تحتضر بفعل السرطان. أنتَ على صواب تامّ، الأمر كريه جداً. وأحياناً أنا نفسي أشعر برغبة في نسف شيءٍ ما، فقط لأتخلّص من ذلك الشعور بأنني ***أنا نفسي*** سوف أنفجر في أيّة لحظة». ألقي نظرة إلى أسفل وألاحظ وجود رضٍّ بحجم نصف دولار، عند منحنى ذراعه. وهناك رضٌّ آخر مُماثل على الجانب الآخر. أعتقد أنَّ ذلك يُبيِّن أنَّ عقلي يقفز في الحال إلى التفكير في الهيروين، وليس في سرطان الدم، كما في حالة أخته. «ما هذا؟».

يعقد ذراعيه. «لا شيء».

«ما هذا؟».

«هذا ليس من شأنك».

«بل من ***شأني***»، وأشدّ ساعده إلى الأسفل. «أهو من تأثير الحقنة؟».

يرفع رأسه، فأرى عينيه مترعتين بالغضب. «نعم، ماما. أنا أتلقّى حقنة كل ثلاثة أيام. لكنني لا أتعاطى الهيروين، إنني أتبرّع بدمي في الطابق الثالث هنا». ويُحدّق إليّ. «ألم تتساءلي مَنْ أيضاً يُزوّد كيت بصفائح الدم؟».

يخرج من السيارة قبل أنْ أتمكّن من منعه، ويتركني أُحدِّق مذهولة خارج حاجب الريح حيث لم يعد هناك أي شيء واضح.

***

بعد دخول كيت المستشفى بثلاثة أسابيع، أقنعني الممرّضون بوجوب أخذ يوم إجازة. فأتيتُ إلى المنزل وأخذتُ دشّاً في حمّامي الخاصّ، بدل الحمّام الذي يستخدمه أفراد هيئة التمريض. وأتناول جرعة مُضاعفة من الأقراص. وتصنع لي زان، التي كانت لا تزال تُقيم معنا كوباً من القهوة؛ وبعد خروجي من الحمّام بشعري المُبلَّل والمُسرَّح أشعر بالانتعاش وبالتأهّب. «هل اتّصلَ أحد؟».

«إنْ كنتِ تقصدين *أحداً* من المستشفى، فالجواب كلا»، وتتصفّح كتاب الطبخ الذي تقرؤه. تقول زان «هذا هراء. **لا شيء** ممتعٌ في الطبخ».

يُفتَح الباب الأمامي ثم يُغلَق بقوة. إنها آنّا تهرع إلى المطبخ وتتوقف بسرعة عندما تراني. «ماذا *تفعلين* هنا؟».

أقول: «أنا أُقيم هنا».

تتنحنح زان. «خِلافاً لِما يبدو ظاهريّاً».

لكنَّ آنّا لا تسمعها، أو لا ترغب في سماعها. وترسم ابتسامة عريضة على وجهها، ثم تلوِّح برسالة في وجهي. «إنها مُرسلة إلى المُدرِّب ألريشت. اقرئيها اقرئيها اقرئيها!».

عزيزتي آنّا فيتزجيرالد،

أهنّئك على قبولك للانضمام إلى فريق الفتيات في مخيَّم غول سمر هوكي. ومخيَّم هذا العام سوف يُقام في مينيابوليس، في الفترة بين 3–17 من شهر تموز. أرجو أنْ تملئي الاستمارة المُرفَقَة والتاريخ الطبيّ وتُعيديها قبل تاريخ 30/ 4/ 2001. أراك على الثلج!

المُدرِّبة سارة تيوتينغ

أنتهي من استعراض الرسالة. تقول آنّا: «لقد سمحتِ لكيت بالالتحاق بمخيم بعيداً عن المنزل عندما كانت في مثل سنّي، ذلك المُخيَّم المُخصَّص لمرضى سرطان الدم. أتعرفين مَنْ تكون ساره تيوتينغ؟ إنها حارسة مرمى فريق الولايات المتحدة الأميركيّة، وأنا ليس فقط سوف أقابلها شخصياً، بل سوف تُلفِتُ انتباهي إلى أخطائي. لقد دبَّرت المُدرّبة لي منحة دراسيّة كاملة، بحيث إنكِ لستِ مُضطرة إلى دفع قرش واحد. وسوف ينقلونني بالطائرة ويُخصصون لي غرفة نوم لأمكث فيها وما إلى ذلك ولا أحد تتوفّر له فرصة من هذا النوع، أبداً-».

أقول بحذر: «حبيبتي، لا يمكنكِ أنْ تفعلي هذا».

هزّتْ رأسها نفياً، كأنها تحاول أنْ تجعل كلامي مناسِباً. «لكنَّ هذا لن يحصل الآن، أو ما شابه. لن يحصل قبل الصيف التالي».

وقد تكون كيت قد ماتت بحلول ذلك الموعد.

كانت تلك المرّة الأولى التي أتذكّر فيها آنّا تشير إلى أنّها ترى نهاية لتلك المسيرة الزمنيّة، لتلك اللحظة التي يمكنها عندها أنْ تتحرَّر أخيراً من التزامها نحو أختها. وإلى أنْ تحلّ تلك النقطة، فإنَّ الذهاب إلى مانهاتن أمرٌ غير وارد. ليس لأنني أخاف مما قد يحدث لآنّا هناك، بل لأنني أخشى مما قد يحدث لكيت بعد رحيل أختها. وإذا نجت كيت من انهيارها الأخير، فمَّنْ يدري كم سيمرّ من الوقت قبل أنْ تحدث أزمة أخرى؟ وعندما تحدث، سوف نحتاج إلى آنّا -إلى دمها، إلى خلاياها الجذعيّة، ونسيجها- هنا، في هذا المكان.

تبقى الحقائق مُعلَّقة بيننا كستارة شفّافة. وتنهضُ زان وتُحيط آنّا بذراعها. «أتعلمين، أيتّها الصغيرة؟ ربما ينبغي أنْ نتحدث في هذا الموضوع مع أمّك في وقت لاحق-».

ترفض آنّا أنْ تتزحزح عن موقفها. «كلا. أريد أنْ أعرف لماذا لا أستطيع أنْ أذهب».

أُمرِّر يدي على وجهي. «آنّا، لا تدعيني أفعلَ هذا».

تقول بانفعال شديد: «تفعلين *ماذا*، يا أمي، *أنا* لم أُجبرك *أنتِ* على فعل أيّ شيء».

ثم تدعك الرسالة وتخرج مسرعة من المطبخ. وتبتسم زان لي بوهن. تقول: «أهلاً بعودتك».

في الخارج، تلتقط آنّا عصا رياضة الهوكي وتبدأ بتوجيه ضربات إلى جدار المرأب. وتبقى على ذلك طوال ما يُقارب الساعة من الزمن، بضربات إيقاعيّة، إلى أنْ أنسى أنّها موجودة في الخارج وأبدأ أعتقد أنَّه ربما للمنزل إيقاعه الخاصّ.

بعد إحضار كيت إلى المستشفى بسبعة عشر يوماً، ظهرتْ عليها إصابة بالمرض. أصبح جسمها ينفثُ حُمّى. أُجريَت لها عمليات استنبات –للدم، والبول، والبراز والبصاق من أجل عزل الكائن العضوي– لكنهم أعطوها في الحال مُضاداً حيويّاً واسع الطيف على أمل أنْ يستجيب كائن ما كان ذلك الشيء الذي يُمرِضها.

في بعض الليالي كانت ستيف، ممرضتنا المُفضّلة، تمكث حتى وقت متأخّر لكي لا أُضطر إلى مواجهة هذا وحدي. كانت تُحضِرُ لي أعداداً من مجلة «***People***» سُرِقَتْ من غرف انتظار عمليات الجراحة النهاريّة، وتدير مع ابنتي الغائبة عن الوعي أحاديث مُشرقة أحاديّة الجانب. ظاهرياً، هي مثلٌ أعلى للعزيمة والتفاؤل، لكنني رأيتُ الدموع تغشى عينيها وهي تُحمِّم كيت بالإسفنجة، في لحظاتٍ لا تعتقد أنني أراها خلالها.

وفي صباح ذات يوم، يأتي الدكتور تشانس لكي يتفحَّص كيت، وسمّاعته حول عنقه، ويجلس على أحد الكراسي قبالتي. «وددتُ لو أتلقّى دعوة إلى حفل زفافها».

أصرّ: «سوف تُدعى»، لكنّه يهزّ رأسه سلباً.

يتسارع نبض قلبي قليلاً. «يمكنكَ أنْ تُحضِر وعاءً لمشروب البنش. أو إطار صورة. ويمكنك أنْ تشرب نخباً».

يقول الدكتور تشانس: «سارة، يجب أنْ تودّعيها».

***

يُمضي جِسّ خمس عشرة دقيقة في غرفة كيت المُغلقَة، ثم يخرج يبحث عن العالم بأسره كأنّه قنبلة على وشك أنْ تنفجر. يركض خلال أروقة جناح العناية المُركَّزة الخاص بالأطفال. يقول براين «سوف أذهب». يندفع على طول الرواق في الاتّجاه الذي ذهب إليه جِسّ.

تجلسُ آنّا وظهرها إلى الجدار. هي، أيضاً، غاضبة. «لن أفعل هذا».

أجلس القرفصاء إلى جوارها. «لا شيء يُخيف، صدّقيني. أودّ لو أنني لا أدفعك إلى فعل ذلك. ولكن إذا لم تفعلي، يا آنّا، فسوف يأتي يوم تتمنّين فيه لو أنكِ فعلتِ».

تسير آنّا كالمُحارب نحو غرفة كيت، وترتقي أحد الكراسي. إنَّ صدر كيت يجيش، بفعل الكِمامة. وتتسرَّب كل رغبة في القِتال من آنّا حالما تمدّ يدها لتلمس وَجْنة كيت. «أتستطيع أنْ تسمعني؟».

أجيب: «حتماً»، موجّهة الكلام لنفسي أكثر من توجيهه إليها.

تهمس آنّا: «لن أذهب إلى مينيابوليس. لن أذهب إلى أي مكان»، وتميل مُقتربة أكثر. «استيقظي، كيت».

نحبس نحن الاثنتين أنفاسنا، ولكن لا شيء يحدث.

لم أفهم أبداً لِماذا يُسمّى هذا فقدان طفل. ليس هناك أبوان يتّصفان بكل ذلك القدر من الإهمال. كلّنا نعلم بالضبط أين هم أبناؤنا وبناتنا؛ نحن فقط لا نريد لهم بالضرورة أنْ يكونوا موجودين.

براين وكيت وأنا نشكّل دائرة. نجلس على كلا جانبيّ السرير ويُمسك كلٌّ منا بيديّ الآخر، وبإحدى يديها. أقول له: «كنتَ على صواب. كان ينبغي أنْ نعيدها إلى المنزل».

يهزّ براين رأسه نفياً. «لو لم نجرِّب الزرنيخ، لأمضينا ما تبقّى من حياتنا نتساءل لِمَ لمْ نفعل». ويُعيد إلى الخلف الشَّعر الشاحب الذي يُحيط بوجه كيت. «كم كانت فتاة مُطيعة. لطالما نفَّذَتْ ما يُطلَب منها». أومئ برأسي إيجاباً، عاجزة عن الكلام. «لهذا السبب تصمد، في الواقع. إنها تريد منكِ أنْ تعطيها الإذن بالرحيل».

ينحني نحو كيت، وهو يبكي بحُرقة حتى يعجز عن التنفّس. وأضعُ يدي

على رأسه. لسنا أول أبوين يفقدان طفلاً. لكننا أول أبوين يفقدان طفلتنا **نحن**. هنا يكمن الفرق.

عندما يستغرق براين في النوم، منحنياً فوق أسفل السرير، أحملُ يد كيت بما عليها من ندوب بين يديّ. أتحسّسُ شكل أظافرها البيضاويّ وأتذكّر المرة الأولى التي طليتها، عندما لم يُصدِّق براين أنني أفعل ذلك لطفلة في عامها الأول. والآن، بعد مرور اثني عشر عاماً، أقلبُ راحة يدها وأتمنّى لو أعرف كيف أقرؤه، أو ما هو أفضل من ذلك، كيف أُعدِّل خط الحياة ذاك.

أُقرِّبُ كرسيّ أكثر من سرير المستشفى. «أتتذكرين الصيف الذي وقّعنا فيه على طلب انضمامك إلى المخيَّم؟ وفي الليلة التي سبقتْ مغادرتك، قِلتِ إنكِ غيَّرتِ رأيك ورغبتِ في البقاء في المنزل؟ أخبرتكِ بأنْ تجلسي على مقعد على الجانب الأيسر من الحافلة، بحيث عندما تتحرَّك مبتعدة، تستطيعين أنْ تستديري وتريني واقفة هناك، أنتظرك»، وأضغط يدها على وجنتي، بقوة كافية لترك علامة. «سوف تحصلين على المقعد نفسه في الجنّة. مقعد تستطيعين منه أنْ تراقبيني، وأراقبك».

أدفنُ وجهي في الأغطية وأُخبر ابنتي هذه كم أحبّها. وأعصر يدها للمرة الأخيرة.

أفعلُ ذلك لكي أشعر بأوهى نبض، بأقلّ إمساك من اليد، بأدنى شدّ من أصابع كيت، وهي تشقّ طريق عودتها إلى هذا العالم بمخالبها.

آنّا

ها هو سؤالي: كم يكون عمرك عندما تصعدين إلى الجنّة. أعني، إنْ كانت جنّةً فيجب أنْ تكوني ملكة جمال في أبهى حللها، وأشكّ في أنَّ كل الذين يموتون في سن الشيخوخة هم دُرد[1] وصُلعٌ. وهذا يفتح عالماً كاملاً إضافيّاً من الأسئلة، أيضاً. إذا شنقَ المرءُ نفسه، فهل ينتقّل وهو شنيع الشكل وأزرق اللون، ولسانه يبرز من فمه؟ وإذا قُتِلَ في الحرب، فهل يبقى إلى الأبد بلا الساق التي نُسِفَتْ من انفجار لغم؟

أعتقد أنّه ربما لديه الخيار. أنّ يملأ الاستمارة التي تسأله إنْ كانَ يختار مشهد النجوم أم مشهد الغيوم، إنْ كانَ يُحب أنْ يتناول لحم الدجاج أم السمك أم المَن على العشاء، وفي أي عمر يرغب في أنْ يراه أي شخص آخر. إذا سألتني أنا، مثلاً، قد أختار عمر السابعة عشرة، على أمل أنْ يكون قد أصبحَ لديّ حينئذٍ ثديان بارزان، وحتى إذا كنتُ مئويّة قبيحة عندما أموت، فسوف أصبحُ في الجنّة شابة وجميلة.

ذات مرة في حفل عشاء سمعتُ والدي يقول إنه على الرغم من أنّه طاعنٌ في السن، إلّا أنَّ قلبه لا يزال في الحادية والعشرين. إذن ربما هناك مكانٌ في حياتك محفور كالأخدود، أو بالأحرى، أشبه ببقعة رخوة على أريكة. ومهما نصحك الآخرون، تعود لتجلس عليها.

أعتقد أنَّ المشكلة تكمن في أنَّ كل شخص مختلف عن غيره. ماذا يحدث في السماء عندما يُحاول كل أولئك الناس أنْ يفتش كل منهم عن الآخر بعد أنْ أمضوا سنوات عديدة متباعدين؟ فلنقُل إنكِ مُتِّ وبدأتِ تفتشين عن

1- أدرد: أي لم تعد لديه أسنان. المترجم.

زوجك الذي مات قبل خمسة أعوام. ماذا لو أنكِ تتخيلينه في السبعين من العمر، لكنّه ظهر في سن السابعة عشرة يتجوّل غضّاً كأفضل ما يكون؟

أو ماذا لو كنتِ في مكان كيت، ومُتِّ في السادسة عشرة، ولكن في السماء اخترتِ أنْ تبدي كأنكِ في الخامسة والثلاثين، السن الذي لم تصلي إليه وأنتِ هنا على الأرض. فكيف يمكن **لأي شخص** أنْ يعثر عليك؟

يتصل كامبل بوالدي في مركز الإطفاء عندما كنا نتناول وجبة الغداء ليقول إنَّ المُستشارة المُعارِضة تريد أنْ تتحدث عن القضية. وهذه طريقة حمقاء للتعبير عن الأمر، بما أننا جميعاً نعلم أنّه يتحدث عن أمي. يقول إننا يجب أنْ نجتمع عند الساعة الثالثة في مكتبه، حتى وإنْ كنا في يوم الأحد.

أجلسُ على الأرض ورأس جدج على حِجري. وكامبل من شدّة الانهماك في العمل بحيث لا يأمرني بألّا أفعل ذلك. وتصل أمي في الموعد المُحدَّد بدقّة وتدخل وحدها (بما أنَّ السكرتيرة كيري في عطلة اليوم). لقد بذلتْ جهداً خاصاً لشدّ شَعرها إلى الخلف على شكل كعكة أنيقة. وقد وضعت بعض مساحيق التجميل. ولكن خِلاف كامبل، الذي يرتدي هذه الغرفة كأنها مِعطف يستطيع أنْ يرتدي ويخلع، تبدو أمي دخيلة تماماً على المكان من المؤسسة القانونيّة. من الصعب تصديق أنَّ أمي كانت تفعل هذا لتكسب لقمة عيشها. أعتقد أنها ذات يوم كانت شخصاً آخر تماماً. أعتقد أننا جميعاً كنا مختلفين.

تقول بهدوء: «مرحباً».

يُجيب. ببرودة. «مرحباً سيدة فيتزجيرالد».

تنتقل عينا أمي من أبي، الجالس عند طاولة الاجتماع، إليّ، ثم إلى الأرض. تقول من جديد «مرحباً». تتقدَّم، كأنها تنوي أنْ تعانقني، لكنّها تتوقف.

يحثّها كامبل: «لقد دَعوتِ إلى عقد هذا الاجتماع هذا الصباح، أيتها المُستشارة».

تجلس أمي. «أعلم هذا. كنتُ... حسن، إنني آمل أنْ نتمكَّن من توضيح هذا الأمر. أريد أنْ نتّخذ قراراً، معاً».

ينقر كامبل بأطراف أصابعه على الطاولة. «هل تعرضين علينا صفقة؟».

جعل الأمر يبدو كأنّه كلام في العمل. تطرفُ أمي بعينيها وهي تنظر إليه. وتُدير كرسيها نحوي، كما لو أنَّ لا أحد في الغرفة غيرنا. «نعم، أعتقد أنني أفعل. آنّا، أعلمُ كم ضحّيتِ من أجل كيت. وأعلم أيضاً أنّه لم تتبقَّ أمامها الكثير من الفرص للنجاة... لكنّها قد تنجو هذه المرَّة».

«إنَّ موكّلتي لا تحتاج إلى الإكراه–».

أقول: «لا بأس، كامبل. دعها تتكلَّم».

«إذا عاودها السرطان من جديد، إذا لم تنجح عملية نقل الكلية، إذا لم تنته الأمور كما نتمنّى لكيت – حسن، فلن أطلب منك أنْ تساعدي أختك مرة أخرى... ولكن آنّا، هلّا فعلتِ هذا للمرّة الأخيرة؟».

هنا، بدتْ شديدة الضآلة، بل أضأل حتى مني، وكأنني أنا الأم وهي الطفلة. أتساءل كيف حصل ذلك الوهم البصريّ، مع أنَّ لا أحد منا تحرّك من مكانه.

ألقي نظرة إلى أبي، لكنّه جامد كجلمودٍ، ويبدو كأنّه يبذل أقصى ما في جهده لكي يُتابع تلافيف نسيج خشب طاولة الاجتماعات بدل أنْ يشترك في الحديث.

يوضِّحُ كامبل: «هل تقصدين بذلك أنَّه إذا وهبتْ موكلتي كِليتها طوعاً، فسوف تُحلّ من واجب الخضوع لكل الإجراءات الطبيّة الأخرى التي يمكن أنْ تلزم في المستقبل من أجل إطالة حياة كيت؟».

تأخذ أمي نَفَساً عميقاً. «نعم».

«طبعاً، نحن بحاجة إلى مناقشة الأمر».

عندما كنتُ في السابعة، تخلّى جِسّ عن عادته في التيقّن من أنني لستُ شديدة الحمق بحيث أؤمن ببابا نويل، وشرح قائلاً، *إنّه الماما والبابا*، وحاربته في كل خطوة من انحرافه. وقرّرتُ أنْ أُخضِع النظريّة للاختبار. وهكذا قمتُ في عيد الميلاد في ذلك العام بكتابة رسالة إلى بابا نويل، وطلبتُ منه أنْ يُحضِر لي حيوان هامستر، وهو أشدّ ما رغبتُ الحصول عليه في العالم. ووضعتُ الرسالة بنفسي في صندوق بريد سكرتاريّة المدرسة. وكتمتُ الأمر بثبات عن أبويّ، على الرغم من أنني بعثتُ رسائل أخرى في ذلك العام أطلبُ فيها دُمى.

في صباح يوم الميلاد، حصلتُ على المزلجة ولعبة الكومبيوتر واللفاح المُلوّن التي كنت قد أتيتُ على ذكرها أمام أمي، لكنّني لم أحصل على حيوان الهامستر لأنها لم تكن تعرفه. وفي ذلك العام تعلّمتُ شيئين: أنَّ لا بابا نويل، ولا والديّ، كانوا كما أردتُ لهم.

ربما يعتقد كامبل أنَّ هذا يتعلَّق بالقانون، ولكن في الحقيقة، هو يتعلَّق بأمي. أنهضُ عن الأرض وأهرعُ لأرتمي بين ذراعيها، الشبيهتين بتلك البقعة في الحياة التي تحدثتُ عنها من قبل، الأليفتين إلى درجة أنكَ تعود إلى المكان الذي يتطابق معك تماماً. وأشعرُ بغصّة تؤلمُ حنجرتي، وتتدفقُ كل تلك الدموع التي كنتُ أحبسها خارجة من مكمنها. وتصرخُ داخل شَعري: «أوه، آنّا، شكراً لله. شكراً لله».

أضمُّها إليّ مرّتين بقوة كما أرغب في المعتاد، مُحاولة أنْ أتمسّك بتلك اللحظة كما أحبّ أنْ أرسم الضوء المائل للصيف على الجدار الخلفي لدماغي، ليُصبحَ لوحة جداريّة أتأمّلها في فصل الشتاء. أُلصِقُ شفتيّ بإحكام على أُذنها، وحتى وأنا أتكلَّم أتمنّى لو أنني لم أتكلَّم. «لا أستطيع».

يتيبَّسُ جسم أمي. وتبتعدْ عني، وتُحدِّقُ إلى وجهي. ثم تُقحمُ ابتسامةً متكسّرة في مواقع عِدّة من شفتيها. وتلمس قمّة رأسي. لا أكثر. تنهض واقفة، وتُعدِّل من وضع سترتها، ثم تخرج من غرفة المكتب.

يغادر كامبل أيضاً مقعده. ويجلس القرفصاء أمامي، حيثُ كانت أمي. وتتقابل عيوننا، يبدو أكثر جدّيّة مما رأيته في أي وقت. يقول: «آنّا، أهذا حقّاً ما تريدين؟».

أفتحُ فمي. وأعثر على جواب.

جوليا

أسألُ أختي: «أتعتقدين أنني مُعجبة بكامبل **لأنه** أحمق، أم ***على الرغم*** من كونه كذلك؟».

تُسكتني إيزي من مكانها على الأريكة. إنها تشاهد «*كما كنا*»، الفيلم الذي كانت قد شاهدته ألف مرة. وهو على لائحتها من الأفلام التي لا يمكن أنْ تفوّتها، وتتضمَّن أيضاً «*امرأة جميلة*» و«**شبح**»، و«**رقص قذر**». «إذا جعلتني أُفوِّت النهاية، يا جوليا، سوف أقتلك».

أقتطف لها «إلى اللقاء، كاتي. إلى اللقاء، هبل[1]».

ترميني بوسادة الأريكة وتمسح عينيها مع وصول الموسيقى التصويريّة إلى ذروتها. تقول إيزي: «بربارة سترايسند هي القنبلة».

«حسبتُ أنَّه فيلم تقليدي عن *الرجال* المثليين». أراجع الأوراق التي كنتُ أدرسها استعداداً لجلسة استماع اليوم التالي. هذا هو القرار الذي سأقدِّمه إلى القاضي، القائم على أساس أفضل مصالح آنّا فيتزجيرالد. والمشكلة هي أنّه لا يهمّ إنْ وقفتُ إلى جانبها أو إلى الجانب الآخر. ففي كلتا الحالتين سوف أدمّر حياتها.

تقول إيزي: «حسبتُ أننا نتحدث عن كامبل».

«كلا، *أنا* التي كنتُ أتحدّث عن كامبل. أما *أنتِ* فكنتِ تنتشين مع أحداث الفيلم». أدْعَكُ صدغيّ. «حسبتُ أنكِ ربما تُبدين بعض التعاطُف».

«أتعاطف مع كامبل ألكسندر؟ أنا لستُ متعاطفة. أنا باردة الشعور».

1- العبارة التي ينتهي بها الفيلم المذكور، «كما كنّا». المترجم.

«معك حق. هذا **فعلاً** هو نوع بلادة الشعور الذي تتصفين به».

تقول إيزي: «اسمعي، يا جوليا. ربما الأمر وراثيّ». وتنهض وتبدأ بتدليك عضلات رقبتي. «لعلَّ لديك جينات تجعلك تنجذبين إلى الحمقى الصِّرف».

«إذن لديك منها أنتِ، أيضاً».

تضحك. «حسن، كلام معقول».

«أنا *أريد* أنْ أكرهه، في الحقيقة. فقط من باب العِلم بالشيء».

مدَّت إيزي نفسها من خلف ظهري لكي تأخذ من يدي عبوة الكوكاكولا التي كنتُ أشربها وشربتْ ما تبقّى منها. «إنَّ ما حدث لهذا المخلوق مهنيٌّ محض».

«هو كذلك. في اعتقادي ليست هناك إلّا مجموعة ضئيلة من المُعارضة اللفظيّة تتمنّى العكس».

تعود إيزي إلى الجلوس على الأريكة. «في الواقع إنَّ المشكلة هي أنكِ لم تنسي حبيبك الأول. وحتى إنْ كان عقلك ذكيّاً في هذا الشأن، فإنَّ درجة ذكاء جسمك لا تتجاوز درجة ذكاء ذبابة الثمار».

«كل ما في الأمر أنَّ الحياة معه سهلة، يا إز. وكأننا نواصل ما كنا قد قطعناه. إنني أعرف مُسبقاً كل ما أحتاج إلى معرفته عنه». أنظر إليها. «هل يمكن أنْ تعْشقي شخصاً لأنكِ كسولة؟».

«لِمَ لا تتركينه وتتخلّصين منه؟».

أقول: «لأنه حالما ينتهي الأمر، فسوف يُصبح ذلك قطعة أخرى من الماضي الذي لا أستطيع أنْ أتخلّصَ منه».

تقترح إيزي عليها: «أستطيع أنْ أعرِّفكِ على أحد أصدقائي».

«إنهم جميعاً نساء».

«فهمتُ، أنت تبحثين عن الشيء الخطأ، يا جوليا. يجب أنْ تنجذبي إلى ما في داخل الشخص، وليس إلى الغلاف الذي يشمله. قد يكون كامبل ألكسندر رائعاً، لكنّه كقطعة حلوى متجمّدة على سمكة سردين».

«أتظنين أنّه رائع؟».

تُدير إيزي عينيها داخل مِحجريهما. تقول: «سوف تهلكين».

عندما يرن جرس الباب، تذهب إيزي لتنظر من خلال عدسة الباب. «اذكر الديب».

أهمسُ: «أهو كامبل. أخبريه أنني لست هنا».

تفتح إيزي الباب بمقدار فُرجة. «تقول جوليا إنها ليست هنا».

أُتمتم «سوف أقتلكِ»، وألحق بها وأدفعها جانباً، وأحلّ السلسلة وأفسح الطريق لكامبل وكلبه للدخول.

يقول: «الاستقبال هنا يزداد ودّاً وغموضاً».

أعقد ذراعيَّ على صدري. «ماذا تريد؟ أنا أعمل».

«عظيم. لقد قدَّمَتْ سارة فيتزجيرالد تواً صفقة للاعتراف بالذنب. تعالي وتناولي العشاء معي وسوف أخبرك بكل شيء».

أقول له: «*لن* أخرج لأتناول العشاء معك».

يهزّ كتفيه لامبالياً «في الواقع، سوف تخرجين. أنا أعرفكِ، وفي نهاية المطاف سوف تستسلمين لأنه بغضّ النظر عن عدم رغبتكِ في الخروج معي، أنتِ ترغبين في معرفة ما قالته والدة آنّا. ألا نستطيع أنْ نتكلّم في المفيد؟».

تبدأ إيزي بالضحك. «إنّه يعرفك **حقاً**، يا جوليا».

يُضيف كامبل: «إذا لم تذهبي طوعاً، فليست لديّ أيّة مشكلة في استخدام القوّة الهمجيّة. على الرغم من أنه سوف يكون أصعب عليكِ أنْ تقطّعي شريحة اللحم إذا كانت يداكِ موثقتين معاً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألتفتُ إلى أختي: «افعلي شيئاً. أرجوك».

تلوِّح بيدها لي. «إلى اللقاء، كاتي».

يُجيب كامبل: «إلى اللقاء، هبل. فيلم **عظيم**».

تنظر إيزي إليه، متأمّلة. تقول: «ربما هناك أمل».

أُخبِره: «القاعدة رقم واحد، سوف نتحدث حول المُحاكمة، وليس حول أيّ شيءٍ غيرها».

يُضيف كامبل: «واللهُ على ما أقولُ شهيد. وهل لي أنْ أقول فقط إنك تبدين جميلة؟».

«أترى، ها قد خرقتَ القاعدة».

يتوقف في موقف للسيارات قريب من حافة المياه ويُسكت المُحرِّك. ثم يخرج من السيارة وينتقل إلى جانبي لكي يُساعدني في الترجّل. أتلفّتُ حولي، ولكن لا أرى أيّ شيء يُشبه المطعم. نحن في حوض لرسو السفن ممتلئ بقوارب شراعيّة وبيخوت، متونها التي بلون العسل تتشمّس تحت أشعة شمس الغروب. يقول كامبل «اخلعي حذاءك الخفيف».

«كلا».

«إكراماً لله، جوليا. هذا ليس العصر الفيكتوري المتزمّت؛ لن أعتدي عليك لمجرد أنْ أرى كاحلك. هلّا نفّذتِ ما أقول؟».

«لِمَ؟».

«لأنَّ في هذه اللحظة هناك قضيباً ضخماً مُقحَماً في مؤخرتك وهذه هي الطريق العامة الوحيدة الخالية من العنف التي أعرفها لكي أجعلك تسترخين»، ويخلع حذاءه الخفيف ويغوص بقدمه في العشب النامي على طول حافة موقف السيارات. يقول «آآآآه»، وينشر ذراعيه واسعاً. «هيا، يا جوهرتي. Carpe diem (انتهزي الفرصة). يكاد الصيف ينصرم؛ يُستحسَن أنْ تنالي نصيبك من المتعة ما دام ذلك في وسعك».

«وماذا عن صفقة الاعتراف بالذنب-».

«إنَّ ما قالته سارة سوف يبقى على حاله سواء أخرجتِ حافية أم لا».

ما زلت لا أفهم إنْ كان قُبِلَ في هذه القضيّة لأنَّ لديه كلباً فخماً، أم لأنه يريد السلطة، أم إنّه أراد ببساطة أنْ يُساعد آنّا. أريد أنْ أُصدِّق الاحتمال الأخير، أنا الحمقاء. ينتظر كامبل بصبر، والكلب إلى جواره. أخيراً أحلّ رباط حذائي وأنزع جوربي. وأخوض في بقعة المرج.

أعتقد أنَّ فصل الصيف هو أحياناً فترة من انعدام الوعيّ الجماعيّ. كلنا نتذكَّر نغمات أغنية بائع المُثلّجات؛ كلنا نعرف شعورنا عندما نتسبَّب بترك علامة على أفخاذنا على منزلق أرض الملعب التي سخنتْ حتى أضحتْ كسكّين تُحمّى على النار؛ كلنا تمدَّدنا على ظهورنا وعيوننا مُغمضة وقلوبنا تخفق عبر سطح جفوننا، آملين أنْ يمتد ذلك النهار أكثر قليلاً من الذي سبقه،

في حين أنَّ كل شيء في الحقيقة سيذهب في الاتّجاه المُعاكس. يجلس كامبل على العشب. «وما هي القاعدة الثانية؟».

أقول: «هي أنْ أضع كل القواعد».

عندما يبتسم لي، أتوه.

ليلة أمس، يضع سيفن عامل البار كأس مارتيني في يدي المُنتظِرة ويسألني ما الذي أختبئ منه.

أتناول رشفة قبل أنْ أُجيب، وأتذكَّر سبب كرهي للمارتيني – إنه كحول صِرف مُرّ، وطبعاً هذا هو السبب، ولكن هذا أيضاً هو مذاقه، وهذا دائماً شيء مُخيِّب للآمال. أخبرته «أنا لا أختبئ. أنا هنا، ألستُ كذلك؟».

كان الوقتُ مُبكِّراً لارتياد البار، لم يتعدَّ وقت العشاء. توقفتُ فيه في طريق عودتي من مركز الإطفاء، حيث اجتمعتُ بآنّا. كان هناك رجلان يتغازلان في مقصورة في الركن؛ ورجل يجلس وحيداً في الطرف المقابل من البار. أشار إلى جهاز التلفزيون، الذي كان يبثّ أخبار المساء، «ألا نستطيع أنْ نغيِّر القناة؟ إنّ جيننغز[1] جذّاب أكثر بكثير من بروكاو[2]».

يضغط سيفن على جهاز التحكُّم عن بُعد، ثم يستدير نحوي؟ «أنت لا تختبئين، لكنكِ تجلسين في بارٍ للمثليين في ساعة العشاء. أنتِ لا تختبئين، لكنكِ ترتدين هذا الزيّ كأنّه درع».

«حسن، سوف أقبل حتماً نصيحة بشأنِ الأزياء الرائجة من رجلٍ يثقب لسانه».

رفعَ سيفن أحد حاجبيه. «بعد أنْ تشربي كأساً أخرى من المارتيني سوف أُقنِعكِ بالذهاب لمقابلة الرجل المدعو جونسون الذي أتعامل معه ليثقب لكِ لسانك. ويمكن للفتاة أنْ تصبغ لكِ شَعرك باللون القرنفليّ، لكنكِ سوف تحافظين على تلك الجذور».

رشفتُ رشفة أخرى من المارتيني. «أنتَ لا تعرفني».

في نهاية البار، رفعَ الزبون الآخر وجهه نحو بيتر جيننغز وابتسم.

1- بيتر جيننغز (1938–2005): صحافي أميركيّ – كنديّ. المترجم.

2- توم بروكاو (ولد عام 1940): صحافي ومقدم برامج في التلفزيون. المترجم.

قال سيفن: «ربما لا أعرفكِ، ولكن حتى أنتِ لا تعرفين نفسك».

تبيَّنَ أنْ وجبة العشاء تتألَّف من الخبز والجبن –أو، الخبز الفرنسي وجبن الغروييرِ– على متن قارب شراعي طوله ثلاثين قَدَماً. كان كامبل يرفع طرفيّ بنطلونه عالياً كمنبوذ على الشاطئ ويُعدّ حبال الأشرعة ويوجّه السفينة ويستقبل الرياح إلى أنْ أصبحنا بعيداً جداً عن شاطئ بروفيدنس بحيث لم تعد تظهر إلّا كخطٍ من اللون، كقلادة مُرصّعة بالجواهر، بعيدة.

بعد قليل، عندما أصبحَ جليّاً لي أنَّ أيّة معلومات يرغب كامبل بالإدلاء بها لن يمنحها لي بتقتير إلّا بعد تناول الحلوى، استسلمتُ. استلقيتُ على ظهري واضعة ذراعي على الكلب النائم. راقبتُ الشراع، الذي تراخى الآن، يُرفرفُ كالجناح الأبيض الكبير لطائر البجع. يصعد كامبل من أسفل متن القارب، حيث كان يبحث عن فتّاحة الفلّين، ويحمل كأسين من النبيذ الأحمر. يجلس على الجانب الآخر من جدج ويحكّ خلف أُذُن كلب الرعي الألماني. «هل حدث يوماً أنْ تخيّلت أنك حيوان؟».

«مجازيّاً؟ أم حرفيّاً؟».

يقول: «بل بلاغيّاً، إذا لم تكوني قد انتقيتِ تلك البطاقة الإنسانيّة».

أفكِّر في هذا الكلام قليلاً. «أهذا سؤال مُخادِع؟ على غرار، إذا قلتُ إنني تخيّلتُ أنني حوتٌ مفترس فهل ستقول لي إنَّ ذلك يعني أنني سمكة بلا رحمة، ذات دمٍ بارد تقتات من الأعماق؟».

يقول كامبل: «إنَّ الحيتان هي من الثدييات. الجواب كلّا. إنّه مجرد سؤال بسيط لإجراء حوار مُهذَّب».

أدير رأسي. «وماذا تودّ أنْ تكون؟».

«أنا سألتكِ أولاً».

حسنٌ، لا يمكن أنْ أكون طائراً، أنا شديدة الخوف منَ المرتفعات. ولا أعتقد أنّني أتمتَّع بالصِّفات المناسِبة لأكون قطّة. وأنا شديدة الانعزال بحيث أنضم إلى جماعة، كالذئب أو الكلب. إنني أفكر في قول إنني أتخيّل أنني شيء

مثل الترسيير[1] من باب التباهي، ولكن سوف يسأل بعد ذلك ما هذا الحيوان وأنا لا أتذكَّر إنْ كان من القوارض أو سحليّة. وأقرِّر أنْ أقول إنّها «إوزّة».

ينفجر كامبل ضاحكاً. «كما في صِفة الأم؟ أو صِفة الأحمق؟».

بل لأنها تتزاوج من أجل استمرار الحياة، لكنَّني أفضِّل أنْ أرمي نفسي من القارب على أنْ أخبره بهذا. «وأنتَ؟».

لكّنه لا يُجيبني على الفور. «عندما طرحتُ السؤال نفسه على آنّا، قالت لي إنها تودّ أنْ تكون طائر العنقاء».

تلألأتْ في ذهني صورة المخلوق الأسطوري الذي ينهض من بين الرماد. «إنّه غير موجود».

يُداعب كامبل رأس الكلب. «لقد قالت ذلك اعتماداً على ما إذا كان هناك شخص يستطيع أنْ يرى ذلك المخلوق». ثم يرفع بصره إليّ. «كيف ترينها، يا جوليا؟».

النبيذ الذي كنتُ أشربه أصبحَ مذاقه مُرّاً. هل هذا كلّه –السِّحر، النزهة، الإبحار في الغروب– أُعِدَّ لرشوتي لصالحه في محاكمة الغدّ؟ مهما كان ما أوصي به بوصفي وصيّة قانونيّة سوف يصبّ بقوة في كفّة قرار القاضي ديسالفو، وكامبل يعلم ذلك.

حتى تلك اللحظة، لم أكنْ قد أدركتُ أنَّ باستطاعة أحد أنْ يُحطِّم قلبك مرّتين، بارتكاب الأخطاء نفسها.

أقول بجفاف: «لن أخبرك بقراري. تستطيع أنْ تنتظر لتسمعه عندما تستدعيني كشاهدة». أقبضُ على المرساة وأحاول أنْ أسحبها. «أريد أنْ أعود الآن، من فضلك».

ينتزِع كامبل الحبل من يدي. «لقد أخبرتني توّاً أنكِ لا تعتقدين أنَّ من مصلحة آنّا القُصوى أنْ تهب كليتها لأختها».

«وقلتُ لكَ أيضاً إنها غير قادرة على اتّخاذ ذلك القرار وحدها».

«لقد أبعدها والدها عن المنزل. وباستطاعته هو أنْ يكون مُرشدها الأخلاقيّ».

1- الترسيير: نوع من القرود الصغيرة التي تسكن أعالي الأشجار. المترجم.

«وإلى متى سيدوم هذا الوضع؟ ماذا عن المرّة التالية؟».إنني حانقة من نفسي لانخداعي بهذا. لموافقتي على الخروج لتناول طعام العشاء، وللسماح لنفسي بتصديق أنَّ كامبل يمكن أنْ يرغب في أنْ **ينفرد** بي، أو بالأحرى أنْ **يستغلّني**. إنَّ كل شيء -بدءاً بمديحه لمظهري وانتهاءً بالنبيذ الموضوع بيننا على ظهر القارب- قد تمَّ الإعداد له ببرودة لمساعدته على كسب قضيته.

يقول كامبل: «لقد عرَضَتْ سارة فيتزجيرالد علينا صفقة. قالتْ إذا وَهَبَتْ آنّا الكلية، فلن تطلب منها بعد ذلك أيّة خدمة من أجل أختها. فرفضَتْ آنّا العرض».

«أتعلم، كان يمكن أنْ أجعل القاضي يحكم عليك بالسجن من أجل هذا. إنّه شيء غير أخلاقي على الإطلاق أنْ تحاول إغوائي لتغيير رأيي».

«*أغويك*؟ إنَّ كل ما فعلت هو أني وضعت الأوراق أمامك على الطاولة. أنا سهّلتُ عليك *مهمتك*».

أقول ساخرة: «أوه، طبعاً. سامحني. هذا الأمر لا صِلة *لك* به. لا صِلة له بتقريري الموجَّه مباشرة إلى دعوى موكلتك. لو كنتَ حيواناً، يا كامبل، أتعلم أي نوع منها ستكون؟ علجوماً. كلا، في الحقيقة سوف تكون طفيليّاً على بطن علجوم؛ شيئاً يأخذ ما يحتاج إليه من دون أنْ يُعطي أي شيء في المقابل».

ينبض عرق أزرق بقوة في صدغه. «هل انتهيتِ؟».

«في الحقيقة، لم أنته. ألا يخرج من فمك أي شيء صادق؟».

«أنا لم أكذب عليك».

«لمْ تفعلْ؟ فما الحاجة إلى الكلب، يا كامبل؟».

يقول كامبل: «يا يسوع المسيح، هلّا صمَتِّ؟»، ويشدّني إلى ذراعيه ويُقبّلني.

يتحرّك فمه كقصة خرساء؛ مذاقه كالملح والنبيذ. ليست هناك لحظة من إعادة التعلّم، من إعادة ترتيب أشكال السنوات الخمس عشرة الأخيرة؛ إنَّ أجسادنا تتذكَّر وِجهتها. يلعقُ اسمي على طول مسار حنجرتي. ويضغط

نفسه بشدَّة عليّ بحيث إنَّ أيّ ألم تبقّى على السطح بيننا ينتشر ويرقّ، ويُصبح رِباطاً بدل أنْ يكون تخماً.

عندما نتباعد لكي نلتقط أنفاسنا من جديد، يُحدّق كامبل إليّ. ويهمس: «ما زلتُ على صواب».

أمرٌ طبيعيّ جداً أنْ ينزع كامبل عني قميصي، ويفكّ مشبك صدريتي، وأنْ يركع أمامي ويضع رأسه على قلبي، وأشعر بالمياه تهزّ هيكل القارب، وأفكّر في أنَّ ربما هذا هو المكان المناسب لنا. ربما هناك عوالم بأكملها خالية من الحواجز، تحملك المشاعر فيها كالمد.

الاثنين

هكذا اللسان أيضاً هو عضوٌ صغيرٌ ويفتخر مُتعظّماً. هو ذا نارٌ قليلة أيّ وقود تحرق.

العهد الجديد. سِفر يعقوب 5:3

كامبل

نمنا في القُمرة الصغيرة، المربوطة إلى مرساها. كنا محشورين، لكنَّ ذلك لم يكن يهمّ؛ كانت طوال الليل ملتصقة بي. تغطّ، قليلاً. أسنانها الأماميّة ملتوية. ورموش عينيها طويلة كظفر إبهامها.

هذه هي التفصيلات التي تُثبتُ، أكثر من أي شيء، الفرق بيننا الآن بعد مرور خمسة عشر عاماً. وأنتَ في السابعة عشرة، لا تفكّر في صاحبة الشقّة التي تريد أنْ تنام فيها. وأنتَ في السابعة عشرة لا ترى حتى لون صدريتها القرنفليّ اللؤلئيّ، والتخريم الذي يُشير إلى منفرج ساقيها. وأنتَ في السابعة عشرة لا يوجد غير الآن، لا يوجد أي شيء بعد الآن.

إنَّ ما أحببتُه في جوليا -ها أنا قُلته الآن- هو أنها لم تحتج إلى أحد. وفي مدرسة ويلر، حتى وهي تبرز بوضوح بشَعرها القرنفليّ وسترتها المحشوّة من مخلّفات الجيش والحذاء العسكريّ، فعلتْ ذلك من دون أنْ تعتذر. والمُفارقة الكبرى هي أنَّ إقامة علاقة معها بحد ذاتها كانت جديرة بأنْ تُدمِر فتنتها، وأنَّها حالما بدأتْ تبادلني حبّاً بحب وتعتمد عليّ بقدر اعتمادي عليها، لم تعُد روحاً مستقلّة حقاً.

كان مستحيلاً أنْ أكون الشخص الذي يحرمها من طبيعتها.

بعد جوليا، لم أعرف نساء كثيرات. على أيّة حال، ليس من النوع الذي يستغرق مني بعض الوقت لأتذكّر أسماءهنّ. كانت المُحافظة على الواجهة شيئاً شديد التعقيد؛ وبدل ذلك، اخترتُ دربَ الجَبان الوعرة للعلاقة العابرة. وبدافع الضرورة -الطبيّة والعاطفيّة- أصبحتُ ماهراً في أنْ أكونَ فناناً في الهروب.

ولكن خلال الليلة الفائتة أُتيحت لي الفرصة مرّات عديدة للمغادرة. بل

في أثناء نوم جوليا، فكَّرتُ في وسيلة للهرب؛ كأنْ أترك رسالة قصيرة أُثبّتها بدبّوس إلى الوسادة، أو رسالة أخطّها على ظهر القارب بأحمر شِفاه بلون الكرز. ومع ذلك لم يكن الحافز لفعل ذلك قوياً بقدر قوَّة الحاجة إلى انتظار دقيقة واحدة أخرى، أو ساعة واحدة أخرى.

ومن البقعة التي التفّ فيها جدج حول نفسه بقوة على طاولة التنضيد على شكل كعكة القرفة، رفع رأسه. أصدر أنيناً ضعيفاً، وفهمتُ تماماً ما يبغي. انفصلتُ عن غابة شَعر جوليا الكثيف، وتسلّلتُ من السرير. فزحفَتْ هي مقدار بضع بوصات نحو البقعة الدافئة التي خلَّفتُها في مكاني.

أُقسِمُ أنَّ ذلك أثارني جنسيّاً من جديد.

ولكن بدل أنْ أقوم بالتصرّف الطبيعيّ -أي، أنْ أتظاهر بإصابتي بحالة من الجُدري وجعل الكاتب في المحكمة يُرجئ موعد جلسة الاستماع لكي أتمكّن من قضاء اليوم في المُضاجعة- أرتدي ملابسي الداخليّة، وأرتقي إلى سطح القارب. أريد أنْ أحرص على الوصول إلى قاعة المحكمة قبل آنّا، وأحتاج إلى أخذ دشّ وتبديل ملابسي. أترك مفاتيح سيارتي لجوليا - إنَّ المسافة إلى منزلي قصيرة. ولا أدرك، إلّا وأنا وجدج في طريقنا إلى المنزل، خلاف ما يجري في صباح كل يوم آخر مُحتقن بالدم، أنني تركتُ خلفي امرأةً، ولم أترك لجوليا أيّة إشارة فاتنة تدل على خروجي، وهو شيء كان سيُخفِّف من قوة صدمة التخلّي عنها فور استيقاظها.

أتساءل إنْ كان هذا سهواً، أم أنني كنتُ أنتظر عودتها طوال تلك المدَّة، لكي أصبح ناضجاً.

عندما وصلنا أنا وجدج إلى دار القضاء من أجل حضور جلسة الاستماع، كان علينا أنْ نشقّ طريقنا بصعوبة بين المُراسلين الذين اصطفّوا في انتظار الحدث الأكبر. أقحموا المايكروفونات في وجهي، وداسوا على مخالب جدج بلا قصد. سوف تفرّ آنّا هاربة حالما سترى هذه المحنة.

داخل الباب الأمامي، أستوقفُ فيرن. أقول له: «هلّا أحضرتَ لنا بعض عناصر الأمن إلى هنا؟ سوف يلتهمون الشهود وهم أحياء».

ثم أرى سارة فيتزجيرالد، تنتظر. كانت ترتدي زيّاً لم يخرج في الغالب

من حقيبة محل التنظيف على الناشف البلاستيكيّة منذ عقد من الزمن، وتشدّ شَعرها بقسوة إلى الخلف على شكل مشبك للشَّعر. إنها لا تحمل حقيبة عاديّة، بل حقيبة ظهر. أقول بنبرة صوت متوازنة: «صباح الخير».

يفْتَحُ الباب بقوة ويدخل براين، يُنقّل بصره من سارة إليّ. «أين آنّا؟».

تتقدَّم سارة خطوة واحدة. «ألم تأتِ إلى هنا معك؟».

«عندما رجعتُ من تلبية نداء خدمة عند الساعة الخامسة صباحاً كانت قد تركت رسالة قصيرة قالت فيها إنها سوف تقابلني هنا». وينظر إلى الباب، إلى المفترسين في الجانب الآخر. «أراهن على أنّها هربت».

من جديد، يصدر صوت يُشبه كسْر قفل، ثم تندفع جوليا إلى دار القضاء على متن سيل من الصراخ والأسئلة. تمسّد شَعرها إلى الخلف وتتمالك أعصابها، ثم تنظر إليّ وتفقدها من جديد.

أقول: «سوف أعثر عليها».

تقول سارة بعدوانيّة: «كلا، أنا سأبحث عنها».

تنظر جوليا إلى كلٍّ منّا. «تبحثان عمَّن؟».

أشرح لها «آنّا غائبة مؤقّتاً».

تقول جوليا: «غائبة؟ تقصد مُختفية؟».

«لا أبداً». وهذا ليس كذباً، أيضاً. فلكي تختفي آنّا، عليها أنْ تظهر أولاً.

أدركُ أنني أعرف حتى إلى أين أنا ذاهب – في اللحظة نفسها التي تفهم سارة ذلك، أيضاً. وفي تلك اللحظة تدعني أتولّى القيادة. تقبضُ جوليا على ذراعي وأنا أمشي باتجاه الباب. وتُقحِم مفاتيح السيارة في يدي. «والآن هل تفهم لِمَ لن ينجح الأمر؟».

ألتفتُ نحوها. «جوليا، اسمعي. أنا أيضاً أريد أنْ أتحدث عمّا يحدث بيننا. ولكن هذا ليس الوقت المناسِب».

«كنتُ أتحدث عن *آنا*. كامبل، إنها متردّدة. إنها غير قادرة على حضور جلسة المحكمة الخاصة بها. ماذا يعني هذا بالنسبة إليك؟».

أخيراً أُجيب، بمثابة تحذير لنا جميعاً، «يعني أنَّ الجميع خائفون».

***

كانت ستائر غرفة المستشفى منسدلة، لكنَّ ذلك لا يمنعني من رؤية شحوب الملاك الذي يعتري وجه كيت فيتزجيرالد، وشبكة العروق الزرقاء التي تُخطِّط درب الفرصة الأخيرة للأدوية التي تسري تحت جلدها. كانت آنّا تلتف حول نفسها عند نهاية السرير.

ينتظر جدج عند الباب بأمرٍ مني. وأجلس القرفصاء. «آنّا، حان وقت الذهاب».

عندما يُفتَح باب غرفة المستشفى، أتوقَّع دخول إمّا سارة فيتزجيرالد أو أحد الأطبّاء مع عربة الأدوية والإسعافات الأوّليّة. ولكن بدل ذلك، أُصدَمُ عندما أجد جِسّ واقفاً على العتبة. يقول «هيه»، وكأنّنا صديقَان حميمان.

كدتُ أسأله: «*كيف وصلتَ إلى هنا؟*»، لكنني أدركتُ أنني لا أريد أنْ أسمع الجواب – فسألته بجفاف: «نحن في طريقنا إلى قاعة المحكمة. أتريد توصيلة؟».

«لا شكراً. قلتُ في نفسي ما دام الجميع سيذهبون إلى هناك، فسوف أبقى هنا». لم تتزحزح عيناه عن النظر إلى كيت. «تبدو في حالة مُزرية».

تُجيب آنّا، وقد استيقظت الآن، «ماذا تتوقّع، إنها تحتضر».

من جديد، أجد نفسي أحدِّقُ إلى موكلتي. يجب أنْ أعلم أكثر من معظم الموجودين أنَّ الدوافع ليست كما تبدو، لكنني مع ذلك لم أفهم موكلتي. «يجب أنْ نذهب».

في السيارة، تجلس آنّا إلى جواري بينما يجلس جدج في المقعد الخلفيّ. وتبدأ تحكي لي عن سابقة جنونيّة قرأت عنها في الإنترنت، حيث حُرِمَ شخصٌ في مونتانا في عام 1876 قانونيّاً من استخدام مياه النهر التي تنبع من أرض أخيه، على الرغم من أنَّ ذلك يعني أنَّ محاصيله كلها سوف تجفّ وتموت. وتسأل، عندما أتناسى عن عمد الانعطاف نحو دار القضاء، «ماذا تفعل؟».

بدل ذلك أتوقف بجوار المتنزّه. تمرّ بنا فتاة ذات مؤخرة ضخمة مهرولة، وهي تمسك برسن أحد الكلاب الصغيرة الأقرب شَبَهاً بقطة. بعد لحظة تقول آنّا: «سوف نتأخّر».

«لقد تأخّرنا أصلاً. اسمعي، آنّا. ما الذي يجري هنا؟».

ترميني بإحدى تلك النظرات المُراهقة الجليّة، وكأنها تقول إنه من المستحيل أنْ ننحدر هي وأنا من السلسلة التطوريّة نفسها. «نحن ذاهبان إلى قاعة المحكمة».

«ليس هذا ما أسأل عنه. أريد أنْ أعرف *لماذا* نحن ذاهبان إلى المحكمة».

«في الواقع، يا كامبل، أعتقد أنكَ لم تحضر اليوم الأول من الدوام في كليّة الحقوق، ولكن هذا بالضبط ما يحصل عندما يُقيم أحدهم دعوى».

أوجّه نظرتي إليها، رافضاً الهزيمة. «آنّا، لماذا نحن ذاهبان إلى المحكمة؟».

لا يرفّ لها جفن. «لماذا تحتفظ بكلب خدمة؟».

أربتُ بأصابعي على مقود السيارة وأمدّ بصري إلى المتنزّه. ثمة أمٌّ تجر عربة أطفال الآن، وتعبر البقعة نفسها التي مرّت بها المُهرولة، غافلة عن الطفل الذي يبذل أقصى جهده ليزحف خارج العربة. وينتفض سرب من الطيور متطايراً من إحدى الشجرات. أقول «لم أعُد أتحدث بهذا الأمر مع أحد».

«أنا لستُ أي أحد».

آخذ نَفَساً عميقاً. «قبل وقتٍ بعيد مرضتُ وانتهى بي الأمر إلى عطب في الأذن. ولكن لسببٍ من الأسباب لم ينفع معه دواء وأُصِبتُ بخلل في الأعصاب. وأصبحتُ أصمَّ تماماً في أُذني اليُسرى. وهذا ليس بالأمر الخطير، على المدى الطويل، ولكن هناك قضايا معيَّنة تتعلَّق بأسلوب الحياة لم أستطع التعامُل معها. كسماع صوت سيارة تقترب، كما تعلمين، وعدم معرفة الجهة الآتية منها. أو أنْ تكون خلفي امرأة في متجر البقاليّة تريد أنْ تتجاوزني في الممرّ، لكنّي لا أسمعها وهي تطلب مني ذلك. وقد تدرَّبتُ بمعونة جدج في مثل تلك الظروف، وباستطاعته أنْ يكون بمثابة أُذنيّ». أتردَّد. «لا أحب أنْ يشعر الآخرون بالرثاء لأجلي. هذا هو سرّي الأكبر».

تتفرّس بي آنّا بتركيز. «لقد أتيتُ إلى مكتبك لأنني أردتُ لمرَّة واحدة أنْ أُصبح أنا محطّ الاهتمام وليس كيت».

لكنَّ هذا الاعتراف الأنانيّ خرج منها منحرفاً؛ وهو غير مُلائم. إنَّ هذه

الدعوى لم تكن أبداً تدور حول رغبة آنّا في موت أختها، بل ببساطة حول مطالبة آنّا بفرصة *للعيش*. «أنتِ تكذبين».

تصالب آنّا ذراعيها. «حسن، أنت كذبتَ أولاً. أنتَ تسمع جيداً».

طفقتُ أضحك. «وأنتِ طفلة مزعجة. تذكّرينني بنفسي».

تقول آنّا وهي تبتسم: «هل يُفترَض بهذا أنْ يكون شيئاً جيداً؟».

يبدأ المُتنزّه بالازدحام أكثر. ثمة مجموعة كاملة من تلاميذ المدرسة تمشي على الممرّ، أطفالٌ صِغار في صف واحد معاً كسلسلة من كلاب جر المزلجة، تسحب أستاذيّ مدرسة خلفّها. ويندفعُ شخصٌ بقوة مارّاً على دراجة تنزلق، مرتدياً ألوان خدمة بريد الولايات المُتّحدة. «هيا بنا، سوف أدعوكِ إلى وجبة لإفطار».

«لكننا تأخّرنا».

أهزّ كتفيّ لامبالياً. «لا يهمّ».

لم يكن القاضي ديسالفو سعيداً؛ لقد كلّفتنا جولة آنّا الصغيرة الميدانيّة في هذا الصباح ساعة ونصف من الزمن. فيرمقني بحنق بينما أنا وجدج نهرع إلى غرفته من أجل الاجتماع السابق لجلسة المُحاكمة. «أعتذر، سيادة القاضي. كانت لدينة حالة بيطريّة طارئة».

أشعر، ولا أقول أرى، بفم سارة يتراخى مفتوحاً. يقول القاضي: «ليس هذا ما أشارتْ إليه المُستشارة المُعارِضة».

أنظر إلى عينيّ القاضي ديسالفو مباشرة. «في الواقع، هذا ما حدث. لقد تكرّمتْ آنّا وساعدتني على تهدئة الكلب عند إزالة شظيّة من الزجاج من مخلبه».

بدا الارتياب على القاضي. ولكن هناك قوانين ضد التميز العنصري المُعيق، وأنا أستغلّها كل الاستغلال؛ وآخر ما أريد هو أنْ يضع اللوم على آنّا على هذا التأخير. يسألني: «هل من سبيلٍ لحل مسألة هذه العريضة من دون جلسة استماع؟».

«أخشى أنّه لا سبيل إلى ذلك». قد لا تكون آنّا راغبة بتقاسُم أسرارها، وهذا ما أحترمه، لكنّها تعلم أنّها تريد أنْ تخوض في هذه القضيّة إلى النهاية.

· قبِلَ القاضي جوابي. «سيدة فيتزجيرالد، أفهمُ أنكِ ما زلتِ تمثّلين نفسك؟».

تقول «نعم، فضيلتكم».

يُلقي القاضي ديسالفو نظرة سريعة على كلٍّ منّا. «هذه محكمة العائلة، أيّها المُستشارون. وفي المحكمة العائليّة، خاصّة في جلسات الاستماع على غرار هذه الجلسة، أميل شخصياً إلى تخفيف قوانين الدليل لأنني لا أريد جلسة استماع تُثير النزاعات. أستطيع أنْ أفصل بين المسموح وغير المسموح، وإذا كان هناك شيء يُثير الاعتراض حقّاً، فسوف أُصغي إلى الاعتراض، ولكنّني أفضّل أنْ نسرع في جلسة الاستماع هذه، من دون الاهتمام بالشكليات». ونظر مباشرة إليّ. «أريد لهذا أنْ يكون أقلّ إيلاماً لكل الأطراف قدر الإمكان».

انتقلنا إلى قاعة المحكمة – قاعة أصغر حجماً من قاعات المحاكم الجنائيّة، لكنها تبثّ الخوف في النفوس بالمقدار نفسه. أدخل البهو لكي أُحضِر آنّا معي. وفي أثناء اجتيازنا الباب، جمدتْ في مكانها. وألقتْ نظرات سريعة إلى الجدران المكسوّة بألواح الخشب، وإلى صفوف الكراسي، وإلى المنصّة المهيبة. همستْ: «كامبل، هل أنا مُجبرة على الوقوف هناك في الأعلى وأتكلّم؟»

الحقيقة هي أنَّ القاضي في الغالب يريد أنْ يصغي إلى ما لديها من كلام. وحتى إنْ دعمَتْ جوليا دعواها، حتى إنْ قال براين إنّه سوف يُساعد آنّا، قد يريد القاضي ديسالفو منها أنْ تُدلي بما لديها. ولكنْ قول هذا الكلام لها في الحال لن يعمل إلّا على إثارة غضبها – وهذه ليست بداية جيدة لجلسة استماع.

أفكِّر في الحديث الذي دار بيننا في السيارة، عندما نعتتني آنّا بالكاذب. هناك سببان يدفعان لعدم قول الحقيقة – لأنَّ الكذب سوف يمنحك ما تريد، ولأنَّ الكذب سوف يحمي المرء من نيل الأذى. ولهذين السببين أعطيتُ آنّا هذا الجواب. أقول: «في الواقع، أشكّ في هذا».

أبدأ: «فضيلة القاضي، أعلم أنّها ليست عادة تقليديّة، ولكنْ هناك شيء أودّ أنْ أقوله قبل أنْ نبدأ باستدعاء الشهود».

يتنهّد القاضي ديسالفو. «أليس هذا هو السلوك الرسميّ الذي طلبتُ منكَ *ألا* تلجأ إليه؟».

«فضيلة القاضي، لو لم يكن الأمر هاماً لما طلبتُ الإفصاح عنه».

يقول القاضي: «اختصِر».

أنهضُ وأتقدَّم من المنصّة. «فضيلة القاضي، طوال حياة آنّا فيتزجيرالد وهي تُعامَل طبيّاً لصالح أختها، وليس لصالحها هي. لا أحد يشكّ في حبّ سارة فيتزجيرالد لأولادها كلهم، أو في القرارات التي اتّخذتها وأطالتْ من أمَدْ حياة كيت. ولكن علينا أنْ نشكّ في القرارات التي اتّخذَتْها فيما يخصّ هذه الطفلة».

ألتفتُ، فأرى جوليا تراقبُ عن كثب. وفجأة أتذكّر ذلك الواجب الأخلاقيّ القديم، وأعلم ما عليّ أنْ أقول. «لعلّكَ تتذكَّر القضيّة حديثة العهد بخصوص رجال الإطفاء في وورسيستر، ولاية ماساتشوستس، الذين قُتِلوا وسط اللهب الذي أضرمته امرأة متشردة. كانت تعلم أنَّ النار اندلعتْ وغادرت المبنى، لكنها لم تستدع النجدة لأنها رأتْ أنها قد تقع في مشاكل. ومات ثلاثة من الرجال في تلك الليلة، ومع ذلك لم تتمكن الولاية من تحميل المرأة المسؤوليّة، لأنه في أميركا -حتى وإنْ كانت العواقب مأساويّة- أنتَ لستَ مسؤولاً عن سلامة شخصٍ آخر. ولستَ مُلزَماً بمساعدة أحد في محنة. ليس إذا كنتَ الذي أضرمَ النار، ليس إذا كنتَ عابر سبيل مرَّ بحطام سيارة، وليس إذا كنتَ واهباً مثاليّاً».

أنظرُ إلى جوليا من جديد. «نحن هنا اليوم لأنَّ هناكَ فرقاً في نظامنا القضائيّ بين ما هو قانونيّ وما هو أخلاقيّ. أحياناً من السهل التمييز بينهما. ولكن بين حينٍ وآخر، خاصّة عندما يتعارضان، يبدو الصحيح خطأً، والخطأ يبدو أحياناً صحيحاً». ورجعتُ إلى مقعدي، ووقفتُ أمام المقعد. ثم ختمتُ: «نحن هنا اليوم، لكي تساعدنا هذه المحكمة جميعاً على توضيح رؤيتنا قليلاً».

شاهدي الأول هو المُستشارة المُعارِضة. أراقبُ سارة تمشي إلى منصّة الشهود بخطى غير متوازنة، كبحّار يُحاول استعادة توازنه من جديد بعد الرسوّ. ونجحتْ في الجلوس على المقعد والقسم من دون أنْ تزيح بصرها عن آنّا.

«فضيلة القاضي، أريد السماح لي بمُعاملة السيدة فيتزجيرالد على أنّها شاهدة عِدائيّة».

تجهَّمَ القاضي. «سيد ألكسندر، إنني أتمنّى حقاً منكما معاً أنتَ والسيدة فيتزجيرالد أنْ تتعاملا بتحضُّر، هنا».

«مفهوم، فضيلة القاضي»، ومشيتُ باتّجاه سارة. «هل لكِ أنْ تذكري اسمكِ؟».

رفعَتْ ذقنها قليلاً. «اسمي سارة كروفتون فيتزجيرالد».

«وأنتِ والدة الطفلة القاصِر آنّا فيتزجيرالد؟».

«نعم. وأيضاً والدة كيت وجِسّ».

«أليس صحيحاً أنّ التشخيص بيَّنَ أنَّ ابنتكِ كيت مُصابة بحالة حادة من سرطان الدم منذ أنْ كانت في الثانية من العمر؟».

«هذا صحيح».

«في ذلك الوقت هل قرّرتِ مع زوجك أنْ تُنجبا طفلاً يُخصَّص جينيّاً ليكون واهباً لعضو منه لكيت، لكي تشفى؟».

قَسَتْ قَسَمات وجه سارة. «ليس بالكلمات التي استخدمتها، ولكن، نعم، هذه كانت القصة الكامنة وراء إنجاب آنّا. نحن لم نُخطِّط لاستغلال دم الحبل السرّي لإجراء عملية ازدراع».

«لِمَ لمْ تحاولا أنْ تبحثا عن واهب من غير الأقرباء؟».

«لأنّه أمر ينطوي على خطورة أكبر بكثير. كانت مُخاطرة الموت أكبر بكثير مع شخص لا يمتّ بصِلة لكيت».

«إذن كم كان عمر آنّا عندما وهبتْ عضواً أو نسيجاً لأختها أول مرّة؟».

«أجرت كيت عملية الازدراع بعد مولد آنّا بشهر».

هززتُ رأسي نفياً. «أنا لم أسأل متى أُجريَتْ لها؛ أنا سألت متى وهبتْها آنّا. لقد أُخِذَ دم الحبل السرّي من آنّا فور ولادتها، أليس هذا صحيحاً؟».

تقول سارة: «نعم، لكنَّ آنّا لم تكن حتى واعية لما يجري».

«كم كان عمر آنّا في المرة الثانية التي وهبَتْ فيها جزءاً من جسمها لكيت؟».

تجفل سارة، تماماً كما توقّعتُ. «كانت في الخامسة عندما وهبت خلاياها البيضاء».

«وماذا يتضمَّن هذا؟».

«سحب الدم من منحنيّ ذراعيها».

«هل وافقتْ آنا على السماح لكما بغرز إبرة في ذراعها؟».
تجيب سارة: «كانت في الخامسة من عمرها».
«هل طلبتما منها الإذن بغرز إبرة في ذراعها؟».
«طلبتُ منها أنْ تساعد أختها».
«أليس صحيحاً أنَّه كان على أحدهم أنْ يُثبِّتَ آنا جسديّاً من أجل غرز الإبرة في ذراعها؟».
نظرتْ سارة إلى آنا، ثم أغمضَتْ عينيها. «نعم».
«أتسمّين هذا مُساهمة طوعيّة، يا سيدة فيتزجيرالد؟»، ومن طرف عيني أرى جبين القاضي ديسالفو ينعقد. «في المرة الأولى التي سحبتما فيها الخلايا البيضاء من آنا، ألم تحدث أيّة آثار جانبيّة؟».
«ظهرتْ عليها بعض الرضوض. بعض الضعف».
«كم مرَّ من الوقت قبل أنْ تسحبا منها المزيد من الدم؟».
«شهر».
«هل اضطررتما إلى تثبيتها جسديّاً هذه المرَّة، أيضاً؟».
«نعم، ولكن-».
«ماذا كانت الآثار الجانبيّة حينئذٍ؟».
«هي نفسها»، وهزّتْ سارة رأسها رفضاً. «أنت لا تفهم. هذا لا يعني أنني لم أرَ ما حدث لآنّا، في كل مرَّة خضَعَتْ لإجراءٍ ما. لا يهمّ أيٌّ من أولادك ترى في مثل ذلك الموقف - في كل مرَّة، تتحطَّم».
أقول: «ومع ذلك، يا سيدة فيتزجيرالد، نجحتِ في تجاوز ذلك الانفعال، لأنكِ سحبتِ دماً من آنّا للمرّة الثالثة».
تقول سارة: «لقد استغرقَ سحب كل ذلك الدم وقتاً طويلاً. إنّه ليس إجراءً دقيقاً».
«كم كان عمر آنّا في المرة التالية التي اضطرّتْ إلى الخضوع للمعالجة الطبيّة لصالح صحّة أختها؟».
«عندما كانت كيت في التاسعة أُصيبتْ بعدوى متفشية و-».
«من جديد، أنا لا أسأل عن هذا. أريد أنْ أعرف ماذا حدث **لآنّا** وهي في عمر السادسة».

«لقد وهبت أنسجة الدم البيضاء».

«والمزيد من الحُقن؟».

«هذا صحيح».

«هل سألتها إنْ كانت راغبة في وهب خلايا الدم البيضاء؟».

لم تُجِب سارة. حثّها القاضي، «سيدة فيتزجيرالد».

التفتَتْ نحو ابنتها، مُناشِدة. «آنّا، تعلمين أننا لم نفعل أياً من تلك الأشياء لكي نؤذيك. لقد تألّمنا *كلّنا*. وإذا كنتِ قد أُصِبتِ برضوضٍ خارجيّة، فنحن أُصِبنا بها في داخلنا».

أخطو حتى أقف حائلاً بينها وبين ابنتها. «سيدة فيتزجيرالد، *هل سألتها*؟».

تقول سارة: «أرجوك لا تفعل هذا. نحن جميعاً نعرف التفاصيل. سوف أتعهّد بكل ما تحاول أنْ تفعل لتدينني. أفضِّل أنْ ينتهي هذا الجزء».

«لأنَّ من الصعب سماع صوت سحقه من جديد، أليس كذلك؟». أعلم أنني في موقف دقيق، لكنَّ آنّا تدعمني، وأريد منها أنْ تعلم أنَّ ثمة هنا مَنْ يرغب في عبور المسافة بالنيابة عنها. «إذا أضفنا الأشياء معاً هكذا، لا يبدو الأمر شديد البراءة، أليس كذلك؟».

يقول القاضي ديسالفو: «سيد ألكسندر، ما فحوى هذا كلّه؟ إنني أعي جيداً عدد الإجراءات التي خضَعَت لها آنّا».

«لأنَّ لدينا تاريخَ كيت الطبّيّ، فضيلة القاضي، وليس تاريخ آنّا».

نقّل القاضي ديسالفو نظره بيننا. «اختصري، أيتّها المُستشارة».

ألتفتُ إلى سارة. تقول بجفاف، قبل أنْ أتمكن من طرح السؤال، «نقي العِظام. لقد أُخضِعَت للتخدير العامّ لأنها كانت صغيرة السن جداً، وكانت الحقن تُقحَم داخل أعلى ردفيها من أجل سحب النقيّ».

«هل طول الإبرة واحد، كالإجراءات الأخرى؟».

تقول سارة بهدوء: «كلا، كانت بطول خمس عشرة».

«داخل العظم؟».

«نعم».

«ماذا كانت التأثيرات الجانبيّة على آنّا هذه المرّة؟».

«تألّمتْ قليلاً، وأعطوها بعض المُسكّنات».

«إذن في هذه المرَّة توجّبَ نقل آنّا إلى المستشفى ليلاً... وهل احتاجتْ هي نفسها إلى تناول أدوية؟».

انتظرتْ سارة دقيقة ريثما تتمالك شتات نفسها. «لقد قيل لي إنَّ وهب النقي لا يُعتبَر إجراءً عدوانياً حقاً على الواهب. ربما كنتُ أنتظر أنْ أسمع هذه الكلمات؛ ربما كنتُ بحاجة إلى سماعها هذه المرَّة. وربما لم أكنْ أفكّر في آنّا كما ينبغي أنْ أفكّر، لأنَّ اهتمامي كان مُنصبّاً أكثر على كيت. ولكنْ لم ينتبني أدنى شك في أنَّ آنّا -كأي فرد آخر في العائلة- لا ترغب في شيء يفوق رغبتها في شِفاء أختها».

أُجيبُ: «طبعاً، حتماً. بحيث توقفتِ عن غرزها بالإبر».

يتدخّل القاضي ديسالفو: «كفى، سيد ألكسندر».

تُقاطعه سارة: «انتظر. لديّ شيء أقوله»، وتلتفتُ إليّ. «أنتَ تعتقد أنَّ باستطاعتك أنْ تُصيغ كل شيء بالكلمات، بالأبيض والأسود، وكأنَّ الأمر سهل. لكنكَ لا تمثّل إلّا واحدة من ابنتيّ، يا سيد ألكسندر، وفقط داخل جدران قاعة المحكمة هذه. أما أنا فأمثّلهما معاً بالتساوي، في كل مكان، في أي مكان. أنا *أحبّهما* معاً بالتساوي، في كل مكان، في أي مكان».

أشير: «لكنكِ اعترفتِ بأنكِ لطالما وضعتِ في حسبانك صحّة كيت، وليس صحّة آنّا، عندما اتّخذتِ تلك القرارات. فكيف تدَّعين بأنكِ تحبينهما معاً بالتساوي؟ كيف تقولين إنكِ لم تفضّلي طفلة واحدة في قراراتك؟».

تسأل سارة: «ألستَ تطلب مني أنْ أفعل هذا الشيء بالذات؟ أنْ أُفضّل الأخرى، هذه المرّة فقط؟».

آنّا

وأنتَ طفل تكون لديك لغتكَ الخاصّة، وهذه اللغة، خِلاف اللغة الفرنسيّة أو الإسبانيّة أو كائناً ما كان ما بدأتَ تتعلَّمه في الصف الرابع، تولَد معها، وفي نهاية المطاف تفقدها. إنَّ كل مَنْ لم يتجاوز السابعة من العمر بارع في لغة **الافتراض**: اذهب وتسكّع مع شخص طوله أقلّ من ثلاثة أقدام وسوف ترى. ماذا لو أنَّ عنكبوتاً عملاقاً قمعيّ الشكل خرج من جُحر خلف رأسك وعضّكَ في عنقك؟ ماذا لو أنَّ الترياق الوحيد المُضاد للسُّمّ مُقفَل عليه في سرداب على قمّة الجبل؟ ماذا لو أنكَ نجوت من العضّة، ولكن لم يعُد باستطاعتك إلّا أنْ تُحرِّك جفنيك وتطرف عينيك لتتكلَّم؟ لا يهمّ إلى أي مدى تصل؛ المهم هو أنّه عالمٌ من الاحتمال. إنَّ الأطفال يفكّرون بعقول منفتحة واسعاً؛ وقرّرتُ أنَّ وصولَ سن البلوغ ليس إلّا عملية انغلاق بطيئة.

خلال فترة الاستراحة الأولى، يأخذني كامبل إلى غرفة الاجتماع لننفرد بنفسينا واشترى لي عبوة مشروب غازي ليست باردة. يقول: «إذن، ما رأيك حتى الآن؟».

كان وجودنا في قاعة المحكمة أمراً غريباً، وكأنني تحوّلتُ إلى شبح – أستطيع أنْ أراقب ما يحدث، ولكن حتى لو رغبتُ في الكلام لن يتمكّن أحد من سماعي. إضافةً إلى ذلك الطريقة الغريبة نفسها التي أصغيتُ بها إلى كل مَنْ تحدّثَ عن حياتي وكأنهم لا يرونني جالسة هناك، وهبطتَ أنتَ إلى زاويتي الصغيرة السورياليّة الخاصّة من الأرض.

يفتح كامبل عبوة 7UP مع فرقعة ويجلس قبالتي. يصبّ قليلاً منه في

كوبٍ من الورق من أجل جدج، ومن ثم يشرب جرعة كبيرة. يقول: «أما مِن تعليقات؟ أو أسئلة أو مديح صِرف لمُرافعتي البارعة؟».

أهزّ كتفيّ لامبالية. «ليستْ كما توقّعت».

«ماذا تعنين؟».

«أعتقدُ أنني أدركـتُ متى بدأ الأمر، تيقَّنتُ من أنني أفعل الشيء الصائب. ولكن عندما صعدتْ أمي إلى المنصَّة، وأخذتَ تُمطِرها بكل تلك الأسئلة...»، ورميته بنظرة سريعة. «في ذلك الجزء عن كون الأمر بسيطاً. إنها على صواب».

ماذا لو كنتُ أنا المريضة؟ ماذا لو أنّه طُلِبَ من كيت أنْ تفعل ما فعلتُه أنا؟ ماذا لو أنّ ذات يوم نجح مفعولُ نقي عظام ما أو دمٍ أو كائن ما كان، وانتهى الأمر؟ ماذا لو عدتُ بذاكرتي إلى هذا كلّه ذات يوم وشعرتُ بارتياح لِما فعلت، بدل الشعور بالذنب؟ ماذا لو أنَّ القاضي لا يعتقد أنني على صواب؟

ماذا لو أنّه لا يعتقد ذلك؟

لا أستطيع أنْ أُجيب عن أيّ سؤال من تلك الأسئلة، وهكذا أعلمُ أنّه سواء أكنتُ مُستعدَّة أم لا، فإنني أصبح أكثر نُضجاً.

«آنّا». ينهضُ كامبل ويأتي إلى جانبي من الطاولة. «ليس هذا هو الوقت المناسب لتغيير رأيك».

«أنا لا أُغيِّر رأيي»، وأُدحرج العبوة بين راحتيّ. «أعتقد أنَّ ما أقول هو فقط أنّه حتى لو كسبنا القضيّة، فلن نربح».

وأنا في عمر الثانية عشرة عملتُ جليسة أطفال لتوأم في مكان قريب في الشارع نفسه. كانا في السادسة من العمر، ولم يكونا يُحبّان الظلام، لذلك كان ينتهي بي الأمر في نهاية المطاف إلى الجلوس بينهما على مقعد بلا ظهر شكله يُشبه قَدَم فيل، بأظافره وكل شيء. ولم تفشل أبداً السرعة الكبيرة التي يحبس بها الطفل منبع الطاقة في إذهالي – يقومان في ارتقاء الستائر ومن ثم فجأة، بعد ذلك بخمس دقائق، يتوقفان. هل كنتُ أنا هكذا في أي وقت؟ لا أتذكّر، ويجعلني هذا أشعر بأنني عجوز.

بين حينٍ وآخر كان أحد التوأم يستغرق في النوم قبل الآخر. فيقول أخوه: «آنّا، بعد كم من السنين سوف أتمكّن من قيادة سيارة؟».

أخبره «عشر».

«وبعد كم من السنين سوف تتمكنين أنتِ من القيادة؟».

«ثلاث».

ثم يتشعّب الحديث كأشعّة شبكة العنكبوت - أي نوع من السيارات سأشتري؛ ماذا سأصبح عندما أكبر؛ هل شيء مزعج أنْ يكون لديك واجب مدرسي في كل ليلة في المرحلة المتوسطة من المدرسة. إنَّ السهر أكثر قليلاً هي خدعة صِرف. أحياناً أحبّ ذلك، وفي الغالب أُجبره على النوم. في الحقيقة، كان ينتابني حدسٌ يجعلني أعلم أنْ باستطاعتي أنْ أخبره بما سيأتي، ولكن أيضاً يجعلني أُدرك أنّ ذلك قد يبدو كتهديد.

الشاهد الثاني الذي استدعاه كامبل هو الدكتور بيرغن، رئيس لجنة الأخلاق الطبيّة في مستشفى بروفيدنس. كان ذا شعر شائب ووجه منبعج كحبّة بطاطا. وهو أضأل مما تتوقّع، أيضاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه استغرقَ منه سرد أوراق اعتماده أقلّ من دورة ألفيّة.

يباشر كامبل قائلاً: «دكتور بيرغن، ما هي اللجنة الأخلاقيّة؟».

«إنّها مجموعة متنوعة من الأطباء، والممرّضين المُجازين، ورجال الدين، والأخلاقيين، والعلماء، عُيِّنوا لمُراجعة الحالات الفرديّة من أجل حماية حقوق المرضى. وفي الأخلاق العضويّة الغربيّة، هناك ستة مبادئ نحاول أنْ نطبّقها». ويعدّدها على أصابع يده. «الاستقلال، أو فكرة أنَّ المريض الذي يتجاوز عمره الثامنة عشرة له الحق في رفض العلاج؛ ثم الصدق، الذي يوحي في أساسه بالموافقة؛ والإخلاص -أي، أنْ يقوم الذي يوفِّر العناية الطبيّة بواجباته: الإحسان، أو القيام بأفضل ما هو في صالح المريض؛ عدم الإيذاء- إذا لم يعُد بوسعك أنْ تفعل الخير، فلا ينبغي أنْ تقوم بعمل مؤذٍ... كالقيام بعمليّة جراحيّة كبرى لمريض في آخر حياته يبلغ من العمر 102 عاماً؛ وأخيراً، العدل - أي لا ينبغي التمييز بين المرضى في تلقّي العلاج».

«وما هي مهمّة لجنة الأخلاق؟».

«في العموم، يتمّ استدعاؤنا للاجتماع عندما يحدث تعارُض بشأن رعاية مريض. على سبيل المثال، إذا شعر طبيب بأنَّ في صالح المريض المُضيّ في إجراءاتٍ غير عاديّة، ثم تعارض عائلته ذلك - أو العكس بالعكس».

«إذن فأنتَ لا ترى كل حالة تمرّ على المستشفى؟».

«كلا. فقط عندما تكون هناك شكاوى، أو إذا طلبَ الطبيب المُعالِج استشارة. فنقوم بمراجعة الوضع وتقديم توصيات».

«لا تتخذون قرارات؟».

يقول الدكتور بيرغن: «كلا».

يسأل كامبل: «ماذا لو كان المريض المُشتكي قاصراً؟».

«لا تكون الموافقة ضروريّة حتى سن الثالثة عشرة. وحتى ذلك الحين نعتمد على الآباء من أجل القيام بخيارات جوهريّة لصالح أولادهم».

«ماذا لو كانوا عاجزين عن القيام بذلك؟».

تطرف عيناه. «تقصد إذا لم يكونوا حاضرين شخصيّاً؟».

«كلا. أعني إذا كانت هناك خطّة أخرى يتقيّدون بها، ألا يمنعهم ذلك بصورة ما من القيام بالخيارات الأفضل لصالح هذا الطفل؟».

تنهضُ أمي واقفة. تقول: «أعترض. هذا تخمين».

يُجيب القاضي ديسالفو: «هذا صحيح».

ومن دون أنْ يتوقف كامبل يستدير نحو الشاهد. «هل يتحكَّم الأبوان بقرارات رعاية أطفالهما حتى سن الثامنة عشرة؟».

حسن، كان في استطاعتي أنْ أُجيب عن هذا السؤال. إنَّ الأبوين يتحكّمان بكل شيء، وإذا لم تكن على غرار جِسّ تقوم بكل ما يزعجهما، فسوف يتجاهلانك ويتظاهران بأنكَ غير موجود حقاً.

يقول الدكتور بيرغن: «هذا من الناحية القانونيّة. ولكن، حالما يبلغ الطفل سن المراهقة، وعلى الرغم من عجزهما عن إعطاء موافقة رسميّة، عليهما أنْ يوافقا على أي إجراء تتخذه المستشفى - حتى وإنْ اعترَضَ الأبوان عليه».

هذه القاعدة، إذا أردتَ رأيي، تشبه القانون الذي يمنع مُخالفة أنظمة

السير. الجميع يعلمون بأنّه لا ينبغي ارتكاب هذا الفعل، لكنَّ هذا لا يمنعك من ارتكابه.

ما زال الدكتور بيرغن يتكلَّم: «في الحالة النادرة عندما يختلف أحد الأبوين مع المريض المُراهق، تقوم لجنة الأخلاق بتقييم عوامل عِدَّة: إنْ كان الإجراء في صالح المراهق، ومقدار المخاطرة/ الفائدة، وعمر ونضج المراهق، والحجّة التي يُقدِّمها أو تقدِّمها».

يسأل كامبل: «هل حدث مرَّة أنْ انعقدتْ لجنة الأخلاق في مستشفى بروفيدنس بخصوص العناية بكيت فيتزجيرالد؟».

يقول الدكتور بيرغن: «في مناسبتين. الأولى تضمّنت السماح لها بخوض تجربة نقل دم من خليّة جذعيّة مُحيطيّة في عام 2002، حين فشلتْ عملية نقل نقي عِظامها وخيارات أخرى عديدة. والثانية، حديثة العهد، تضمّنتْ ما إذا كان في مصلحتها أنْ تتلقّى كلية موهوبة».

«وماذا كانت النتيجة، دكتور بيرغن؟».

«أوصينا بأنْ تُجرى لكيت فيتزجيرالد عمليّة نقل دم مُحيطيّة من خليّة جذعيّة. أما عن الكلية، فانقسمت مجموعتنا حول هذا القرار».

«هلّا شرحتَ لنا؟».

«شعر عددٌ منا أنَّ العناية بصحّة المريض، عند هذه النقطة، قد تدهورتْ إلى درجة أنَّ إجراء عملية نقل دم واسعة سوف تُسبِّب أذى أكثر مما تقدِّم من فائدة. واعتقد آخرون أنّه من دون إجراء عمليّة نقل، سوف تموت، ولذلك فإنّ كفّة الفوائد ترجح على كفّة المخاطِر».

«إنْ كان فريقك قد انقسم على نفسه، مَنِ الذي اتّخذَ القرار النهائي؟».

«في حالة كيت، ولأنّها ما زالت قاصراً، أبواها».

«في المرتين اللتين التأم خلالهما جمع اللجنة بشأن المعالجة الطبيّة لكيت، هل ناقشتم المخاطر والفوائد التي تعود إلى الواهب؟».

«لم يُطرَح ذلك الموضوع-».

«وماذا عن موافقة الواهب، آنّا فيتزجيرالد؟».

وجّه الدكتور نظرةً مُباشرة إليّ، متعاطفة، اتَّضحَ أنّها أسوأ من اعتقاده

أنّني شخص شنيع لأنني رفعتُ دعوى أصلاً. وهزَّ رأسه: «من الشائع بلا كلام أنّه لا توجد مستشفى في البلاد سوف تقبل أخذ كلية من طفلة لا ترغب في وهبها».

«إذن، نظريّاً، إنْ كانت آنّا تحارب هذا القرار، ففي الغالب أنّه سوف ينتهي بهذه القضية إلى الاستقرار على طاولة مكتبك؟».

«حسن–».

«هل وصلتْ قضيّة آنّا إلى طاولة مكتبك، يا دكتور؟».

«كلا».

تقدَّم كامبل منه. «هلّا أخبرتنا عن سبب ذلك».

«لأنها ليست مريضة».

«حقاً؟». ويُخرِجُ كميّة من الأوراق من حقيبة أوراقه، ويُعطيها للقاضي، ومن ثم للدكتور بيرغن. «هذه سجلات أيام آنّا فيتزجيرالد في مستشفى بروفيدنس خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية. ما الداعي إلى وجود سجلات لها إنْ لم تكن مريضة؟».

يتصفّحها الدكتور على عجل. يعترف «لقد خَضَعَتْ لعدَّة إجراءات واسعة».

أقول في نفسي، *انطلق، يا كامبل*. أنا لا أؤمن بالفرسان الذين ينطلقون على صهوات جيادهم لإنقاذ آنسات في خطر، لكنني أراهن على أنَّ الأمر شبيه بهذا. «ألا ترى من الغرابة أنّه خلال ثلاثة عشر عاماً، بالنظر إلى ضخامة هذا الملفّ ولكونه موجوداً أصلاً، لم تجتمع لجنة الأخلاقيّات الطبيّة مرة واحدة لمناقشة ما حدث لآنّا؟».

«كنا معتقدين أنَّ عملية الوهب تمّت بموافقتها».

«هل تقصد بهذا لو أنَّ آنّا كانت قبل ذلك قد قالتْ إنها لا تريد أنْ تعطي خلايا الكريات البيضاء أو دم الحبل السرّي أو حتى عدّة طوارئ في حقيبة ظهرها – هل كانت لجنة الأخلاقيات ستتصرَّف بطريقة مختلفة؟».

يقول الطبيب النفسي ببرودة: «أنا أعلم إلى أين تريد أنْ تصل بهذا، يا سيد كامبل. والمشكلة هي أنَّ هذا النوع من الوضع الطبّي لم يوجَد من قبل. لا سابقة له. ونحن نحاول أنْ نتحسَّس طريقنا بأفضل أسلوب».

«أليس من صُلب عملك كأحد أعضاء لجنة الأخلاقيات أنْ تنظر في الوضع الذي لم يوجد مثيل له من قبل؟».

«في الواقع، نعم».

«دكتور بيرغن، حسب رأيك كخبير، هل من صالح آنّا فيتزجيرالد أخلاقيّاً أنْ يُطلَب منها أنْ تهِبَ أجزاءً من جسمها باستمرار وطوال ثلاثة عشر عاماً؟».

تهتف أمي: «أعترض!».

يُداعب القاضي ذقنه. «أريد أنْ أسمع هذا».

يرميني الدكتور بيرغن بنظرة أخرى. «بكل صراحة، حتى قبل أنْ أعرف أنَّ آنّا لم ترغب في تقاسُم أعضائها، *اعترضتُ* على وهبها كليتها لأختها. لا أصدِّق أنَّ كيت سوف تعيش بسبب عمليات نقل الأعضاء، ولذلك سوف تخضع آنّا لعمليّة جراحيّة خطرة من دون أي سبب. ولكن حتى الآن أعتقد أنَّ خطر الإجراءات ضئيل، مقارنة بالفائدة التي ستجنيها العائلة ككل، وأنا أدعم الخيارات التي قام بها آل فيتزجيرالد من أجل آنّا».

تظاهر كامبل بأنّه يُفكِر في هذا الكلام. «دكتور بيرغن، أي نوعٍ من السيارات تقود؟».

«بورش».

«أراهن على أنّها تعجبك».

يقول بحذر: «نعم».

«ماذا لو أخبرتك بأنَّ عليك أنْ تتخلّى عن سيارتك قبل أنْ تغادر قاعة المحكمة هذه، لأنَّ هذا التصرّف سوف يُنقِذ حياة القاضي ديسالفو؟».

«هذا سُخف. أنت—».

يميل كامبل. «ماذا لو أنَّ لا خيار آخر لديه؟ ماذا لو على الأطبّاء النفسيين، اليوم، أنْ ينفّذوا بكل بساطة ما يرى المُحامون أنّه في صالح الآخرين؟».

يُدير عينيه في مِحجريهما. «على الرغم من الدراما الراقية التي تُلمِّح إليها، يا سيد كامبل، هناك حقوق أساسيّة للواهب، إجراءات وقائيّة وُضِعَتْ في مواقعها المناسِبة في المُداواة، بحيث إنَّ الفائدة الكبرى لا تسحق الروّاد الذين ساعدوا على تحقيقها. إنَّ للولايات المتحدة تاريخاً طويلاً وقذراً من

سوء استخدام الموافقة الجوهريّة، وهذا ما أدّى إلى وضع قوانين تتعلّق بالبحث في المواضيع الإنسانيّة. إنّها تقي الناس من استغلالهم كأنهم فئران اختبار».

يقول كامبل: «إذن أخبرنا، كيف حدث وتسلّلتْ آنّا فيتزجيرالد من بين الشقوق؟».

عندما لم أكنْ قد تجاوزتُ السابعة من العمر، كان هناك احتفالٌ جماعيّ في الشارع في حيّنا. وهو سيئ كما قد تعتقد: حيث قوالب الهلام وأبراج من مكعبات الجبن والرقص في الشارع على أنغام موسيقى تنبعث من جهاز ستيريو في غرفة أحد القاطنين. وأنا، طبعاً، لا أتذكَّر أي شيء من هذا – كنتُ أتعثّر على أحد تلك الأجهزة التي تساعد الأطفال على المشي قبل أنْ يبدأ الأطفال يقلبونها ويضربون رؤوسهم بالأرض ويتأذون.

على أيّة حال، كنتُ على جهازي ذاك، أدور في المكان بين الطاولات وأراقب الأطفال الآخرين، كما تقول القصة، وفجأة تعثّرتُ بخطوتي بصورة ما. كانت بنايتنا تقوم على الناصية، وفجأة أخذت الدواليب تتحرّك بسرعة أكبر من قدرتي على إيقافها. واندفعتُ بسرعة ماراً بالبالغين، تحت متراس كان رجال الشرطة قد وضعوه في نهاية الطريق لسدّه في وجه حركة المرور، وكنتُ أتّجه يميناً نحو شارع ممتلئ بالسيارات.

لكنَّ كيت ظهرت فجأة وهرعت لتلحق بي. ونجحت بطريقة ما في الإمساك بي من خلفيّة قميصي قبل أنْ أرتطم بسيارة تويوتا منطلقة بلحظات.

وبين حينٍ وآخر يحكي شخص في المبنى هذه الحكاية. وأنا أتذكّر تلك الفترة على أنها الفترة التي أنقذتني فيها، بدل العكس.

تحظى أمي بالفرصة الأولى للقيام بدور المحامي. تقول: «دكتور بيرغن، منذ متى وأنتَ تعرف عائلتي؟».

«إنني موجود في مستشفى بروفيدنس منذ عشرة أعوام».

«خلال تلك السنوات، متى تعرَّفتَ إلى بعض أوجه معالجة كيت، وماذا فعلت؟».

يقول: «وضعتُ خطّةً للعمل أُخِذَ بها، أو بديل عنها، إذا أمكن».

«عندما فعلتَ ذلك، هل ذَكَرتَ في أيّة نقطة من تقريرك أنّه لا ينبغي لآنّا أنْ تكون جزءاً منه؟».

«كلا».

«هل قلتَ إنَّ ذلك سوف يتسبَّب في أذى بالغ لآنّا؟».

«كلا».

«أو أنّه سوف يُعرِّضها لخطر طبّي فادح؟».

«كلا».

ربما ليس كامبل، بعد كل ذلك، هو الذي سيكون فارسي الأبيض. ربما هي أمي.

تسأل: «دكتور بيرغن، هل لديك أطفال؟».

يرفع الدكتور بصره «عندي ابن. في الثالثة عشرة».

«هل حدثَ أنْ اطّلعتَ على القضايا التي تأتي إلى لجنة الأخلاقيات الطبيّة ووضعتَ نفسك في مكان المريض؟ أو بالأحرى، في مكان الأبوين؟».

يعترف «فعلتُ».

تقول أمي: «لو كنتَ في مكاني، وأعادتْ إليك لجنة الأخلاق الطبيّة قطعة من الورق تضم سياقاً مُقترَحاً للعمل سوف يُنقِذ حياة ابنك، هل تطرح المزيد من الأسئلة... أم تُسرع بانتهاز الفرصة؟».

لا يُجيب. ليس مُضطراً إلى ذلك.

بعد ذلك أعلنَ القاضي ديسالفو فترة استراحة ثانية. ويقول كامبل شيئاً عن النهوض ومدَّ ساقيه. وأتبعُه، وأتقدَّم أمي. وفي أثناء مروري بها، أشعر بيدها تلمس خصري، وتشدّ طرف قميصي الرياضي، الذي خرج طرفه في الخلف. إنها تكره الفتيات اللواتي يرتدين ملابس بحمّالات، ويأتين إلى المدرسة بملابس مُهلهلة، وكأنهنّ يجربن ملابس الراقصات في فيديو لبريتني سبيرز بدل الذهاب لحضور درس في الرياضيات. أكاد أسمع صوتها: أرجوك *قولي لي إنَّ هذا الثوب انكمش في الغسيل*.

يبدو أنها تُدرك أنّه ما كان ينبغي أنْ تشدّني. أتوقف، ويتوقف كامبل، أيضاً، ويحمرّ وجهها بشدّة. تقول «آسفة».

أضعَ يدي فوق يدها وأُقحِمُ طرف قميصي داخل بنطلون الجينز إلى مكانه الصحيح. وأنظر إلى كامبل. «أراك في الخارج؟».

يرميني بنظرة تعني بالكامل أنها **فكرة سيئة**، لكنّه يومئ برأسه موافقاً ويتابع سيره بين المقاعد. ثم نُصبح أنا وأمي وحدنا تقريباً في قاعة المحكمة. أميل وأُقبّلها على وجنتها. أخبرها «لقد قمتِ بعملٍ عظيم»، لأنني لا أعلم كيف أقول ما أريد قوله حقاً: أي إنَّ الأشخاص الذين تُحبينهم يمكن أنْ يُفاجئوك في كل يوم. وإنَّ ما نحن عليه لا صِلة له بما نفعل، بل بالأحرى بما نقدر على فعله عندما لا يُتوقَّع منا ذلك.

سارة

2002

تُقابِلُ كيت تيلر أمبروز عندما يجلسان جنباً إلى جنب، وهي موصولة بأنابيب الأوردة. تسأله: «ما سبب وجودك هنا؟»، وفي الحال أرفع نظري عن كتابي، لأنه طوال السنوات التي كانت خلالها كيت تتلقّى العلاج كمريض خارجيّ لا أتذكَّر أنها فتحتْ أي حديث مع أحد.

الولد الذي تتحدث معه لا يكبرها كثيراً في السن، ربما هو في السادسة عشرة وهي في الرابعة عشرة. له عينان بنيّتان ترقصان، ويرتدي قلنسوة رياضيّة على رأسه الأصلع. يُجيب «الكوكتيل المجّانيّ» وتتعمّق الغمّازتان على وجنتيه.

ترسم كيت ابتسامة واسعة. تقول: «ساعة سعيدة»، وتنظر عالياً إلى كيس صفائح الدم الموصولة بها.

«اسمي تيلر» ويمدّ يده. «مُصاب بسرطان نقيّ العِظام».

«وأنا كيت مُصابة بسرطان الدم».

يُصفِّر، ويرفع حاجبيه. يقول «أووه. حالة نادرة».

أراقبُ هذا، مذهولة. مَنْ هذا المتودِّد، وماذا فعل لابنتي الصغيرة؟

يقول، وهو يُنعِم النظر إلى الرقعة التي على كيس الدم، «صفائح الدم. أنت في مرحلة تخفيف الألم؟».

«في هذا اليوم، على أي حال»، وتنظر إلى قطبه، الكيس الأسود الشفّاف الذي يُغطي السايتوكسان. «علاج كيميائيّ؟».

يقول تيلر: «نعم. في هذا اليوم على أي حال. إذن، أخبريني يا كيت».

كان يبدو عليه سن السادسة عشرة المغرور الممشوق، برُكبٍ بارزة وأصابع

ثخينة وعِظام وجه عالية لم تكتمل بعد. وعندما يعقد ذراعيه على صدره، تنتفخ عضلاته. وأدركُ أنّه يفعل ذلك عن عمد، وأُخفضُ رأسي لأُخفي ابتسامة. «ماذا تفعلين عندما لا تكونين في مستشفى بروفيدنس؟».

تفكِّرُ، ومن ثم تُضيءُ وجهها ابتسامةٌ بطيئة تخرج من الداخل إلى الخارج. «أنتظرُ شيئاً يدفعني إلى العودة».

هذا يجعل تيلر يضحك بضجيج مرتفع. يقول: «ربما في وقتٍ ما ننتظر معاً»، ويُعطيها قطعة الورق التي تُغلِّف نسيج الشاش. «هل لي أنْ أحصل على رقم هاتفك؟».

تدوّن كيت الرقم بينما يبدأ أنبوب علاج تيلر يُصدر صفيراً. تدخل الممرضة وتفصل خطّه. تقول: «يجب أنْ تخرج من هنا يا تيلر. أين عربتك؟».

«تنتظر في الطابق السفليّ. أنا جاهز»، وينهض عن الكرسيّ المُبطَّن ببطء، بل بضعف، وهو أول شيء يُذكِّر بأنَّ هذا الحديث ليس عاديّاً. يضع قُصاصة الورق التي تضم رقم هاتفنا في جيبه. «حسن، سوف أتّصل بك، كيت».

عندما يُغادر تزفر كيت كل أنفاسها بحركة ختاميّة استعراضيّة. وتدير رأسها لتتابعه. تشهق: «أوه يا إلهي. إنه مُبهِر».

تبتسم الممرضة، التي تتفحّص التدفّق عندها. «أنا أفهم مشاعرك، يا عزيزتي. ليتني كنتُ أصغر سناً بثلاثين عاماً».

تلتفتُ كيت نحوي، مُشرقة. «أتظنين أنّه سيتصل؟».

أقول «ربما».

«إلى أين سنذهب في اعتقادك عندما نخرج معاً؟».

أفكِّرُ في براين، الذي لطالما قال إنَّ كيت يمكن أنْ يكون لها صديق... عندما تبلغ الأربعين. أقترح قائلة: «فلنتابع الأمر خطوة فخطوة». ولكن في داخلي، كنتُ أغنّي.

كان للزرنيخ، الذي وضع كيت في حالة استرخاء، فعلُ السِّحر بإضعافها. أما تيلر أمبروز، فهو عقار من نوعٍ مختلفٍ تماماً، يفعل فعله الساحر عن طريق دعمي. وأصبحتْ عادة: عندما يرنّ جرس الهاتف عند الساعة السابعة

مساءً، تهرع كيت تاركة وجبة العشاء وتختبئ داخل الخزانة مع السمّاعة المحمولة. وتزيل بقيّتنا أطباق العشاء ونقضي الوقت في غرفة الجلوس ثم نستعدّ للنوم، ونسمع ما هو أكثر من ضحكٍ مكبوت وهمسات، ثم تخرج كيت من شرنقتها، متورّدة ومتوهّجة، وتأثير الحب الأول يخفقُ كالعصفور الطنّان على وقع نبض حنجرتها. وكلما حدث ذلك، لا يسعني إلّا أنْ أُحدِّق إليها، ليس السبب جمال كيت الفائق، على الرغم من أنّها كذلك؛ بل لأنني لم أدعْ نفسي أُصدِّق أنني سوف أراها مكتملة النموّ.

ذات ليلة أتبعها إلى غرفة الحمّام، بعد إحدى جلسات المكالمة الهاتفيّة الماراثونيّة. تَتأمَّل كيت نفسها في المرآة، تزمّ شفتيها وترفع حاجبيها في وضعيّة الغواية. وترفع يدها إلى شعرها المقصوص قصيراً - بعد العلاج الكيميائيّ، لم ينمُ أبداً ليعود متموّجاً، بل أصبح فقط كتلة كثّة من الشعر المستقيم الذي كانت تعالجه برغوة خاصة لكي يبدو شعّثاً. تفتحُ راحة يدها، وكأنها ما زالتْ تتوقع أنْ تراه يتساقط.

تسأل كيت: «ماذا تظنين أنّه يرى عندما ينظر إليّ؟».

أقتربُ لأقفَ خلفها. إنها ليست صورة مني -بل جِسّ هو كذلك- ومع ذلك عندما تضعنا جنباً إلى جنب، فسوف تجد حتماً أوجه تشابُه. ليس في شكل الفم بل في وضعه، في محض التصميم الذي يلمع في عيوننا.

أخبرها بكل صدق: «أعتقد أنّه يرى فتاةً تعرفُ ما يُعاني».

تقول: «فتحتُ الإنترنت وقرأتُ عن سرطان نقي العِظام. إنَّ النوع الذي يُصيبه من السرطان يحظى بنسبة عالية من فُرص الشفاء». وتلتفتُ إليّ. «عندما تهتمين أكثر بنفسك إذا كان هناك شخص آخر سيعيش أكثر منكِ... فهل هذا حبّ؟».

فجأة يُصبح من الصعب أنْ أنتزع جواباً من خلال مجرى حنجرتي. «بالضبط».

تفتح كيت الحنفيّة وتغسل وجهها برغوة الصابون، أناولها منشفة، وبينما هي تبرز من وسط سحابتها، تقول: «سوف يحدث أمرٌ سيئ».

أفتّشُ، بانتباه، عن تفسير. «ما الأمر؟».

«لا شيء. ولكن هكذا يحدث دائماً. إنْ كان هناك شيء جيد في حياتي كحضور تيلر، فسوف أدفع ثمنه».

أقول بدافع العادة «هذا أسخف ما سمعت»، ومع ذلك فإنَّ فيه قدراً من الحقيقة. على أي حال إنَّ الذي يُصدِّق أنَّ الناس يتمتّعون بسيطرة مُطلقة على ما تمنحه الحياة لهم يكفي أنْ يتخيَّل نفسه يعيش يوماً واحداً مكان طفلة تُعاني سرطان الدمّ. أو أمها. أقول «لعلّك أخيراً تحظين بفترة استراحة».

بعد ذلك بثلاثة أيام، وفي أثناء الإحصاء التقليديّ لعدد خلايا الدم، يُخبرنا الأخصّائي في هذا المجال أنَّ كيت تنتج من جديد خلايا بيضاء مؤذية، هي أول دفعة تنزلق على منحدر الانتكاس.

أنا لا أسترقُ السمع أبداً، على الأقلّ ليس عن عمد، حتى تلك الليلة التي عادتْ فيها كيت من موعدها الأول مع تيلر، عندما خرجا لمشاهدة فيلم سينمائيّ. تسلَّلتُ خِلسة إلى غرفتها وجلستُ على سريرها. وسألتها «أنتِ يقظة؟».

تقلّبتْ آنّا وهي تئن. «أصبحتُ يقظة الآن». وزال عنها النعاس، كوشاح سقط على الأرض. «كيف كانت السهرة؟».

تقول كيت «رائعة»، وتضحك. «رائعة».

«إلى أي درجة؟ إلى درجة التقبيل مع مصّ اللسان؟».

تهمس كيت: «أنت مُقرفة جداً»، على الرغم من أنها كانت تبتسم. «لكنّه جيد حقّاً في التقبيل» وتُدلّي لسانها كصيّاد سمك.

ينتعش صوت آنّا: «مستحيل! فكيف شعرتِ؟».

تُجيب كيت: «كأنني أطير. أعتقد أنَّ هذا أقرب تشبيه».

«لا أفهم ما أوجه التشابه بين هذا وأنْ يُغرقكِ أحدهم بلعابه».

«يا إلهي، يا آنّا، إنه لا يشبه البصق عليك».

«ما هو طعم تيلر؟».

«طعمه فشار» وتضحك. «ورجل».

«كيف عرفتِ ماذا تفعلين؟».

«لم أكن أعرف. حدث الأمر تلقائياً. كما تلعبين الهوكي».

أخيراً، أصبحَ لهذا معنى بالنسبة إلى آنّا. تقول: «حسن، إنني أشعر بسعادة عندما أفعل ذلك».

تتنهّد كيت: «لن تتخيّلي مدى السعادة». أسمع صوت حركة؛ أتخيّلها تخلع ملابسها. أتساءل إنْ كان تيلر يتخيّل الشيء نفسه، في مكان ما.

ويصدر صوت لكم الوسادة، ونزع كيس، وحفيف أغطية بينما كيت تحاول أنْ تأوي إلى السرير وتتدحرج إلى جانبها من السرير. «آنّا؟».

«همم؟».

تُغمغم كيت، «لديه نُدب على راحتي كفّيه، من آثار المُعالجة. كنتُ أشعر بها وهو يمسك بيدي».

«أكان إحساساً يُثير الاشمئزاز؟».

تقول: «كلا، شعرتُ أننا متماثلان».

في أول الأمر، لم أتمكن من دفع كيت إلى الموافقة على الخضوع لعملية نقل دم خليّة أساسيّة مُحيطيّة. رفضَتْ لأنها لم ترغب في الذهاب إلى المستشفى لتلقّي العلاج الكيميائيّ، ولم ترغب في الجلوس في العزل العكسيّ على مدى الأسابيع الستة التالية في حين يمكنها أنْ تخرج مع تيلر أمبروز. أُشير إليها «إنها حياتك»، فتنظر إليّ كأنّي مجنونة.

تقول: «بالضبط».

في النهاية، نتوصل إلى تسوية. يوافق فريق قسم الأورام على ترك كيت تباشر علاجها الكيميائيّ كمريض خارجي، استعداداً لعملية النقل من آنّا. وفي المنزل، توافق على وضع قِناع. وعند أول مؤشّر على انخفاض العدد، سوف تذهب إلى المستشفى. لم يكونوا راضين؛ كانوا قلقين من أنْ يؤثّر ذلك على الإجراءات، لكنهم مثلي فهموا أيضاً أنَّ كيت قد بلغت السن الذي تستطيع عنده أنْ تساوم بمحض إرادتها.

وكما اتَّضحَ، لم يؤدِّ هذا القلق من الفصل إلى شيء، بما أنَّ تيلر حضر ليشهد أول جلسة علاج كيميائيّ لكيت كمريض خارجيّ. «ماذا تفعل هنا؟».

بمزح: «يبدو أنني لا أقدر على البقاء بعيداً. مرحباً، سيدة فيتزجيرالد»، ويجلس بجوار كيت على الكرسي المجاور الفارغ. «يا إلهي، أمرٌ ممتع أنْ أجلس هنا من دون أنْ أكون موصولاً بالأنابيب».

تتمتم كيت: «استمرّ في إزعاجي».

يضع تيلر يده على ذراعها. «إلى أي مدى وصلت؟».

«بدأتُ تواً».

ينهض ويجلس على الذراع العريضة لكرسي كيت، ويرفع حوض القيء عن حجر كيت. «أراهن بمائة دولار على أنكِ لن تستمري حتى الساعة الثالثة من دون أنْ تلفظي ما أكلتِ من كعك».

تُلقي كيت نظرة على ساعة الجدار. إنها الثانية وخمسون دقيقة. «قبلتُ الرهان».

يرسم ابتسامة خبيثة واسعة. «ماذا أكلتِ على الغداء؟ أم هل أُخمِّن اعتماداً على الألوان؟».

تقول كيت: «أنتَ مُقرِف»، لكنَّ ابتسامتها واسعة كالبحر. يضعُ تيلر يده على كتفها. وتميل نحو الاتصال.

في أول مرّة لمسني براين، أنقذَ حياتي. كانت الأمطار الغزيرة تنهال على بروفيدنس، أمطار شماليّة شرقيّة هيّجت الأمواج وغمرت كامل موقف سيارات دار المحكمة بالماء. عندما أخلوا المكان منّا كنتُ أعمل كاتبة هناك. كان القسم الذي يعمل فيه براين هو المسؤول عن الوضع؛ مشيتُ إلى الدرج الحجريّ للمبنى فرأيتُ السيارات تمر من أمامي طافية، ومحافظ نقود متروكة، بل كان هناك حتى كلب فزِع يتخبّط. وبينما كنتُ أضع المذكرات في أضابير، كان العالم كما أعرفه قد غرق. سألني براين، وهو بكامل ملابس العمل، «أتحتاجين إلى مُساعدة؟» ومدّ لي ذراعيه. بينما كان يسبح بي إلى مستوى أرض أعلى، ضربني المطر على وجهي ورجم ظهري. وتساءلتُ كيف أشعر كأنني أُحرَق حيّة وأنا وسط الفيضان.

تسأل كيت تيلر: «ما هي المدة الأطول التي مررت بها قبل أنْ تتقيّأ؟».

«يومان».

«*مستحيل*».

ترفع الممرضة نظرها عن أعمالها المكتبيّة، وتؤكّد «هذا صحيح. أنا رأيت ذلك بعينيّ».

يبتسم تيلر لها. «كما قلتُ لكِ، أنا بارع في هذا»، ونظر إلى ساعة الجدار: إنها الثانية وخمس وسبعون دقيقة.

تقول كيت: «أليس هناك مكان آخر تفضّل أنْ تكون فيه؟».

«أتحاولين أنْ تتملّصي من الرهان؟».

«بل أحاول أنْ أعفيك منه. على الرغم من –» وقبل أنْ تتمكّن من إكمال الجملة، يخضرّ لونها. ننهضُ أنا والممرضة معاً عن مقعدينا، لكنَّ تيلر يصل إلى كيت أولاً. ويحمل وعاء القيء ويضعه تحت ذقنها وعندما تباشر التقيّؤ، يدعكُ بيده بحركة دائريّة أعلى ظهرها.

يُهدِّئها: «لا بأس»، مُقترباً من صِدغها.

نتبادل أنا والممرضة النظرات. تقول الممرضة: «يبدو أنّها بين يدين خبيرتين»، وتستأذن لكي تعتني بمريضٍ آخر.

بعد أنْ تنتهي كيت، يضع تيلر الوعاء جانباً ويمسح لها فمها بمنديل من ورق. ترفع بصرها إليه، بعينين متوهّجتين وتحمرّ خجلاً، وأنفها لا يزال يجري. تتمتم «آسفة».

يقول تيلر: «علامَ؟ غداً قد يُصبح هذا حالي».

أتساءل إنْ كانت الأمهات كلّهن هكذا لحظةَ يُدركنَ أنَّ بناتهنّ ينضجن – وكأنَّ من الممكن تصديق أنَّ الغسيل الذي طويته ذات يوم لأجلها كان بحجم ملابس دمية؛ كأنَّ ما زال باستطاعتي أنْ أراها ترقص بحركات الباليه الكسول على حافة صندوق رمال. ألم تكن يدها بالأمس القريب بحجم قنفذ دولار الرمل[1] الذي عثرنا عليه على الشاطئ؟ تلك اليد نفسها، اليد التي تُمسك يد الفتى؛ ألم تكن تُمسِك بيدي وتشدّها لكي أتوقف وأشاهد شبكة العنكبوت، وقرنة حشيشة اللبن، من بين ألف لحظة أرادت مني خلالها أنْ

1– دولار الرمل: من الكائنات البحريّة، على غرار نجم البحر. المترجم.

أتوقف؟ إنَّ الزمن وهمٌ بصريّ – ليس صلباً أو قويّاً كما نعتقد. قد تعتقد أنني تنبّأتُ بحدوث هذا، فيما يخصّ كل شيء. ولكنْ عندما أراقبُ كيت وهي ترنو إلى هذا الفتى، أدركُ أنّه ما زال أمامي أشياء كثيرة يجب أنْ أتعلّمها.

تتمتم كيت: «يا لي من صديقة مُسلّية».

يبتسم تيلر لها. ويقول: «مقليات، على الغداء».

تصفعه كيت على كتفه. «أنتَ مُقرِف».

يرفع أحد حاجبيه. «لقد خسِرتِ الرهان، كما تعلمين».

«يبدو أنني تركتُ ائتماني المالي في المنزل».

يتظاهر تيلر بأنّه يتفحّصها. «حسن، أعلمُ ماذا باستطاعتك أنْ تُعطيني بدل ذلك».

تقول كيت، ناسية وجودي هناك، «خدمات جنسيّة؟».

يضحك تيلر: «يا إلهي، لا أعلم. هل نسأل أمّك؟».

يحمر وجهها. «آخ».

أحذّرهما: «إذا استمررتما على هذا المنوال، فإنَّ موعدكما التالي سيكون في أثناء جلسة نقل نقي العِظام».

«أنتِ تعلمين أنَّ في المستشفى هذه الرقصة؟». وفجأة، يبدأ تيلر يرقص، يقفز بركبتيه إلى أعلى وإلى أسفل. «إنها من أجل الأطفال المرضى. يوجد هناك أطباء وممرضات، تحسّباً، وهي تؤدّى في قاعات الاجتماع في المستشفى، ولكن في الغالب إنها فقط أشبه بحفلٍ راقصٍ؟ كما تعلمين، فرقة عرجاء، وملابس قبيحة، ومشروب بنش من صفائح الدم»، ويبتلع. «إنني فقط أمزح بشأنِ هذا الجزء الأخير. حسن، ذهبتُ في العام الفائت إلى حفلة خاصة بالرجال، وكانت مملّة جداً، لكنني أعتقد أنّه بما أنكِ مريضة وأنا مريض قد نستطيع في هذا العام أنْ نذهب معاً».

تفكّر كيت في العرض، بثقة في النفس لم أكنْ أعلم أبداً أنها تتصِف بها. «متى ستُقام؟».

«في يوم السبت».

«كما يتبيّن، ليست لديّ خطط للموت في ذلك اليوم»، وأشرقتْ في وجهه، «لذلك يُسعدني أنْ أذهب».

يقول تيلر مُبتسماً: «عظيم. عظيم جداً». يمدّ يده لتناول وعاء جديد، حريصاً على ألّا يمس أنبوب كيت، الذي يتلوّى مارّاً بينهما. وأتساءل إنْ كان قلْبَها يخفق بقوة، وإنْ كان ذلك سيؤثّر على معالجتها الطبيّة. وإنْ كان مرضها، عاجلاً وليس آجلاً، سيتفاقم. يسند تيلر كيت على تجويف ذراعه. ومعاً، ينتظران ما سيحدث بعد ذلك.

***

أقول، بينما كيت تحمل ثوباً بلون أصفر فاتح تحت عنقها، «إنه قصير جداً». ومن البقعة التي تجلس عليها من أرض محل بيع الملابس، تُعطي آنّا رأيها أيضاً، «سوف تبدين فيه كأنك ثمرة موز».

كنا نتسوّق من أجل شراء ثوب للحفل الموسيقيّ منذ ساعات طويلة. لم يكن أمام كيت أكثر من يومين للاستعداد لذلك الحفل الراقص، وتحوّلَ الأمر إلى هوس: ماذا سترتدي، كيف ستضع مساحيق وجهها، وإذا كانت الفرقة الموسيقيّة ستعزف أيَّ شيء راقياً قليلاً. وطبعاً، شَعرها ليس مشكلة؛ فبعد المعالجة الكيميائيّة فَقَدَته كلّه. وهي تكره الشعر المُستعار –تقول إنها تشعر كأنها تضع حشرة ضخمة على فروة رأسها– لكنّها شديدة الحياء ولا تستطيع أنْ تظهر كأحد أفراد المغاوير. واليوم، تلفّ رأسها بوشاح مطبوع، كملكة إفريقيّة شاحبة، فخور.

لم يتطابق واقع هذا الخروج إلى الحفلة مع أحلام كيت. فالأثواب التي ترتديها الفتيات العاديات في الحفلات الموسيقيّة تكون مكشوفة عند الخصر والكتفين، حيث الندوب تكسو بشرة كيت وتجعلها سميكة. وتتوزّع في كل الأماكن غير المناسِبة. الأثواب مُفصّلة لتعرض جسداً صحيحاً، مُعافى، وليس لتُخفي افتقاره إليهما.

تأخذ البائعة التي تحوم كالطائر الطنّان الثوب من كيت. وتحثّها: «إنه في الواقع شديد الحشمة. ويُغطّي مساحة كبيرة من الشقوق».

تقول كيت ساخرة: «وهل سيغطي هذا؟»، وتحلّ أزرار بلوزتها الريفيّة لتكشِف عن أنبوب القسطرة الذي وُضِعَ حديثاً، ويبرز من مركز صدرها.

تشهق البائعة قبل أنْ تتذكَّر أنها يجب أنْ تتوقف عن ذلك. وتقول بوهن: «أوه».

أُعنّفها «كيت!».

تهزّ رأسها رفضاً. «دعينا نخرج من هنا».

حالما نُصبح في الشارع أمام محل بيع الملابس أهاجمها، «لمجرّد أنكِ غاضبة لا يعني أنْ يجب أنْ تصبّي غضبك على باقي العالم».

تردّ كيت: «في الحقيقة هي حقيرة. ألم تري كيف نظرتْ إلى وشاحي؟».

أقول بجفاف: «ربما كانت فقط مُعجبة بالزخارف».

«نعم، وربما سأستيقظ غداً ولا أكون مريضة». سقطتْ كلماتها كالجلاميد بيننا، وكسرت الرصيف. «لن أبحث عن ثوب سخيف. لا أعلمُ حتى لماذا أخبرتُ تيلر بأنني سأذهب أصلاً».

«ألا تعتقدين أنَّ كل فتاة أخرى سوف تحضر حفلة الرقص تلك هي في الوضع نفسه؟ وتحاول أنْ تعثر على أثواب تُخفي الأنابيب والرضوض الأسلاك وأكياس تفميم[1] القولون ويعلم الله ماذا أيضاً؟».

تقول كيت: «لا يهمني أي شخص آخر. أريد أنْ أبدو جميلة. بل جميلة جداً، في الحقيقة، ولو لليلة واحدة».

«إنَّ تيلر يراك أصلاً جميلة».

تهتف كيت: «كلا لستُ كذلك! لستُ كذلك، يا أمي، وربما أريد أنْ أكون كذلك *مرّة واحدة*».

إنّه يوم دافئ، يوم تبدو الأرض من تحت قدميك كأنّها تتنفّس. الشمس تضرب قمّة رأسي، وخلفيّة عنقي. ماذا أقول في ذلك؟ أنا لم أكنْ أبداً مثل كيت. لقد صلّيتُ وتوسّلتُ وأردتُ أنْ أكون المريضة بدلاً عنها، فيما يُشبه صفقة فاوست مع الشيطان، ولكن ليس هذا ما حدث.

أقترحُ: «فصّلي ثوباً. يمكنكِ أنْ تُصمّميه».

تتنهّد كيت: «أنتِ لا تُحسنين الخياطة».

«سأتعلّم».

«في يوم واحد؟» وتهزّ رأسها نفياً. «لا يمكنكِ أنْ تُصلحيه كل مرّة، يا أمي. كيف أعرفُ أنا هذا، ولا تعرفينه أنتِ؟».

1- تفميم: أي فتح ثغرة أو ثقب. المترجم.

تتركني واقفة على الرصيف وتنطلق بسرعة. تهرع آنّا خلفها، وتشبك ذراعها بمرفق كيت، وتجرّها نحو واجهة متجر لا يبعد كثيراً عن محل بيع الملابس، بينما أسرعُ لألحق بهما.

إنّه محل حلاقة، ممتلئ بمُصفّفات شعر يمضغن اللبان. وتكافح كيت لكي تتخلّص من آنّا، لكنَّ آنّا تستطيع أنْ تكون قويّة عندما تريد. تقول آنّا، وتُلفِتُ إليها انتباه موظفة الاستقبال: «هيه، هل تعمل هنا؟».

«عندما أُضطرّ إلى ذلك».

«هل تُصفّفون تسريحات خاصة بحفلات الرقص؟».

تقول مُصفّفة الشعر: «طبعاً، تقصدين إلى الخلف؟».

تنظر آنّا إلى كيت، التي كانت قد كفّتْ عن القتال، «نعم. من أجل أختي». وتتوهج ابتسامة ببطء على وجهها، كيراعة علقتْ في وعاء من الهلام.

تقول كيت بخبث: «نعم. من أجلي»، ثم تزيح الوشاح عن رأسها الأصلع.

يسكت كل مَنْ في صالون الحلاقة عن الكلام. وتقفُ كيت منتصبة باستقامة. وتتابع آنّا قائلة: «نحن نفكّر في الجدائل الفرنسيّة».

وتُضيف كيت: «بلفافات الشعر».

تضحك آنّا ضحكاً مكبوتاً. «وربما مع شينيون جميل».

تبتلع مُصفّفة الشعر لعابها، وهي عالقة بين الصدمة والتعاطف والدقّة السياسيّة. «في الواقع، أومم، قد نتمكّن من فعل شيء لأجلك»، وتتنحنح. «كما تعلمين، هناك دائماً إضافات».

تردِّد آنّا خلفها، «إضافات»، وتنفجر كيت بالضحك.

تبدأ مُصففة الشعر بالنظر إلى خلف الفتاتين، نحو السقف. «هل هذا شيء أشبه بالـ *«الكاميرا الخفيّة»*؟».

عند سماع هذا، تنهار ابنتاي كلٌّ بين ذراع الأخرى، في ضحكٍ مُهستر. وتضحكان إلى أنْ تعجزا عن التقاط أنفاسهما. تضحكان إلى أنْ تبكيا.

***

بوصفي مُرافقة في حفلة مستشفى بروفيدنس الراقصة، فإنني مسؤولة عن مشروب البنش. وكأي نوع آخر من الطعام أُحضِرَ من أجل المُحتفلين،

هو من أجل المرضى. وكانت الممرضات -اللواتي كنّ عرّابات حسناوات في تلك الليلة- قد حوّلنَ غرفة الاجتماعات إلى قاعة رقص رائعة، جُهِّزت بالرايات وبكرة الديسكو وبإضاءةٍ تناسب المزاج العام.

كانت كيت كالتعريشة التي تمتد حول تيلر. رقصا على وقع موسيقى مختلفة تماماً عن إيقاع الأغنية التي تُعزَف. وارتدتْ كيت قناعها الأزرق الإجباريّ. وكان تيلر قد أهداها باقة زهر لتعلّقها في صدرها مصنوعة من الحرير، لأنَّ الزهر الحقيقيّ يمكن أنْ يحمل أمراضاً لا يستطيع المرضى ذوو المناعة الضعيفة مكافحتها. وفي النهاية، لم أخيّط ثوباً؛ بل عثرتُ على واحد على الإنترنت على موقع Bluefly.com: ثوب شيث[1] ذهبيّ، جُعِلَتْ ياقته على شكل حرف **V** من أجل أنبوب قسطرة كيت. ولكن فوقه ارتدت قميصاً شفّافاً، طويلَ الكمّين، يُغطّي الخصر ويلمع كلما تحركت يميناً أو يساراً، بحيث إنكَ عندما تلاحظ الأنبوب الثلاثيّ يخرج من عظمة صدرها، تتساءل إنْ كانت خدعة من خِدع الأضواء.

التُقِطَت لنا ألف صورة فوتوغرافيّة قبل أنْ تغادر المكان. وعندما فرَّ تيلر وكيت هاربين وانتظراني في السيارة، ذهبتُ لأخفي آلة التصوير فوجدتُ براين في المطبخ وظهره نحوي. قلت: «هيه، ألنْ تودّعنا عند المغادرة؟ وترمي أرزاً؟».

ولم أُدرك إلّا بعد أنْ استدار أنّه جاء إلى هنا لكي يبكي. قال: «لم أتوقَّع أنْ أرى هذا. لم أعتقد أنّه سيأتي وقت يُصبح لديّ هذه الذكرى».

اقتربتُ حتى التصقتُ به، وحففتُ جسدي بجسده حتى شعرتُ كأننا نُحِتنا من الحجر الأملس نفسه. همستُ «انتظرنا»، ومن ثم غادرت.

الآن، أناول كأساً من البنش لفتى بدأ شَعره يتساقط بكتلٍ صغيرة. يتساقطَ على الياقة السوداء لبذلته الجوخ، يقول: «شكراً»، فأرى أنَّ لديه أجمل عينين رأتهما عيناي، سوداوين وما زالتا كعينيّ فهد. ثم أنظر بعيداً وأُدرك أنَّ كيت وتيلر قد غادرا.

ما أهميّة أنْ تكون مريضة؟ وما أهميّة أنْ يكون مريضاً؟ لقد قطعتُ عهداً

1- ثوب شيث: ثوب نسائيّ قطعة واحدة من دون أكمام أو بأكمام قصيرة. المترجم.

على نفسي ألّا أُغالي في حمايتها، ولكن هنا يوجد عدد هائل من الأطفال لا يستطيع طاقم المستشفى أنْ يتابع حالاتهم. وأطلبُ من أبٍ آخر أنْ يحلّ محلي على توزيع البنش ومن ثم أبحث عن مرحاض السيدات. وأتفحّص خزانة التجهيزات. وأمشي خلال ممرّات خالية وأروقة مُظلمة وحتى المُصلّى.

أخيراً أسمعُ صوت كيت من خلال باب مُشقَّق. إنها تقفُ مع تيلر تحت ضوء القمر، يُمسك كلٌّ منهما بيد الآخر. والفناء الذي عثرا عليه هو المُفضّل عند المُقيمين خلال فترة النهار؛ والأطباء الذين لا يرون ضوء الشمس يتناولون وجبات الغداء هنا.

أكاد أسأل إنْ كانا على ما يُرام وإذا بكيت تسأله «أتخاف الموت؟».

يهزّ تيلر رأسه نفياً. «ليس كثيراً. ولكن أحياناً، أفكِّر في جنازتي. إنْ كان الناس سوف يقولون أشياء جيدة عني، كما تعلمين. إنْ كان أحد سيبكي»، ويتردَّد، «حتى إنْ كان أحد سيحضر».

تعِده كيت: «أنا سأحضر».

يميل تيلر برأسه نحو كيت، وهي تقترب أكثر، وأدركُ أنَّ هذا هو سبب لحاقي بهما. كنتُ أعلم أنَّ هذا ما سأرى، وعلى غرار براين، أردتُ صورة فوتوغرافيّة أخرى لابنتي، صورة قد أمسك بها بقلق بين أصابعي كأنها قطعة من زجاج البحر. يرفعُ تيلر حواف قِناعها الصحيّ الأزرق وأعلم أنَّ عليّ أنْ أوقفه، أعلم أنني يجب أنْ أفعل، لكنني لا أفعل. أردتُ لها أنْ تحصل على كل ذلك.

عندما يتبادلان القُبل، يكون مشهداً جميلاً: تنحني رؤوس المرمر تلك معاً، ملساء كتماثيل -كوهم بصريّ- صورةٌ تعكسها مرآة تنطوي على نفسها.

عندما تنتقل كيت إلى المستشفى من أجل عملية زرع الخليّة الجذعيّة، تكون حطاماً من الانفعالات. إنها أقلّ اهتماماً بكثير بالسائل المتدفّق الذي يصبّ في قسطرها من اهتمامها بكون تيلر لم يتّصل بها منذ ثلاثة أيام، وأنّه في الحقيقة لم يردّ على مكالماتها. أسألها: «هل تشاجرتِ معه؟»، فتهزّ رأسها نفياً. أقول: «هل قال إنه ذاهب إلى مكانٍ ما؟ ربما يمرّ بحالة طارئة. ربما الأمر لا يتعلّق بكِ البتّة».

تجادل كيت: «ربما».

أشير «إذن أفضل انتقام منه هو أنْ تتحسّن صحتك وتعبّري عن رأيك الصريح به. سوف أعود في الحال».

في الرواق، أقتربُ من ستِفْ، الممرضة التي وصلت توّاً لتقوم بدوريتها وتعرف كيت منذ سنين. والحقيقة هي، أنني متفاجئة من عدم اتصال تيلر بقدر ما فوجئت كيت. إنه يعرف أنها قادمة إلى هنا.

أسأل ستِفْ: «هل ظهر تيلر أمبروز اليوم؟».

تنظر إليّ وتطرف بعينيها.

أقول مازحة: «الفتى الضخم، اللذيذ. صاحب الكتفين العريضَين».

تقول ستِفْ: «أوه، سارة... حسبتُ أنَّ أحداً لا بدّ أخبركم. لقد مات في صباح هذا اليوم».

لم أُخبر كيت، طوال شهر من الزمن. إلى أنْ كان اليوم الذي قال فيه الدكتور تشانس إنَّ كيت قد تعافَتْ بما يكفي لتغادر المستشفى، واقتنعتْ كيت بأنها تستطيع الاستغناء عن تيلر. لا أستطيع أنْ أبدأ بإخبارك الكلمات التي استعنتُ بها؛ ليس أي منها ضخم بالقدر الكافي ليحمل العبء. أخبرتها كيف ذهبتُ إلى منزل تيلر وتحدثتُ مع أمّه؛ وكيف انهارتْ بين ذراعيّ وقالتْ إنها أرادتْ أنْ تتصل بي، لكنَّ جزءاً منها شديد الغيرة ابتلعَ كلامها كلّه. أخبرتني أنَّ تيلر، الذي كان قد عاد من الحفلة الراقصة وهو يكاد يطير من فرط السعادة، دخل إلى غرفة نومها في منتصف الليل، مع حمّى مقدارها 40 درجة. وكيف ربما كان الأمر سببه فيروس أو ربما فِطر لكنّه أُصيبَ بضيقٍ في التنفّس ومن ثم بنوبة قلبيّة وبعد ثلاثين دقيقة من المحاولة اضطرَّ الأطباء إلى التخلّي عنه.

لم أُخبِر كيت شيئاً آخر ذكَرته جينا أمبروز - أنها بعد ذلك دخلتْ وحدَّقَتْ إلى ابنها، الذي لن يعُد ابنها. وأنها جلستْ طوال خمس ساعات كاملة، وطبعاً لم يكن سيفيق من جديد. وأنّها حتى الآن تسمع ضجيجاً فوق رأسها وتعتقد أنَّ تيلر يتنقّل في أرجاء غرفته، وأنَّ نصف الثانية التي مُنِحَتْ لها قبل أنْ تتذكَّر الحقيقة هي السبب الوحيد لاستيقاظها في صباح كل يوم.

أقول: «كيت، أنا آسفة جداً».

تنهار قَسَمات وجه كيت. تجيب، «لكنني أحببته»، وكأنَّ ذلك كافٍ.

«أعلم».

«ولم تُخبريني».

«لم أستطع. خاصة عندما اعتقدتُ أنَّ ذلك قد يجعلك تتخلّين عن المقاومة، مقاومة نفسك».

تغمضُ عينيها وتتقلَّب على جنبها على الوسادة، وتبكي بحرقة حتى إنَّ المرقاب الموصولة إليه يبدأ بالصفير ويجلب طاقم الممرضين.

أمدّ يدي إليها. «كيت، حبيبتي، لقد قمتُ بما هو أفضل لك».

ترفض أنْ تنظر جهتي. تتمتم: «لا تكلميني. أنتِ بارعة في هذا».

تمتنع كيت عن التكلّم معي طوال سبعة أيام وإحدى عشرة ساعة. نعود إلى المنزل من المستشفى؛ ونمارس العزلة العكسيّة؛ ونستأنف حياتنا العادية. في الليل أستلقي في السرير المُجاور لبراين وأتساءل لماذا لا أستطيع أنْ أنام. وأُحدّقُ إلى السقف وأفكّر في أنني فقدتُ ابنتي حتى قبل أنْ ترحل.

وذات يوم أمشي من أمام غرفة نومها فأجدها جالسة على الأرض والصور الفوتوغرافية موزّعة حولها. هناك، كما أتوقّع، صورها مع تيلر أُخِذَتْ لهما قبل الحفلة الراقصة - تظهر فيها كيت في أفضل ملابسها وقناع العمليات الجراحيّة يُغطي فمها. ورسم تيلر عليه بأحمر الشِفاه ابتسامة، من أجل التقاط الصورة، أو هذا ما قال.

دفع ذلك كيت إلى الضحك. يبدو أمراً مستحيلاً أنَّ هذا الفتى، بحضوره الصلب عندما التُقِطَت الصورة قبل بضعة أسابيع فقط، لم يعد موجوداً بكل بساطة؛ ويسري في جسمي وخز الألم، وتتبع ذلك في الحال كلمة واحدة: تدرّبي.

ولكن هناك أيضاً صورٌ أخرى، تمثّل كيت وهي أصغر سنّاً. صورة تبيِّن كيت وآنّا على الشاطئ، تجلسان القرفصاء فوق سرطعون الناسك. وأخرى

تبيِّن كيت تتنكّر بزي السيد بينَتْ[1] من أجل عيد جميع القديسين. وواحدة لكيت وكريما الجنة تغطي كامل وجهها، وترفع قسمين من خبز البيغال كأنهما نظّارة.

وفي ركام آخر هناك صورها وهي طفلة رضيعة – التُقطت كلها لها وهي في الثالثة من العمر، أو أقلّ. بأسنان متباعدة وابتسامات واسعة، تُضيئها من الخلف أشعة الشمس ذات العين الداكنة، لا تعي ما الذي ينتظرها. تقول كيت بهدوء: «لا أتذكّر نفسي وأنا هي»، وهذه الكلمات الأولى تصنع جسراً من الزجاج، جسراً يتحرّك تحت قَدَميّ وأنا أخطو إلى داخل الغرفة.

أضعُ يدي بجوار يدها، على حافة إحدى الصور المثنيّة عند زاويتها، وتبيِّن كيت طفلة تحبو وقد رماها براين في الهواء، وشعرها يتطاير خلفها، وذراعاها وساقاها ممتدة كأذرع نجمة البحر، متيقّنة بلا أدنى شك من أنّها عندما ستسقط على الأرض من جديد، سوف يكون استقرارها آمناً، وهي طبعاً لا تستحقّ أقلّ من ذلك.

تُضيف كيت «كانت جميلة»، وتُداعب بإصبعها الصغير الوجنةَ الملساءَ الحيويّة لفتاةٍ لم يعرفها أيٌّ منا.

1- السيد بينَتْ: شخصيّة كرتونيّة تُستخدَم في الإعلانات عن بعض الأطعمة في أميركا. المترجم.

جِسّ

في صيف العام الذي كنتُ خلاله في سن الرابعة عشرة أرسلني أبواي لكي ألتحق بمخيَم تدريب في إحدى المزارع. كانت إحدى المغامرات المُثيرة المُخصَّصة للأولاد المُشاكسين. كما تعلم، تستيقظ في الرابعة فجراً وتقوم بحلب الأبقار وكم من مشاكل تقع فيها؟ (الجواب، إنْ كنتَ مهتماً: تعاطي المخدرات على حساب عمّال المزرعة. الإدمان. والعبث مع الأبقار بطرحها أرضاً) على أيّة حال، عُيِّنتُ ذات يوم في دوريّة موسى، أو هذا ما كنا نسمّي ذلك المسكين الذي يرعى قطيع الغنم. كان عملي هو أنْ أتبع حوالي المائة من القطيع في أرجاء المرج الذي لا يضم شجرة واحدة لعينة لأستظل تحتها.

ربما قول إنَّ الخروف هو أغبى حيوان لعين على الكرة الأرضيّة لا يُعطيه حقّه. فالغنم يعلق بالسياجات، ويضيع ضمن مساحة حظيرة لا تتجاوز أربعة أقدامٍ مُربّعة. وينسى مكان طعامه، على الرغم من أنّه يبقى في الموقع نفسه على مدى ألف يوم متواصلة. وهو ليس الحيوان الأليف الظريف الصغير ذا الصوف المنفوش الذي تراه في الحلم وأنت نائم. ورائحته كريهة. ويثغو. ومزعج إلى أقصى مدى.

على أيّة حال، في اليوم الذي علِقتُ مع القطيع، كنتُ قد سرقتُ نسخة من كتاب «*مدار السرطان*» وكنتُ أطوي الصفحات التي تقترب من الإباحيّة الجيدة، ثم سمعتُ أحدهم يصرخ. وألفتُ انتباهك إلى أنني كنتُ متيقّناً من أنّه ليس صوت حيوان، لأنني لم أسمع مثيلاً له في حياتي. فهرعتُ باتجاه الصوت، وأنا متأكّد من أنني سوف أجد شخصاً واقعاً عن صهوة جواد وقد

التوت ساقه كبسكويتة معقودة أو أحمق أفرغ محتوى مسدسه في بطنه من دون قصد. لكنني وجدتُ نعجة مستلقية على جانب الجدول تضع مولودها، وسرباً من النعاج يُحطن بها.

لم أكن طبيباً بيطريّاً أو أي شيء، ولكن كانت لديّ معرفة كافية لأدرك أنّه عندما يمرّ أي كائن حيّ في ظرفٍ مماثل، فإنَّ الأحداث لا تجري حسب خطّة معيَّنة. والواضح أنَّ اثنتين من القوائم الصغيرة كانت تتدلّى من العضو التناسليّ لتلك النعجة المسكينة؟ كانت مستلقية على جنبها، تلهثُ. وأدارتْ إحدى عينيها السوداوين نحوي، ثم انهارتْ.

في الواقع، لا شيء كان يموت في دوريتي، ولو حتى لأنني كنتُ أعلم أنَّ النازيين الذين أداروا المُخيَّم سوف يُجبرونني على دفن الحيوان اللعين. فأزحتُ الخراف الأخرى عن الطريق. وركعتُ وأمسكتُ بالقوائم اللزجة المملوءة بالعُقد ورحتُ أشدّها والنعجة تصرخ كأي أمّ يُنتَزَع مولودها منها.

خرج الحَمَل. كانت أطرافه مطويّة كأجزاء مطواة جيش سويسريّة، وعلى رأسه كيس فضيّ يُشبه داخل الخد عندما تُمرِّر لسانك حوله. ولم يكن يتنفّس.

كان من المستحيلّ أنْ أضع فمي على خروف وأقوم بعمليّة تنفّس اصطناعيّ، لكنني استخدمتُ أظافر أصابعي لكي أفقأ الكيس الجلديّ، وأنتزعه من عنق الحَمَل. واتّضحَ أنَّ هذا كل ما أحتاج إلى فعله. وبعد قليل مدَّ قوائمه الشبيهة بملاقط الغسيل وبدأ يثغو منادياً أمّه.

حسب اعتقادي، وُلِدَ عشرون حملاً خلال فترة الصيف تلك. وكلما مررتُ بالحظيرة أُميِّز حَمَلي من بين الحشد. إنه يبدو كالآخرين كلهم، ما عدا أنّه يتحرَّك قافزاً أكثر: كان دائماً يبدو كأنَّ الشمس تشعّ من الزيت الذي في صوفه. وإذا تصادفَ أنْ كان هادئاً بالقدر الكافي لينظر إليك مباشرة، ترى بؤبؤي عينيه وقد أضحى لونهما أبيضَ ناصعاً، وهو دلالة أكيدة على أنّه مشى على الجانب الآخر مدة طويلة لم يعُد يتذكّر ما الذي يفتقده.

إنني أخبركَ هذا الآن لأنَّه عندما تتحرك كيت أخيراً على سرير المستشفى، وتفتح عينيها، أعلم أنها وضعَتْ قَدَماً على الجانب الآخر منذ الآن، أيضاً.

عندما تراني، تقول كيت بوهن: «أوه يا إلهي. لقد انتهى بي الأمر إلى الجحيم بعد كل هذا».

أميل إلى الأمام وأنا على كرسيّي وأعقد ذراعيّ على صدري. «والآن، يا أختي، أنتِ تعلمين أنّه ليس من السهل عليّ أنْ أقتُل»، ثم أنهض، وأُقبّلها على جبينها، تاركاً شفتيّ تمكثان برهة أخرى. كيف تستطيع الأمهات أنْ يعرفن درجة حرارة الحمّى بهذه الطريقة؟ إنني لا أستطيع أنْ أميِّز إلّا الخسارة الفادحة. «كيف تشعرين؟».

تبتسم لي، لكنها تبدو كرسمٍ كاريكاتوريّ للّوحة الأصليّة التي شاهدتها مُعلّقة في متحف اللوفر. تقول: «رائع، إلى مَنْ أُدين بشرف حضورك؟».

أقول في نفسيٍ، لأنه لن تطول إقامتكِ هنا، لكنني لا أقول لها هذا. «كنتُ في الجوار. ثم إنّ هناك ممرضة رائعة تعمل في هذه النوبة».

يدفع هذا الكلام كيت إلى الضحك الصاخب «يا إلهي، يا جِسّ. كم سأشتاق إليك».

تقول ذلك بسهولة شديدة إلى درجة أنه فاجأ كلانا. أجلسُ على حافة السرير وأبدأ باقتفاء أثر التغضنات الصغيرة على الغطاء الحراري. وأباشرُ حديثاً حيويّاً، «كما تعلمين –»، لكنها تضع يدها على ذراعي.

«لا تُزِدْ». ثم تنتعش عيناها، برهة. «قد أعود في تجسّدٍ جديد».

«كما حدث مع ماري أنطوانيت؟».

«كلا، يجب أنْ يكون شيئاً يحدث في المستقبل. أتظن أنَّ هذا جنوناً؟».

أعترفُ: «كلا. بل أعتقد أننا جميعاً ندور ضمن دوائر».

«إذن، بأيّة هيئة سوف تعود؟».

«على هيئة جيفة»، فتجفل، ويصدر صفيرٌ، فأُصاب بالذعر. «أتريدين مني أنْ أستدعي أحداً؟».

تجيب كيت: «كلا، أنا بخير»، وأتيقَّن من أنها لم تقصد ما قالت بهذا المعنى، لكنَّ ذلك يجعلني أشعر كأنني ابتلعتُ برقاً».

فجأة تذكّرتُ لعبة قديمة كنتُ ألعبها وأنا في التاسعة أو العاشرة من

العمر، وكان يُسمَح لي بركوب دراجتي حتى حلول الظلام. كنتُ أراهن نفسي بمبالغ صغيرة وأنا أراقب الشمس تنخفض أكثر فأكثر خلف الأفق: إذا حبستُ أنفاسي حتى عشرين ثانية، فلن يحلّ الليل. إذا لم تطرف عينيّ. إذا بقيتُ واقفاً لا أحرّكُ ساكناً فسوف تستقرّ ذبابة على خدّي. والآن، أجد نفسي أفعل الشيء نفسه، أراهن على صيانة كيت، على الرغم من أنَّ هذه الطريقة لا تفيد.

أقول فجأة: «هل أنتِ خائفة من الموت؟».

تلتفتُ كيت إليّ، وابتسامة تمتد على طول فمها. «سوف أُعلِمكَ بذلك». ثم تُغمِضُ عينيها. «سوف أرتاح برهة»، وتنجحُ في هذا، وتنام من جديد.

إنَّ هذا ليس عدلاً، لكنَّ كيت تعلم ذلك. إننا سرعان ما نعلم أنَّ ما نستحق الحصول عليه، نادراً ما نناله. أنهضُ واقفاً، وذلك البرق يسِمُ بطانة حنجرتي، ويُصبح من المستحيل عليّ أنْ أبتلع لعابي، وهكذا يُعاقُ كل شيء كنهرٍ عليه سدّ. أسرِعُ بمغادرة غرفة كيت وأبعد كثيراً إلى آخر الرواق لكي لا أُزعجها، ومن ثم أرفع قبضة يدي وأضرب الجدار الأبيض السميك وأُحدِثُ فيه ثُقباً ومع ذلك لا يكفي هذا.

براين

إليكَ الوصفة التي يمكنكَ بها أنْ تنسف أيّ شيء: أحضِر وعاء بايريكس؛ وكلور البوتاسيوم - يمكن العثور عليه في محلات بيع الطعام الصحيّ، كبديل للملح. ومقياس الثقل النوعيّ للسوائل. وسائل مُبيِّض. خُذ السائل المُبيِّض وصبّه في وعاء البايريكس، وضعه داخل موقد. في تلك الأثناء، زِنْ كلور البوتاسيوم وأضفه إلى السائل المُبيِّض. تفحّصه بمقياس الثقل النوعيّ ودعه يغلي إلى أنْ يُصبح المقياس 1.3. واتركه ليبرد حتى حرارة الغرفة، ثم قُمْ بتصفية البلّورات التي تشكّلتْ. وهذا ما ستحتفظ به.

من الصعب أنْ تكون الشخص الذي ينتظر دائماً. أعني، هناك شيء يجب قوله لصالح البطل الذي يذهب لخوض معركة، ولكن عندما تبدأ بذلك تجد أنَّ هناك قصّة كاملة حول الذين تُرِكوا وحدهم.

أنا موجود في ما يمكن اعتباره أبشع قاعة محكمة على الشاطئ الشرقيّ، أجلسُ بين الكراسي ريثما يحين دوري، وفجأة يُصدر جهازي صفيره. أنظرُ إلى الرقم، أتذمّر، وأحاول أنْ أتبيَّن ماذا ينبغي أنْ أفعل. سوف أُدلي بشهادتي لاحقاً، لكنَّ الإدارة تحتاج إليّ الآن.

يستغرق الأمر بضعة متحدثين لكنني أحصل على إذن من القاضي لكي أنتقل من المكان، وأغادر من الباب الأمامي، وفي الحال تنهال عليّ الأسئلة وتُسلَّط عليَّ آلات التصوير والأضواء. إنَّ هذا هو كل ما لا أستطيع أنْ أفعل لكي أضرب أولئك الصقور، الذين يريدون أنْ يُحطّموا عِظام عائلتي الجافّة.

عندما أعجز عن العثور على آنّا في صباح يوم جلسةِ الاستماع، أتوجَّه

إلى المنزل. وأفتش في كل الأماكن التي تتردَّد عليها -المطبخ، غرفة النوم، والأرجوحة الممدودة بين شجرتين- لكنها غير موجودة. وكملاذٍ أخير أرتقي دَرَج المرأب إلى الشقّة التي يستخدمها جِسّ.

هو أيضاً غير موجود في المنزل، على الرغم من أنَّ ذلك ليس مُفاجئاً. أحياناً يُخيِّب جِسّ أملي؛ وأخيراً، أطلبُ من نفسي ألّا أتوقَّع أيّ شيءٍ منه، ونتيجةً لذلك، يُصبحُ أسهل عليّ أنْ أتقبّل ما يأتيني. أقرع الباب وأنادي على آنّا، وعلى جِسّ، ولكن بلا طائل. وعلى الرغم من وجود مفتاح لهذه الشقّة على جهازي، لم أدخل. وألتفتُ نحو الدَّرَج، وأقرع على حاوية إعادة التدوير الحمراء التي أُفرِغها بنفسي في كل يوم ثلاثاء، بما أنَّ معاذ الله أنْ يتذكَّر جِسّ أنْ يجرّها بنفسه إلى الخارج حتى حافة الطريق. فيسقط وعاء من زجاجات البيرة، بلون أخضر شفاف، وإبريق فارغ خاص بمادة تنظيف الغسيل، وبرطمان من الزيتون، ووعاء سِعته غالون كان يحتوي عصير البرتقال.

أُعيدُ كل شيء، ما عدا وعاء عصير البرتقال، الذي أخبرتُ جِسّ أنّه غير قابل لإعادة التدوير لكنّه كان يضعه في الحاوية في كل أسبوعٍ لعين.

إنَّ الفرق بين هذه الحرائق وغيرها هو أنَّ المداخن ارتفعَت الآن أكثر قليلاً. فبدل مستودع أو كوخ مُهمَل على طرف المياه، أُقيمتْ مدرسة ابتدائيّة. وبما أننا في فصل الصيف، لم يكن هناك أحد في أرض المنزل عندما اندلعت النار. وليس لديّ أدنى شك في أنَّ الحريق يعود إلى أسباب غير طبيعيّة.

عندما أصل إلى هناك، تكون سيارات الإطفاء مُستعدَّة للمغادرة بعد عمليّة الإنقاذ والفحص الدقيق. وفي الحال يقترب بولي مني. «كيف حال كيت؟».

أخبره «هي بخير»، وأومئ برأسي إلى جهة الفوضى. «ماذا وجدتم؟».

يقول بولي: «لقد نجحَ إلى حد بعيد في إتلاف كامل الجانب الشماليّ من المُنشأة. أترغب في التجول حول المكان؟».

«نعم».

اندلعَ الحريق في استراحة أستاذ المدرسة؛ وتشير الآثار المُتفحّمة كما السهم إلى منشئه. الحشوة المُفتعلة التي لم تحترق بشكلٍ كامل ما زالت

مرئيّة؛ وكائناً مَنْ أعدّها كان ذكياً إلى درجة أنّه أضرم ناره وسط كومة من وسائد الأريكة وكميّة من الأوراق. ما زلتُ أشمّ رائحة المادّة المُسرِّعة للاشتعال؛ هذه المرّة كانت بسيطة بساطة الغازولين. ووجدنا نثرات من الزجاج نشأتْ عن انفجار زجاجة كوكتيل مولوتوف في الرماد.

تمشّيتُ حتى الجانب القصيّ من المبنى، وأنعمتُ النظر من خلال نافذة مكسورة. يبدو أنَّ الشباب نفذوا إلى النار من هنا. يسأل سيزار، الذي ولج الغرفة، «أتظن أننا سوف نقبض على ذلك المجرم، يا كابتن؟». كان لا يزال يرتدي ملابس الإطفاء، وثمة لطخ على وجنته، وينظر إلى البقايا في خط النار. ثم ينحني إلى أسفل، وبقفّازه الثقيل يلتقط عقب سيجارة. «شيء لا يُصدَّق. لقد ذابت طاولة مكتب السكرتيرة بالكامل، لكنَّ عقب التبغ اللعين ما زال موجوداً».

أتناوله من يده وأُقلِّبه في راحة يدي. «هذا لأنه لم يكن موجوداً هنا عندما اندلع الحريق. لقد استمتع أحدهم بالتدخين بينما كان يُراقبُ هذا، ثم ابتعد». أقلبه على جنبه، على الموقع الذي يلتقي فيه اللون الأصفر مع الفيلتر، وأقرأ اسم الماركة.

يُبرِز بولي رأسه من خلال النافذة المُهشَّمة، بحثاً عن سيزار. «نحن عائدان. أحضِر الشاحنة»، ثم يلتفت نحوي. «هيه، كما ترى، نحن لم نكسر هذه».

«لم أكنْ أنوي أنْ أجعلك تدفع ثمنها، يا بولي».

«كلا، أعني، نحن ثقبنا السطح. كان مكسوراً سلفاً عندما أتينا إلى هنا». ثم غادر هو وسيزار، وبعد بضع لحظات ابتعدتْ سيارة الإطفاء الثقيلة.

لعلّ السبب هو كرة سلّة ضالّة، أو قرص فريسبي[1]. ولكن حتى في أوقات الصيف يضع الحُجّاب ما يدل على أنها ملكيّة عامة. إنَّ نافذة مكسورة تشكّل خطراً ويجب الابتعاد عنها؛ ويجب وضع شريط لاصق عليها أو لوح خشب.

إلّا إذا كان الرجل نفسه الذي أضرم النار يعرف من أين يستمد الأكسجين، لكي يتَّجه اللهب نحو مجرى الرياح الذي أحدثه ذلك الفراغ.

أنظر إلى السيجارة التي في يدي، ثم أسحقها.

1- قرص فريسبي: قرص يُستعمل في رياضة رمي القرص. المترجم.

أنت في حاجة إلى 56 غراماً من هذه البلّورات المحفوظة. امزجها مع ماء مُقطَّر. سخّنها حتى تغلي ثم دعها تبرد من جديد، وتبقى البلورات، كلور البوتاسيوم الحرّ. اطحنها حتى تُصبح في قوام بودرة الوجه، ثم سخّنها حتى تجفّ. ذوِّبْ خمسة أجزاء من الفازولين مع خمسة أجزاء من الشمع. ثم ذوّبها في الغازولين وصبّ المحلول في 90 جزءاً من كلور البوتاسيوم في وعاء من البلاستيك. واعجن. واترك الغازولين حتى يتبخَّر.

صبّه في قالب مكعّب واغمسه في الشمع لكي تجعله مُضاداً للماء. هذه المادة المتفجِّرة تتطلَّب غطاءً متفجِّراً بدرجة A3 على الأقلّ.

عندما يفتح جِسّ باب شقّته، أكون أنا بانتظاره على الأريكة. يسأل «ماذا تفعل هنا؟».

«بل ماذا تفعل *أنت* هنا؟».

يقول جِسّ: «أنا أُقيم هنا، ألا تتذكَّر؟».

«أتتذكَّر أنت؟ أم أنكَ تستخدم هذا المكان للاختباء؟».

يُخرِجُ سيجارة من علبة في جيبه الأماميّ ويُشعلها. سيجارة ميريتس. «لا أعلم عمَّا تتحدث. لِمَ لستَ في المحكمة؟».

أسأله: «ما الذي جلبَ حمض المورياتيك إلى تحت مغسلتك؟ بما أنّه ليست لدينا بركة سباحة؟».

يُقطّب جبينه: «أهلاً؟ أهذا استجواب؟ كنتُ أستخدمه في عملي في طبقات القرميد في الصيف الفائت؛ يمكن تنظيف الجصّ به. والحقيقة هي أنني لم أكنْ أعلم أنّه ما زال في حوزتي منه».

«إذن فأنتَ لا تعلم، يا جِسّ، أنه إذا وضَعتَه في زجاجة مع قطعة من ورق الألومنيوم وسددتها بخرقة، فسوف تنفجر انفجاراً مدوّياً».

يرين عليه سكونٌ تامّ. «أأنتَ تتّهمني بشيء ما؟ لأنكَ إنْ كنتَ تفعل، فقُلها صراحةً، يا ابن الحرام».

أنهضُ عن الأريكة. «حسنٌ. أريد أنْ أعرف إنْ كنتَ قد حززتَ الزجاجات قبل أنْ تُعدَّ الكوكتيل، لكي تنكسر بصورة أسهل. أريد أنْ أعرف إنْ كنتَ

تُدرِك مدى قُرب ذلك الرجل المتشرِّد من الموت عندما أضرمتَ النار في المستودع من باب المرح»، وأمدّ يدي خلفي، وأرفع وعاء الكلوروكس الفارغ من حاوية إعادة التدوير الخاصة به. «أريد أنْ أعرف ماذا تفعل هذه في حاوية نفايتك، مع أنك لا تغسل غسيلك بنفسك ويعلم الله أنَّكَ لا تقوم بأعمال التنظيف، ومع ذلك هناك مدرسة ابتدائيّة على بُعد ستة أميال من هنا فُجِّرَتْ بمتفجرة مصنوعة من مادة مُبيِّضة وسائل مكابح؟». حينئذٍ أمسكه من كتفيه، وعلى الرغم من قدرة جِسّ على التملُّص لو أنّه يُحاول، يتركني أهزَّه إلى أنْ يميل رأسه إلى الخلف. «بحقّ المسيح، يا جِسّ!».

يُحدِّقُ إليّ، بوجهٍ خالٍ من التعبير. «هل انتهيت؟».

أُحرّره فيبتعد، مُكشراً عن أسنانه. أتحدّاه: «إذن قُلْ إنني على خطأ».

يصيح: «سوف أخبرك أكثر من ذلك. أعني، إنني أفهم تماماً أنكَ أمضيتَ حياتك تعتقد أنَّ كل ما هو خطأ في الكون يعود سببه إليّ، ولكن آخر خبر هو، يا أبي، أنَّ كلامك كلّه لا أساس له من الصحّة».

وببطء، أُخرِجُ شيئاً من جيبي وأضغطه داخل يد جِسّ. يستقرّ عقب سيجارة ميريت في تجويف راحة يده. «إذن ما كان ينبغي أنْ تترك وراءك بطاقة الزيارة».

عند نقطةٍ ما يمتد حريقٌ ما ويخرج عن نطاق السيطرة بحيث تُضطر إلى تركه حتى يخمد. وهكذا تتراجع إلى مسافة الأمان، إلى تل بعيد عن الرياح، وتراقب المبنى وهو يتلاشى.

ترتفع يد جِسّ، ترتجف، وتتدحرج السيجارة إلى الأرض عند أقدامنا. يُغطي وجهه، ويضغط إبهاميه على زاويتيّ عينيه. «لم أتمكن من إنقاذها». لقد انتُزِعَت الكلمات منه انتزاعاً، ويحني كتفيه، ويعود إلى جسد صبيّ. «مَنْ... مَنْ أخبرتَ؟».

أُدركُ أنّه يسأل إنَّ كانت الشرطة ستلاحقه. إنْ كنتُ قد أخبرت سارة بهذا. إنه يطلب العقاب.

وهكذا أقوم بما أعلم أنّه سوف يُدمّره: أجذبُ جِسّ بين ذراعيّ وهو يجهشُ بالبكاء. إنَّ ظَهره أعرض من ظهري. ويفوقني طولاً بمقدار نصف

رأس. لا أتذكّر أنّني لاحظتُ أنّه انتقلَ من سن الخامسة، حين لم يكن عملاقاً هكذا، إلى الرجل الذي هو عليه الآن، وأعتقد أنَّ هذه هي المشكلة. كيف يهرب الإنسان من التفكير في أنّه إذا لم يستطع أنْ يُنقِذ، فعليه أنْ يُدمِّر؟ وهل تلومه، أم إنكَ تضع اللوم على الذين كان عليهم أنْ يُخبروه خِلاف ذلك؟

سوف أحرص على أنْ أُنهي هوس ابني بالإحراق هنا والآن، لكنني لن أُخبر الشرطة أو رئيس مركز الإطفاء عن ذلك. ربما هذا اسمه مُحاباة الأقارب، ربما هو حماقة. ربما لأنَّ جِسّ لا يختلفُ كثيراً عني، إنّه يختار النار كوسيلة، ويحتاج إلى أنْ يعرف أنَّ باستطاعته أنْ يُسيطر على الأقلّ على شيء واحد لا يمكن السيطرة عليه.

يُصبح تنفّس جِسّ منتظماً على وجهي، كما كان يحدث وهو صغير، عندما كنتُ أحمله وأرتقي الدَّرَج بعد أنْ يستغرق في النوم وهو في حجري. كان ينهال عليّ بسيل متواصِل من الأسئلة: ما الغرض من خرطوم قياس بوصتين، وبوصة واحدة؟ كيف تغسل سيارة الإطفاء؟ هل سبق لجامع عبوات التنك أنْ قاد سيارة؟ وأُدركُ أنني لا أستطيع أنْ أتذكّر متى بالضبط توقف عن طرح الأسئلة. لكنني أتذكّر أنني شعرتُ كأنَّ شيئاً مفقوداً، كأنَّ خسارة طفل لبطله الذي يعشقه تؤلِم ألماً لا يُفارقه.

كامبل

عندما يُستدعى الأطباء للشهادة في المحكمة، يُعلِمونك، بكل مقطع من كل كلمة، بأنّه لن تُعوِّض أيّة لحظة من هذه الشهادة عن حقيقة أنه بينما هم جالسون في قسم الشهادة بالإكراه، هناك مرضى ينتظرون، وأناسٌ يحتضرون. بصراحة، يُثير ذلك غضبي الشديد. وفي الحال، لا أستطيع ضبط نفسي، وأطلب استراحة لكي أذهب إلى المرحاض، أو أنحني إلى الأمام لكي أُعيد ربط حذائي، أو أستجمعُ أفكاري وأشحنُ جُملي بفترات توقفٍ مشحونة – مهما كلّفني ذلك لكي يُريحوا أقدامهم بضع لحظات أخرى.

والدكتور تشانس ليس استثناءً للقاعدة. فمنذ البداية وهو يتوق إلى المغادرة. كان يواظب على النظر في ساعة يده إلى درجة أنكَ تعتقد أنَّ لديه موعداً مع قطار سوف يفوته. والفرق هذه المرَّة هو أنَّ سارة فيتزجيرالد توّاقة إلى خروجه من قاعة المحكمة. لأنَّ المريض الذي ينتظر، الشخص الذي يحتضر، هو كيت.

ولكن إلى جواري، يبثّ جسم آنّا حرارة. أنهض، وأتابع طرح أسئلتي. وببطء. «دكتور تشانس، هل كان لأيٍ من أساليب المُعالجة التي تضمَّنتْ وهب أعضاء من جسم آنّا نتائج مضمونة؟».

«لا شيء فيما يتعلَّق بمرض السرطان مؤكَّد، يا سيد ألكسندر».

«هل شرحتَ هذا لآل فيتزجيرالد؟».

«لقد شرحنا من دون أدنى شك مخاطر كل إجراء، لأنّه حالما تباشر العلاج، فإنكَ تُعرِّض أجزاء الجسم الأخرى للخطر. وما ينتهي بنا الأمر إلى فعله من أجل نجاح أحد أنواع العلاج قد يعود لكي يقضّ مضجعنا من

جديد»، ويبتسم لسارة. «ومع ذلك، إنَّ كيت امرأة شابة رائعة. لم يكن من المتوقَّع أنْ تعيش أكثر من خمسة أعوام، وها هي قد بلغت السادسة عشرة».

وأشير: «والفضل في ذلك إلى أختها».

يومئ الدكتور تشانس برأسه إيجاباً. «ليس هناك الكثير من المرضى يتّصفون بقوة جسديّة والحظ الحَسَن بحيث يتوفر لهم واهب يتوافق معهم تماماً».

أنهضُ واقفاً، ويداي في جيبيّ. «هل تستطيع أنْ تُخبر المحكمة كيف قرَّر آل فيتزجيرالد أنْ يستشيروا فريق مستشفى بروفيدنس للتشخيص الجينيّ السابق لعملية النقل بشأنِ التفكير في آنّا؟».

«بعد أنْ أُجريَ الاختبار على ابنهم ووُجِدَ أنَّه غير مؤهَّل ليكون واهباً لكيت، أخبرتُ آل فيتزجيرالد عن عائلة أخرى سبقَ أنْ تعاملتُ معها. وتمَّ إجراء الفحص على أطفال العائلة كلهم، ولم يتأهّلِ أيٌّ منهم، ولكن بعد ذلك حبلت الأم في أثناء سياق العلاج وتصادفَ أنَّ هذا الطفل كان واهباً مثاليّاً متطابقاً مع المريض».

«هل طلبتَ من آل فيتزجيرالد أنْ يُعدّوا طفلاً مُبرمجاً جينيّاً ليكون واهباً لكيت؟».

يقول تشانس، شاعراً بالمهانة: «كلا حتماً. أنا فقط شرحتُ لهم أنَّه حتى إذا لم يتطابق أي من الأطفال الموجودين معها، فهذا لا يعني أنَّ طفلاً قد يولد في المُستقبل لن يتطابق مع شروطها».

«هل شرحتَ لآل فيتزجيرالد أنَّ هذا الطفل، بوصفِهِ متطابقاً مثاليّاً مُبرمجاً جينيّاً، يجب أنْ يتوافر من أجل إجراء أساليب العلاج كلّها على كيت طوال فترة حياتها؟».

يقول الدكتور تشانس: «كنا حينئذٍ نتحدث عن علاج بدماء الحبل السرّي لمرَّة واحدة، وعمليات الوهب التالية وقعتْ لأنَّ كيت لم تستجب للمرة الأولى. ولأنها أعطت المزيد من النتائج الواعدة».

«إذن إذا خرج العلماء علينا غداً بإجراء يُشفي سرطان كيت شرط أنْ تقطع آنّا رأسها وتعطيه لأختها، فهل ستوصي بذلك؟».

«طبعاً لا. لن أوصي بعلاجٍ يُعرِّض للخطر حياة طفل آخر».

«أليس هذا ما فعلت على امتداد السنوات الثلاث عشرة الماضية؟».

توتّرتْ قَسَمات وجهه. «إنَّ أياً من أساليب العلاج لم يُشكِّل أي أذى طويل الأمد لآنّا».

تناولتُ قطعة من الورق من حقيبتي وأعطيتُها للقاضي، ومن ثم للدكتور تشانس. «هل تستطيع أنْ تقرأ الجزء المُعلَّم؟».

ووضع النظارات وتنحنحَ. «أنا أتفهَّم أنَّ التخدير ينطوي على مخاطر مُحتَمَلة. وهذه المخاطر قد تتضمَّن، ولكنها لا تقتصر على: ردود فعل مُخدِّرة مُعاكسة، والتهاب الحنجرة، وأذى للأسنان ولحشوها، وتدمير الحبال الصوتية، ومشاكل في التنفّس، وبعض الألم والإزعاج، وفقدان الإحساس، والصداع، والتلوث، والحساسيّة، والعودة إلى الوعي في أثناء التخدير، واليرقان، والنزف، والأذى العصبي، وجلطة دمويّة، ونوبة قلبيّة، وتلف الدماغ، وحتى توقف عمل الجسد أو فقدان الحياة».

«هل أنتَ على عِلمٍ بهذا الأنموذج، يا دكتور؟».

«نعم. إنه بمثابة موافقة قياسيّة على إجراء العمليّة الجراحيّة».

«هل تستطيع أنْ تُخبرنا مَنْ هو المريض الذي كانت تُجرى له؟».

«إنها آنّا فيتزجيرالد».

«ومَنِ الذي وقَّعَ على الموافقة؟».

«سارة فيتزجيرالد».

أتراجع. «دكتور تشانس، إنَّ فقدان الحس ينطوي على تعريض الحياة للخطر أو الموت. وهذه آثار قوية وطويلة الأمد».

يقول: «وهذا بالضبط الغرض من الحصول على الموافقة. أي لحمايتنا من أناس أمثالك. ولكن، واقعيّاً، الخطر ضئيل إلى أقصى مدى. وإجراء وهب نقي العِظام بسيط جداً».

«فلماذا خضعَتْ آنّا للتخدير من أجل إجراء بسيط كهذا؟».

«إنّه أقلّ ضرراً على الطفل، ومن المُستبعَد أكثر أنْ ينزعج».

«وبعد انتهاء الإجراء، ألم تشعر آنّا بأي ألم؟».

يقول الدكتور: «ربما قليلاً».

«ألا تتذكَّر؟».

«لقد مرَّ على ذلك وقتٌ طويل. وأنا متأكّد من أنَّ آنّا نفسها قد نسيته الآن».

«تعتقد؟»، وألتفتُ نحو آنّا، «هل نسألها؟».

يعقد القاضي ديسالفو ذراعيه على صدره.

أتابعُ بسلاسة: «بمناسبة الحديث عن الخطر، هل تستطيع أنْ تخبرنا عن البحث الذي أُجريَ على الآثار طويلة الأمد لجرعات عامل النموّ التي تناولتْ منها مرّتين حتى الآن، قبل الحصول على النقي من أجل نقله؟».

«نظريّاً، لا ينبغي أنْ تظهر أيّة آثار جانبيّة طويلة الأمد».

أُكرِّر «نظريّاً، لِمَ نظريّاً؟».

يعترف الدكتور تشانس: «لأنَّ البحث العِلميّ يجري على حيوانات داخل مُختبَر. والآثار التي تظهر على الحيوانات ما زالت تظهر».

«كلام مُريح».

يهزّ كتفيه لامبالياً. «إنَّ الأطباء لا يصفون أدوية يمكن أنْ تُسبّب الدمار».

أسأله: «هل سمعتَ عن التاليدوميد، يا دكتور؟».

«طبعاً. في الحقيقة، أُعيدَ استعماله مؤخّراً لإجراء بحث حول السرطان».

أشير: «وكان من قبل عقاراً بارزاً، له آثار مُدمّرة. وبمناسبة الحديث عنها... هل هذا الوهب للكلية - هل تُرافِقُ هذا الإجراء مخاطر؟».

يقول الدكتور تشانس: «ليس أكثر مما يُرافق غالبية العمليات الجراحيّة».

«أكان يمكن أنْ تموت آنّا من مُضاعفات هذه العمليّة الجراحيّة؟».

«هذا مُستبعَد تماماً، يا سيد ألكسندر».

«حسن، إذن، فلنفرِض أنَّ آنّا تجاوزت الإجراء بنجاحٍ باهر. كيف سيؤثّر عليها ألّا يكون لديها أكثر من كلية واحدة حتى آخر حياتها؟».

يقول الطبيب: «لن يؤثِّر، حقاً. وهذه هي فضيلتها».

أسلِّمه منشوراً وصل من قسم أمراض الكِلى في مستشفاه الخاصّ. «هلّا قرأتَ علينا القسم الأهمّ منه؟».

يضع نظارته من جديد. «فرصة متزايدة للإصابة بفرط ضغط الدم. واحتمال حصول مُضاعفات في أثناء الحمل». يرفع الدكتور تشانس بصره.

«يُنصَح الواهبون بالابتعاد عن ممارسة الرياضات التي تتضمّن التلامُس المباشَر لتفادي خطر إيذاء الكلية المتبقّية».

أشدّ يديّ معاً خلف ظهري. «هل كنتَ تعلم أنَّ آنّا تمارس رياضة الهوكي في وقت فراغها؟».

يلتفتُ نحوها. «كلا. لم أكنْ أعلم».

«إنها حارسة مرمى. وهي كذلك منذ سنين». وأفسحُ المجالَ لكلامي هذا أنْ يستقر في وعيه. «وبما أنَّ هذا الوهب افتراضيّ، فلنركّز على الحالات التي وَقَعَتْ بالفعل. جرعات عامل النموّ، عملية نقل الدم ونقي العظام، الخلايا الجذعيّة، ووهب الخلايا البيضاء، ونقي العِظام -آنّا تحمّلت أساليب العلاج المتعددة كلها- وحسب رأيك الخبير، يا دكتور، هل تقول إنَّ آنّا لم تعان من أي ضرر طبّي خطير من تلك الإجراءات؟».

تردَّدَ «خطير؟ كلا، لم تعان».

«وهل حصلتْ على أيّة فائدة تُذكر منها؟».

نظر الدكتور تشانس إليّ برهة طويلة. يقول: «طبعاً. إنها تنقذ أختها».

كنا أنا وآنّا نتناول طعام الغداء في الطابق العِلوي في دار المحكمة عندما دخلتْ جوليا. «هل هذا احتفال خاص؟».

لوّحتْ آنّا لها بيدها لتدخل، وتجلس جوليا من دون حتى أنْ تلقي نظرة عابرة نحوي. تسألها: «كيف حالك؟».

تجيب آنّا: «بخير. أريد فقط أنْ ينتهي الأمر».

تفتح جوليا عبوة من إضافات السلطة وتسكبها فوق وجبة الغداء التي جلبتها معها. «سوف ينتهي، سريعاً».

عندما تقول هذا تنظر إليّ، باقتضاب.

هذا كل ما يتطلّب الأمر بالنسبة إليّ لأتذكّر رائحة بشرتها، والبقعة التي تحت ثديها حيث يقع موطن الجمال على شكل هلال.

فجأة تنهض آنّا واقفة. وتُعلن: «سوف أخرج مع جدج في نزهة».

«لن تفعلي. ما زال هناك في الخارج مُراسلون».

«إذن، سوف نتمشّى في الرواق».

«لا تستطيعين. يجب أنْ يسير إلى جواري؛ هذا جزءٌ من تدريبه».

تقول آنّا: «إذن سوف أذهب لأتبوّل. أعتقد أنّه ما زال يُسمَح لي بهذا، أليس كذلك؟».

تخرجُ من غرفة الاجتماع، وتتركني مع جوليا ومع كل ما كان ينبغي أنْ يحدث وحدث.

أدركُ ما فعلتْ. «لقد تعمّدتْ أنْ تتركنا وحدنا».

تومئ جوليا برأسها إيجاباً. «إنها طفلة ذكيّة. إنها تستشف جيداً ما يدور في أذهان الناس»، ثم تترك شوكتها البلاستيك. «سيارتك مملوءة بشَعر الكلب».

«أعلم. إنني دائماً أطلب من جدج أنْ يجعل تسريحته على شكل ذيل الحصان لكنّه لا يُصغي إليّ أبداً».

«لِمَ لمْ توقظني؟».

أرسم ابتسامة عريضة. «لأننا كنا نُقيم في منطقة ممنوع الاستيقاظ».

لكنَّ جوليا لم تبتسم. «هل تعتبر ما حدث بيننا ليلة أمس نكتة، يا كامبل؟».

فجأة يخطر في بالي قول قديم مأثور: ***إذا أردتَ أنْ ترى الله يضحك، ضعْ خطّة***. ولأنني جبان، أقبض على الكلب من طوقه. «يجب أنْ أخرج في نزهة معه قبل أنْ نُستدعى إلى قاعة المحكمة».

يتبعني صوت جوليا حتى الباب وهي تقول: «لم تُجِبني».

أقول، من دون أنْ ألتفتْ، «أنتِ لا تريدين جواباً». وهكذا تجنّبتُ رؤية وجهها.

عندما يفضّ القاضي ديسالفو اجتماعنا في ذلك اليوم عند الساعة الثالثة بداعي موعده الأسبوعي مع معالجة العمود الفقريّ، نخرج أنا وآنّا إلى البهو لنبحث عن والدها – ولكن لا نجد أثراً لبراين. تتلفّتْ سارة حولها، مندهشة. تقول: «لعلّه استُدعيَ لإطفاء حريق. آنّا، سوف–».

لكنني أضع يدي على كتف آنّا. «سوف أقلّك إلى مركز الإطفاء».

في السيارة، تكون هادئة. أتوقف في موقف سيارات محطة الإطفاء وأترك المُحرِّك يدور. أخبرها «اسمعي، قد لا تكونين قد أدركتِ، لكنَّنا أحرزنا نجاحاً عظيماً في اليوم الأول».

«لا يهم».

تترجّل من سيارتي من دون أنْ تُضيف كلمة أخرى ويقفز جدج ليحلّ محلّها على المقعد. وتمشي آنّا نحو المحطة، لكنّها تنعطفُ يساراً. وأبدأ بالتراجع إلى الخارج، ومن ثم خلاف نيَّتي أُطفئ المُحرِّك. أتركُ جدج داخل السيارة، وأتبعها حول الجزء الخلفي من المبنى.

تتوقف ثابتة كتمثال، ويتّجه وجهها عالياً نحو السماء. أتساءل، ماذا يُفتَرَض بي أنْ أفعل؟ أنا لم أكنْ أبداً أباً؛ إنني بالكاد أعتني بنفسي.

وكما يتبيَّن، تبادر آنّا بالكلام. «هل سبقَ لكَ أنْ قمتَ بعملٍ كنتَ تعلم أنّه عمل خاطئ، على الرغم من أنّه بدا صائباً؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

أفكِّرُ في جوليا. «نعم».

تُغمغم آنّا: «أحياناً أكره نفسي».

أخبرها: «أحياناً، أنا أيضاً أكره نفسي».

يُدهشها كلامي، فتنظر إليّ، ومن ثم تنظر من جديد إلى السماء. «إنها هناك فوق. النجوم. حتى وإنْ كنتَ لا تراها».

أضعُ يديّ في جيبيّ. «كنتُ أحلم أنْ أكون على سطح أحد النجوم في كل ليلة».

«لِمَ؟».

«لكي أحصل على بطاقات لعبة البيسبول نادرة أضيفها إلى مجموعتي. وكلب صيد ذهبيّ اللون. ومُعلِّمات شابات، مُثيرات».

«لقد أخبرني والدي أنَّ ثلّة من علماء الفلك عثروا على مكانٍ جديد تولد فيه النجوم. ولكنْ لكي نشاهدها يجب أنْ ننتظر 2500 سنة»، ثم وتلتفتُ نحوي. «هل تحسّنت صِلتك بوالديك؟».

أفكِّر في الكذب عليها، لكنني أهزّ رأسي رفضاً. «كنتُ أفكّر في أنني سوف أُصبح مثلها عندما أكبُر، لكنَّ هذا لم يحصل. وما حصل هو أنني، في وقتٍ ما، لم أعد أرغب في أنْ أكون مثلها، على أي حال».

تجتاح أشعة الشمس بشرتها، وتُضيء حدود نحرها. تقول آنّا: «فهمت. أنتَ أيضاً كنتَ خفيّاً».

الثلاثاء

النار الضعيفة سرعان ما تُداس؛

وبما أنّها عانتْ، تعجز الأنهارُ

عن إخمادها.

وليم شكسبير

من مسرحيّة «*الملك هنري السادس*»

كامبل

إنَّ براين فيتزجيرالد هو حلّي. حالما يُدرك القاضي أنَّ أحد والديّ آنّا على الأقلّ يتّفق مع قرارها التوقّف عن كونها واهبة أختها، لا يعود منحها حرّيتها يُعتبَر قفزة كبرى. وإذا فعل براين ما أحتاج منه أنْ يفعل -أي، أنْ يُخبِر القاضي ديسالفو أنّه يعلم أنَّ لآنّا حقوقاً أيضاً، وأنّه مُستعد لدعمها- فإنَّ أي شيء تذكره جوليا في تقريرها سوف يكون موضع نقاش. والأفضل من هذا، أنَّ شهادة آنّا سوف تكون مجرد إجراء رسميّ.

في باكر صباح اليوم التالي، يصل براين مع آنّا، مرتدياً زيّ القبطان الرسميّ. أفتعلُ ابتسامةً على وجهي وأنهضُ واقفاً، وأمشي مع جدج في اتجاههما. أقول: «صباح الخير. هل الجميع جاهزون؟»

ينظر براين إلى آنّا. ثم ينظر إليّ. ثمة سؤال يقف على حافة شفتيه، لكنّه يبدو أنّه يبذل أقصى جهده لكي لا يطرحه.

أقول لآنّا، فجأة: «هيه، هلّا قدّمتِ لي معروفاً؟ في استطاعة جدج أنْ يرتقي الدَّرَج ويهبطه بسرعة عدّة مرات، وإلّا فإنه سوف يتململ في قاعة المحكمة».

«بالأمس قلتَ لي إنني لا أستطيع أنْ أتنزّه معه».

«حسن، اليوم تستطيعين».

تهزّ آنّا رأسها رفضاً. «لن أذهب إلى أي مكان. حالما سأغادر سوف تتحدثان عني».

فألتفتْ نحو براين من جديد. «هل كل شيء على ما يُرام؟».

في تلك اللحظة، تدخل سارة المبنى، وتهرع نحو قاعة المحكمة،

وعندما تراني مع براين، تتوقف. ثم تستدير ببطء بعيداً عن زوجها وتتابع طريقها إلى الداخل.

تتابع عينا براين فيتزجيرالد زوجته، حتى بعد أنْ ينغلق الباب خلفها. يقول، كجواب ليس موجَّهاً إليّ، «نحن بخير».

«سيد فيتزجيرالد، هل حدثَ وأن اختلفتَ مرَّة مع زوجتك بشأنِ مُساهمة آنّا في وسائل المعالجة لصالح كيت؟».

«نعم. لقد قال الأطباء إنّ ما احتجنا إليه هو فقط دم الحبل السرّيّ من أجل كيت. كانوا سيأخذون جزءاً من السُرَّة الذي في المُعتاد يُرمى – ولا يحتاج الطفل المولود إليه، وحتماً لم يُسبب لها أي ألم». تتلاقى عيناه مع عينيّ آنّا، ويبتسم لها. «ونجح الأمر فترة قصيرة، أيضاً. وارتاحت كيت قليلاً. ولكن في عام 1996، انتكستْ من جديد. وأراد الأطباء من آنّا أنْ تمنح بعضاً من كريّاتها البيضاء. لم يكن ذلك سيُشفيها، لكنّه سيدعم كيت قليلاً».

أحاول أنْ أدفعه إلى المتابعة. «هل اتّفقتما أنتَ وزوجتك حول هذا العلاج؟».

«أنا لم أر أنّه فكرة جيدة. هذه المرَّة كانت آنّا ستعرف ما الذي يحدث، ولم يكن ذلك سيُعجبها».

«ماذا قالتْ زوجتك حتى غيَّرتَ رأيك؟».

«قالتْ إنّه إذا لم نسحب دماً من آنّا هذه المرَّة، فسوف نحتاج إلى النقيّ قريباً في كل الأحوال».

«وكيف شعرتَ حيال ذلك؟».

يهزّ براين رأسه سلباً، بانزعاجٍ واضح. ويقول بهدوء: «أنت لا تعلم كيف يكون الأمر، إلى أنْ يحتضِر طفلُك. تجد نفسك تقول أشياء وتقوم بأمورٍ لا تريد أنْ تقوم بها أو تقولها. وتعتقد أنّ لديك خَياراً بشأنها، ولكن بعد ذلك تقترب أكثر منها، وترى أنكَ فهمتها فهماً خاطئاً». يرفع بصره إلى آنّا، التي مازالت تجلس بكل سكون إلى جواري حتى أظنّ أنها نسيَتْ أنْ تتنفَّس. «لم أرِد أنْ أفعل ذلك لآنّا. ولكن لا يمكنني أنْ أخسر كيت».

«هل كنتَ مُضطراً إلى الاستعانة بنقي عِظام آنّا في نهاية الأمر؟».

«نعم».

«سيد فيتزجيرالد، بوصفكَ مُجازاً في مجال حالات الطوارئ الطبيّة، هل أنتَ مُستعد للقيام بإجراء على مريض ليست لديه أيّة مشاكل جسديّة؟».

«طبعاً لا».

إذن لماذا اعتقدتَ، بوصفكَ والد آنّا، أنَّ هذا الإجراء الموسَّع، الذي عرَّضَ آنّا نفسها للخطر ولم يُقدِّم لها أيّة منفعة، هو في مصلحتها؟».

يقول براين: «لأنني لم أستطع أنْ أدع كيت تموت».

«هل كانت هناك أسباب أخرى، سيد فيتزجيرالد، عندما اختلفتما أنتَ وزوجتك بشأنِ الاستعانة بجسد آنّا لصالح معالجة ابنتكما الأخرى؟».

«قبل بضعة أعوام، أُدخِلَتْ كيت المستشفى و... عندما خسرتْ كمية كبيرة من الدماء اعتقد الجميع أنّها لن تعيش. فكَّرتُ في أنّه ربما آنَ الأوان لتركها ترحل. أما سارة فلم ترَ ذلك».

«ماذا حدث؟».

«أعطاها الأطباء الزرنيخ، ونجح الأمر، وأتاحت لكيت فترة عامٍ من الراحة».

«أتريد أنْ تقول إنه كان هناك علاج أنقذَ حياة كيت، ولم يتضمَّن استغلال جسد آنّا؟».

يهزّ براين رأسه سلباً. «ما أقول... ما أقول هو أنني كنتُ متيقّناً من أنَّ كيت سوف تموت. لكنَّ سارة لم تتخلَّ عن كيت وعادتْ إلى القِتال». نقلَ نظره إلى زوجته. «والآن، كليَتا كيت تنهاران. ولا أريد أنْ أراها تتألَّم. ولكن في الوقت نفسه، لا أريد أنْ أرتكب الخطأ مرّتين. لا أريد أنْ أقول لنفسي لقد انتهى الأمر، في حين أنّه ليس من الضروري أنْ يكون كذلك».

أصبح براين كتلة ضخمة من الانفعال، متوجّهاً مباشرة نحو البيت الزجاجي الذي كنتُ أبنيه له بدقّة. كنتُ في حاجة إلى إدخاله إليه. «سيد فيتزجيرالد، هل كنتَ تعلم أنَّ ابنتكَ كانت سترفع دعوى ضدك وضد زوجتك؟».

«كلا».

«وعندما فعلتْ، هل تحدثتَ مع آنّا بهذا الخصوص؟».

«نعم».

«واعتماداً على ذلك الحديث، يا سيد فيتزجيرالد، ماذا فعلت؟».

«انتقلتُ من المنزل مع آنا».

«لماذا؟».

«لقد اعتقدتُ في ذلك الوقت أنَّ لآنّا الحقّ في أنْ تفكّر مليّاً حول هذا القرار، ولم يكن باستطاعتها أنْ تفعل ذلك وهي تقيم في منزلنا».

«بعد خروجك من المنزل مع آنّا، وبعد حديثك المطوّل معها حول سبب إقامتها تلك الدعوى - هل توافق على طلب زوجتك استمرار آنّا في أنْ تكون واهبة كيت؟».

الجواب الذي كنا قد تدرّبنا عليه هو **كلا**؛ هذا هو جوهر قضيّتي. ويميل براين إلى الأمام لكي يُجيب. ويقول: «نعم، أتّفق».

أبدأ بالقول: «سيد فيتزجيرالد، في اعتقادك...»، ثم أُدركُ ما فعل. «ماذا قلت؟».

يعترف براين: «ما زلتُ أتمنى من آنّا أنْ تهِبَ كِليتها».

أحدِّقُ إلى هذا الشاهد الذي خدعني خدعة كبرى، وأستعدّ للهجوم. إذا رفَضَ براين أنْ يدعم قرار آنّا في التوقّف عن القيام بدور الواهب، فسوف يواجه القاضي صعوبة جمّة في إصدار حُكم في صالح التحرير.

في الوقت نفسه، أعي بكل وضوح أقل صوت يصدر عن آنّا، صوت انكسار الروح الذي يصدر عندما تدرك أنَّ ما بدا كأنّه قوس قُزح لم يكن في الواقع إلّا خدعة من خدع الضوء. «سيد فيتزجيرالد، هل أنت راغبٌ في جعل آنّا تخضع لعمليّة جراحيّة كبرى تفقد بواسطتها عضواً من جسمها لفائدة كيت؟».

أمر غريب أنْ تراقب رجلاً قويّاً ينهار ويتحطّم. يسأل براين، بصوت قاسٍ. «هل تستطيع أنْ تخبرني ما هو الجواب الصحيح هنا؟ لأنني لا أعلم أين أبحث عنه. أنا أعلم ما هو الصواب. وأعرف ما هو العدل. ولكنْ لا ينطبق أيٌّ منهما على هذه الحالة. أستطيع أنْ أجلس، وأستطيع أنْ أفكّر فيه، وأستطيع أنْ أخبركَ بما يجب فعله وما ينبغي فعله. بل أستطيع أنْ أخبرك بأنه

يجب أنْ يكون هناك حلّ أفضل. ولكن مرَّ ثلاثة عشر عاماً، سيد ألكسندر، ولم أعثر عليه بعد».

يميل إلى الأمام ببطء، ضخماً داخل ذلك الحيِّز الضئيل، إلى أنْ يستقرّ جبينه على عمود الخشب البارد الذي يشكّل حدود منصّة الشهادة.

يُعلنُ القاضي ديسالفو فترة عشر دقائق استراحة قبل أنْ تبدأ سارة فيتزجيرالد استجوابها، لكي تُتاح للشاهدة بضع دقائق لتختلي بنفسها. وهبطنا أنا وآنّا إلى الطابق السفليّ إلى مواقع البيع، حيث يمكن إنفاق دولار على كوب من الشاي التفه والشوربة التفهة. وتجلس وكاحلاها يستندان على دَرَجة المقعد الخالي من الظهر، وعندما أسلّمها كوبها من مشروب الشوكولاتة الحارّة تضعه على الطاولة من دون أنْ تشرب.

تقول: «لم أر أبي أبداً يبكي. أما أمي، فهي تسفح دموعها دائماً على كيت. لكنَّ أبي – حسن، إذا انهارَ، فإنه يحرص على أنْ يحدث ذلك بعيداً عن الأعين».

«آنّا–».

تسأل، مستديرة نحوي، «أتظن أنني تسبّبتُ له في ذلك؟ أتعتقد أنه كان ينبغي أنْ أطلب منه المجيء إلى هنا اليوم؟».

أهزّ رأسي نفياً. «كان القاضي سيطلب شهادته حتى وإنْ لم ترغبي أنت. آنّا، سوف تُضطرين إلى فعل ذلك أنتِ نفسك».

ترفع بصرها إليّ، بحذر. «أفعل ماذا؟».

«تُدلي بشهادتك».

تطرف آنّا بعينيها في وجهي: «*أتمزح؟*».

«حسبتُ أنَّ القاضي سوف يُصدر حكماً واضحاً لصالحك إذا رأى أنَّ والدك راغب في دعم خياراتك. ولكن لسوء الحظ، لم يحدث هذا. ولا أعلم ماذا ستقول جوليا – ولكن حتى إذا وقفتْ إلى جانبك، سوف يحتاج القاضي ديسالفو مع ذلك إلى أنْ يقتنع بأنكِ ناضجة بالقدر الكافي لكي تكون لك خياراتك الخاصّة، بمنأى عن والديك».

«تقصد أنني يجب أنْ أقفَ هناك؟ كشاهدة؟».

لطالما عرفتُ أنَّ آنّا سوف تُضطر، عند نقطة ما، أنْ تتخذ موقفاً. وفي قضيّةٍ تدور حول تحرير قاصِر من التزامها، من العقلانيّة أنْ يرغب القاضي في الإصغاء إلى القاصر نفسَها. ربما آنّا تتصرَّف بخوف بشأن الإدلاء بشهادتها، ولكنْ أعتقد أنَّ هذا ما تريد فعله حقاً في لاوعيها. فلِمَ التورّط في مشكلة التحريض على رفع دعوى، إذا لم يكن ذلك للتأكّد من أنكَ في نهاية المطاف سوف تعبِّر عن رأيك؟

تقول آنّا، وقد اهتاجت: «لقد أخبرتني بالأمس بأنني لستُ مُضطرة إلى الإدلاء بشهادتي».

«كنتُ مُخطئاً».

«لقد وكّلتُكَ لكي تبلِّغ *أنتَ* الجميع بما أريد».

أقول: «هذه الطريقة لم تنفع. أنتِ التي بدأتِ برفع هذه الدعوى. لقد أردتِ أنْ تكوني شخصاً آخر غير الشخص الذي صَنَعَتْه عائلتك طوال السنوات الثلاث عشرة الماضية. وهذا يعني أنَّ عليك أنْ تزيحي الستارة وتعرضي علينا ذلك الشخص الآخر».

جادلتْ آنّا قائلة: «إنَّ نصف البالغين على هذا الكوكب ليست لديهم أدنى فكرة عن أنفسهم، لكنهم في كل يوم يتخذون قرارات».

أقول، وقد وصلتُ إلى ما أتصوّر أنّه جوهر المسألة: «إنهم ليسوا في الثالثة عشرة. اسمعي، أعلم أنّه في الماضي كان النهوض والجهر بالرأي لا يوصلُ إلى أي هدف. ولكنني أعِدكِ، هذه المرّة، عندما تتكلّمين، بأنَّ الجميع سوف يُصغون».

كان لهذا الكلام الأثر العكسي لِما قصدت به. تعقد آنّا ذراعيها على صدرها. تقول «لا يمكن أنْ أصعد إلى تلك المنصّة».

«آنّا، إنَّ الإدلاء بالشهادة ليس بالأمر الجلل-».

«بل هو أمرٌ جلل، يا كامبل. إنّه *أضخم* الأمور. *ولن* أقوم به».

أشرح قائلاً: «إذا لم تدلي بشهادتك، سوف نخسر».

«إذن جِدْ وسيلة أخرى للفوز. *أنت* المحامي».

أرفضُ أنْ أقعَ في هذا الفخ. وأنقر بأصابعي على الطاولة طلباً للصبر. «هل ستخبرينني عن سبب معارضتكِ للشهادة؟».

ترفع نظرها إلى أعلى. «كلا».

«كلا، أي أنكِ لن تشهدي؟ أم كلا، لن تُخبريني؟».

«هناك أمور لا أريد أنْ أتحدث بشأنها»، وقَسَتْ قسمات وجهها. «حسبتُ أنك، من دون الناس جميعاً، سوف تتمكَّن من فهم هذا».

إنها تعرف على أي وتر تضرب. أقترحُ باقتضاب: «فكّري في الأمر».

«لن أُغيِّر رأيي».

أنهضُ واقفاً وألقي كوبي الممتلئ بالقهوة في سلة النفايات. أقول لها: «حسن إذن، لا تتوقّعي مني أنْ أتمكّن من تغيير حياتك».

سارة
في الوقت الحالي

ثمة أمرٌ غريبٌ يحدث مع مرور الوقت: تكلُّس الشخصيّة. إذا سقط الضوء بزاوية مناسِبة على وجه براين، أستطيع أنْ أرى مع ذلك الزرقة الباهتة لعينيه التي لطالما دفعتني إلى التفكير في مُحيطٍ يكتنف جزيرةً أفكّر في السباحة فيه. وتحت الخطوط الرفيعة لابتسامته، هناك شق ذقنه - السِّمة الأولى التي أبحث عنها في وجوه الأطفال المولودين حديثاً. هناك تصميمه، وإرادته الهادئة، والسلام الراسخ مع نفسه الذي لطالما تمنّيتُ أنْ أتّصِفَ بقدرٍ منه. هذه هي العناصِر الأساسيّة التي جعلتني أقع في حبّ زوجي؛ وإنْ كانت تمرّ عليّ أوقات الآن لا أتعرّف عليه خلالها، فذلك ربما ليس عائقاً. والتغيير لا يكون دائماً نحو الأسوأ؛ والصَّدَفة التي تُحيطُ بحبّة رمل تبدو لبعض الناس شيئاً مُثيراً، ولآخرين، أشبه بلؤلؤة.

انتقلتْ عينا براين كالسهم من آنّا، التي تعبث بأثرِ جرح على إبهامها، إليّ. إنّه يُراقبني كما يُراقب فأرٌ صقراً. ثمة شيءٌ في هذا يؤلمني؛ أهكذا حقاً يُفكّر فيَّ؟

هل الجميع يفكرون فيّ هكذا؟

أتمنّى لو لم تكن تفصل بيننا قاعة محكمة. أتمنى لو أستطيع أنْ أمشي إليه، وأقول له، *اسمع، ليس هكذا كنتُ أظنّ أنَّ حياتنا ستسير؛ وربما لا نستطيع أنْ نخرج من هذا النفق. ولكن لا أرغب في أنْ أتوه مع أي شخص آخر غيرك*.

أودّ أنْ أقول، *اسمع*، *ربما كنتُ مُخطئة*.

يسأل القاضي ديسالفو: «سيدة فيتزجيرالد، هل لديك أيّة أسئلة تطرحينها على الشاهد؟».

أدركُ أنَّ الكلمة مُرادف جيّد لكلمة زوج. فأيّ شيء آخر يفعله الزوج أو الزوجة خلاف أنْ يُصدِّق كلٌّ منهما على أخطاء حكم الآخر؟

أنهضُ واقفةً ببطء عن مقعدي. أقول، «مرحباً، براين»، بصوتٍ ليس ثابتاً كما كنتُ آمل أنْ يكون.

يُجيب: «مرحباً سارة».

بعد تبادل هذه العبارة، لم أعرف ماذا أقول.

تُغيرُ عليّ إحدى الذكريات. كنا قد أردنا أنْ نبتعد، لكنّنا لم نستطع أنْ نُقرِّر إلى أين. فركبنا السيارة وانطلقنا، وكنا بعد كل نصف ساعة نطلب من أحد الأولاد انتقاء منعطف، أو نسأل إنْ كنا نتجه يميناً أو يساراً. وانتهى بنا الأمر إلى سيل كوف، في ولاية مين، فتوقفنا، لأنَّ الاتجاه التالي الذي اختاره جِسّ أوصلنا إلى المحيط الأطلسي. فاستأجرنا كوخاً خالياً من التدفئة، ومن الكهرباء – وأولادنا الثلاثة يخافون الظلام.

لا أدركُ أنّني كنتُ أتكلّم بصوتٍ مرتفع إلّا عندما أجاب براين. قال: «أعلم، لقد وضعنا العديد من الشموع على تلك الأرضيّة حتى كنتُ متأكّداً من أننا سوف نحرق المكان. وأمطرت الدنيا على امتداد خمسة أيام».

«وفي اليوم السادس، عندما صفا الجو، كان قَرْص ذباب الخيل موجعاً إلى درجة أننا لم نتمكن من الخروج».

«ثم أُصيبَ جِسّ باللبلاب السامّ وتورّمتْ عيناه وأُغمضتا...».

يُقاطعها كامبل ألكسندر. «بعد *إذنك*».

يقول القاضي ديسالفو: «اعتراض مقبول. إلى أين سيودي بنا هذا الكلام، أيّتها المُستشارة؟».

لم نكن نعرف إلى أين سيفضي بنا، والمكان الذي وصلنا إليه كان فظيعاً، ومع ذلك ما كنا لنقايض ذلك الأسبوع بالعالم كلّه. عندما لا تعرف إلى أين أنت ذاهب، فسوف تصل إلى أماكن لا يفكّر أحدٌ غيرك في استكشافها. يقول براين ببطء، وعناية، «عندما لم تكن كيت مريضة، أمضينا معاً أوقاتاً هانئة».

«ألا تعتقد أنَّ آنّا سوف تفتقد تلك الأوقات، إذا رحلتْ كيت؟».

غادر كامبل مقعده، كما توقّعت. «أعترض!».

يرفعُ القاضي يده، ويومئ برأسه لبراين كإجابة.

يقول: «كلنا نعترض».

في تلك اللحظة، يحدث أغرب أمر. نقوم أنا وبراين، يواجه أحدنا الآن

وتفصِل بيننا أعمدة، بحركة مفاجئة كقطعتيّ مغناطيس؛ وبدل أنْ يبتعد أحدنا عن الآخر نبدو فجأة أننا نقف على جانب واحد. نحن شابان وعاشقان للمرة الأولى؛ نحن عجوزان ونتساءل كيف قطعنا تلك المسافة الشاسعة بفترة وجيزة. نحن نشاهد الألعاب الناريّة على شاشة التلفزيون في عدد كبير من عشيّات العام الجديد، وثلاثة أطفال نائمون ومحشورون بيننا على سريرنا، مضغوطون معاً بشدّة حتى أنني أشعر بافتخار براين على الرغم من أنَّ أحدنا لا يلمس الآخر.

فجأة لا يهم كونه انتقل ليُقيم مع آنّا، وكونه شكّك في بعض القرارات حول وضع كيت. لقد نفَّذَ ما رأى أنّه الصواب، كما فعلتُ أنا، ولا أستطيع أنْ أعيب على ذلك. أحياناً تغرق الحياة في التفاصيل، حتى إنّكَ تنسى أنكَ تعيشها. هناك دائماً موعد آخر يجب أنْ تذهب إليه، وفاتورة أخرى يجب تسديدها، وأعراض أخرى تظهر، ويوم مملّ آخر يجب أنْ يُدوَّن بحفره على جدار الخشب. لقد زامنّا ساعات أيدينا، ودقّقنا النظر في روزناماتنا، وعشنا الدقائق، ونسينا تماماً أنْ نخطو إلى الخلف لنرى ماذا أنجزنا.

إذا فقدنا كيت اليوم، سوف نكون قد احتفظنا بها على مدى ستة عشر عاماً، ولا يمكن لأحد أنْ يأخذ هذه منا. وبعد مرور زمن طويل من الآن، عندما يُصبح من الصعب استعادة صورة وجهها وهي تضحك أو الإحساس بيدها داخل يدي أو النبرة الدقيقة لصوتها، سوف يكون براين معي ليقول لي، ***ألا تذكرين؟ هكذا كان الحال.***

اخترقَ صوت القاضي حلم يقظتي: «سيدة فيتزجيرالد، هل انتهيت؟».

لم تكن لدي حاجة لاستجواب براين؛ لطالما كنتُ أعرف إجاباته. وما نسيتُ هي الأسئلة.

ألتفتُ إلى زوجي. «تقريباً». وأسأل «براين؟ متى ستعود إلى المنزل؟».

داخل مبنى قاعة المحكمة هناك صفٌ ضخم من آلات بيع السلع، لا يوجد في أي منها أي شيء مما ترغب في أكله. وبعد أنْ أعلن القاضي ديسالفو عن فترة استراحة، هبطتُ لأتمشّى هناك، وأخذتُ أحدِّقُ إلى عبوات السكاكر ورقائق البطاطا المقليّة المقفلة.

يقول براين من خلفي: «إنَّ حلوى أوريوس هي المُفضّلة إليك». أستدير في

الوقت المناسب لأراه يضع قطع النقود الصغيرة في شقّ الآلة. «بسيطة. تقليديّة». يضغط زرّين وتبدأ قطع الكعك غوصها الانتحاريّ إلى قعر الآلة.

يقودني إلى الطاولة، الممتلئة بالندوب وبالبقع التي تركها أناسٌ حفروا عليها أحرف أسماءهم الأولى الأبديّة وزيّنوا بأفكارهم الداخليّة السطح. أعترفُ، «لم أكن أعلم ماذا أقول لك ونحن على المنصّة»، ومن ثم أتردَّد. «براين؟ هل تعتقد أننا كنا أبوين صالحَين؟». وأفكِّر في جِسّ، الذي تخلّيتُ عنه منذ زمن طويل. وفي كيت، التي لم أتمكن من علاجها. وفي آنّا.

يقول براين: «لا أعلم. هل يعلم أحد؟».

يُناولها حزمة كعك أوريوس. وعندما أفتحُ فمي لأخبره بأنني لستُ جائعة، يُقحِمُ براين كعكة إلى داخله. أشعر بها على لساني دسمة وخشنة؛ وفجأة أشعر بجوعٍ شديد. يزيل براين الفُتات عن شفتيّ وكأنني مصنوعة من الصينيّ المُرهف. وأتركه يفعل. وأشعر كأنني لم أتذوّق شيئاً يُجاريها في الحلاوة.

ينتقل براين وآنّا عائدَين إلى المنزل في تلك الليلة. ونقوم نحن الاثنين بوضعها في سريرها؛ ونُقبّلها نحن الاثنين. ويذهب براين لكي يأخذ دشّاً. وبعد قليل، سوف أذهب إلى المستشفى، أمّا الآن فأجلس قِبالة آنّا، على سرير كيت. تسألني: «هل تنوين أنْ توبخيني؟».

أُمرِّر إصبعي على حافّة إحدى وسائد كيت. «ليس كما تعتقدين. أنتِ لستِ شريرة لأنكِ تريدين أنْ تكوني صادقة مع نفسك».

«أنا أبداً لم-».

أرفع إحدى يديّ. «ما أعني هو أنَّ تلك الأفكار، هي إنسانيّة. ومجرّد أنكِ أثبتِّ أنكِ مختلفة عمّا تخيّل الجميع عنكِ لا يعني أنكِ فشلتِ بصورةٍ ما. إنَّ الطفلة التي تتعرَّض للإزعاج في إحدى المدارس قد تنتقل إلى أخرى مختلفة، وتُصبح محبوبة أكثر من غيرها، لأنَّ لا أحد يتوقّع أي شيء آخر منها. أو أنَّ شخصاً يلتحق بمدرسة متوسطة لأنَّ كامل أفراد عائلته من الأطباء قد يكتشف أنَّ ما يريد حقاً أنْ يُصبح هو فنان وليس طبيباً. آخذ نَفَساً عميقاً، وأهزّ رأسي نفياً. «هل أقول أي كلام مفهوم؟».

«ليس كثيراً».

هذا يدفعني إلى الابتسام. «أعتقد أنني أقول إنكِ تُذكرينني بشخصٍ ما».
تظهر آنّا مُعتمدة على مرفقها. «مَنْ؟».
أقول: «أنا».

عندما تعيش مع شريك حياتك سنوات طويلة جداً، يُصبحُ كالخريطة التي في صندوق سيارتك وتهرّأتْ حوافها وابيضَّتْ تجاعيدها من طول استعمالها، والأثر الذي تتعرَف عليه جيداً بحيث تستطيع أنْ ترسمه غيباً وتحتفظ به معك لهذا السبب في رحلاتك في كل الأوقات. ومع ذلك، تفتح عينيك ذات يوم فترى أمامك، فجأة، منعطفاً، موقعاً ممتازاً لم يكن موجوداً من قبل، وتتوقف وتتساءل إنْ كان ذلك المَعلَم جديد تماماً، أم إنّه شيء لم يُلفِتْ انتباهك طوال الوقت.

يستلقي براين إلى جواري على السرير. لا يقول أيّ شيء، فقط يضع يده على الوهدة التي شكّلها منحنى عنقي. ثم يُقبّلني، قبلة طويلة حلوة ومُرَّة. هذا الأمر توقّعته، ولكنّي لم أتوقَّع ما تلا ذلك -إنّه يعضّ شفتي بقوّة حتى إنني تذوّقتُ طعم الدم. أقول «آخ»، وأحاول أنْ أضحك قليلاً، وأستخفّ بذلك. لكنّه لا يضحك، أو يتعذر. يميل إلى الأمام، ويلعق الدم عنها.

يجعلني هذا أطفر من داخلي. هذا هو براين، وهذا ليس براين، وهذان الاثنان رائعان. وأُمرِّر لساني على الدم، بطعمِهِ النحاسيّ والأملس. أفتح ساقيّ كزهرة سحلبيّة، وأجعل من جسدي مهداً، وأشعر بأنفاسه على نحري، وعلى ثدييّ. يُريحُ رأسه برهة على بطني، وبقدرِ ما كانت تلك العضّة مُفاجِئة، شعرتُ الآن بوخز الألفة - هذا ما كان يفعله في كل ليلة، يؤدّي طقساً، عندما كنتُ حُبلى.

ثم يتحرّك من جديد. ينهضُ فوقي، كشمسٍ ثانية، ويملؤني بالضوء وبالحرارة. نحن دراسة في الأضداد -القاسي مع الرقيق، الفاتح مع الغامق، المهستر مع الناعم- ومع ذلك هناك شيء في تطابقِنا يجعلني أُدرك أنَّ لا أحد منا سيكون على ما يُرام من دون الآخر. نحن امتداد واحد لجسدين متصلين، اشتباكٌ مُستحيل.

أهمسُ: «سوف نفقدها»، من دون أنْ أعلم إنْ كنتُ أتكلَّم عن كيت أم عن آنّا.

يُقبّلني براين. يقول: «اسكتي».

بعد ذلك لم نتكلَّم أبداً. هكذا أسلَم.

الأربعاء

ولكن من ذلك اللَّهب،

لا يصدرُ نور، بل ظلامٌ مرئيّ.

جون ميلتون، من «*الفردوس المفقود*»

جوليا

لدى عودتي من هرولة الصباح، أجد إيزي جالسة في غرفة الجلوس. تسألني «أأنت بخير؟».

«نعم»، وأفكّ رباط حذائي الرياضيّ، وأمسح العرَق عن جبيني. «لماذا»؟

لأنَّ الأناس الطبيعيّين لا يخرجون للهرولة عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً».

«حسن، كان عندي كميّة من الطاقة يجب أنْ أحرقها»، وألجُ المطبخ، لكنَّ آلة صنع القهوة التي برمجتُها لكي تحمِّص لي البندق في هذه اللحظة بالذات لم تقُم بعملها. فتفحّصتُ وصل الآلة بالمقبس، وضغطتُ على بعضٍ من أزرارها، ولكنْ تبيَّن أنَّ كل شيء مُغلَق. أقول، وأنا أخلع السلك عن الجدار: «اللعنة، إنها ليست قديمة جداً حتى تتعطَّل».

تقترب إيزي مني وتتلاعب بالآلة. «هل هي مؤمَّنة؟».

«لا أعلم. ولا يهمّني. كل ما أعرف هو أنكِ عندما تدفعين نقوداً مقابل شيء من المفترَض أنْ يعدّ لك كوباً من القهوة، فأنتِ تستحقين أنْ تحصلي على كوبك اللعين من القهوة»، وأضع الكأس الزجاجي بقوة إلى درجة أنّه ينكسر في المغسلة. ثم أنهارُ ببطء على خزانة الأدوات الزجاجيّة وأباشر بالبكاء.

تركع إيزي إلى جواري. «ماذا فعلَ؟».

أجهشُ قائلة: «الشيء نفسه بالضبط، يا إيزي. كم أنا غبيّة».

تطوّقني بذراعيها. تقترح «بغلي الزيت؟ أم بالتسميم باللحم الفاسد؟ أم بالخصي؟ اختاري».

يدفعني ذلك إلى الضحك قليلاً. «أعلمُ أنكِ سوف تنفّذين».

«فقط لأنكِ ستفعلين ذلك كردّ جميل من أجلي».

أتّكئ على كتف أختي. «حسبتُ أنَّ الصاعقة لا تضرب المكان نفسه مرَّتين».

تُخبرني إيزي «طبعاً تضرب. ولكن فقط إنْ كنتِ حمقاء وتحرّكت».

أول شخص يُرحّب بي في المحكمة في صباح اليوم التالي لم يكن شخصاً أبداً، بل الكلب جدج. ظهر متسللاً عند المنعطف وأذناه متدليتين، لا ريب في أنّه هارب من ضجيج صوت صاحبه المرتفع. أقول، لأهدِّئه، «هيه»، لكنَّ جدج لم يتقبّل ذلك. ويتشبّث بأسفل سترة بذّتي -إنَّ كامبل هو الذي يُسدِّد فاتورة الغسيل على الناشف، أُقسِم على ذلك- ويبدأ بجرّي نحو المناظرة.

أستطيع أنْ أسمع كامبل قبل أنْ أنعطف عند الزاوية. «لقد بدَّدتُ الوقت، والطاقة البشريّة، وأعلمْ أنَّ هذا ليس الشيء الأسوأ. لقد بدَّدتُ حكمي السديد بخصوص موكلتي».

تجادله آنّا: «نعم، حسن، لستَ الوحيد الذي أخطأ في حُكمِه. لقد وكّلتك *أنتَ* لأنني ظننتُ أنكَ مدعوم» وتندفع وتتجاوزني. وتقول بصوتٍ منخفض «أيها الغبي».

في تلك اللحظة، أتذكّر شعوري عندما استيقظتُ وأنا وحيدة على متن القارب: خائبة الأمل. أنجرفُ. غاضبة من نفسي، لأنني تورّطتُ في هذا الموقف.

لِمَ لمْ أغضب من كامبل بحقّ الله؟

يقفز جدج على كامبل، يُخربش صدره بمخالبه. يأمره «اجلسْ»، ومن ثم يستدير ويراني. «لم يكن من المُفترَض أنْ تسمعي هذا».

«أراهن على ذلك».

يجلس بكل ثقله على كرسيّ خفيف في غرفة الاجتماعات ويُمرِّر يده على وجهه. «إنها ترفض أنْ تُدلي بشهادتها».

«إكراماً لله، كامبل. إنها لا تستطيع أنْ تواجه أمّها في غرفة جلوسها الخاصّة، فما بالك في موقف الاستجواب. ماذا تتوقّع؟».

يرفع بصره إليّ، بنظرة ثاقبة. «ماذا ستخبرين ديسالفو؟».

«أتسألني بسبب آنّا، أم لأنك خائف من خسارة المحاكمة؟».

«شكراً لك، لكنّني عرَضْتُ ضميري للإيجار».

«ألنْ تتساءل لماذا تُثير فتاة في الثالثة عشرة أعصابك؟».

يعبس. «لِمَ لا تتدخّلين، يا جوليا، وتفسدين قضيّتي كما كنتِ تنوين أنْ تفعلي أصلاً؟»

«هذه ليستْ قضيّتك، بل قضيّة آنّا. على الرغم من أنني أفهم سبب اعتقادك خلاف ذلك».

«ما معنى هذا؟».

أقول: «أنت جبان. أنتما الاثنان مُصمّمان على الهرب من نفسيكما. أنا أعرف العواقب التي تخشاها آنّا. فماذا عنك أنت؟».

«لا أعلم عمَّ تتكلمين».

«لا تعلم؟ أين روح الدعابة عندك؟ أم إنَّ من الصعب المُزاح حول شيء موجِع؟ إنكَ تتراجعُ كلما اقترب أحدٌ منك. لا بأس إذا كانت آنّا مجرد موكِّلة، ولكن حالما تُصبح حبيبة، تجد نفسك في مشكلة. أمّا أنا، فأنا مجرد علاقة جنسية سريعة وعابرة، أما إقامة علاقة عاطفيّة، فأمر مستحيل. والعلاقة الوحيدة التي تُقيمها هي مع كلبك، وحتى هذه هي من أسرار الدولة الكبرى».

«لقد خرجتِ عن الموضوع كثيراً، يا جوليا-».

«في الواقع، كلا، لعلّي الشخص الوحيد المؤهَّل لإعلامك بدقّة كم أنت أحمق. ولكن لا بأس، صحِ؟ لأنه إنِ اعتقد الجميع أنكَ أحمق، فلن يهتم أحد بالاقتراب منك». أحدِّقُ إليه مدة أطول. «من المُحبِط أنْ تعرف أنّ هناك مَنْ ينفَذ إلى أعماقك، أليس كذلك، يا كامبل».

ينهض واقفاً، بوجه جامد. «لديَّ قضيّة يجب أنْ أنظر فيها».

أقول: «افعل. ولكن احرَص على أنْ تفصِل العدالة عن الموكِّل الذي يحتاج إليها. وإلّا، معاذ الله، قد تكتشف حقاً أنَّ لديكَ قلباً ينبض».

أبتعدُ قبل أنْ أُحرِج نفسي أكثر من ذلك، وأسمعُ صوت كامبل يتبعني، «جوليا، هذا ليس صحيحاً».

أُغمضُ عينيّ، وألتفت رُغماً عني.

يتردَّد. «الكلب. أنا–».

لكنَّ الاعتراف الذي أوشك أنْ يُدلي به قاطعَه ظهورُ فيرن من الباب. قاطعَنا قائلاً «القاضي ديسالفو غاضب، لقد تأخّرتما، والسوق الصغيرة نفدَ منها مشروب القهوة مع الحليب».

تلاقت عيناي مع عينيّ كامبل. انتظرتُه ليُنهي جُملته. يقول «أنتِ شاهدتي التالية» بنبرة مُحايدة، وتنصرم اللحظة قبل حتى أنْ أتذكَّر وجودها.

كامبل

يزداد الأمر صعوبة أكثر فأكثر لأكون ابن حرام.

مع ولوجي قاعة المحكمة تكون يداي قد بدأتا ترتعشان. والسبب جزئيّاً، طبعاً، هو السبب نفسه دائماً وأبداً. لكنَّ جزءاً آخر منه يتّصل بحقيقة أنَّ موكّلتي كانت جامدة إلى جواري كجلمود؛ والمرأة التي أنا مولع بها أوشكُ أنْ أضعها على منصّة الشهادة. ألقي نظرة واحدة إلى جوليا حالما يدخل القاضي؛ وتسجّل موقفاً عندما تُشيح بنظرها عني.

يتدحرج قلمي الحبر ويسقط عن الطاولة. «آنّا، هلّا أحضرته لي؟».

تقول: «لا أدري، سوف أُبدِّد وقتاً وطاقة بشريّة، أليس كذلك؟»، ويبقى قلم الحبر اللعين على الأرض.

يسأل القاضي ديسالفو: «هل أنت على استعداد لاستدعاء شاهدك التالي، يا سيد ألكسندر؟»، ولكن قبل أنْ أتمكّن حتى من نطق اسم جوليا تطلب سارة فيتزجيرالد أنْ تتقدَّم من المقعد.

أستعدّ لمواجهة تعقيدٍ آخر، ولا شك في أنَّ مُعارضة المجلس لا تخيب. «إنَّ الطبيبة النفسية التي طلبتها للشهادة لديها موعد في المستشفى هذا اليوم. فهل تمانع المحكمة في أنْ تلقّي شهادتها خارج جدول المواعيد؟».

«ما رأيك سيد ألكسندر؟».

أهزّ كتفيّ بلا مبالاة. إنها مجرد نزهة بالنسبة إليّ، إذا سألتني. وأجلسُ إلى جوار آنّا وأراقب امرأة ضئيلة سمراء مع كعكة من الشعر تعلو قمة رأسها بمقدار عشر درجاتٍ بشدّة لا تتناسب مع وجهها تأخذ مكانها على منصّة الشهادة. وتباشر سارة بالقول: «اذكري اسمك من فضلك وعنوانك لتسجيلهما».

تقول الطيبة النفسيّة: «أنا الدكتور بيتا نو، 1250 أوريك واي، وونسوكر».

دكتور نو[1]. وأتلفّت حولي في قاعة المحكمة، ولكن يبدو أنني الوحيد المُعجَب بجيمس بوند. أتناول صفيحة من الأوراق الرسميّة وأكتب ملاحظة لآنّا: ***إذا تزوجت من الدكتور تشانس، فسوف يُصبح لقبها الدكتور نو – تشانس***[2].

ترتعش ابتسامة عند زاوية فم آنّا. فتلتقط قلم الحبر الذي سقط وتكتب ردّاً على الملاحظة: ***وإذا حصلتْ على الطلاق ومن ثم تزوّجت السيد بستر، سوف يُصبح لقبها نو –تشانس– بستر***[3].

بدأنا نضحك معاً، فتنحنح القاضي ديسالفو ونظر إلينا. أقول: «عذراً، فضيلتك».

تُمرِّر آنّا لي ملاحظة أخرى: ما زلتُ مجنونة بك.

تمشي سارة باتجاه شاهِدتها. «هلّا أخبرتنا يا دكتور، ما هي طبيعة مهنتك؟».

«أنا طبيبة نفسيّة خاصّة بالأطفال».

ترمي الدكتور نو آنّا بنظرة. «قبل حوالي سبعة أعوام، أحضرتِ ابنك، جِسّ، بسبب وجود مشاكل في سلوكه. ومنذ ذلك الحين قابلتُ أنواع الأطفال كافّة، في مناسبات متنوعة، للتحدث عن قضايا مختلفة ظهرت».

«دكتور، لقد اتصلتُ بك في الأسبوع الفائت وطلبتُ منكِ إعداد تقرير تُقدّمين فيه رأيك الخبير في الأذى النفسيّ الذي يمكن لآنّا أنْ تعاني منه إذا ما توفيت أختها».

«نعم. في الحقيقة، قمت ببعض البحث. كانت هناك قضيّة مُشابهة في ميريلاند طُلِبَ فيها من فتاة أنْ تكون واهبة لطفليها التوأم. وقد وجدت الطبيبة النفسيّة التي قامت بفحص التوأم أنَّ هناك تطابقاً قويّاً بينهما بحيث إذا ما تحقّقت النتائج الناجحة المرجوّة، فسوف يعود ذلك بالفائدة الجمّة على

1- «دكتور نو»: عنوان أحد أفلام سلسلة التحرّي جيمس بوند الشهيرة. المترجم.
2- نو – تشانس: ترجمتها الحرفيّة: لا فائدة، أو لا مجال. المترجم.
3- مُحاكاة لعنوان الفيلم الشهير Ghost Buster (طاردو الأشباح). المترجم.

الواهب»، ونظرتْ إلى آنّا. «وفي رأيي، إنكِ تنظرين إلى مجموعة مماثلة جداً من الظروف هنا. إنهما يعيشان معاً. وتتمشّيان معاً. وأمضيا كامل حياتهما بالمعنى الحرفيّ معاً. وإذا وهبتْ آنّا كليتها التي ستنقذ حياة أختها، فسوف تكون هِبة عظيمة – وليس فقط لكيت. لأنَّ آنّا نفسها سوف تستمر في أنْ تشكّل جزءاً من العائلة المتماسكة التي تنسب نفسها إليها، وليس إلى عائلة فقدتْ أحد أفرادها».

هذا كمٌ هائل من الهراء النفسيّ أكاد لا أفهمه ولا يمكن أنْ أخوضَ فيه، لكنّني أُصدَم عندما أرى أنَّ القاضي يتقبّله بصدق عظيم. وجوليا أيضاً، أمالتْ رأسها وارتسمَ خطٌ خفيف من العبوس بين حاجبيها. فهل أنا الشخص الوحيد في المكان صاحب عقلٍ يعمل؟

تتابع الدكتور نو: «زيادة على ذلك، هناك دراسات عديدة تُشير إلى أنَّ الأطفال الذين يقومون بدور الواهبين يتّصفون باحترام جمّ لأنفسهم، ويشعرون بأهميّة زائدة وسط النسيج العائليّ. إنهم يعتبرون أنفسهم أبطالاً عِظاماً، لأنّهم يستطيعون أنْ يقوموا بالعمل الوحيد الذي لا يستطيع أحد غيرهم القيام به».

إنَّ هذا الوصف لآنّا فيتزجيرالد هو أبعد ما سمعتُ عن الدقّة.

تسأل سارة: «أتعتقدين أنَّ آنّا قادرة على اتّخاذ قراراتها الطبيّة؟».

«حتماً لا».

مُفاجأة كبرى.

تقول الدكتور نو: «إنَّ أي قرار ستتّخذه سوف يكون ذا نبرة مُغالية بالنسبة لكامل هذه العائلة. وسوف تفكّر في هذه النقطة وهي تتخذ قرارها، وعليه، لن يكون حقاً رأياً مُستقلاً. وزيادة على ذلك، هي لم تتجاوز الثالثة عشرة من العمر. ومن ناحية التطوّر فإنَّ دماغها ليس مُؤهلاً للنظر بعيداً، لذلك فإنَّ أي قرار سيُتّخذ سوف يقوم على أساس مُستقبلها القريب، وليس على المدى البعيد».

يُقاطعها القاضي: «دكتور نو، بمّ توصين في مثل هذه الحالة؟».

«إنَّ آنّا بحاجة إلى إرشاد شخص ما يتمتّع بخبرة أكبر... شخص تهمّه

مصلحتها بالدرجة الأولى. ويُسعدني أنْ أتعاون مع العائلة، لكنَّ الأبوين بحاجة إلى أنْ يكونا أبوين، هنا – لأنَّ الأولاد لا يمكن أنْ يكونوا كذلك».

عندما تُسلِّم سارة الشاهدة إليّ، أدخل وفي نيّتي إنهاء الأمر: «أنتِ تطلبين منا أنْ نُصدِّق أنَّ وهب كلية سوف يُكسِب آنّا كل تلك المزايا النفسيّة الرائعة».

تقول الدكتور نو: «هذا صحيح».

«أليس من العقل، إذن، أنّه إذا وهبَتْ آنّا تلك الكلية نفسها –وماتت الأخت نتيجة للعمليّة الجراحيّة– فأنَّ آنّا سوف تعاني من آلام نفسيّة خطيرة؟».

«أنا أعتقد أنَّ والديها سوف يُساعدان عقلها في تلك الأزمة».

أشير: «وماذا عن حقيقة قول آنّا إنها **لا تريد** أنْ تكون واهبة بعد الآن، أليس هذا أمراً هاماً؟».

«من دون أدنى شك. ولكن كما سبقَ أنْ قلت، إنَّ حالة آنّا العقليّة في الوقت الراهن مدفوعة بالعواقب قصيرة المدى. إنها لا تفهم حقاً تأثيرات هذا القرار».

أسألُ: «فمَنِ الذي يفهم؟ إنَّ السيدة فيتزجيرالد قد لا تكون في الثالثة عشرة من العمر، لكنّها تعيش كل يوم في انتظار الخطوة التالية فيما يتعلَّق بصحّة كيت، ألا تعتقدين؟».

تومئ الطبيبة النفسيّة رأسها موافقة، بضغينة.

«يمكن القول إنها تُحدِّد مقدرتها الخاصّة لتُصبح أمّاً صالحة بالمُحافظة على صحّة كيت. في الحقيقة، إذا كانت تصرفاتها تُحافظ على حياة كيت، فإنها بذلك تستفيد نفسيّاً».

«طبعاً».

«سوف تكون السيدة فيتزجيرالد أفضل حالاً بكثير وسط عائلة تضم كيت. في الواقع، سوف أتمادى إلى درجة قول إنَّ الخيارات التي تقوم بها في حياتها ليست مُستقلّة على الإطلاق، بل مُطعّمة بقضايا تتعلّق بالعناية بصحّة كيت».

«ربما».

أختم قائلاً: «إذن باعتقادك، أليس صحيحاً أنَّ سارة فيتزجيرالد تبدو، وتشعر، وتتصرَّف كواهبة أعضاء لكيت؟».

«في الواقع-».

«ما عدا أنّها لا تقدِّم نقي عِظامها ولا دمها. فقط آنّا تفعل ذلك».

يُحذِّر القاضي، «سيد ألكسندر».

«وإذا كانت سارة تتطابق مع المواصفات النفسيّة لشخصيّة الواهب من الأقرباء الذي لا يستطيع أنْ يتّخذ قرارات مُستقلّة، فلماذا إذن هي ما زالت قادرة على القيام بهذا الخيار وليس آنّا؟».

من زاوية عيني، أرى وجه سارة المذهول. وأسمع القاضي يضرب بقوة بمطرقته. أقول: «أنتِ على صواب، دكتورة نو - الأبوان بحاجة إلى أنْ يكونا أبوين. ولكن أحياناً هذا ليس كافياً».

جوليا

يُعلن القاضي ديسالفو فترة عشر دقائق استراحة. أضعُ حقيبة ظهري أرضاً، والنسيج الغواتيماليّ، وأباشر بغسل يديّ وإذا بباب إحدى حجيرات الحمّام يُفتَح. تخرج آنّا، متردِّدة برهة. ثم تفتح الصنبور المجاور لي.

أقول «مرحباً».

تذهب آنّا لكي تُجفِّف يديها تحت آلة دفق الهواء. لا يخرج الهواء، لسبب ما لا تقرأ الآلة جهاز إحساس راحة يدها. تحرِّك أصابعها من جديد تحت الآلة، ثم تُحدِّق إليها، كأنها تحاول أنْ تتيقّن من أنّها ليست خفيّة. وتضرب المعدن.

عندما أميل وأحرّك إحدى يديّ تحتها، يتدفّق هواء ساخن إلى راحة يدي. نتشارك ذلك الدفء القليل، كمتشردين حول موقد نار. «يُخبرني كامبل بأنكِ لا ترغبين في الإدلاء بشهادتك».

تقول آنّا: «لا أريد أنْ أتحدث حول هذا الموضوع حقاً».

«حسن، أحياناً لكي تحصلي على ما تريدين بشدّة، عليك أنْ تقومي بأشد ما تكرهين من أعمال».

تتكئ على جدار الحمّام وتعقد ذراعيها على صدرها. «مَنِ الذي مات وجعل منكِ كونفوشيوس؟». تشيح آنّا ببصرها بعيداً، ثم تمدّ يدها إلى أسفل لكي ترفع حقيبة ظهري بالنيابة عني. «تُعجبني هذه. بكل ما فيها من ألوان».

أتناولها وأعلّقها على كتفي. «لقد شاهدتُ نسوة عجائز ينسجنها، عندما كنتُ في أميركا الجنوبيّة. كان نسج واحدة مثل هذه يستهلك عشرين مغزلاً من الخيوط».

تقول آنّا، «إنّها تشبه الحقيقة»، أو هذا ما أعتقد أنّها قالت، لكنّها عندئذٍ كانت قد غادرت المكان.

أراقبُ يديّ كامبل. إنهما تتحركان كثيراً وهو يتكلَّم؛ يبدو كأنّه يستخدمهما لكي يُنظِّم ما يقول. لكنهما ترتعشان قليلاً، أيضاً، وأنا أُحيل هذا إلى كونه لا يعرف ما سأقول. ويسأل «بوصفك وصيّة شرعيّة، ما هي توصياتك في هذه القضيّة؟».

آخذُ نَفَساً عميقاً وأنظر إلى آنّا. «إنَّ ما أرى هنا هو فتاة شابة أمضَتْ حياتها تشعر بمسؤوليتها الهائلة اتّجاه صالح أختها. في الحقيقة، هي تعلم أنّها جُلِبَتْ إلى هذا العالم لغرضٍ تنكّبِ هذه المسؤوليّة»، وأنظر إلى سارة، الجالسة على طاولتها. «أعتقد أنَّه عندما قرّرت هذه العائلة أنْ تُنجب آنّا، فعلتْ ذلك بكل نيّة طيّبة. لقد أرادتْ أنْ تنقذ حياة ابنتها الكبرى؛ ورأتْ أنَّ آنّا هي إضافة مُرحّبٍ بها في العائلة – ليس فقط بسبب ما ستوفّره جينيّاً، بل أيضاً لأنها أرادتْ أنْ تحبّها وتراقبها وهي تكبر بأحسن حال».

ثمَّ ألتفتُ إلى كامبل. «وأفهم أيضاً فهماً تاماً كيف أصبح أمراً حاسِماً، وسط هذه العائلة، فعلُ أيّ شيء ممكن إنسانيّاً لإنقاذ حياة كيت. فعندما تحبّ شخصاً، فإنك تفعل كل ما بوسعك لتبقيه معك».

وأنا طفلة صغيرة، كنتُ أستيقظ في قلب الليل متذكّرة أشدّ أحلامي جموحاً – أنني أطير؛ وأنني حبيسة مصنع للشوكولاتة؛ وأنني ملكة جزيرة في البحر الكاريبيّ. كنتُ أستيقظُ وشعري يفوح برائحة نبات الفرانجيباني أو مع سُحُبٍ عالقة بأهداب قميص نومي إلى أنْ أدرك أنني كنتُ في مكانٍ مختلف. ومهما حاولتُ، فقد أعود إلى النوم من جديد ولكن لا أستطيع أنْ أُجبِر نفسي على العودة إلى نسيج ذلك الحلم الذي تراءى لي.

ذات مرة، في الليلة التي أمضيناها كامبل وأنا معاً، استيقظتُ وأنا بين ذراعيه لأرى أنّه كان لا يزال نائماً. أخذتْ أقتفي أثر جغرافيا قَسَمَات وجهه: بدءاً بجرف عظام وجنته إلى دوّامة أُذُنه وحتى خطوط الضحك المحفورة بجوار فمه. ثم أغمضتُ عينيّ وللمرّة الأولى في حياتي أعود مباشرة إلى الحلم، إلى النقطة التي تركتُه عندها.

أقول لهيئة المحكمة: «لسوء الحظ، هناك أيضاً نقطة معيَّنة تُضطر عندها إلى التراجع والقول إنه حان الوقت للاستسلام».

طوال شهر من الزمن بعد أنْ تخلّى كامبل عني، لم أغادر سريري إلّا عندما أُضطر إلى حضور القدّاس أو لكي أجلس على طاولة العشاء. ولم أعُدْ أغسل شَعري، وظهرت دوائر داكنة تحت عينيّ. ومن النظرة الأولى، كنا نبدو أنا وإيزي مختلفتين كل الاختلاف.

في اليوم الذي استجمعتُ شجاعتي لأغادر السرير بكامل إرادتي، ذهبتُ إلى ويلر وأخذتُ أتسكَّع حول منزل القارب، متخفّية بحذر إلى أنْ عثرتُ على فتى من فريق الإبحار -طالب في الدورة الصيفيّة- كان يعمل على إخراج أحد قوارب المدرسة الشراعيّة الصغيرة. كان ذا شعر أشقر، وليس أسود كشعر كامبل، وجسمه ممتلئاً، وليس طويل القامة ونحيلاً. تظاهرتُ بأنني أحتاج إلى توصيلة إلى المنزل.

في غضون ساعة كنتُ قد ضاجعته في المقعد الخلفيّ لسيارته الهوندا.

فعلتُ ذلك لأنّه لو كان هناك شخص آخر، لما شممتُ رائحة كامبل على بشرتي ولا تذوّقتُ طعمه داخل شفتيّ. ضاجعته لأنني كنتُ أشعر بفراغ داخليّ خشيتُ أنْ يتطاير، كما يطير بالون مملوء بالهليوم ويرتفع عالياً جداً حتى لا تعود ترى حتى أقل بقعة ضئيلة من ألوانه.

شعرتُ بذلك الفتى الذي لا أُزعجُ نفسي بتذكُّر اسمه ينخر ويجيش وهو يعمل داخلي؛ كنتُ شديدة الخواء وشديدة الشرود. وفجأة أدركتُ ما حصل لكل تلك البالونات الضائعة: إنها علاقات الحب التي تسرّبتْ من بين أيدينا؛ العيون الخالية من التعبير التي ترتفع في سماء كل ليلة.

أُخبرُ القاضي، «عندما أُسنِدتَ إليّ هذه المهمّة قبل أسبوعَين، وباشرتُ بالنظر إلى آليّات هذه العائلة، بدا لي أنَّ التحرّر الطبّيّ هو في صالح آنّا. ولكن أدركتُ بعد ذلك أنني مُذنبة بإطلاق أحكام كما يفعل كل فرد في هذه العائلة – تقوم فقط على أساس التأثيرات الفيزيولوجيّة، وليس التأثيرات النفسيّة.

والجزء السهل من هذا القرار هو تبيُّن الحقّ الطبيّ لآنّا. الخط السفليّ: ليس من مصلحتها أنْ تهِبَ أعضاءها ودمها من دون أنْ يعود ذلك عليها بفائدة شخصيّة وإنما فقط يُطيل حياة أختها».

أرى عينيّ كامبل تومضان؛ لقد أدهشته هذه المُصادقة. «ولكن من الأصعب الخروج بحلّ -لأنه على الرغم من أنّه قد لا يكون في مصلحة آنّا أنْ تكون واهبة لأختها؛ فإنَّ عائلتها عاجزة عن اتّخاذ قرارات جوهريّة حول هذا الشأن. إنْ كان مرض كيت هو قطارٌ مُنطلق بأقصى سرعة، فإنَّ الجميع يتفاعلون من أزمة إلى أزمة من دون الخروج بأفضل وسيلة لإيصاله إلى المحطّة. وباستخدام التشبيه نفسه، فإنَّ الضغط الذي يمارسه والداها هو مفتاح للتحكُّم في المسار- إنَّ آنّا ليست قويّة عقليّاً وجسديّاً بالقدر الكافي لتتّخذ قراراتها الخاصّة، وهي تعرفُ ما يُريدان».

ينهض كلب كامبل ويبدأ بالأنين. يتشتّت انتباهي، وألتفت إلى مصدر الأنين. كامبل يُبعِد عنه خطم جدج، من دون أنْ يُزيح عينيه بعيداً عنّي.

أعترفُ: «لا أرى أنَّ أياً من أفراد عائلة فيتزجيرالد قادر على اتّخاذ قرارات نزيهة بشأن العناية بصحة آنّا. لا والداها، ولا آنّا نفسها».

يتجهّم القاضي ديسالفو وهو ينظر إليّ. يسأل: «إذن يا سيدة رومانو، ما هي توصياتك للمحكمة؟».

كامبل

لن تعترض على العريضة.

هذه أول فكرة لا تُصدَّق تخطر في بالي - أنَّ قضيّتي لن تحترق بأكملها بعد، حتى بعد شهادة جوليا. وفكرتي الثانية هي أنَّ جوليا نفضَتْ يدها من هذه القضيّة ومما فعلته بآنّا كما فعلتُ أنا، ما عدا أنّها كشفَتْ عنها النقاب ليراها الجميع.

اختار جدج هذه اللحظة لكي يُصبح مُزعجاً، ويغرز أسنانه في معطفي ويبدأ بالشدّ، ولكن لعنني الله إنْ أنا انهرتُ قبل أنْ أنتهي من سماع جوليا حتى النهاية.

يسأل ديسالفو: «سيدة رومانو، ما هي توصيتك للمحكمة؟».

تقول بهدوء: «لا أعلم، أنا آسفة. هذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بدور الوصيّة الشرعيّة وأعجز عن التوصّل إلى توصية، وأعلمُ أنّ هذا غير مقبول. ولكن من ناحية لديّ براين وسارة فيتزجيرالد، اللذان لم يفعلا أي شيء خلاف القيام بخيارات على امتداد مسار حياتيّ ابنتيهما وبدافع الحب. وإذا نحّينا هذا جانباً، فلا يبدو أنهما يرغبان حتماً في اتخاذ قرارات خاطئة - حتى وإنْ لم تعُد القرارات الصائبة لصالح هاتين الابنتين».

تلتفت إلى آنّا، وأشعر بها جالسة إلى جواري باستقامة، وكبرياء أكثر قليلاً. «ومن ناحية أخرى، أنا لديّ آنّا، التي بعد مرور ثلاثة عشر عاماً ما زالت تدافع عن نفسها - على الرغم من أنَّ هذا قد يعني فقدانها أختها التي تحب». تهزّ جوليا رأسها نفياً. «إنّه خيار صعب كخيار الملك سليمان، فضيلة القاضي. لكنكَ لا تطلب مني أنْ أقطع الطفل إلى قسمين. بل تطلب مني أنْ أقطع العائلة إلى قسمين».

عندما أشعر بشيءٍ يشدّني من ذراعي الأخرى أبدأ بضرب الكلب لإبعاده من جديد، لكنني أدرك أنَّ هذه المرة هي آنّا. تهمس «أوافق».

يطلب القاضي ديسالفو من جوليا النزول عن المنصّة. يُجيب هامساً «توافقين على ماذا؟».

«أوافقُ على الإدلاء بشهادتي».

أحدِّقُ إليها غير مُصدِّق. جدج يئنّ الآن، ويضرب خطمه بفخذي، لكنني لا أُخاطر بطلب استراحة. لم يستغرقْ من آنّا تغيير رأيها أكثر من جزء من الثانية. «أواثقة أنتِ؟».

لكنّها لا تُجيبني. وتنهض واقفة، جاذبة إليها انتباه كل مَنْ في قاعة المحكمة. تأخذ آنّا نَفَساً عميقاً. «حضرة القاضي ديسالفو؟ لدي ما أدلي به».

آنّا

دعني أخبرك عن المرّة الأولى التي اضطررتُ فيها إلى تقديم تقريرٍ شفويّ وأنا في المدرسة: كنتُ في الصف الثالث، وكُلِّفتُ بالتحدث عن حيوان الكنغر. وهو في الحقيقة حيوان مُثير للاهتمام. أعني أنّه لا يوجد فقط في أستراليا وحدها، كنوعٍ من سُلالة ثوريّة متحوّلة -إنَّ له عينيّ غزال ومخالب ديناصور لا فائدة منها. لكنَّ أشدّ ما يُذهل فيه هو، طبعاً، الجِراب. عندما يُولَد الصغير يكون بحجم بذرة وينجح في الزحف تحت الطيّة والاندساس إلى الداخل، كل ذلك يحدث بينما أمّه التي لا تعلم ما الذي يجري تقفز في أرجاء البريّة. وذلك الجراب لا يشبه الذي يظهر في أفلام الصور المتحركة في أوقات صباح أيام السبت– فلونه قرنفليّ وهو مُجعّد يُشبه داخل الشَّفَة، وممتلئ بالأنابيب الهامة كأمّه. وأراهن على أنكَ لا تعلم أنّ الكنغر لا يحمل مولوداً واحداً فقط في المرّة الواحدة. فبين حينٍ وآخر يكون هناك وليد صغير، صغير وهُلاميّ الشكل وملتصق بالقعر بينما أخته الأكبر سنّاً تخربش حولها بأطرافها الضخمة وتتخذ وضعاً مُريحاً.

كما ترى، أنا أعرف بكل وضوح معلومتي. ولكن عندما حان دوري، بينما كان ستيفن سكاربينو يرفعُ نموذجاً لحيوان الليمور من الورق المُعجَّن، علِمتُ أنني سوف أُصاب بالغثيان. فاقتربتُ من المُعلِّمة السيدة كثْبرتْ، وقلتُ لها إنني إذا بقيتُ لكي أؤدي هذه المهمّة، فلن يكون أحد سعيداً.

قالتْ: «آنّا، إذا قلتِ لنفسك إنك بخير، فسوف تكونين كذلك».

وهكذا عندما انتهى ستيفن، نهضتُ واقفة. وأخذتُ نَفَساً عميقاً. قلت: «إنَّ حيوان الكنغر هو حيوان جِرابيّ لا يوجَد إلّا في أستراليا».

ثم قذفتُ القيء على أربعة من الأطفال من سوء حظّهم أنهم كانوا جالسين في الصف الأماميّ.

وطوال ما تبقّى من العام الدراسي أصبحوا يُطلقون عليّ لقب كنغارالف، وبين حينٍ وآخر كان يُسافر أحد الأطفال بالطائرة في رحلة، وأذهبُ أنا إلى غرفتي الصغيرة لأُحضِر حقيبة التقيّؤ المُثبّتة على صدر سترتي الصوفيّة، كبديل لجراب حيوانٍ جرابيّ. كنتُ مصدر حَرَج المدرسة كلّها الأكبر إلى أنْ خرج دارين هونغ ليحمل الراية في صالة الألعاب الرياضيّة وشدّ من دون قصد طرف تنورة أوريانا بيرثايم.

إنني أخبرك بهذا لأشرح بُغضي العام للخَطابة.

ولكن الآن، وأنا على منصّة الشهادة، هناك أشياء أخرى تُثير قلقي. ليس لأنني متوترة الأعصاب، كما يعتقد كامبل. وأنا لا أخشى الصمت، أيضاً. بل أخشى أنْ أُفرط في الكلام.

أنظر إلى قاعة المحكمة وأرى أمي، جالسة على طاولتها الخاصة بالمحامين، وإلى أبي، الذي يبتسم لي ابتسامة صغيرة جداً. وفجأةً أكاد لا أُصدّق أنني فكّرتُ أصلاً في احتمال مقدرتي على خوض هذه التجربة. أقتربُ من حافة مقعدي، مستعدّة للاعتذار على تبديد وقت الجميع والفرار هاربة – لكنني أدركُ أنَّ كامبل يبدو في حالٍ يُرثى لها، فهو يتصبب عرقاً، وبؤبؤا عينيه شديدا الاتّساع كأنّهما قطعتا نقد تغوصان عميقاً في وجهه. يسأل كامبل: «آنّا، هل ترغبين في شرب كأسٍ من الماء؟».

أنظر إليه وأفكّر، *وهل ترغب أنت؟*

إنَّ ما أريد هو أنْ أذهب إلى المنزل. أريد أنْ أهرب إلى مكانٍ لا أحد يعرف فيه اسمي وأتظاهر بأنني ابنة مليونير مُتبنّاة، ووريثة مملكة صناعة معجون أسنان، ونجمة غناء بوب يابانيّة.

يلتفت كامبل إلى القاضي. «هل لي أنْ أتحدث قليلاً مع موكلتي؟».

يقول القاضي ديسالفو: «تفضّل».

يقترب كامبل من مكان الشاهدة ويميل كثيراً عليها بحيث أنْ لا أحد سمعه غيري. يهمس «وأنا طفل كان ليّ صديق اسمه جوزيف بالز. تخيّلي لو أنَّ الدكتور نو تزوجت منه».

يتراجع بينما أنا أبتسم، وأتمنّى، فقط أتمنّى، أنْ أبقى دقيقتين أُخريين أو ثلاث على المنصّة.

يكاد يُصاب كلب كامبل بالجنون - إنّه هو الذي يحتاج إلى الماء أو إلى شيءٍ ما، من مجرد مظهره. وأنا لستُ الوحيدة التي تلاحظ هذا. يقول القاضي: «سيد ألكسندر، هلّا سيطرتَ على حيوانك من فضلك».

«كلا، يا جدج».

«عفواً؟».

أصبح وجه كامبل شديد الحُمرة. «كنتُ أُكلِّم الكلب، حضرة القاضي، كما طلبتَ مني»، ثم التفتَ نحوي: «آنّا، لِمَ أردتِ أنْ ترفعي هذه الدعوى؟».

إنَّ الكذب، كما تعلم ربما، له طعمٌ خاصّ. ثقيل ومُرّ وليس لذيذاً، كأنكَ ترمي بقطعة من الشوكولاتة الممتازة إلى فمك وتتوقّع أنْ تتذوّق حشوة حلوى التوفي فتحصل بدل ذلك على نكهة الليمون. أقول: «هي التي طَلَبَتْ هذا». سوف يُصبح وقع أول كلمتين كسقوط جلمود من الصخر.

«مَنْ التي طلبتْ ماذا؟».

أقول، وأنا أحدِّق إلى حذاء كامبل، «ماما طلبتْ مني أنْ أهِبَ كلية»، وأنظر إلى تنورتي، وأمسكُ بطرف خيط. كما قد أُمسكُ بطرف خيط حلّ المسألة كلها.

قبل حوالي الشهرين، تبيَّنَ أنَّ لدى كيت فشلاً كلَويّاً. أصبحتْ تتعب بسرعة، وفقدَتْ من وزنها، وأصبح جسمها يحتفظ بمائه، وكانت تتقيّأ كثيراً. وأُرجِعَ السبب في ذلك إلى حزمة من الأشياء المتنوعة: إلى سلوكيات جينيّة شاذّة، وإلى عامل مُحفِّز لمُستعمرةٍ من الخلايا الدخيلة وإلى حُقَن لتنمية الهورمونات كانت كيت قد أخذتها مرَّة لتنشيط إنتاج نقي العِظام، والضغط الناجم عن علاجات أخرى. وأجْروا لها عمليّة ديلزة من أجل التخلّص من السموم التي تكتنف مجرى الدم فيها. ومن ثم، توقفت الديلزة عن العمل.

وذات ليلة، جاءتْ أمي إلى غرفتنا عندما كنا أنا وكيت نلهو. كان والدي معها، مما يعني أننا سنخوض في نقاش أكثر جديّة من مجرد الاستفهام عمَّن

ترك صنبور الماء في المغسلة مفتوحاً مُصادفة. قالت أمي: «كنتُ أقوم ببعض القراءات على شبكة الإنترنت، وتبيَّنَ لي أنَّ ازدراع أعضاء نموذجيّة ليس الشفاء منها صعباً كما عمليّة ازدراع نقي العِظام».

نظرتْ كيت إليّ ووضعت أسطوانة سي دي جديدة في المُشغِّل. كنا نعلم نحن الاثنتان إلى أين سينتهي هذا الأمر. «لا يمكن الحصول على كلية من السوبرماركت».

«أعلم. وعرفتُ أنَّ كل ما يحتاج المرء إليه هو أنْ يتطابق اثنين من بروتينات HLA ليكون واهباً للكلية - وليس إلى البروتينات الستة. واتّصلتُ بالدكتور تشانس لأسأله إنْ كنتُ أصلح أنْ أكون متطابقة معك، فقال إنني أصلح، في الحالات العاديّة».

تسمع كيت الكلمة الصحيحة. «الحالات العاديّة؟».

«أي إنني لا أتطابق معك. ويعتقد الدكتور تشانس أنكِ سوف ترفضين العضو من أحد المتبرعين العامّين، فقط لأنَّ جسمك عانى الكثير»، ونظرت أمي إلى السجادة. «ورفضَ أنْ يوصي بإجراء العمليّة إلّا إذا جاءت الكلية من آنّا».

هزَّ أبي رأسه نفياً. وقال بهدوء، «إنها عمليّة جراحيّة توسعيّة[1] بالنسبة إلى كلتيهما».

وبدأتُ أفكِّر في هذا. هل ينبغي أنْ أذهب إلى المستشفى؟ هل العمليّة مؤلمة؟ هل يمكن العيش بكلية واحدة؟

ماذا لو انتهى بي الأمر إلى الإصابة بفشل كلويّ وأنا في سن السبعين، مثلاً؟ من أين سأحصل على كلية *إضافيّة*؟

قبل أنْ أتمكّن من طرح أيٍ من تلك الأسئلة، تكلَّمتْ كيت. «لن أُجري العمليّة من جديد، أسمعتم؟ لقد سئمت. سئمت المستشفيات والعلاج الكيميائيّ والأشعّة وكل ذلك الأمر اللعين. فقط دعوني وشأني، ممكن؟».

شحبَ لون وجه أمي. «عظيم، يا كيت. إذن اذهبي وانتحري!».

ووضعت السماعة على أُذنيها من جديد، ورفعت ضجيج الموسيقى إلى أقصاه لكي أسمعه. قالت «إنّه ليس انتحاراً، إنْ كنتِ أصلاً تحتضرين».

1- أي إنها تتلف الخلايا المُحيطة بها. المترجم.

سألني كامبل، عندما بدأ كلبه يُصدر صوتاً يُشبه ضجيج طائرة مروحيّة أمام قاعة المحكمة، «هل أخبرتِ أحداً أنكِ لا تريدين أنْ تكوني واهبة؟».

يقول القاضي ديسالفو: «سيد ألكسندر، سوف أستدعي حاجب المحكمة لكي يُخرِج... حيوانك الأليف».

هذا صحيح، لقد خرج الكلب عن نطاق السيطرة عليه. إنه ينبح ويقفز في المكان ويضع مخالبه الأماميّة على كامبل ويركض ضمن تلك الدوائر الضيقة. ويتجاهل كامبل القاضيين[1] معاً. «آنّا، هل قرّرتِ أنْ ترفعي هذه الدعوى من تلقاء نفسك؟».

أنا أعرف لِماذا يسأل هذا؛ إنّه يريد للجميع أنْ يعرفوا أنني قادرة على القيام بخياراتي الصعبة. وأنا أيضاً كانت لديّ كذبة، تتلوّى كالأفعى بين أسناني. ولكن لم يخرج من بين شفتيّ ما كنتُ أنوي أنْ أقول. «لقد قام أحدهم بإقناعي بصورة ما».

طبعاً، هذا الكلام كان جديداً على والديّ، اللذين يسدّدان عيونهما عليّ كالمطارق. وكان جديداً على جوليا، التي في الحقيقة تُصدرُ صوتاً خفيفاً. وكان جديداً على كامبل، الذي يُمرِّر يده على طول وجهه دلالة الهزيمة. لهذا السبب بالضبط من الأفضل التزام الصمت؛ لأنَّ الفرصة حينئذٍ سوف تكون أقلّ لإفساد حياتك وحياة كل شخص آخر.

يقول كامبل: «آنّا، مَنِ الذي أقنعك؟».

أشعر بالضآلة وأنا على كرسيّ، وسط هذه الحالة، على هذا الكوكب الموحِش. أضمّ يديَّ معاً، وبينهما الانفعال الوحيد الذي نجحتُ في المُحافظة عليه من التسرُّب: الندم. «كيت».

يُطبِقُ الصمتُ على كامل قاعة المحكمة. وقبل أنْ أتمكَّن من قول أيِّ شيء آخر، تقصِفُ العاصفة الرعديّة التي أتوقّعها. أنكمشُ، ولكن يتّضحُ أنَّ القصف الذي سمعته ليس انفلاق الأرض لتبتلعني كُلّي. إنّه كامبل، الذي سقط على الأرض، بينما كلبه واقف إلى جواره وعلى وجهه تعبير إنسانيّ إلى أقصى مدى وكأنّه يقول ***لقد أخبرتكم أنَّ هذا سيحدث***.

1- القاضيان: أي القاضي ديسالفو والكلب جَدج (ويعني القاضي). المترجم.

براين

إذا سافرتَ في الفضاء على مدى ثلاث سنوات ومن ثم رجعت، ستكون قد مَضَتْ أربعمائة سنة على وجه الأرض. أنا مجرد رائد فضاء متفرِّج، ولكنني أتمتَّع بحسٍّ غريب بأنني رجعتُ من رحلةٍ إلى عالمٍ ليس لأي شيء فيه أي معنى. ظننتُ أنني كنتُ أُصغي إلى جِسّ، ولكن تبيّنَ لي أنني لم أكنْ أُصغي إليه البتّة. لقد أصغيتُ بانتباه إلى آنّا، ومع ذلك يبدو أنَّ ثمة شيئاً مفقوداً. أحاول أنْ أفهم الأشياء القليلة التي قالتها، أنْ أقتفي أثرها وأحاول أنْ أفهمها كما فعل الإغريق بصورة ما عندما شاهدوا خمس نقاط في السماء وقرّروا أنها تُشبه جسد امرأة.

ثم وجدتُها – إنني أبحث في المكان الخطأ. على سبيل المثال، إنَّ سكان أستراليا الأصليين ينظرون بين الأبراج السماويّة للإغريق والرومان إلى الامتداد المُظلِم من السماء، ويعثرون على طائر إمو[1] مُختبئ تحت الصليب الجنوبيّ حيث لا نجوم. وهناك في البقع المُظلِمة من الحكايات التي تستحق السرد كما في البقع البرّاقة.

أو هذا ما أعتقد، على أيّة حال، عندما يسقط مُحامي ابنتي على الأرض وسط آلام شديدة في نوبة من الصرع.

منفذ هواء، تنفّسٌ، دورةٌ دموية. منفذ هواء، بالنسبة إلى شخص يُعاني من نوبة كبرى وخطيرة، هو أمرٌ جلل. أقفزُ من فوق بوابة الشرفة الخارجيّة وأحاول أنْ أُبعِد الكلب عن طريقي؛ لقد جاء لكي يقف فوق جسد كامبل

1- طائر الإمو: طائر أستراليّ يُشبه النعامة لكنّه أصغر حجماً. المترجم.

ألكسندر المرتعش كالخفير. المحامي يدخل في مرحلة التوتّر مع صرخة، عندما يخرج الهواء قسراً بفعل تقلّص عضلاته التنفّسيّة. يستلقي جامداً على الأرض. ثم تبدأ مرحلة الارتعاش، وتضطرب عضلاته عشوائيّاً، بحركات متكرّرة. أقلبه على جنبه، تحسّباً إذا ما تقيّأ، وأبدأ بالبحث عن شيء أضعه بين فكَّيه لكي لا يعضّ لسانه، وإذا بأغرب شيء يحدث – ذلك الكلب يقلب حقيبة ألكسندر ويُخرِج منها شيئاً يُشبه العَظمة المطاطيّة لكنّها في الحقيقة مانعة للعضّ، ويُلقيها بين يديّ. وأعي عن بُعد القاضي وهو يختم قاعة المحكمة. وأصرخ لفيرن لكي يستدعي سيارة الإسعاف.

في الحال تقف جوليا إلى جواري. «أهو بخير؟».

«سوف يكون بخير. إنها مجرد نوبة».

تبدو كأنها على شفا البكاء. «ألا تفعل شيئاً؟».

أقول: «أنا أنتظر».

تمدّ يدها إلى كامبل، لكنني أُبعِدها عنه. «لا أعلم لِمَ حدثتْ».

لا أعرف إنْ كان كامبل نفسه يعلم. لكنني أعرف أنَّ هناك أشياء تحدث من دون سابق إنذار.

قبلِ ألفيّ عام كانت السماء تبدو مختلفة تماماً، هكذا إذا فكّرتَ في الأمر، تجد أنَّ مفاهيم الإغريق عن إشارات النجوم في صِلتها بتواريخ المولد غير دقيقة على الإطلاق إذا طُبِّقَتْ هذه الأيام على اليوم والسن. إنه يُسمّى بخط الموكب: في تلك الأيام لم تكن الشمس تغرب في برج الثور، بل في برج الجوزاء. وإذا وُلِدتَ في الرابع والعشرين من شهر أيلول فهذا لا يعني أنك من برج الميزان، بل من برج العذراء. وكان هناك البرج الثالث عشر في دائرة الأبراج، أوفيوكوس حامل الأفعى، الذي يظهر بين برح القوس وبرج العقرب مدة أربعة أيام فقط.

ما سبب تلك الفوضى؟ لأنَّ محور الأرض يهتزّ. والحياة ليست ثابتة كما نريد لها أنْ تكون.

يتقيّأ كامبل ألكسندر على سجادة قاعة المحكمة، ثم يسعل طوال فترة

عودته إلى الوعي في جناح القاضي. أقول، وأنا أساعده على الجلوس «هوِّن عليك. لقد انتابتك نوبة شديدة».

يرفع رأسه. «ماذا حدث؟».

إنَّ فقدان الذاكرة على كِلا جانبيّ الحدث، شائع كثيراً. «لقد فقدتَ الوعي. أعتقد أنّه كانَ شيئاً سيئاً جداً».

نظر نحو الأسفل إلى أنبوب الوريد الذي كنت وسيزار قد وضعناه. «لستُ في حاجة إلى هذا».

أقول: «بل تحتاج إليه. لو لم تتناول مُضاد النوبات، لأصبت بنوبة أخرى وانهرتَ على تلك الأرض في الحال».

يهدأ ويستند بظهره إلى الأريكة ويُحدِّق إلى السقف. «ما مدى سوئها؟».

أعترفُ: «سيئة جداً».

يربتُ على رأس جدج - لا يمكنه الانفصال عن الكلب. «فتى طيب. آسف لأنني لم أصغِ إليك». ثم ينظر نحو الأسفل إلى بنطلونه الرطب وذي الرائحة الكريهة، وهي إحدى آثار النوبات السيئة، «اللعنة».

«على مقاسك تقريباً»، وأناوله بزّة إضافيّة من بزّاتي الرسميّة طلبتها من الإدارة. «أتحتاج إلى مُساعدة؟».

يرفض مساعدتي ويُحاول، بيدٍ واحدةٍ، أنْ يخلع بنطلونه. ومن دون أنْ أنطق بأيّة كلمة أمدّ يدي وأحلّ زر البنطلون، وأساعده في تبديل ملابسه. أفعل ذلك من دون تفكير، كما قد أنزع القميص عن امرأة تحتاج إلى إنعاش قلب؛ ولكن مع ذلك، أعلم أنَّ ذلك يزعجه.

يقول، وهو يفك سّحاب بنطلونه بنفسه بعناية، «شكراً لك». ونجلس برهة. «هل يعلم القاضي بالأمر؟». عندما لا أُجيب، يدفن كامبل رأسه بين يديه. «يا إلهي. وقع الأمر أمام *الجميع*؟».

«منذ متى وأنتَ تُخفي هذا؟».

«منذ أنْ بدأ، وأنا في الثامنة عشرة، إبّان وقوع حادث تصادم سيارة، وبدأت النوبات بعدها مباشرة».

«حدث ارتجاج في المخّ؟».

يومئ برأسه إيجاباً. «هذا ما قالوا».

أشدّ يديّ معاً بين رُكبتيّ. «لقد فزعت آنّا كثيراً».

يدعَكُ كامبل جبينه. «كانت... تُدلي بشهادتها».

أقول «نعم، نعم».

يرفع بصره نحوي. «يجب أنْ أعود إلى هناك».

«ليس الآن»، ونلتفت كلانا نحو صوت جوليا. إنها تقف في ممر الباب، تُحدِّقُ إلى كامبل وكأنها لم تره من قبل، وأعتقد بكل صدق أنها لم تره، ليس في مثل هذا الظرف.

أغمغم «سوف، أه، أذهب لأرى إنْ كان الشبان قد أعدّوا تقريرهم أم لا»، وأغادرهما.

ليس دائماً تكون الأشياء كما تبدو. النجوم، على سبيل المثال، تبدو كثقوب برّاقة، ولكن عندما تَنظر إليها عبر عدسة مُكبّرة ترى أنّها كوكبة كرويّة – مليون نجم يمثلون، بالنسبة إلينا، كياناً واحداً. وبنبرة أقلّ فخامة هي ثلاثيّة، على غرار النجم الأكبر، الذي يتَّضِح عند الاقتراب منه أنّه نجمٌ مزدوج وقزم أحمر متقاربين.

هناك في إفريقيا قبيلة بدائيّة تحكي عن حياة قادمة من النجم الثاني في مجموعة النجم الأكبر، النجم الذي لا يستطيع أنْ يراه أحد من دون منظار مرصد جبّار. عند التفكير في الأمر، نرى أنَّ الإغريق، وقبائل أستراليا البدائيّة والهنود العاديين كلهم عاشوا في قارات متباعدة وكلهم، بشكلٍ مُستقلّ، يطلّون على العقدة السباعيّة من الثريا ويؤمنون بأنها تمثل الفتيات الصغيرات السبع الهاربات من شيءٍ يُهدِّد بإيذائهنّ.

افهمْ من هذا ما شئت.

كامبل

الشيء الوحيد الذي يمكن مقارنته بأثر نوبة صَرَع سيئة كبرى هو أنْ تستيقظ وأنت على الرصيف تعاني من آثار سُكر من حفلة كبرى من حفلات المنظمات الأخويّة وفي الحال تدهسك سيارة شاحنة. وبعد إعادة التفكير، ربما النوبة المرضيّة السيئة الكبرى هي الأسوأ. عندما تقترب جوليا مني أكون غارقاً في قذارتي، موصولاً بمعالجة طبيّة ومنهاراً. أقول «إنه كلب حراستي من النوبات».

«بلا مزاح». تمدّ جوليا يدها نحو جدج لكي يشمّها. وتُشير إلى الأريكة المجاورة لي. «هل أستطيع أنْ أجلس؟».

«إنها ليست مُعدية، إنْ كان هذا ما تعنين».

تقترب جوليا بالقدر الكافي بحيث أشعر بحرارة كتفها، لا تفصله عن كتفي أكثر من بضع بوصات، «لم أعنِ هذا. لِمَ لم تُخبرني، يا كامبل؟».

«يا إلهي، يا جوليا، إنني لم أخبر حتى والديّ». أحاول أنْ أنظر خلف كتفها إلى الرواق. «أين آنّا؟».

«منذ متى وأنتَ تعاني من هذا؟».

أحاول أنْ أنهض، وأنجح في رفع نفسي مقدار نصف بوصة قبل أنْ تخور قِواي. «يجب أنْ أعود إلى هناك».

«كامبل».

أتنهّد. «منذ فترة وجيزة».

«فترة وجيزة، أي منذ حوالي أسبوع مثلاً؟».

أهزُّ رأسي نفياً، وأقول، «فترة قصيرة، أي قبل حوالي يومين من تخرّجنا من مدرسة ويلر»، وأرفع بصري إليها. «اليوم الذي أوصلتك فيه إلى المنزل، وكل ما أردتُ كان أنْ أكون معكِ. وعندما أخبرني والداي بأنَّه ينبغي أنْ أذهب إلى ذلك العشاء السخيف المُقام في النادي الريفيّ، لحقتُ بهم بسيارتي الخاصّة، لكي أتمكّن من الهرب بسرعة - كنتُ أُخطِّطُ للعودة إلى منزلك، في تلك الليلة. ولكن في الطريق إلى العشاء، وقع لي حادث التصادم. ونجوتُ منه ببضعة رضوض، وفي تلك الليلة، أُصِبتُ بأول نوبة صرع. ولاحقاً أُخِذَت لي 13 صورة طوبوغرافيّة، ومع ذلك لم يستطع الأطباء أنْ يُخبروني عن السبب، لكنهم أوضحوا لي بجلاء أنَّ عليَّ أنْ أتعايش مع تلك النوبات طوال حياتي». وأخذتُ نَفَساً عميقاً. «وهذا ما جعلني أُدرِك أنّه لا ينبغي أنْ يعرفَ أي شخص آخر هذا».

«ماذا؟».

«ماذا تريدين مني أنْ أقول، يا جوليا؟ لم أكنْ أصلحُ لكِ. كنتِ تستحقين أفضل من رجل غريب الأطوار قد ينهار ويخرج الزَّبَد من فمه في أي دقيقة».

جمدتْ جوليا تماماً في مكانها. «كان يمكن أنْ تدعني أُقرِّر بنفسي».

«ما الفرق؟ كأنكِ كنتِ ستستمدين رضا كثيراً من حمايتي كما يفعل جدج عندما تقع النوبة؛ تزيلين قذارتي، تعيشين المرحلة الأخيرة من حياتي»، وأهزّ رأسي رفضاً. «لقد كنتِ شديدة الاستقلاليّة. كنتِ روحاً حرَّة. ولم أرغب في أنْ أكون الشخص الذي يحرمك من هذا».

«في الواقع، لو كان لي الخيار، فربما ما كنتُ أمضيت السنوات الثلاث عشرة الأخيرة مُعتقدة أنّني أعاني من خطبٍ ما».

أبدأ بالضحك. «أنتِ؟ انظري إلى نفسك. أنتِ تحفة. أنتِ أذكى مني. لديك مسيرة مهنيّة حافلة وتحظين باهتمام عائلتك وربما تستطيعين أنْ توازني رصيدك الماليّ».

تُضيف جوليا: «وأنا أيضاً أُعاني الوحدة، يا كامبل. لِمَ تعتقد أنَّ عليّ أنْ أتعلَّم كيف أتصرَّف باستقلاليّة شديدة؟ أنا أيضاً أُصاب بالجنون بسرعة شديدة، وأنا أيضاً أمزّق الأغطية، وإصبع قَدَمي الثاني أطول من إصبعي

الكبير. وشعري له رمز بريدي خاص به. زيادة على ذلك، إنني أُصاب بجنون حقيقيّ عندما تأتيني أعراض الطمث». وتقول: «إنَّكَ لا تحبّ شخصاً لأنّه مثاليّ؛ بل تحبّه على الرغم من أنّه ليس مثاليّاً».

لا أعلم كيف أُجيب على ذلك؛ وكأنما قيل لكَ وأنتَ في سن الخامسة والثلاثين إنَّ السماء، التي طالما رأيتها زرقاء برّاقة، هي في الحقيقة خضراء اللون.

«وثمة شيءٌ آخر - هذه المرَّة لستَ مُضطراً إلى أنْ تتركني *أنا*. بل أنا التي سأتركك *أنتَ*».

إنْ كان هذا ممكناً، فسوف يجعل شعوري أسوأ. أحاولُ ألّا أتظاهر بأنّه ليس مؤلِماً، ولكنني لا أتمتّع بالطاقة اللازمة لذلك. «إذن افعلي».

تستقرّ جوليا إلى جواري، تقول: «سوف أفعل. بعد خمسين أو ستين سنة أخرى من الآن».

مكتبة
t.me/soramnqraa

آنّا

أقرعُ باب مرحاض الرجال، ومن ثم أدخل. على أحد الجدران هناك مبولة طويلة جداً، وضخمة جداً. وعلى الجدار الآخر كامبل يغسل يديه في المغسلة. إنه يرتدي أحد بنطلونات والدي الرسميّة. يبدو مختلفاً الآن، وكأنَّ الخطوط المستقيمة كلّها التي استُخدِمَتْ لرسم وجهه قد طُمِسَتْ. أقول: «قالتْ جوليا إنكَ تريد مني أنْ ألتقي بك هنا».

«نعم، أردتُ أنْ أتحدث معك على انفراد، وقاعات الاجتماع كلها موجودة في الطابق العلويّ. ووالدك لا يعتقد أنني يجب أنْ أناقش هذا الموضوع الآن»، ويُجفِّف يديه بالمنشفة. «آسف عمّا حدث».

في الحقيقة، إنني حتى لا أعرفُ إنْ كان هناك جواب مهذّب على هذا. أعضّ على شفتي السُّفلى. «ألهذا السبب لم تسمح لي بالتربيت على الكلب؟».

«نعم».

«كيف يعرف جدج ماذا يجب أنْ يفعل؟».

يهزّ كامبل كتفيه لا مبالاة. «من المُفترَض أنْ يكون لديه عمل يستخدم به حاسّة الشمّ عنده أو الحوافز الكهربائيّة التي يمكن لأي حيوان أنْ يشعر بها قبل أنْ يتمكن البشر من ذلك. ولكن أعتقد أنَّ السبب يعود إلى أنَّ كلّاً منا يعرف الآخر معرفة جيّدة». ويربت على عنق جدج. «إنّه يوصلني إلى مكان ما سالماً قبل أنْ تقع الحادثة. وفي المعتاد تتوفّر لديّ عشرون دقيقة لقيادتي».

«هاه». فجأة أشعر بالحياء. لقد كنتُ مع كيت في أشد حالات مرضها استفحالاً، لكنَّ هذا وضع مختلف. لم أكنْ أتوقَّع سماع هذا من كامبل. «ألهذا السبب قبلتَ تولي قضيتي؟».

«تقصدين لكي أُصاب بنوبة صرَع في مكان عامّ؟ صدِّقيني، كلا».

«ليس هذا ما قصدت»، وأشيحُ ببصري عنه. «بل لأنكَ تعرف معنى ألّا تكون لديك سيطرة على جسدك».

يقول كامبل مُستغرقاً في التفكير، «ربما. لكنَّ قبضة بابي تحتاج بشدّة إلى صقل».

إنْ كان يُحاول أنْ يدخل السرور إلى قلبي، فهو يفشل في ذلك فشلاً ذريعاً. «لقد قلتُ لك إنَّ فكرة جعلي أُدلي بشهادتي ليست فكرة صائبة».

يضعُ يديه على كتفيّ. «آنّا، هيا بنا. إنْ كان باستطاعتي أنْ أعود إلى هناك بعد ذلك الحادث، فتأكّدي من أنَّ باستطاعتك أنْ تعتلي تلك المنصّة المُخيفة للإجابة عن بضعة أسئلة أخرى».

كيف يُفترَض بي أنْ أواجه ذلك المنطق؟ وتبعتُ كامبل وعدنا إلى قاعة المحكمة، حيث لم يعد الجو هو نفسه الذي ساد قبل ساعة من الزمن. حيث الجميع يُراقبونه وكأنّه قنبلة موقوتة توشك أنْ تنفجر. يصعد كامبل إلى المقعد ويلتفت نحو المحكمة عموماً. يقول: «أنا في غاية الأسف بسبب ما حدث، سيادة القاضي. إنّني على استعداد لتقديم أيّ شيء مقابل الحصول على استراحة عشر دقائق، أليس كذلك؟».

كيف يستطيع أنْ يُنكِّتْ حول أمرٍ كهذا؟ ثم أُدركُ: هذا ما تفعله كيت، أيضاً. ربما لو يُصيبك الله بعاهة، فإنّه يحرص على أنْ يمنحك بضع جرعات إضافيّة من الفكاهة للتخفيف من حِدَّة تلك العاهة.

يقترح القاضي ديسالفو قائلاً: «لِمَ لا تأخذ فترة راحة حتى آخر النهار، أيّها المستشار».

«كلا، أنا بخير الآن. وأعتقد أنَّ من الهامّ أنْ نصل إلى حل هذه القضيّة»، ويلتفت نحو مُراسلة المحكمة الخاصّة: «هلّا، أه، أنعشتَ ذاكرتي؟».

تعيد قراءة المخطوط، ويومئ كامبل برأسه إيجاباً، لكنّه يتصرَّف كأنه يسمع كلماتي، تخرج كالقذائف، للمرة الأولى. «حسن، يا آنّا، كنتِ تقولين إنَّ كيت طلبَتْ منكِ أنْ ترفعي هذه الدعوى للحصول على التحرُّر الطبّيّ؟».

من جديد، أتلوّى، «ليس بالضبط».

«هلّا شرحت لنا؟».

«هي لم تطلب مني أنْ أرفع الدعوى».

«إذن ما الذي طلبته منكِ؟».

أسترقُ نظرةً إلى أمي. إنها تعرف؛ بل يجب أنْ تعرف. لا تدعيني أُصرِّح به جهاراً.

يلحّ كامبل: «آنّا، ماذا طلبتْ منك؟».

أهزّ رأسي نفياً، وفمي مُغلَق بإحكام، والقاضي ديسالفو يميل. «آنّا، يجب أنْ تعطينا جواباً عن هذا السؤال».

وتنبجس الحقيقة مني، بعد أن انهار السدّ، «حسنٌ، لقد طلبتْ مني أنْ أقتلها».

أول عمل خاطئ تمّ هو أنَّ كيت أرتَجَتْ باب غرفة نومنا، حين لم يكن هناك قفل، مما يعني أنّها إمّا سدّته بقطعة أثاث أو ثبّتته بقطعة نقدية. صرختُ «كيت» وأنا أضرب الباب بقوة، لأنني كنتُ أتصبّب عرقاً وكنتُ قذرة بعد التدرّب على لعب الهوكي وأردتُ أنْ آخذ دشّاً وأبدِّل ملابسي. «كيت، هذا ليس عدلاً».

أعتقدُ أنني أثرتُ ما يكفي من الضجيج، لأنها فتحت الباب. والخطأ الثاني هو أنّه كان في الغرفة شيء غريب. تلفّتُّ حولي، ولكن بدا أنَّ كل شيء في مكانه المعتاد –والأهم من ذلك كله هو أنَّ أغراضي لم تتعرَّض للعبث بها– ومع ذلك ظلَّ يبدو أنَّ كيت كانت تدبِّر لغزاً.

سألتها «ما مشكلتك؟»، ثم ولجت الحمّام، وأدرت ماء الدشّ، وشممته– رائحته ذكيّة إلى درجة الغضب، رائحة الخمر نفسها التي أقرنها بشقّة جِسّ. وبدأت أفتح الخزائن وأفتش بين المناشف أحاول أنْ أعثر على دليل، لا وجود لتلاعب مقصود، ولكن هناك زجاجة ويسكي نصف فارغة مُخبأة خلف عبوات الشامبو.

قلت: «انظري ماذا وجدتُ هنا...»، وأنا ألوِّح بها وأمشي عائدة إلى الحمّام، مُعتقدةً أنني وضعتُ يدي على شيء صغير وعظيم القيمة أستخدمه بعض الوقت للابتزاز لصالحي، ومن ثم رأيتُ كيت تحمل الأقراص.

«ماذا تفعلين؟».

تدحرجت كيت إلى الطرف الآخر. «دعيني وشأني، آنّا».

«أجُننتِ؟».

قالت كيت: «كلا. أنا فقط سئمتُ انتظارَ شيءٍ سوف يحدث في كل الأحوال. أعتقدُ أنني أفسدتُ حياة كل شخص طويلاً، ألا تعتقدين ذلك؟».

«لكنَّ الجميع بذلوا أقصى جهدهم للإبقاء على حياتك. لا يمكنك أنْ تقتلي نفسك».

فجأة طَفَقَتْ كيت تبكي. «أعلم. لا أستطيع».

استغرق مني بعضَ الوقت لأدركَ أنّه سبقَ لها أنْ قامت بتلك المُحاولة.

تنهَضَ أمي بحركة بطيئة. تقول، بصوتٍ مشدود حتى أضحى رقيقاً كالزجاج، «هذا غير صحيح. آنّا، لا أعلم لِمَ تقولين هذا».

تغرغرت عيناي. «ما الذي يدعوني إلى الكذب؟».

اقتربتُ منها أكثر. «ربما أسأتِ الفهم. ربما كانت تمرّ بيوم صعب، أو كانت مكتئبة»، وتبتسم بألمٍ كمَنْ يرغب حقاً في البكاء. «لأنه لو كانت مُضطربة إلى تلك الدرجة، لأخبرتني».

أجيب: «ما كان يمكن أنْ تُخبرك. كانت تخشى كثيراً من أنّها إذا انتحرتْ، أنْ تنتحري أنتِ أيضاً». لا أستطيع أنْ أتنفّس. إنني أغرقُ في حفرة من القار؛ أشعر بأنني أركضُ والأرض تنهار من تحتي. يطلبُ كامبل من القاضي فترة عشر دقائق استراحة لكي أستجمع قِواي، ولكن على الرغم من أنَّ القاضي ديسالفو يُلبي الطلب، إلّا أنني أبكي بحُرقة ولا أسمع جوابه. «لا أريد لها أنْ تموت، لكنني أعلم أنها لا تريد أنْ تعيش هكذا، وأنا الوحيدة التي تستطيع أنْ تمنحها ما تريد». أُبقي عينيّ على أمي، حتى وهي تتفادى النظر إليّ. «لطالما كنتُ القادرة على إعطائها ما تريد».

المحاولة التالية وَقَعتْ بعد أنْ دخلتْ أمي غرفتنا لتتحدث عن وهب كلية. قالت كيت «لا تفعلي»، بعد أنْ ذهبا.

نظرتُ إليها. «ماذا تقولين؟ طبعاً سوف أعطيك إياها».

كنا نخلع ملابسنا، ولاحظتُ أننا انتقينا البيجاما نفسها – المصنوعة من الساتان اللامع المطبوع برسوم ثمار الكرز. وعندما أوينا إلى السرير رأيتُ

أننا بدونا كما كنا ونحن صغيرتان، عندما كان أبوانا يُلبسانا ملابس متشابهة لأنهما اعتقدا أنَّ ذلك شيء ظريف.

سألتها: «أتعتقدين أنَّ العمليّة ستنجح؟ أعني نقل الكلية؟».

نظرتْ كيت إليّ. «ربما»، وتميل عليّ، واضعة يدها على مفتاح إطفاء النور. تُكرِّر قائلة، «لا تقومي بها»، ولم أفهم، إلّا بعد أنْ سمعتها للمرة الثانية، المعنى الحقيقيّ لقولها.

أمي قريبة جداً مني، وأرى في عينيها كل الأخطاء التي ارتكبتْ. يقترب أبي ويطوّق كتفيها بذراعه. ويهمس داخل شَعرها، «تعالي واجلسي».

يقول كامبل، وهو ينهض واقفاً على قدميه، «فضيلة القاضي، أتسمح لي؟».

يقترب مني، وجدج إلى جواره. إنني مهزوزة مثله. وأفكِّر في ذلك الكلب منذ ساعة. كيف استطاع أنْ يتأكَّد مما يحتاج إليه كامبل حقّاً، ومتى؟

«آنّا، هل تحبّين أختك؟».

«طبعاً».

«لكنّك كنتِ راغبة في القيام بعمل يمكن أنْ يودي بحياتها؟».

وَمَضَ شيءٌ في داخلي. «لقد رغبتُ في ذلك لكي أُجنبها المُعاناة. رأيتُ أنَّ هذا ما تريد».

خيَّم عليه الصمت؛ وأدركتُ في تلك اللحظة أنّه يعلم.

في داخلي، ينكسر شيء. «وأنّه... وأنّه ما أريد أنا، أيضاً».

كنا في المطبخ، نغسل الأطباق ونُجففّها. قالتْ كيت: «أنتِ تكرهين الذهاب إلى المستشفى».

أعيدُ الشوكَ والملاعق، نظيفة، إلى الدرج الخاص بها. «في الواقع، نعم».

«أعلمُ أنكِ مُستعدة لفعل أي شيء مقابل عدم التردُّد إلى هناك بعد الآن».

أرمقها. «طبعاً. لأنكِ حينئذٍ ستكونين بخير».

تغمس كيت يديها داخل المياه مع رغوة الصابون، وتحرص على ألّا تنظر إليّ: «أو ميّتة. فكِّري في الأمر، يا آنّا. يمكنك أنْ تلتحقي بمخيمات لعبة

الهوكي. وتستطيعين أنْ تختاري الدراسة في بلد مختلف بالكامل. يمكنكِ أنْ تفعلي كل ما تشائين ولا تضطري إلى القلق بشأني بعد الآن».

لقد استخرجَتْ هذه الأمثلة كلّها من رأسي، وشعرتُ باحمرار وجهي، خزياً لأنها موجودة هناك فما بالك بخروجها إلى العلن. فإذا كانت تشعر بالذنب لأنها تشكّل عبئاً، فالجدير بي أنْ يتتابني الشعور نفسه مُضاعفاً لعِلمي بأنَّ لديها الشعور نفسه. لعِلمها أنني *أنا* أشعر هكذا.

بعد ذلك لم نعد إلى الحديث. كنتُ أُجفِّف كل ما تناولني إيّاه، وحاولنا نحن الاثنتين أنْ نتظاهر بأننا لا نعرف الحقيقة: أي إنّه بالإضافة إلى الجزء مني الذي لطالما أراد لكيت أنْ تعيش، هناك جزء آخر، جزء فظيع مني يتمنّى أحياناً أنْ أتحرَّر.

***

ها هم يفهمون: إنني وحش. لقد رفعتُ هذه الدعوى لبعض الأسباب التي أفخر بها ولأسباب لستُ فخورة بها. والآن سوف يفهم كامبل لماذا لم أستطع أنْ أُدلي بشهادتي -ليس لأنني كنتُ خائفة من التكلُّم أمام الجميع- بل بسبب كل تلك المشاعر الشنيعة، بعضها فظيعٌ إلى درجة لا يمكن التعبير عنها بصوت مرتفع. لأنني أردتُ لكيت أنْ تعيش، لكنني أردتُ أنْ أكون ذاتي، وليس جزءاً منها. ولأنَّ موت كيت سوف يكون أسوأ ما يمكن أنْ يحدث لي... وأيضاً أفضل شيء.

وأنني أحياناً، عندما أُعيد التفكير في هذا كلّه، أكره نفسي وأرغب فقط في أنْ أزحف عائدة إلى حيث كنت، إلى الشخص الذي يريدون لي أنْ أكون.

الآن كل الحاضرين في قاعة المحكمة ينظرون إليّ، وأنا واثقة من أنَّ موقعي كشاهدة أو جِلدي أو ربما كلاهما معاً يوشكان أنْ ينفجرا. وتحت هذه العدسة المُكبِّرة، تستطيع أنْ ترى عميقاً حتى لب قلبي العفن. وربما لو استمرّوا في التحديق إليّ، فسوف أتلاشى كدخانٍ أزرق، مُرّ. ربما سأتلاشى ولا يبقى لي أثر.

يقول كامبل بهدوء: «آنا، ما الذي دفعكِ إلى الاعتقاد أنَّ كيت تريد أنْ تموت؟».

«قالت إنها مُستعدة لذلك».

اقتربَ أكثر إلى أنْ أصبحَ يقف أمامي مباشرة. «أليس ممكناً أنَّ هذا هو السبب نفسه الذي دفعها إلى أنْ تطلب منك أنْ تساعديها؟».

أرفعُ بصري، وأفتح الهديّة التي كان كامبل قد منحني إياها تواً. ماذا لو أنَّ كيت أرادتْ أنْ تموت لكي أعيش أنا؟ ماذا لو أنها بعد مرور كل تلك السنين من إنقاذ حياة كيت، كانت فقط تحاول أنْ تفعل الشيء نفسه من أجلي؟

«هل أخبرتِ كيت أنكِ تنوين أنْ تتوقفي عن كونك واهبة أعضاء؟».

همستُ: «نعم».

«متى؟».

«في الليلة السابقة لتعييني لك مُحام عني».

«آنّا، ماذا قالت كيت؟».

حتى ذلك الحين، لم أكنْ قد فكَّرتُ حقاً في هذا، لكنَّ كامبل قدَحَ ذاكرتي. لقد لزمتْ أختي الصمت المُطبق، صمتاً تاماً إلى درجة أنني تساءلتُ إنْ كانت قد استغرقتْ في النوم. ومن ثم التفتتْ نحوي حاملةً في عينيها العالم كلّه، مع ابتسامةٍ تهاوت كطريق متصدِّع.

رميتُ كامبل بنظرة. «قالتْ شكراً لك».

سارة

كانت فكرة القيام برحلة ميدانية بصورةٍ ما هي فكرة القاضي ديسالفو، لكي يتحدّث مع كيت. وعندما وصلنا كلنا إلى المستشفى، كانت جالسة باعتدال على السرير، تُحدّق بشرود إلى شاشة التلفزيون الذي كان جِسّ يستعرض قنواته بجهاز التحكّم عن بُعد. إنها نحيلة، وبشرتها شاحبة، لكنها واعية. يقول جِسّ، «تودّين مُشاهدة «رجل القصدير» أم «الفزّاعة»؟».

تقول كيت: «سوف تخرج الفزّاعة الحشوة منه. أتريد تشينا من المُصارعة الحرّة، أم صائد التماسيح؟».

ينخر جِسّ، «رجل التماسيح. الجميع يعلمون أنَّ المُصارعة الحرَّة زائفة»، وينظر إليها. «غاندي أم مارتن لوثر كينغ الابن؟».

«لن يوقّعوا على وثيقة التنازل».

يقول جِسّ: «نحن نتحدث عن «***ملاكمة المشاهير***» على قناة فوكس، يا حبيبتي، ما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد أنهم يأبهون بأمر وثيقة التنازل؟».

تبتسم كيت. «سوف يجلس أحدهما في الحلبة وسوف يرفض الآخر أنْ يضع واقي الأسنان». في هذه اللحظة أدخل. تسأل: «مرحبا ماما، مَنِ الذي سيفوز في ملاكمة المشاهير الافتراضيّة - مارشا أم جان برادي؟».

عندئذٍ تلاحظ أنني لستُ وحدي. وبينما الحشد بأكمله يلج الغرفة، تتّسع عيناها، وترفع الأغطية أكثر نحو الأعلى. وتنظر مباشرة إلى آنّا - لكنَّ أختها ترفض أنْ تنظر إليها. «ما الذي يجري؟».

يتقدَّم القاضي، ويُمسك بذراعي. «أعلمُ أنكِ تريدين أنْ تتحدثي معها، يا سارة، ولكن أنا **بحاجة** إلى التحدث معها»، ويتقدَّم، ماداً يده. «مرحبا،

كيت. أنا القاضي ديسالفو. كنتُ أتساءل إنْ كان وسعي أنْ أتحدث معك بضع دقائق؟»، ثم أضاف، «على انفراد»، وأخذ الآخرون يُغادرون الغرفة واحداً إثر آخر.

كنتُ آخر المُغادرين. راقبتُ كيت وهي تستند بظهرها من جديد على الوسائد، وقد شعرتْ فجأةً بالإرهاق من جديد. تُخبر القاضي: «انتابني شعور بأنكَ سوف تأتي».

«لمَ؟».

تقول كيت: «لأنه دائماً ينتابني».

قبل حوالي خمسة أعوام اشترتْ عائلةٌ جديدة المنزلَ الذي يقع على الجهة المقابلة من الشارع وهدمته، لأنها أرادتْ أنْ تبني شيئاً مختلفاً. وكل ما تطلَّبَ ذلك جرّافةً وعدداً من حاويات القمامة؛ وفي أقلّ من فترةٍ صباحيّة واحدة اختُزِلَ ذلك البناء، الذي كنا نراه كلما خرجنا إلى الشارع، إلى كومة من الركام. كنا نظن أنَّ المنزل سوف يدوم إلى الأبد، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ ريحاً عاتية أو كرة هدم كان يمكن أنْ تنسفه. والعائلة التي سكنته لا تختلف كثيراً عنه.

الآن أكاد لا أتذكَّر شكل المنزل القديم. أخرج من الباب الأماميّ ولا أتذكَّر الأشهر الطويلة التي بقيَتْ خلالها قطعة الأرض الخلاء، بحضورها البارز، كسنٍ ضائع. ومرَّ بعض الوقت قبل أنْ يبدأ المالكون الجُدُد بإعادة البناء.

***

عندما خرج القاضي ديسالفو، نكداً ومُضطرباً، نهضنا جميعاً، كامبل، براين وأنا، واقفين. يقول: «غداً، الإغلاق عند الساعة التاسعة صباحاً»، ويومئ لفيرن كي يتبعه، ويمشي على طول الرواق.

تقول جوليا لكامبل: «هيا بنا، أنت تحت رحمة مُرافَقتي».

«هذه ليست الكلمة الحقيقيّة»، ولكن بدل أنْ يلحق بها، يمشي باتجاهي. يقول ببساطة: «سارة، أنا آسف»، ويمنحني هديّة أخرى، «هل ستوصلين آنا إلى المنزل؟».

حالما يغادرون، تلتفتُ آنّا إليّ. «يجب أنْ أرى كيت حقاً».

أحيطها بذراعي. «طبعاً تستطيعين ذلك».

ندخل، فقط نحن عائلتها، وتجلس آنّا على حافة سرير كيت. تتمتم كيت، وهي تفتحْ عينيها، «أهلاً».

تهزّ آنّا رأسها نفياً؛ لا تعثر على الكلمات المناسبة إلا بعد بضع لحظات. أخيراً تقول، بصوتٍ عالِق كما يعلق القطن بالشوك، بينما يد كيت تعصر يدها: «لقد حاولت».

يجلس جِسّ على الطرف المقابل. يُصبح الثلاثة معاً في بقعة واحدة؛ وهذا يُذكّرني بالصورة الفوتوغرافيّة على بطاقة عيد الميلاد التي كنا نلتقطها في كل شهر تشرين أول، ونرتّبها بشكلٍ متوازن فوق بعض داخل أجنحة شجرة قيقب أو على جدار من الحجر، تمثّل لحظة واحدة ثابتة لكي يتذكّرهم كل شخص بها.

يقول جِسّ: «أتراهنين على آلف أم على السيد إذْ».

ترتفع زاويتا فم كيت. «على حصان. في الجولة الثامنة».

«اتفقنا».

أخيراً يميل براين ويُقبِّل جبين كيت. «حبيبتي، نامي نوماً هانئاً»، بينما تتسلَّل آنّا وجِسّ إلى الرواق، يُقبّلني مودِّعاً، أيضاً.

يهمس: «اتّصلي بي».

ومن ثم، بعد أنْ يُغادروا، أجلسُ إلى جوار ابنتي. إنَّ ذراعيها شديدتا النحول حتى إنّي أستطيع أنْ أرى العِظام وهي تنتقّل كيفما تتحرَّك؛ وتبدو عيناها عجوزتين أكثر من عينيّ.

تقول كيت: «أعتقد أنَّ لديك أسئلة تطرحينها عليّ».

أُجيب، مُندهشة من نفسي، «ربما لاحقاً». وأعتلي السرير وأضمّها إلى حضني.

عندئذٍ أدركُ أننا لا **نُنجب** أطفالاً، بل **نتلقّاهم**. وأحياناً ليس لوقتٍ طويل كما كنا نتوقّع أو نأمل. ولكن مع ذلك هذا أفضل بكثير من ألّا يكون لنا أطفال قط. أعترفُ قائلة: «كيت، أنا شديدة الأسف».

تنفر مبتعدة عني، إلى أنْ تتمكَّن من النظر في عينيّ. تقول بشراسة: «لا داعي للأسف، لأنني لستُ آسفة». تحاول أنْ تبتسم، تبذل في ذلك أقصى جهدها. «كانت محاولة جيّدة، يا أمي، أليستْ كذلك؟».

أعضُّ شفتي، شاعرة بثِقل الدموع. أُجيب: «كانت أفضل المحاولات».

الخميس

حريقٌ يُخمِد حريقاً آخر،
ألمٌ يُخفّفه وجعٌ آخر.

وليم شكسبير، من «روميو وجولييت»

كامبل

الدنيا تُمطِر.

عندما أخرج إلى غرفة الجلوس، أرى جدج ضاغطاً خطمه على لوح الجدار الزجاجيّ الذي يُشكِّل جانباً كاملاً من الشقّة. إنّه يئنّ لمشهد القطرات وهي تتحرك بخطٍ متعرِّج أمامه. أقول، وأنا أربت على رأسه: «لا تستطيع أنْ تحصل عليها، لا تستطيع أنْ تنتقل إلى الجانب المقابل».

أجلسُ على السجادة إلى جواره، وأنا أعلم أنَّني يجب أنْ أنهض وأرتدي ملابسي وأذهب إلى المحكمة؛ وأعلمُ أنني يجب أنْ أراجع من جديد حجّتي الخِتاميّة بدل أنْ أجلس هنا كسولاً. ولكنّ هناك شيئاً فاتناً في حالة الجو هذه. كنتُ أجلسُ في الماضي على المقعد الأماميّ في سيارة والدي الجاغوار، أراقبُ قطرات المطر وهي تقوم بمهامها في الانتحار على طريقة الكاميكاز[1] من أحد جانبيّ حاجب الريح إلى شَفرة الماسحة. كان يحب أنْ يترك الماسحات تعمل على فترات، لكي يستمر العالم في الرشح على أحد جانبيّ اللوح الزجاجيّ على امتداد فترات طويلة من الوقت. كان ذلك يُثير جنوني. ويقول والدي عندما أتذمَّر، ***وأنتَ تقود السيارة، تستطيع أنْ تفعل ما تشاء***.

«ألا تريدين أنْ تأخذي دشّاً أو لاً؟».

تقفُ جوليا في ممر الباب المفتوح لغرفة النوم، مُرتدية أحد قمصانيّ الرياضيّة. إنّه يصل في طوله حتى منتصف فخذها. وتلفّ أصابع قدميها داخل السجادة.

1- الكاميكاز: فرقة العمليات الانتحاريّة الجويّة في الجيش الياباني، خاصّة في أثناء الحرب العالميّة الثانية. المترجم.

أخبرها: «هيا اذهبي. أستطيع دائماً أنْ أخرج إلى الشرفة بدل ذلك».

تلاحظ الحالة الجويّة. «الجو فظيع في الخارج، أليس كذلك؟».

أُجيب: «يوم جيد لكي يعلق المرء في دار المحكمة»، ولكن من دون الكثير من الاقتناع. لا أريد أنْ أواجه القرار الذي سوف يَتخذه القاضي ديسالفو اليوم، وهذه هي المرة الوحيدة التي لا يتّصل الأمر بالخوف من خسارة هذه القضيّة. لقد بذلتُ فيها أقصى جهدي، بالنظر إلى ما اعترفتْ آنّا به على منصّة الشهادة. وآمل من كل قلبي أنْ أكون قد جعلتها تشعر بأنها أفضل حالاً بشأنِ ما فعلته، أيضاً. لم يعُد يبدو عليها أنّها طفلة مُتردِّدة، وهذا صحيح تماماً. إنها لا تبدو أنانيّة. بل تبدو كأي واحدٍ منا - تحاول أنْ تعرف مَنْ هي، وماذا تفعل بتلك المعرفة.

ذات مرَّة قالتْ آنّا لي، الحقيقة هي أنَّ لا أحد سوف يفوز. سوف نُدلي بحُججنا الختاميّة ونُصغي إلى رأي القاضي وحتى حينئذٍ، لن ينتهي الأمر.

بدل أنْ تعود جوليا إلى الحمّام، تقترب مني. وتجلس إلى جواري واضعةً ساقاً فوق ساق وتلمس بأصابعها الطبق الزجاجيّ. تقول: «كامبل، لا أدري كيف أبوح لك بهذا».

يسود السكون كل ما في داخلي. أقترح «أسرعي».

«أنا أكره شقّتك».

ألاحق عينيها وهما تنظران إلى السجادة الرماديّة ثم إلى الأريكة السوداء، وإلى الجدار المكسو بالمرايا وإلى رفوف الكتب المصقولة. إنَّ الشقّة مملوءة بالخطوط الحادّة والقطع الفنيّة باهظة الثمن. وهي مُزوّدة بالأجهزة الإلكترونيّة المتقدّمة وبالأجراس والصفّارات. لكنّها ليست منزل أحد.

أقول: «أتعلمين، وأنا أيضاً أكرهها».

جِسّ

إنها تُمطِر.

أخرجُ، وأبدأ بالمشي. أسير على طول الشارع ماراً بالمدرسة الابتدائيّة وبتقاطعَين للطرقات. خلال خمس دقائق أُصبحُ منقوعاً بالماء حتى العِظام. عندئذٍ أباشر الركض. أركضُ سريعاً إلى درجة أنَّ رئتيّ تبدآن تحرقاني، وأخيراً عندما أعجز عن التقدّم خطوة واحدة أخرى أرتمي وأستلقي على ظهري وسط ملعب كرة القدم في المدرسة الثانويّة.

ذات مرة، تناولتُ مُخدِّراً هنا في أثناء عاصفة رعديّة تشبه هذه. وارتميتُ على الأرض وراقبتُ السماء تهبط. تخيّلتُ قطرات المطر تُذيبُ جِلدي. انتظرتُ صاعقة تضرب قلبي كالسهم، وتجعلني أشعر بأنني حيّ مائة في المئة للمرة الأولى في كامل حياتي البائسة.

انتهزَ البرق فرصته ولم يأتِ في ذلك اليوم. ولم يأتِ أيضاً في صباح هذا اليوم.

لذلك أنهضُ، وأجفّفُ شَعري وأبعده عن عينيّ، وأحاول أنْ أفكّر في خطّةٍ أفضل.

آنّا

إنها تُمطِر.

المطر الذي ينهمر غزيراً يبدو أشبه بمياه دشٍّ تتدفّق، حتى بعد أنْ توقِف تدفّقها. إنّه نوع المطر الذي يجعلك تفكِّر في السدود والفيضانات المحليّة، والسفن القديمة. نوع المطر الذي يأمرك بالزحف عائداً إلى السرير، حيث الأغطية لم تفقد دفء جسمك، لكي تتظاهر بأنَّ الساعة متأخّرة خمس دقائق عن موعدها.

اسألْ أيَّ طفلٍ تجاوز الصف الرابع وسوف يُخبرك أنَّ الماء لا يتوقف أبداً عن الجريان. المطر يهطل، ويجري بين الجبال ليشكّل نهراً. والنهر يشقّ طريقه نحو المحيط. ويتبخر، كما الروح، ويتحول إلى غيوم. ومن ثم، كأي شيء آخر، يبدأ رحلته من جديد.

براين

إنها تُمطر.

كما حدث في يوم مولد آنّا -ليلة عيد الميلاد، الدافئة أكثر بكثير مما ينبغي في مثل ذلك الوقت من العام. والثلج الذي كان ينبغي أنْ يسقط تحول إلى سيل جارف من الأمطار. ومراكز منحدرات التزلّج اضطرتْ إلى إغلاق أبوابها في فترة عيد الميلاد، لأنَّ حلبات التزلّج كلها زالت. لم أتمكّن من الرؤية من خلال حاجب الريح وأنا أقود السيارة إلى المستشفى، وسارة حُبلى إلى جواري.

في تلك الليلة لم تظهر أيّة نجوم، بسبب حشود الغيوم الماطرة. وربما بسبب ذلك، عندما وصلتْ آنّا قلتُ لسارة، «دعينا نسميها أندروميدا. واختصاراً، آنّا».

قالت: «أندروميدا؟ كما ورد في رواية الخيال العلمي؟».

صحّحتُ لها، «بل على اسم الأميرة[1]». ولمحتُ عينيها موجّهتين نحو أُفُق تفكير ابنتنا الصغير. شرحتُ لها، «في السماء، بين أمّها وأبيها».

1- أندروميدا: أميرة حبشيّة شُدَّتْ بالسلاسل إلى جُرفٍ مرتفع لكي يلتهمها الغول، لكنَّ برسيوس أنقذها وتزوج منها. وفي علم الفلك تُسمّى بالمرأة المُتسلسلة. المترجم.

سارة

إنّها تُمطِر.

أعتقدُ أنها ليست بداية مُبشِّرة. أنقلُ بطاقات التعريف على الطاولة، مُحاولة أنْ أبدو أشدّ براعة مما أنا فعلاً. مَنْ كنتُ أخدع؟ أنا لست مُحامياً، ولا صاحبة مهنة. لم أكنْ أكثر من أم، وحتى في هذا لم أنجز الكثير.

حثّني القاضي «سيدة فيتزجيرالد؟».

آخذُ نَفَساً عميقاً، وأُحدِّقُ نحو الأسفل إلى اللغة المبهمة التي أمامي، وأقبض على كامل بطاقات التعريف. وأنهضُ واقفة، وأتنحنح، وأبدأ القراءة بصوتٍ مرتفع. «في هذا البلد لدينا تاريخ شرعيّ طويل يسمح للأهل باتّخاذ قرارات بالنيابة عن أولادهم. وهذا جزء مما لطالما اعتبرته قاعات المحاكم حقّ الخصوصيّة الدستوريّ. وبالنظر إلى كل الأدلّة التي سمعَتها هذه المحكمة –» وفجأة، أسْمَعُ قصف رعد، فأتركُ ملاحظاتي كلها تسقط على الأرض. وأركع، لكي ألْمِلَمها، لكنها تبعثرتْ الآن وفقدتْ ترتيبها. وأحاول أنْ أُعيد ترتيب ما أمامي، لكنّني أعجز عن فعل ذلك.

أوه، إلى الجحيم. على أي حال، ليس هذا ما أحتاج إلى قوله.

أسألُ: «فضيلة القاضي، هل لي أنْ أبدأ من جديد؟»، وعندما يومئ برأسه موافِقاً، أُديرُ ظهري له، وأمشي نحو ابنتي، الجالسة بجوار كامبل.

أخبرها: «آنّا، أنا أحبّك. وأحببتُكِ حتى قبل أنْ أراك، وسوف أحبّك حتى بعد أنْ أرحل بوقتٍ طويل ولا أستطيع أنْ أقولها لك. وأعلم أنّه لأنني أمّ، يُفترَض بي أنْ أعرف الأجوبة عن الأسئلة كلها، لكنني لا أعرفها. وفي كل يوم أتساءل إنْ كنتُ أعرفُ أولادي كما أعتقد. أتساءلُ إنْ كنتُ قد فقدتُ وضعي كأمٍ لكم، لأنني شديدة الانهماك بشأنِ كيت».

أتقدَّم بضع خطوات. «أعلمُ أنني لجأتُ إلى كل وسيلة ممكنة لمعالجة كيت، لكنَّ هذا كل ما أُحسِن القيام به. وحتى إن كنتِ لا تتّفقين معي، حتى إنْ كانت كيت لا تتفق معي، أريد أنْ أكون الشخص الذي يقول ***لقد قلتُ لكِ إنَّ هذا سيحدث***. وبعد مرور عشرة أعوام من الآن، أريد أنْ أرى أولادك جالسين في حجرك وبين أحضانك، لأنكِ حينئذٍ فقط سوف تفهمين. أنا أعلم أنَّ لديّ أختاً -وتلك العلاقة تقوم بأكملها على أساس العدالة: تريدين لأختك أنْ تحصل على ما حصلتِ أنتِ عليه بالضبط- المقدار نفسه من الدُّمى، والعدد نفسه من كرات اللحم داخل طبق السباغيتّي، والحصّة نفسها من الحب. أما كونك أمّاً فأمر مختلف بالكامل. أنتِ تريدين لابنتك أنْ تحصل على أكثر مما حصلتِ عليه. تريدين أنْ تضرمي ناراً تحتها وتراقبينها تحلِّق. إنَّ ما أريد قوله يفوق الكلمات»، وألمس صدري، «ومع ذلك كل شيء ينجح ويتمّ بصورة مناسبة هنا في داخلي».

ثم ألتفتُ نحو القاضي ديسالفو: «أنا لم أُرِدْ أنْ آتي إلى المحكمة، لكنني اضطررتُ إلى ذلك -حتى لو كانت هذه ابنتكَ أنتَ- لابد أنْ تُبدي ردَّة فعل. وهكذا أُجبِرتُ على أنْ أشرح، بكل وضوح، سبب اعتقادي أنني أعرف مصلحة آنّا بصورةٍ أفضل منها. ولكن عندما تناقش الأمر، لا يكون شرح ما تؤمن به أمراً هيِّناً. فإذا قلتَ إنك *تؤمن* بأنَّ شيئاً ما صحيح، فقد تعني شيئاً أو شيئين - إمّا أنكَ ما زلتَ تُقيِّم البدائل، أو أنكَ تقبله بوصفه حقيقة واقعة. ومنطقيّاً لا أرى كيف يمكن لكلمة واحدة أنْ يكون لها تعريفَان متناقضان، أما عاطفيّاً، فإنني أفهم ذلك كل الفهم. لأنَّه تمرّ عليّ أوقات أعتقد خلالها أنَّ ما أفعل صائب، وفي أوقات أخرى أراجعُ نفسي مع كل خطوة أخطوها على الطريق.

«حتى وإنْ أصدرت المحكمةُ حكمها لصالحي اليوم، لا أستطيع أنْ أُجبر آنّا على أنْ تهِبَ كِليتها. لا أحد يستطيع. ولكن هل أتوسّل إليها؟ هل *أرغبُ* في ذلك، حتى وإنْ ضبطتُ نفسي؟ لا أعلم، ولا حتى بعد أنْ أتحدث مع كيت، وبعد سماع أقوال آنّا. أنا لستُ متيقّنة مما أؤمن به؛ ولم *أكن* كذلك يوماً. ما أعرفه معرفة لا جِدال فيها هما أمران: أنَّ هذه الدعوى لا تتعلَّق بشأنِ هِبة كلية... بل بشأنِ القيام بخيارات. وأنَّ لا أحد أبداً يتّخذ قرارات وحده بعيداً عن الآخرين، ولا حتى إذا منحهم القاضي الحقّ لفعل ذلك».

ختاماً، أواجه كامبل: «قبل وقتٍ طويل كنتُ مُحامية. لكنني لستُ كذلك الآن. أنا أُمّ، وما فعلتُ خلال الأعوام الثمانية عشرة بتلك المقدرة كان أصعب من أي شيءٍ أنجزته في قاعة المحكمة. وفي بداية جلسة الاستماع هذه، يا سيد ألكسندر، قلتَ أنْ لا أحد منّا مُضطرّ إلى اقتحام حريق وإنقاذ شخص آخر من مبنى يحترق. لكنَّ هذا كلّه يتغيَّر إذا كنتَ أباً وكان الشخص داخل ذلك المبنى المُحترِق هو طفلك. إذا كان هذا هو الوضع، فليس فقط سوف يتفهَّم الجميع إذا اقتحمتَ المكان لكي تُخرِج طفلك – بل سوف يتوقّعون منكَ ذلك ***عمليّاً***».

آخذُ نَفَساً عميقاً. «ولكن في حياتي كان ذلك المبنى يحترق، وكانت إحدى ابنتيّ في داخله – والفرصة الوحيدة لإنقاذها هي بإرسال ابنتي الأخرى إليها، لأنها الوحيدة المؤهّلة لفعل ذلك. هل كنتُ أعلم أنني أقوم بمجازفة؟ طبعاً أعلم. هل كنتُ أعلم أنَّ ذلك يمكن أنْ يُفقدني حياتيهما معاً؟ نعم. هل كنتُ أفهم أنَّه ربما ليس عدلاً أن أطلب منها أنْ تفعل ذلك؟ بلا أدنى شك. ولكنَّني كنتُ أعلم أيضاً أنْ تلك الفرصة هي الوحيدة التي توفّرتْ لي للاحتفاظ ***بكلتيهما***. هل كان تصرّفاً مشروعاً؟ هل كان أخلاقيّاً؟ هل كان جنونيّاً أو أحمقَ أو قاسياً؟ لا أعلم. لكنني أعلم حتماً أنّه كان ***صائباً***».

بعد أنْ أنتهي، أجلسُ على طاولتي. المطرُ يضربُ النوافذَ التي إلى يميني. أتساءل إنْ كان سيتوقف أبداً.

كامبل

أنهضُ واقفاً، وأنظر إلى بطاقات ملاحظاتي، و-كما فعلتْ سارة- أرميها إلى القمامة. «كما قالت السيدة فيتزجيرالد تواً، هذه القضيّة ليست بشأنِ وهب آنّا لكليتها. وليست بشأنِ وهب خليّة جلد، أو خليّة دم واحدة، أو لسلسلة من الـ DNA. إنها بشأنِ فتاة على شفا أنْ تُصبح ***كياناً مُستقلّاً***. فتاة في الثالثة عشرة – وهذا شيء قاسٍ، ومؤلِم، وجميل، وصعب، ومُبهِج. فتاة قد لا تعرف ماذا **تريد** في الوقت الحالي، وقد لا تعرف مَنْ **تكون** في الوقت الحالي، لكنّها تستحق أنْ تُتاح لها فرصة معرفة ذلك. وفي رأيي، أعتقد أنها بعد عشرة أعوام من الآن سوف تصبح شخصيّة مُذهلة».

أتقدَّم من المقعد. «نحن نعلم أنَّه طُلِبَ من آل فيتزجيرالد أنْ يفعلوا المستحيل -أنْ يتّخذوا قرارات واعية بشأن الرعاية الصحيّة لاثنين من أولادهما لديهما مصالح صحيّة متناقضة. وإذا لم نكن نعرف- على غرار آل فيتزجيرالد - ما هو القرار الصائب، فيجب أنْ تكون الكلمة الفصل بيد صاحب الجسم... حتى وإنْ كان في الثالثة عشرة. وهذا أيضاً، حتماً، هو ما تدور حوله القضيّة: اللحظة التي يعرف فيها الطفل ربما أكثر مما يعرف والداه.

«أنا أعلمُ أنَّه عندما اختارتْ آنّا أنْ ترفع هذه قضيّة، لم تفعل ذلك للأسباب الأنانيّة كلها التي يمكن توقّعها من فتاة في الثالثة عشرة. إنها لم تتخذ هذا القرار لأنها أرادتْ أنْ تكون كالأطفال الآخرين الذين في مثل سنّها. لم تتخذ هذا القرار لأنها سئمت إزعاجها ومُضايقتها. ولم تتخذ هذا القرار لأنها تخاف الألم».

ألتفتُ، وأبتسم لها. «أتعلم؟ لن أُدهَش إذا منحت آنّا أختها تلك الكلية. لكنَّ اعتقادي لا أهميّة له. ومع كامل احترامي لفضيلة القاضي ديسالفو، إنَّ ما تعتقد *أنت* لا يهم. وما تعتقد سارة وبراين وكيت فيتزجيرالد لا يهم. ما **يهمّ** هو ما تعتقد آنّا». وأمشي عائداً إلى كرسيّ. «وهذا هو الصوت الوحيد الذي علينا أنْ نُصغي إليه».

يدعو القاضي ديسالفو إلى فترة استراحة خمس عشرة دقيقة ريثما يعدّ قراره، واستغللتها في التنزّه مع الكلب. درنا حول الساحة الصغيرة الخضراء التي تقع خلف مبنى المحكمة، وفيرن يُراقبُ المُراسلين المنتظرين سماع حكم القضاء. أقول، بينما يقوم جدج بدورته الرابعة، بحثاً عن البقعة المثاليّة، «هيا بنا منذ الآن. لا أحد يُراقبنا».

ولكن تبيَّنَ أنَّ هذا غير صحيح. فقد انفصل طفل في الثالثة أو الرابعة من العمر عن أمّه واندفعَ مباشرةً نحونا. وصرخ «جرو!» ومدَّ يديه في شوق حارّ، واقتربَ جدج مني.

وبعد لحظة لحقتْ أمّه به. «آسفة. إنَّ ابني يمرّ بمرحلة حبّ الكلاب. هل نستطيع أنْ نداعبه؟».

أقول آلياً «كلا. إنّه كلب خدمة».

انتصبت الأم واقفة، «أوه»، وجرَّتْ ابنها بعيداً. «لكنكَ لستَ أعمى».

أنا مُصاب بالصرع، وهذا كلب العناية بي عندما تُصيبني النوبة. أفكِّر في أنْ أُفضي بما لديّ، مرّة واحدة، وللمرة الأولى في حياتي. ولكن عليك أنْ تكون قادراً على الضحك على نفسك، أليس كذلك؟ أقول «أنا محام»، وأبتسمُ لها، «وهو يستدعي سيارات الإسعاف من أجلي».

وأتابع أنا وجدج طريقنا، وأنا أُصفِّر.

عندما يعود القاضي ديسالفو إلى مقعده يجلب معه صورة داخل إطار لابنته المتوفّاة، وهكذا أدركُ أنني خسرتُ القضيّة. ويباشر قائلاً: «إنَّ الشيء الوحيد الذي صدمني خلال تقديم الأدلّة هو أننا جميعاً في قاعة المحكمة هذه انخرطنا في مناظرة حول نوعية الحياة في مقابل قداسة الحياة. لا شك

في أنّه لطالما آمنَ آل فيتزجيرالد بأنَّ المُحافظة على كيت حيّة وتشكّل جزءاً من العائلة هو أمرٌ حاسم - ولكن عند هذه النقطة أصبحت قداسةُ وجودِ كيت متضافرة بشكل تامّ مع نوعيّة حياة آنّا، وعملي هو أنْ أرى إنْ كان بالإمكان الفصل بينهما».

يهزّ رأسه نفياً. «لستُ متيقّناً من أنَّ أيّاً منا مُؤهّل لتقرير مَنْ هاتين الفتاتين هي الأهمّ -وأنا أقلّ الجميع أهليّة. أنا والد. وابنتي دينا قُتِلَتْ وهي في الثانية عشرة من عمرها على يد سائق سيارة ثمل، وعندما اندفعتُ إلى المستشفى في تلك الليلة، كنتُ مستعداً لأهبَ أي شيء مقابل أنْ أقضي معها ولو يوماً واحداً آخر. وآل فيتزجيرالد يعيشون هذا الوضع منذ أربعة عشر عاماً- مطلوب منهم أنْ يهِبوا أي شيء مقابل الإبقاء على حياة ابنتهم مدة قصيرة أخرى. وأنا أحترم قراراتهم. ومُعجَب بشجاعتهم. وأحسدهم على توفّر هذه الفُرَص لهم. وكما أشار المحاميان، هذه القضيّة لم تعُد تدور حول آنّا وتوفّر كلية، بل حول كيف تمَّ التوصّل إلى هذه القرارات وكيف قرّرنا مَنْ هو الذي يجب أنْ يتّخذها.

يتنحنحَ. «الجواب هو أنَّه لا يوجد جواب شافٍ. ونحن، كآباء، وأطباء، وقُضاة، وكمُجتمع، نبحث عن قراراتٍ تسمح لنا بالنوم ليلاً ونتّخذها - لأنَّ السلوك الأخلاقيّ أهمّ من الأخلاق، والحب أهمّ من القانون».

وجّه القاضي ديسالفو انتباهه نحو آنّا، التي تتململ بانزعاج. يقول برفق: «إنَّ كيت لا تريد أنْ تموت، ولكنها لا تريد أنْ تعيش وهي على حالها الراهن أيضاً. وعندما أعرفُ هذا، وأعرف القانون، لا يتبقّى أمامي إلّا قرار واحد أتّخذه. إنَّ الشخص الوحيد الذي ينبغي السماح له بالقيام بذلك الخيار هو نفسه الذي يكمن في قلب القضيّة».

أستنشق الهواء بقوة.

«إنني لا أعني بهذا كيت، بل آنّا».

إلى جواري، هي تلهث. «إنَّ إحدى القضايا التي أُثيرت خلال هذه الأيام القليلة الماضية تضمّنت التساؤل حول ما إذا كانت فتاة في الثالثة عشرة قادرة على القيام بخيارات ثقيلة كهذه. لكنَّ حجّتي هي أنَّ السن هو الأقلّ تقلّباً هنا أمام الفهم. في الحقيقة، يبدو أنَّ بعض البالغين هنا نسوا أبسط قواعد

الطفولة: لا ينبغي أنْ تأخذ شيئاً من أحد إلّا بعد طلب الإذن منه»، ويسأل: «هلّا وقفتِ يا آنّا من فضلك؟».

تنظر إليّ، فأومئ برأسي إيجاباً، وأقفُ معها. يقول القاضي ديسالفو: «عند هذه النقطة سوف أعلنُ أنكِ متحرِّرة طبيّاً من سيطرة والديك. ومعنى هذا هو أنّه على الرغم من أنّكِ سوف تستمرين في العيش معهما، وعلى الرغم من أنَّ باستطاعتهما أنْ يُحدِّدا لك موعدَ نومك والعروض التلفزيونيّة التي تستطيعين مُشاهدتها وما إذا كان عليك أنْ تنتهي من أكل البروكولي، مع الأخذ بعين الاعتبار المعالجة الطبيّة، فإنَّ الكلمة الأخير تعود إليك»، ويلتفتْ نحو سارة: «سيدة فيتزجيرالد، سيد فيتزجيرالد –سوف أُصدر الأمر إليكما بأنْ تجتمعا مع آنّا ومع طبيبها الخاص بالأطفال وتناقشوا شروط هذا الحكم القضائي لكي يفهم الطبيب أنّه في حاجة إلى التعامُل مباشرة مع آنّا. وإذا احتاجتْ إلى إرشاد إضافي، فسوف أسند إلى السيد ألكسندر سلطة قضائيّة طبيّة خاصّة بها إلى أنْ تبلغ سن الثامنة عشرة، وذلك لكي يُساعدها على اتّخاذ القرارات الأشدّ صعوبة. إنني لا أقوم بأي حال بالتلميح إلى أنّه لا ينبغي اتّخاذ تلك القرارات بالتعاون مع والديها– لكنّني أجد أنَّ القرارَ الختاميّ سوف يبقى بيد آنّا وحدها». ويُثبّتُ القاضي تحديقه عليّ: «سيد ألكسندر، هل تقبل بِتَنكّب هذه المسؤوليّة؟».

لم أكنْ قد اضطررتُ إلى العناية بأي شخص أو أي شيء قبل ذلك، باستثناء جدج. والآن لديّ جوليا، وسوف أعتني بآنّا. أقول «يُشرّفني ذلك»، وأبتسم لها.

يُصدر القاضي أوامره: «أريد منكم التوقيع على هذه الاستمارات قبل أنْ تغادروا قاعة المحكمة اليوم. حظاً موفّقاً، يا آنّا. عرِّجيّ عليّ بين حينٍ وآخر، وأخبريني عن أحوالك».

يضرب بمطرقته بقوة، وننهض واقفين عندما يُغادر قاعة المحكمة. أقول، عندما تلزم مكانها إلى جواري مصعوقة، «آنّا، لقد نجحتِ».

وصلتْ جوليا إلينا أولاً ومالت عبر درابزين المنصّة لكي تُعانق آنّا. «لقد كنتِ شديدة الشجاعة». وتبتسم لي وأنا خلف آنّا. «وأنت كنتَ كذلك».

لكنَّ آنا مشتْ مبتعدة، ووجدتْ نفسها وجهاً لوجه مع والديها. لا يفصل بينهما أكثر من قدم، وأيضاً بون شاسع من الزمن والراحة. ولم أُدرك إلّا في تلك اللحظة أنني بدأتُ أفكِّر في آنّا بوصفها أكبر سنّاً من عمرها الحقيقيّ، ومع ذلك ها هي ذي متردِّدة وعاجزة عن مواجهتهما مباشرة. يقول براين، متجاوزاً الهوّة، وجاذباً ابنته في عناقٍ خشن: «هيه. لا بأس». ومن ثم تتسلّل سارة إلى هذا الاجتماع، وذراعاها تضمّانهما معاً، مُشكلين بأكتافهم الجدار العريض لفريق رياضيّ مُضطرّ إلى أنْ يخوض المباراة نفسها التي يلعبها من جديد.

آنّا

الرؤية رديئة. المطر ينهمر بعزمٍ أشدّ، إنْ كان ذلك ممكناً. هذا ما لاحظته برهة وجيزة وأنا أندفع بالسيارة بقوة حتى أنها تُسحَق كعبوة كوكاكولا فارغة، وفجأة لم يعُد باستطاعتي أنْ أتنفّس. واستغرق مني برهة من الزمن لأدرك أنَّ هذا لا صِلة له بحالة الطقس الرديئة أو بِرُهاب الأماكن المُغلقَة الكامن، بل بكون حنجرتي أضيق من المعتاد، والدموع تجعلها أضيَق من شريان، بحيث أنَّ كل ما أفعل وأقول يتضمَّن عملاً مُضاعفاً.

لقد تحرّرتُ طبيّاً حتى الآن مدة نصف ساعة كاملة. ويقول كامبل إنَّ المطر بَرَكَة، ويُبعِد المراسلين عنا. قد يعثرون عليّ في المستشفى وقد لا يعثرون، لكنني حينئذٍ سوف أكون مع عائلتي ولن يعود للأمر أيّة أهميّة. لقد غادر والداي قبلنا؛ كان علينا أنْ نملأ تلك الاستمارات السخيفة. وعرَضَ كامبل عليّ أنْ يقلّني بعد أنْ انتهينا، وهذه لفتة جميلة خاصةً أنني أعلم أنّه يُفضّل أنْ يكون مع جوليا أكثر من أي شيء آخر، وهذا ما يبدو أنّهما يعتقدان أنّه أشبه بلغز مُحيِّر، لكنّه ليس ***كذلك*** أبداً. أتساءل ماذا يفعل جدج، عندما يكونان معاً، أتساءل إنْ كان يشعر بأنّه منبوذ.

أسأل، بلا مقدّمات: «كامبل؟ ماذا ينبغي أنْ أفعل باعتقادك؟».

إنّه لا يتظاهر بأنّه لا يعرف عمّا أتحدث. «لقد قاتلتُ بشراسة في مُحاكمةٍ للحصول على **حقّك** بالاختيار، لذلك لن أفرض رأيي عليك».

أقول، وأنا أستقرّ عميقاً على مقعدي: «عظيم. ها أنا لا أعلم حتى مَنْ أكون حقّاً».

«أنا أعرف مَنْ أنتِ. أنتِ المفتاح الأساسيّ في كل مزارع بروفيدنس.

أنتِ ثرثارة، وتنتقين قطع البسكويت من طبق تشكيلة المكسّرات، وتكرهين الرياضيات و...».

كانت مراقبةُ كامبل شيئاً ممتعاً وهو يُحاول أنْ يسدّ الثغرات كلّها.

ويختم قائلاً: «... هل تحبين الشبّان؟».

أعترفُ: «بعضهم لا بأس به، لكنهم كلهم ربما يكبرون ويُصبحون أقرب شَبَهاً بك».

يبتسم. «أعوذ بالله».

«ماذا ستفعل بعد ذلك؟».

يهز كامبل كتفيه لا مبالاة. «قد أُضطر إلى قبول قضيّة مُربحة».

«لكي تستمر في إعالة جوليا في أسلوب الحياة الذي تعوّدتْ عليه؟».

يتنهّد. «نعم، شيء من هذا القبيل».

ألزمُ الصمتَ برهة، بحيث لا أعود أسمع إلّا حفيف مسّاحة حاجب الريح. وأضع يديّ تحت فخذَيّ، وأجلس عليهما. «بالنسبة إلى ما قلتَه في المُحاكمة... أتعتقد حقّاً أنني سأصبح شخصية مذهلة في غضون عشرة أعوام؟».

«ما هذا، يا آنّا فيتزجيرالد، أتحاولين أنْ تقتنصي مني بعض المديح؟».

«انسَ ما قلتُ».

يرمقني بنظرة. «نعم، أعتقد ذلك. أتخيّل أنكِ سوف تحطّمين قلوب الرجال، أو تمارسين الرسم في حي مونمارتر، أو تقودين طائرات نفّاثة، أو تقطعين سيراً على الأقدام مناطقَ مجهولةً من البلاد». ويسكتْ. «وربما كل ما ذكرتُه آنفاً».

كان قد مرَّ عليّ وقت رغبتُ خلاله، على غرار كيت، أنْ أُصبح راقصة باليه. ولكن منذ ذلك الحين مررتُ بآلاف المراحل المختلفة: أردتُ أنْ أصبح رائدة فضاء. أردتُ أنْ أصبح عالمة في عِلم الإحاثة[1]. وأردتُ أنْ أكون مُغنيّة مُساعِدة مع أريثا فرانكلين، وعضواً في الوزارة، وحارساً في متنزه يلوستون القومي. والآن، وحسب اليوم الذي أنا فيه، أحياناً أريد أنْ أكون طبيبة في الجراحة الدقيقة، وشاعرة، وصائدة أشباح.

ثمة شيء واحد ثابت. أقول: «بعد عشرة أعوام من الآن أريد أنْ أكون أخت كيت».

1- الإحاثة: علم المُستحاثات والمتحجرات. المترجم.

براين

ينطلقُ الصفير عندي حالما تبدأ كيت دورة أخرى من الديلزة. إنه حادث سيّارة، سيارتين، مع.ج - أي حادث تصادم سيارتين مع جرحى. أخبر سارة «إنهم بحاجة إليّ. هل ستكونين بخير؟».

سيارة الإسعاف تنطلق إلى منعطف إدي وفاونتن، وهو تقاطع طرق سيئ أصلاً، وزاد من سوئه حالة الطقس هذه. ومع وصولي، كان رجال الشرطة قد حاصروا المنطقة. إنه حادث تصادم سيارتين بفعل السرعة وتحوّلتا إلى كتلة ملتوية من الفولاذ. الشاحنة كان حالها أفضل، أما سيارة الـ BMW الأصغر حجماً فكانت حرفيّاً قد التوت مُقدّمتها حتى أضحت أشبه بابتسامة. أترجّل من السيارة إلى المطر الغزير، وأتوجّه مباشرة نحو أول رجل شرطة أصادفه. يقول: «هناك ثلاثة من الجرحى. نُقِلَ واحدٌ منهم».

أجد ريد يستخدم مِقصّاً ضخماً لتقطيع جانب سائق السيارة الثانية لكي يصل إلى الضحايا. أصرخ لكي يعلو صوتي فوق ضجيج صفّارات سيارات الإسعاف، «ماذا لديك من معلومات؟».

يردّ عليّ بالصراخ: «السائقة الأولى اصطدمت بحاجب الريح، فنقلها سيزار بسيارة إسعاف. وسيارة الإسعاف الثانية في الطريق إلى هنا. هناك شخصان هنا، حسب ما أرى، لكنَّ البابَين مُشوّهان».

«دعني أرى إنْ كان بمقدوري أنْ أزحف فوق سطح الشاحنة»، وأبدأ أشقّ طريقي إلى أعلى المعدن الزلق والزجاج المُهشَّم. تغوصُ قدمي داخل ثقب لم أره في القعر المُسطَّح، وأسبّ وأحاول أنْ أُخلِّصَ نفسي. وبحركة حذرة ألجُ الجزء المسقوف الملتوي من الشاحنة، وأناور لأتقدَّم. لا بدَّ أنَّ السائق

قُذِفَ من خلال حاجب الريح من فوق سيارة الـ BMW الصغيرة، وكان كامل الطرف الأماميّ من سيارة الـ فورد ف – 150 قد خُرِق من جانب مقعد المُسافر من السيارة الرياضيّة، وكأنها مصنوعة من الورق.

اضطررتُ إلى الزحف خارجاً من خلال ما كان نافذة الشاحنة، لأنَّ المُحرِّك يقع بيني وبين كائنٍ مَنْ كان داخل سيارة الـ BMW. ولكنْ إذا التويتُ بصورة ما، فثمة مساحة صغيرة تناسبني بالضبط، وتضعني في مواجهة الزجاج المُعالَج، والمُحطَّم حتى أصبح أشبه بشبكة عنكبوت، ومُلطّخاً بحُمرة الدم. وبينما ريد يُحاول أنْ يفتح باب جانب السائق بإحداث فجوة ومن ثم خرج كلبٌ يئن، أدركتُ أنَّ الوجه المضغوط على الجانب الآخر من النافذة المكسورة هو وجه آنّا.

أصرخ: «أخرجهم، أخرجهم فوراً!». لا أعلم كيف أخرج بالقوة من هذا الهيكل العظميّ المُعقّد لكي أضرب ريد وأُبعده عن طريقي؛ ولا كيف أخلِّص كامبل ألكسندر من حزام مقعده وأجرّه إلى الخارج لكي أُمدِّده في الشارع والمطر ينهمر من حوله؛ ولا كيف أدخل إلى حيث ابنتي ما زالت موجودة ومفتوحة العينين ومربوطة بالحزام كما ينبغي أنْ تكون وأوه يا إلهي كلا.

يظهر بولي فجأة ويضع يديه عليها وقبل أنْ أعلم ماذا أفعل دفعته وجعلته ينبطح أرضاً. فيقول، رافعاً مقصّه، «اللعنة، براين».

«إنها آنّا، يا بولي، إنها آنّا».

عندما فهِما الأمر، حاولا أنْ يُرجعاني إلى الخلف وأنْ يقوما بالعمل بالنيابة عني، لكنّها ابنتي، ابنتي، وأنا لا أفعل أي شيء. وضعتُها على مسند للظهر وثبّتها بحزام، وتركتهم يُحملونها إلى سيارة الإسعاف. رفعتُ أسفل ذقنها، استعداداً لوصلها بالأنابيب، لكنني رأيتُ الندبة الصغيرة التي أُصيبتْ بها جرّاء الوقوع على مزلجة جِسّ على الجليد، وانهارت. يُنحّيني ريد جانباً وينوب عنّي في العمل، ثم يقيس نبضها. يقول: «النبض ضعيف، لكنّه موجود».

يُركِّب الأنبوب الشريانيّ بينما أرفع اللاسلكي وأبلِّغ بوقت وصولنا. «أنثى في الثالثة عشرة من العمر، حادث تصادم سيارة، ثمة جرح ملتئم

في الرأس...». عندما يختفي مؤشِّر نبضات القلب، أترك السمّاعة وأباشر بعمليّة إنعاش القلب. أُصدر أمري: «أحضروا المِحفّة»، وأفتح لها قميص آنّا، وأشقّ تخريم حامل الصدر الذي طالما رغبَتْ في ارتدائه ولكنها لم تحتج إليه. يهزّها ريد، ويستعيد النبض، نبضاً ضعيفاً بطينيّاً.

نضعها في كيس ونركّب الأنبوب الشرياني. ويصرخ بولي في منطقة التحميل طالباً سيارات إسعاف ويفتح الباب الخلفي. وفي المقطورة، لا تُبدي آنّا أيّة حركة. يقبض ريد على ذراعي بشدّة. يقول: «لا تفكّر في الأمر»، ويُمسك بأعلى مِحفة آنّا ويهرع بها إلى قسم الطوارئ.

لا يسمحون لي بولوج غرفة الصدمات. ويندفعَ سربٌ من رجال الإطفاء لتقديم الدعم. ويرتقي أحدهم إلى الطابق العلوي لإحضار سارة التي وصلتْ وهي مسعورة. أين هي؟ ماذا حدث؟».

نجحتُ في القول «حادث سيارة. لم أعلم من تكون الضحيّة إلّا بعد أنْ وصلتُ إلى هناك». امتلأتْ عيناي بالدموع. هل أخبرها بأنها لا تستطيع التنفّس وحدها. هل أخبرها بأنَّ جهاز الصدمات الكهربائيّة لا يُشير إلى وجود نبض؟ هل أخبرها بأنني أمضيتُ الدقائق القليلة المنصرمة أسترجع كل ما فعلته في ذلك الاستدعاء، بدءاً بالطريقة التي زحفتُ بها على أعلى الشاحنة وحتى اللحظة التي جررتها إلى خارج الحُطام، متيقّناً من أنَّ مشاعري تقدّم حلاً وسطاً لما ينبغي القيام به، وما كان يمكن أنْ يُعمَل؟

في تلك اللحظة أسمع كامبل ألكسندر، وضجيج شيء ارتطم بجدار. يقول: «اللعنة، قُل لي إنْ كانت قد أُحضِرَتْ إلى هنا أم لا!».

يندفع بسرعة خلال باب غرفة صدمات أخرى، وذراعه موضوعة في الجبس، وملابسه مُلطّخة بالدم. والكلب الذي يعرج إلى جواره. وفي الحال، تنظر عينا كامبل إلى عينيّ. ويسأل «أين آنّا؟».

لا أُجيب، إذ ماذا يمكن أنْ أقول. وهذا كل ما استغرقَ منه لكي يفهم. يهمسُ: «أوه، يا يسوع، أوه يا الله، كلا».

يخرج الطبيب من غرفة آنّا. إنّه يعرفني؛ إنني أحضُر إلى هنا أربعة ليالٍ في الأسبوع. يقول برصانة: «براين، إنها لا تستجيب للألم المُفتَعَل».

الصوت الذي صدر عني كان بدائيّاً، لا إنسانياً، عارفاً كلّ شيء. اخترقتني كلمات سارة عندما قالت: «ما معنى هذا؟ ما هذا الذي يقول، يا براين؟».

يقول الطبيب: «لقد اصطدم رأس آنّا بالنافذة بقوة شديدة، سيدة فيتزجيرالد. وأحدثتْ جُرحاً مُميتاً في الرأس. وجهاز التنفّس الاصطناعي هو الذي يمدّها بالهواء الآن، لكنّها لا تُبدي أيّة دلائل على نشاط عصبيّ... لقد مات دماغها. أنا آسف. آسف حقّاً»، ويتردَّد، وينقل نظره مني إلى سارة. «أنا أعلم أنّ هذا ليس شيئاً تريدان حتى أنْ تفكرا فيه الآن، ولكن هناك أملٌ ضئيل... هل ترغبان في التفكير في اللجوء إلى جهة تهب الأعضاء؟».

هناك نجومٌ في سماء الليل تبدو أشدّ بريقاً من غيرها، وعندما تنظر إليها من خلال منظار مُكبِّر تُدرِك أنكَ تنظر إلى توأم. يدور النجمان كلٌّ حول الآخر، وأحياناً يستغرق منهما فعل ذلك حوالي مائة عام. إنهما يولّدان جاذبيّة قوية جداً بحيث لا يتبقى أي حيِّز حولها لأي شيء آخر. قد تشاهد نجماً أزرق، على سبيل المِثال، ولا تُدرك إلّا لاحقاً أنَّ له رفيقاً قَزَماً أبيض – الأول يسطع بلمعان أشدّ، بحيث إنكَ عندما تلاحظ النجم الثاني، يكون الأوان قد فات.

في الواقع كان كامبل هو الذي أجاب عن سؤال الطبيب. شرح قائلاً: «أنا الذي أتمتع بسلطة محامي آنّا، وليس والداها»، وينقِّل نظره بيني وبين سارة، «وهناك فتاة في الأعلى تحتاج إلى تلك الكلية».

سارة

في اللغة الإنكليزيّة هناك كلمتا يتامى وأرامل، ولكن لا يوجد وصفٌ للوالد الذي يفقد طفلاً.

أنزلوها إلينا بعد إزالة الأعضاء الموهوبة. كنتُ آخر الذين دخلوا. وفي الرواق كان قد سبقنا جِسّ وزان وكامبل وبعض الممرضات اللواتي كنا قريبين منهن، وحتى جوليا رومانو كانت هناك - إنهم الأشخاص الذين أرادوا أنْ يودّعوها.

دخلنا أنا وبراين إلى حيث تستلقي آنّا ضئيلة وساكنة على سرير المُستشفى. كان أنبوب التغذية يمرّ من بلعومها، وثمة آلة تتنفّس بالنيابة عنها. وإيقاف عملها أمرٌ يعود إلينا. فأجلس على حافة السرير وأمسك يد آنّا، التي ما زال ملمسها دافئاً، وما زالت ناعمة داخل يدي. وقد اتَّضَحَ أنَّه بعد تلك السنين التي أمضيتها في توقّع مثل هذه اللحظة، أشعر بضياع تامّ. وكأنني أُلوِّن السماء بقلم تلوين؛ لا توجد لغة تصِفُ ألماً بهذا الحجم الهائل. وأهمسُ: «لا أستطيع أنْ أفعل هذا».

يأتي براين خلفي. «حبيبتي، إنها غير موجودة. والآلة هي التي تُبقي جسمها حيّاً. أما ما يجعل من آنّا آنّا فقد رحل».

ألتفتُ، وأدفنُ وجهي في صدره، وأجهشُ قائلة: «ولكن لم يكن من المُفترَض أنْ يحدث لها هذا».

نتعانق، ثم، عندما أستجمع ما يكفي من الشجاعة أنظر إلى القِشرة التي كانت تُغلِّفُ ذات يوم ابنتي الصغرى. إنّه على صواب، في الأصل. لم تتبقَّ غير قِشرة. لم تعد حدود وجهها تتسم بأيّة حيوية؛ هناك غيابٌ قليل

لعضلاتها. وتحت هذا الجِلد جرّدوها من أعضائها التي ستُنتقل إلى كيت وإلى آخرين، أناسٍ بلا أسماء، يحظون بفُرصٍ ثانية.

آخذُ نَفَساً عميقاً وأقول «حسنٌ». وأضعُ يدي على صدر آنّا بينما ينتزع براين، وهو يرتجف، جهاز التنفّس الاصطناعي. أدعكُ بشرتها بحركة دائريّة، وكأنَّ ذلك سيُسهِّل الأمر. وعندما يختفي خط المؤشِّر، أنتظر لأرى أي تغيُّر يطرأ عليها. ومن ثم أشعر، بعد أنْ توقّفَ قلبها عن الخفقان تحت راحة يدي - بذلك الفقدان القليل للإيقاع، بذلك الهدوء الخاوي، ذلك الفقدان التامّ.

الخاتمة

عندما يتلظّى لهبُ الحياة
على طول الرصيف
ويُنبض الناس من حولي،
أنسى حرماني،
والفجوة داخل المجرَّة العُظمى،
والموقع الذي كان فيه نجم.

د.هـ. لورنس، قصيدة «غرق»

كيت

2010

يجب أنْ يُسنّ تشريع يضعُ حدوداً للحزن، كتاب في القانون يقول إنه لا بأس في أنْ تستيقظي وأنتِ تبكين، ولكن فقط على مدى شهر. ويقول إنَّه بعد مرور اثنين وأربعين يوماً لن يُسمَح لكِ بالظهور بقلبٍ خفّاق، وأنتِ متيقّنة من أنكِ سمعتَها تنادي اسمك. وأنّه لن تُفرَض عليكِ غرامة إذا شعرتِ بحاجة إلى إزالة طاولة مكتبها؛ وإنزال عملها الفنيّ عن البرّاد؛ وقلب صورة من أيام المدرسة في أثناء مروركِ بها – ولو حتى لأنها تنكأ جرحكِ من جديد لدى رؤيتها. وأنّه لا بأس في حساب الزمن الذي مرَّ على رحيلها، كما كنا في الماضي نحسب عدد أعياد مولدها.

على مدى وقت طويل بعد ذلك، ادّعى والدي أنّه يُشاهد آنا في سماء الليل. أحياناً كان يرى ومض عينيها، وتارة أخرى يرى المسقط الجانبيّ لوجهها. وأصرَّ على أنَّ النجوم هي أناسٌ كانوا مُحبوبين إلى درجة أنّ أثرهم يُشاهَد داخل مجرّات سماويّة، لكي يعيشوا إلى الأبد. وظلّتْ أمي تؤمن، على مدى فترة طويلة، بأنَّ آنا سوف تعود إليها. وبدأتْ تفتّش عن إشارات على ذلك – عن نباتات تُزهِر قبل أوانها، أو بيض يضمّ مُحَّين، أو عن ملح منثور على شكل أحرف.

أما أنا فبدأتُ، في الواقع، أكره نفسي. فالذنب، طبعاً، ذنبي. لو أنَّ آنا لم ترفع تلك الدعوى، لو لم تذهب إلى القضاء وتوقّع على أوراق مع مُحاميها ذاك، لما وصلتْ إلى تقاطُع الطرُق في تلك اللحظة بالذات. كانت ستصل إلى هنا، وأنا التي كنتُ سأعود لكي أتلبّسها.

بقيتُ مريضة زمناً طويلاً. لقد فشلتْ تقريباً عمليّة نقل الأعضاء، ومن ثم بدأتُ، بصورة مُبهمة، رحلة الارتقاء الطويلة والصعبة. ومرّتْ ثمانية أعوام على آخر انهيار يحدث لي، وهو أمر عجِز حتى الدكتور تشانس عن فهمه. إنّه يعتقد أنَّ السبب يعود إلى مزيج من التغذية بالـ *ATRA* والعلاج بالزرنيخ -بعض الأثر المُصاحِب المتأخِّر- لكنني أعرف أفضل من هذا. أعرفُ أنّه كان على إحدانا أنْ ترحل، وحلَّتْ آنّا مكاني.

إنَّ الحزن شيء غريب، عندما يحدث فجأة. يُشبه نزع شريط طبّي لاصق، يشبه حرمان عائلة من رأسها. والجزء السفليّ من العائلة لا يكون جميلاً أبداً، وعائلتنا ليست استثناءً. أحياناً كنتُ أمكث في غرفتي على مدى أيامٍ عديدة وسمّاعة الموسيقى على أُذنيّ، على الأقلّ لكي لا أُضطرّ إلى سماعِ بكاء أمّي. وخلال الأسابيع التي كان والدي يعمل في نوبات تستمرّ على مدار الساعة، لكي لا يُضطر إلى العودة إلى منزلٍ يشعر بأنّه واسعٌ جداً علينا.

وفي صباح أحد الأيام، أدركتْ أمّي أننا استهلكنا كل ما في المنزل من طعام، وحتى آخر حبّة زبيب متغضّنة وآخر فُتات بسكويت، فذهبتْ إلى محل البقالّية. وقام والدي بتسديد قيمة فاتورة أو اثنتين. وجلستُ أتفرّج على التلفزيون وشاهدتُ حلقة قديمة من مسلسل «أحبّ لوسي» وطفقتُ أضحك.

وفي الحال، شعرتُ كأنّي أُدنّسُ محراباً. وأطبقتُ يديّ على فمي، حَرَجاً. وقال جِسّ، الجالس إلى جواري على الأريكة، «هي أيضاً كان يمكن أنْ تجده مُسلسلاً مُضحكاً».

كما ترى، مهما رغبتَ في أنْ تتمسّك بالذكرى المريرة القاسية التي تركها شخصٌ غادر هذا العالم، فأنكَ تبقى موجوداً فيها. وعمليّة العيش ذاتها هي مدٌّ جارف: في أول الأمر يبدو أنّه لا يُشكّل أيّ فرق، ومن ثم ذات يوم تنظر إلى أسفل وترى كم جرفَ معه من آلام.

***

أتساءل إلى أي مدى تُراقبنا. إنْ كانتْ تعرف أنّنا منذ مدّة طويلة بقينا قريبين من كامبل وجوليا، بل لقد حضرنا عرسهما. إنْ كانت تفهم أنَّ السبب

في أننا لم نعد نراهما هو أنّه أمرٌ مؤلِمٌ جداً، لأننا حتى وإنْ كنا لا نتحدّث عن آنّا، إلّا أنها تبقى حاضرة بين الكلمات، كرائحة شيءٍ يحترق.

أتساءل إنْ كانت قد حضَرَت حفل تخرّج جِسّ من أكاديميّة الشرطة، وإذا كانت تعلم أنّه حظيَ بإشادة من المُحافِظ في العام الفائت على دوره في حملةٍ شُنَّتْ على تجارة المُخدرات. وأتساءلُ إنْ كانت تعلم أنَّ أبي انغمس في شرب الخمر بعد وفاتها، وأصبح يترنَّح وهو يخرج. أتساءل إنْ كانت تعلم، الآن، أنني أُعلِّم الأطفال الرقص. وأنّني كلما رأيتُ فتاتين صغيرتين في صالة التدرّب على رقص الباليه، تؤديان الحركات، أفكّر فينا نحن الاثنتين.

ما زالت أمي تُدهشني. فبعد مُضيّ ما يُقارب العام على وفاة أختي، عادتْ إلى المنزل حاملة بكرة فيلم كانت قد انتهت تواً من تحميضه ويضمّ حفل تخرّجي من المدرسة الثانويّة. جلسنا معاً على طاولة المطبخ، جنباً إلى جنب، نحاول، ونحن نستعرض كل ابتساماتنا العريضة، ألّا نأتي على ذِكر شخصٍ مفقود من الصورة.

ومن ثم، وكأنّنا استحضرناها، كانت الصورة الأخيرة هي لآنّا. لم نكن قد استعملنا آلة التصوير منذ زمن طويل، البسيطة والعاديّة. كانت تتدثر بمنشفة شاطئ، تمدّ يدها نحو المُصوِّر، تحاول أنْ تمنع كائناً مَنْ كان من تصويرها.

جلسنا أنا وأمي على طاولة المطبخ نُحدِّقُ إلى آنّا إلى أنْ غربَت الشمس، إلى أنْ حفظنا غيباً كل شيء بدءاً بلون مُثبِّت شَعرها الذي على شكل ذيل المهر وحتى شكل حاشية ثوب السباحة. إلى أنْ لم نعُد متيقّنتين من أننا نراها بوضوح.

سمحتْ أمي لي بالاحتفاظ بصورة آنّا تلك. لكنّني لم أضعها داخل إطار؛ بل وضعتها داخل مُغلَّف وألصقته ودسسته بعيداً في ركن درج من أدراج خزانة الملفّات. إنها هناك، تحسّباً إذا ما بدأتُ أفقدها في يومٍ من الأيام.

قد يحل صباح أحد الأيام أستيقظ فيه ولا يكون وجهها هو أول شيء أراه. أو في ظهيرة يوم حارّ من أيام شهر آب حين لا أعود أتذكّر بالضبط

موقع النمش على كتفها الأيمن. وربما في أحد تلك الأيام لن أتمكَّن من الإصغاء إلى هطول الثلج ومن سماع وقع أقدامها.

عندما تبدأ هذه المشاعر تنتابني ألجأ إلى الحمّام وأرفع قميصي وألمس الخطوط البيضاء لندبتي. أتذكَّر كيف اعتقدتُ، في أول الأمر، أنَّ القُطَبُ تنطق اسمها. إنّني أفكِّر في كليتها التي تعمل داخلي وفي دمها الذي يجري في عروقي. إنني أحملها معي، أينما أذهب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

تُعرف الكاتبة الأمريكية جودي بيكولت بأنها الكاتبة الأكثر مبيعاً. وفقاً لصحيفة نيويورك تايمز.. باعت رواياتها أكثر من 35 مليون نسخة وتُرجمت إلى العديد من اللغات..

Nina Subin.

نشرت روايتها «مُنقذة أختي» عام 2004 وحققت نجاحاً كبيراً حتى إنها تصدرت قائمة الكتب الأكثر مبيعاً لعدة أسابيع.. حوّلت هوليود الرواية إلى فيلم ضخم أُنتج عام 2009، أدّت النجمة كاميرون دياز دور البطولة فيه.. توصف روايات جودي بيكولت بأنها ملاحم عائلية.. وقد تناولت بيكولت خلال مسيرتها الأدبية الكثير من القضايا المثيرة للجدل، بما في ذلك العلاقات العرقية والإجهاض والانتحار والعنف الذي يسود المجتمعات الغربية.

ولدت جودي بيكولت في 19 أيار عام 1966 مُنحت جائزة إنكلترا لأدب الخيال عام 2003، تُرجمت «مُنقذة أختي» إلى 34 لغة.

9 789933 655006